

رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

تأليف

شمس الدن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

المجلد الأول

علي مولا

أسد الدين محمد

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة «التراث»

رحلة ابن بطوطة

المسّماة

تحفة النظار
في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

تأليف
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

قدّم له وحقّقه ووضع خرائطه وفهارسه
عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

المجلّد الأول

1417 هـ /1997 م

أكاديمية المملكة المغربية

شارع الإمام مالك، كلم 11، ص.ب. 5062

الرمز البريدي 10.100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون : 75.51.13 / 75.51.24

75.51.35 / 75.51.89

فاكس : 75.51.01

محتوى الكتاب من مصطلحات

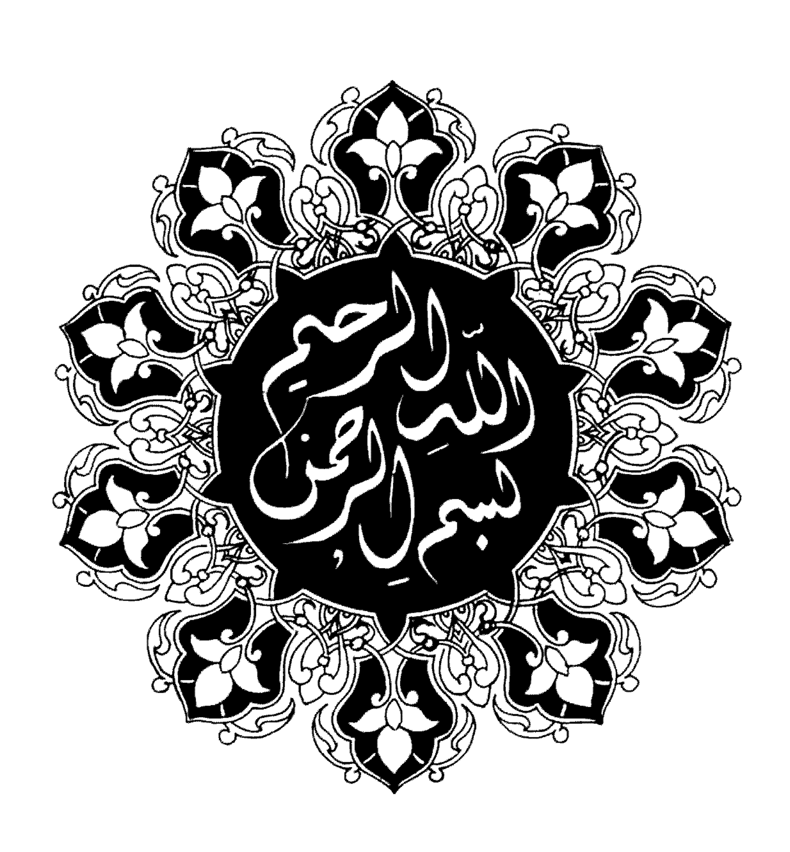
وتعليقات وخرائط وصوَر

يلزم المحقق وحده

رقم الإيداع القانوني : 1997/321

ردمك 9981-46-006-0 (المجموعة)

ردمك 9981-46-007-9 (الجزء الأول)


بسم الله الرحمن الرحیم

من حوافز التفكير

في هذا النشر الجديد...

من حوافز التّفكير في هذا النشر الجديد ...

لقد كان في صدر ما دفعنا لمراجعة الرحلة البحثُ عن مدى صحة المقولة التي تذكر أنّ الرحلة الموجودة بين أيدينا إنْ هي إلا "تلخيص" على حد تعبير ابن جزي نفسه، تلخيص من "تقييد" صاحب الرحلة... وأن هناك أثراً للنص الكامل لذلك التقييد الأصلي ...

وقد دعتنا للبحث حول هذا الموضوع فقراتٌ وردت عند بعض الذين تحدثوا عن ابن بطوطة، نقلوها على أنها من أخباره في الرحلة...

وقد كان في صدر هؤلاء لسان الدين بن الخطيب 776=1374 الذي نقل عن شيخه أبي البركات البَلَفِيقي "أن ابن بطوطة أخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية، وهي على قدر مدينةٍ مسقفةٍ كلّها، وفيها اثنا عشر ألف أسقف..."(1)

هذا إلى فقراتٍ نقلها أبو الحسن علي التمجروتي عن مدينة قابس في رحلته (997=1589) وأنها كذا وكذا، ثم إلى فقراتٍ ساقها أبو القاسم الزّياني تتحدث عن "حِوار" تم بين ابن بطوطة والسلطان أبي عنان في أعقاب زيارة الرَّحالة المغربي لبلاد السودان.

قال الزَّياني – نقلاً كما يزعم عن البلوي في رحلته– : إن أبا عنان لما أَحضر ابن بطوطة بين يديه عاتبه على عدم الاجتماع به لمّا قَدِم لفاس ... فقال : «يامولانا إنما أتيت بقصد المثول بين يديك، ولكن لما دخلت المدرسة التي شيدتَها ولم أكن وقفت على مثلها فيما شاهدته في المعمور كلّه، قلت : واللّهِ لا بد لي أن أتمم عملي وأبرَّ في قسمي بالوصول إلى أقاليم السودان حتى أشاهده وأُقسم أنّ ليس في المعمور كلّه مثلها ! فحقق الله ظني وأبرَّ يميني، هذا موجِب تأخيري عن المثول بين يديك".(2)

وها نحن نرى أولاً أن ابن بطوطة في الرحلة التي بين أيدينا يصرح أنه لم يدخل إلى الكنيسة، وإنما دخل حَرَمها ... وأنه لم يذكر عددًا محددًا لأساقفتها ... كما أن الرحلة – ثانياً– لم تتحدث عن قابس بمثل ما تحدث به التمگروتي، كما أنها لم تتحدث إطلاقاً عن حوار جرى بين السلطان أبي عنان وبين ابن بطوطة على ما زعمه الزّياني(3)، ونتيجة لكل

(1) ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق : عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة. طبعة أولى 1395=1975 ج 3 ص 273.

(2) لا أثر إطلاقا لهذا الكلام في رحلة البلوي. مخطوط الخزانة العامة – الرباط رقم 3627 ورقم 1288 أبو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا، تحقيق وتعليق : عبد الكريم الفيلالي 1387=1967، وزارة الأنباء، لجنة إحياء التراث القومي، ص 581-582.

(3) تعبير ابن بطوطة : "فوصلتُ إلى حضرة فاس، يعني بعد مغادرته تازة – فمثُلت بين يدي مولانا الأعظم ... أمير المؤمنين ... أبي عنان ... وكان بين يديه وزيره الفاضل أبو زيان بن ودرار فسألني عن الديار المصرية إذْ كان وصل إليها..." IV ,332 - 333.

ذلك فإن نقل البَلَفيقي حول الكنيسة ونقل التمكروتي عنه حول قابس ونقل الزّياني عن ذلك (الحوار) ... كل ذلك يبقى في عهدة رواته، سامحهم الله !

ولم يسلم ابن بطوطة من الذين تقوّلوا عليه حتى في عصرنا الحديث هذا، فهناك من نقل عنه أنه خرج مغاضبا لذويه وانه لم يكن متعلقاً بأسرته ! ومنهم من ذكر أنه أي ابن بطوطة تأثر بما قيل إنه حديث (اطلبوا العلم ولو بالصّين) فشدَّ الرحلة من اجل ذلك للصين! بل وفي العلماء من نسب إليه حديثه عن البلهارسيا في مصر... وفي علماء الهند من حكى لي عن وقائع غريبة تروي عن ابن بطّوطة هناك... !!

غير أنه إذا كان البحث قد أدى بنا إلى أنه ليست هناك زياداتٌ كثيرة على "تلخيص" ابن جزي لتقييد ابن بطوطة، فقد اكتشفنا إضافات فرضت علينا أن نقف أمامها معقّبين أو مصلّحين أو مستدركين. وحملتنا على الاقتناع حقّا بأن نشر الرحلة من قِبَل الأستاذين ديفريميري (DEFREMERY) وسانگينيتّي (SANGUINETTI) في منتصف القرن الماضي معتمدَيْن على المخطوطات الثلاث، أصبح متجاوزاً فعلاً سيما مع ما عثرنا عليه من تحريف لبعض الكلمات أو نقص في بعض الألفاظ مما سيقع التّنبيه عليه في مكانه بحول الله بعد أن توفّرنا على نحو من ثلاثين مخطوطة...

وقد كان من حوافز نشر الرحلة كذلك رغبة ملحة في الاستجابة لأمنية غالية شعرت بأهميتها عندما انتسبتُ للمؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية، تلك هي ضبط المواقع الجغرافية التي ذكرها الرحالة، وهي زهاء ألف عَلَم جغرافي ورد ذكرها في الرحلة إلى القارات الثلاث، وهذه ثروة هائلة كان علينا أن نحافظ عليها كما أداها لنا ابن بطوطة.

نحن نعلم أنّ السبب في تأليف ياقوت الحموي لموسوعته العظيمة : (معجم البلدان) هو ضبط عَلَم جغرافي ورد في حديثٍ نبوي شريف. لقد كان ياقوت بمَرْو الشاه خان (4) في مجلس يناقش موضوع أسواق العرب في الجاهلية وضبط كلمة (حُبَاشة) حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتّجر لحساب السيدة خديجة، فرأى ياقوت أنها بضم الحاء، ورأى أحد المحدثين أنها بفتح الحاء، فاندفع ياقوت يبحث عن نصوص تؤيد ما ذهب اليه وطال بحثه حتى وقع على ما يؤيد رأيه ... وهنا فكّر في وضع موسوعةٍ لضبط أسماء البلدان والمواقع على ما يقوله هو في المقدمة مغتنمًا هذه الفرصة ليردّ على المثل القائل : "ما ترك الأولُ للآخِر شيئا"، ومردّدًا قولة الجاحظ : ليس هناك أضر على العِلم من هذا المثل الذي يُفتّر الهمة ويُضعف المنَّة !!

وهكذا جمعتُ عددًا من الخرائط من ذات المقياس الواسع الذي يصل احيانا إلى مقياسٍ واحدٍ على خمسين ألفا . وهنا وجدت نفسي فعلاً أنني أمام عالَم واسع فسيح الأرجاء...

(4) نعرف أن مرو خرَّبها التتر... ويذكر أن سكانها بخلاء وأنه حتى ديوكهم كانت على ذاك النحو : كل الديوك تقدم ما عندها إلى الدجاجة الاديك مرو فانه يخطف ما عند الدجاجة ليستأثر به ...!!

ولقد حاولنا أن نعيش مع حاضرنا ما أمكن، لذلك تجاوزنا (معجم البلدان) في التعريف ببعض المواقع الجغرافية ... كما حاولنا أن نتجاوز التعابير بالفراسخ والأميال والمراحل وما أشبهها إلى التعبير بالكيلوميترات، والتحديد بخطوط الطول والعرض ما أمكن ذلك.

ولقد كان ابن جُزَيّ عظيمًا عندما كان يُلح في معظم الحالات على تحريك الأسماء الجغرافية أي شكْلها بالوصف كما عرفنا ... وهي ظاهره كان ابن جُزَيّ من السبّاقين إليها...

لقد لاحظ البارُون دوسلان De Slane في مقدمته لكتاب المغرب لأبي عُبيد البكري أنّ إهمال ضبط كلمة من أربعة أحرف مثل (نعرف)، عارية من التَّنقيط، يمكن أن تصل احتمالات قراءتها إلى ثلاثمائة طريقة !!

ونحن مع الأعلام الجغرافية في الرحلة لا بد أن نشير إلى بعض الذين علّقوا على الرحلة واصطدموا ببعض الأسماء الجغرافية التي لم يصلوا إلى الحقيقة حولها، أولئك وجدوا من السهل عليهم أن يشككوا في مصداقية مرويات ابن بطوطة عوض أن يقوموا بتحقيق تلك الأعلام في عين المكان ودون ما أن يستسلموا لليأس!!

ومع هذا فإنه من المفيد أن نعرف أن كثيراً من الذين اشتغلوا بابن بطوطة لم يفتهم أن يوسّعوا دائرة بحثهم حول المناطق التي زارها الرحالة المغربي. وهكذا نجدهم عند حديث ابن بطوطة عن البحرَيْن مثلاً يذكرون أن مدلول البحرين بالأمس كان أوسع بكثيرٍ مما هو عليه الأمر اليوم، بمعنى أن البحرين كانت تمتد لتشمل دولة الكويت الحالية وتشمل دولة قطر وتمتد إلى الاحساء. ومثل هذا نقوله عند الحديث عن زيارة ابن بطوطة لبعض الجهات في منطقة عُمان (بضم العين) حيث نقرأ عن شمول الزيارة لبعض الإمارات العربية المتحدة اليوم: الشارقة مثلاً التي تتبعها كلبَاء وخَوْر فُكان كما وقفنا عليها بالعيان !

وعندما يجدون أنفسهم مع ابن بطوطة في آسيا : -مُلْ جاوة - قَمَارة، طَوَالسي، نقرأ عن احتمال زيارته للڤيتنّام، والطايلاند علاوةً على الفيليبين واليابان...، ومالاَكّا في ماليزيا، - وسنغافور- والتُّبَّت - بُورْمَا (بَرَه نكار) - الكامبودج والسيام ... وفي مصاحبته للأميرة التركية يبقى علينا أن نعرف عن بعض المناطق التي سلكها وعن حظ بعض دُوَل أروبا الشرقية في إفادات ابن بطوطة على ماسنشرحه في التعليقات...

ومثل هذا نقوله عن زيارته لشرق إفريقيا الذي يحتضن اليوم عددًا من الأمم التي لها كيانها الخاص، على نحو ما نقوله عن الدول التي توجد اليوم في إفريقيا الغربية التي كانت خاتمة رحلاته : موريطانيا، السينغال، غامبيا، غينيا، مالي، النيجر ...

وإلى جانب الأسماء الجغرافية التي كان فيها ما يحرّك ... هناك تلك اللائحة الطويلة والعريضة من الأعلام الشخصية للعلماء والملوك والزعماء والقادة والمتصوفة والمحدثين الخ،

كلّ هؤلاء كان علينا أن نبحث عن تراجمهم في مختلف المصادر المشرقية والمغربية : حياتهم، اهتماماتهم، اتصالاتهم...

وقد كان إلحاحنا على تقديم تراجم الرجال الذين ورد ذكرهم في الرحلة والنساء كذلك... مناسبةً أخرى للتأكد من مصداقية مرويات ابن بطوطة، فقد تضافرت المصادر التي رجعنا إليها عند التحقيق في حياة أولئك الرجال...، تضافرت على تزكية ما ورد في الرحلة جملةً وتفصيلاً حول أولئك الذين كانت لهم فرصة الاجتماع بابن بطوطة أو الاتصال به من بعيد أو قريب. ونَرى من واجبنا أن نشيد مرةً أخرى بالفائدة الجُلّى التي استقيناها من كتاب الدرَر الكامنة في أعْيان المائة الثامنة تاليف شيخ الاسلام شهاب الدّين ابن حجر المتوفى سنة 852، فلَكأنما بعث الله هذا الرجل ليكون شاهداً صادقاً يؤيد كلَّ التأييد مرويات الرحالة المغربي عن شيوخه وشيخاته...!

وقد تكوّن لدينا من كلّ أولئك الرجال فهرسٌ ثرى يفتح هو ذاتُه الطريق أمامنا للتعرف على عوالم أخرى. وهكذا تمكنا - والفضل لله - من تصحيح بعض الأسماء التي وردت مغلوطة في بعض المخطوطات أو قرأها بعض الناشرين محرَّفةً عن الصواب فكتبوها حسبما اتفق لهم...!! ولم يبق علينا إلاّ عدد ضئيل وضئيل جداً من الأسماء التي لم نستطع أن نصل فيها إلى كلمةٍ فاصلة.

ومن تلك الأعلام الشخصية ما اقتضى منا - على نحو ما كان منا في الأسماء الجغرافية وبعض المصطلحات - تحرير المراسلات وتبادل الخطابات مما كوَّن لدينا ملفًا ضخما مليئاً بالفوائد التي نظل فيها مدينين لمن استجابوا لاستفساراتنا، وكلّ هذا كان الهدف منه محاولة أداء الرسالة الملقاة على كاهلنا. (تراجع الملاحق)

وقد رأيت أنَّ مما يقرّبنا إلى الصورة- علاوةً على هذا التقديم وعلاوةً على التعريف بالأعلام الشخصية وتحديد الأسماء الجغرافية- أن أضع عند بداية كلّ فصل من الفصول الثمان عشرة التي وزّعتُ الرحلة عليها خريطةً جغرافية ترسم معالم الطَّريق المسلوك حتى يتسنّى للقارئ أن يستأنس بها لمُتابعة خطوات رحّالتِنا، عَلَى أنْ أجعل في آخر المجلّدات خريطةً شاملة كاملة لمسالك ابن بطوطة من طنجة إلى الصّين. كما رأيت أن أُثري كلَّ فصل من تلك الفصول بما تيسَّر من رسوم وصور تجعلنا تقريباً في الجوّ الذي كان يعيشه ابن بطوطة... وربّما أضفت إلى بعض العناوين التي فصَّل بها المؤلف رحلتَه بعضَ ما يكشف المبهمَ منها أو يشدّ القارئ إليها...

وقد وجدت نفسي أمام حيرة الاختيار حول أيّة مخطوطة أعتمدها لوضع أرقام تكميلية توثيقية أجعلها على يمين الصفحات لأني اعتمدت - كما سبق أن قلت- عدداً من المخطوطات. ولهذا، وحرصاً مني على أن تكون الفائدة عامّةً وشاملةً بالنسبة لكل الذين يهتمون بابن بطوطة منذ أكثر من قرنٍ ونصف القرن... اخترتُ بدوري أن أوزع الرحلة على أربع مجلدات وأن يكون الرقم الأساسي هو الذي تحمله المجلدات التي طبعت في باريز عام 1858 لأنها المرجع الأصليّ الوحيد لكل الذين درسوا الرحلة دراسةً عِلمية بمختلف اللغات بمَن فيهم بعض الذين درسوها باللغة العربية، من أمثال الزّميلين الراحلين : الأستاذ محمد الفاسي الذي تحدث عن الرحلة في العدد الأول والثاني من مجلة المغرب 1934، والدكتور سليم النعيمي الذي تحدث عنها في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد 24-25-26 عام 1974-75...

ثم إنَّنا بعد هذا وجدنا أن مما يساعد على ضبط الرحلة وتقييدِ أو ابدها أن نقوم -اقتداءً بمن سبقونا- على وضع فهرس بل فهارس تُرشد لمفاتيحها المتنوّعة. وهكذا خصّصنا مجلدا خامسا لفهارسها التي تجاوزت الثلاثة والثلاثين... تتناول الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأشعار والقوافي، والأمثال والأقوال السائرة، والأعلام الشخصية والأسماء الجغرافية، وأسماء القبائل والعشائر والأجناس، ثم الأدوات والآلات، والوسائل والمراكب، والأسلحة، والأمراض، والأنهار، والجواهر والحلَي، والحيوان، والعطور، والطّعام والشراب، والعادات، وأسماء الكتب، واللّباس والمعلومات، والأسواق، والحصون، والزوايا والرباطات، والقصور والقلاع، والكنائس والأديرة، والمدارس، والمزارات، والمساجد، والمنشآت المتفرقة، والمواد، والنبات، والنقود، والعُملات، والألفاظ الحضارية، وكذلك فهرس لموضوعات الرحلة ثم فهرس لمراجع الرحلة علاوةً على الملاحق...

لقد رأينا أن هذه الفهارس والملاحق كانت ضروريةً للمساعدة على الاستفادة الكاملة من هذا التراث الغنيّ والضخم الذي هو رحلة ابن بطوطة.

وأخيرا أرى دَيْناً عليّ أن أتقدّم مرةً أخرى بالشكر الجزيل والتقدير الجم لكل الباحثين الذين تمكّنْتُ بفضل ما سبقوني به – عربًا وعجمًا – من أعمالٍ جليلة عظيمة عمّني نفعها وخيرها، وخطواتٍ رائدة أرشدني قبسها ونورها، وتمكنت عن طريقهم من الإدلاء بدلْوي في هذا الموضوع "الشّاق والصّعب" الذي قدرتُ جيّداً تَبِعَته – وأكاديمية المملكة المغربية نرى نشرها – منكّراً بأن رحلة ابن بطوطة ستبقى في حاجةٍ أكثر إلى استجلاء غوامضها والكشف عن المزيد من أسرارها وفوائدها...

وكما كان مني في تآليفي السابقة فإن الشّعار الذي أرفعه وأنا أخوض هذه المغامرة هو نفس الشّعار الذي رفعه قبلي العلامة ابن خلدون الذي اعترف في مقدّمة تاريخه بالعجز وأهاب بمن ياتي بعده – ممّن يزوده الله بعلمٍ صحيح – أن يكمّل ما نقص ويفصّل ما أجمل، ويُلحق ما أهمل، ويصلح ما أُغفل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فيلاّ بغداد – الرباط

15 يونيه 1996 = 28 محرم 1417

د. عبد الهادي التازي.

المخطوطات الثلاثون
للرحلة

مخطوطات رحلة ابن بطوطة

لقد وقفتُ على عددٍ كبير من مخطوطات الرحلة في شتى الجهات، وسأقوم بتقديم عرض لما وقفتُ عليه منها أملاً في أن يأخذ الباحث - عند الاقتضاء - فكرةً عن أصولها جميعاً...

1- مخطوطة خزانة جامع القرويين بفاس رقم 561 :

أذكر أن أبرز جهةٍ ورد على بالي أنْ أقصدها ليس فقط لأنها قريبةٌ إليَّ، ولكن كذلك لأنها محطة الحَدَث! تلك هي مدينة فاس التي ألقى فيها ابن بطوطة عصا التَّسيار على حد تعبير ابن جُزَي في مقدمته للرحلة -وقد أخذني العجب - وأنا أعد أطروحتي عن جامعة القرويين وخزانتها العلمية -(1) أن أقف على عددٍ من المخطوطات التي كانت مرجعاً للباحثين هناك في الخزانة والتي كان من بينها بعض أسفار تاريخ ابن خلدون التي حبسها على الخزانة المذكورة وعليها خطه عام 799=1397، ولكني لم أعثرْ من نسخ رحلة ابن بطوطة التي ألّفت بأمر السلطان أبي عنان إلاَّ على السفر الثاني من الرحلة (رقم 561) وهو متلاش مبتور الأواخر ... وعارٍ عن وثيقة التحبيس التي يمكن أن تكون على صدر السفر الأول...!

وأولُ الموجود منه : "ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب... وآخره في هذه النسخة الناقصة "ذكر وصول الامر الكريم إليَّ..." أوراق هذا المخطوط 110، ومسطرته 25، مقياسه 27 على 18.

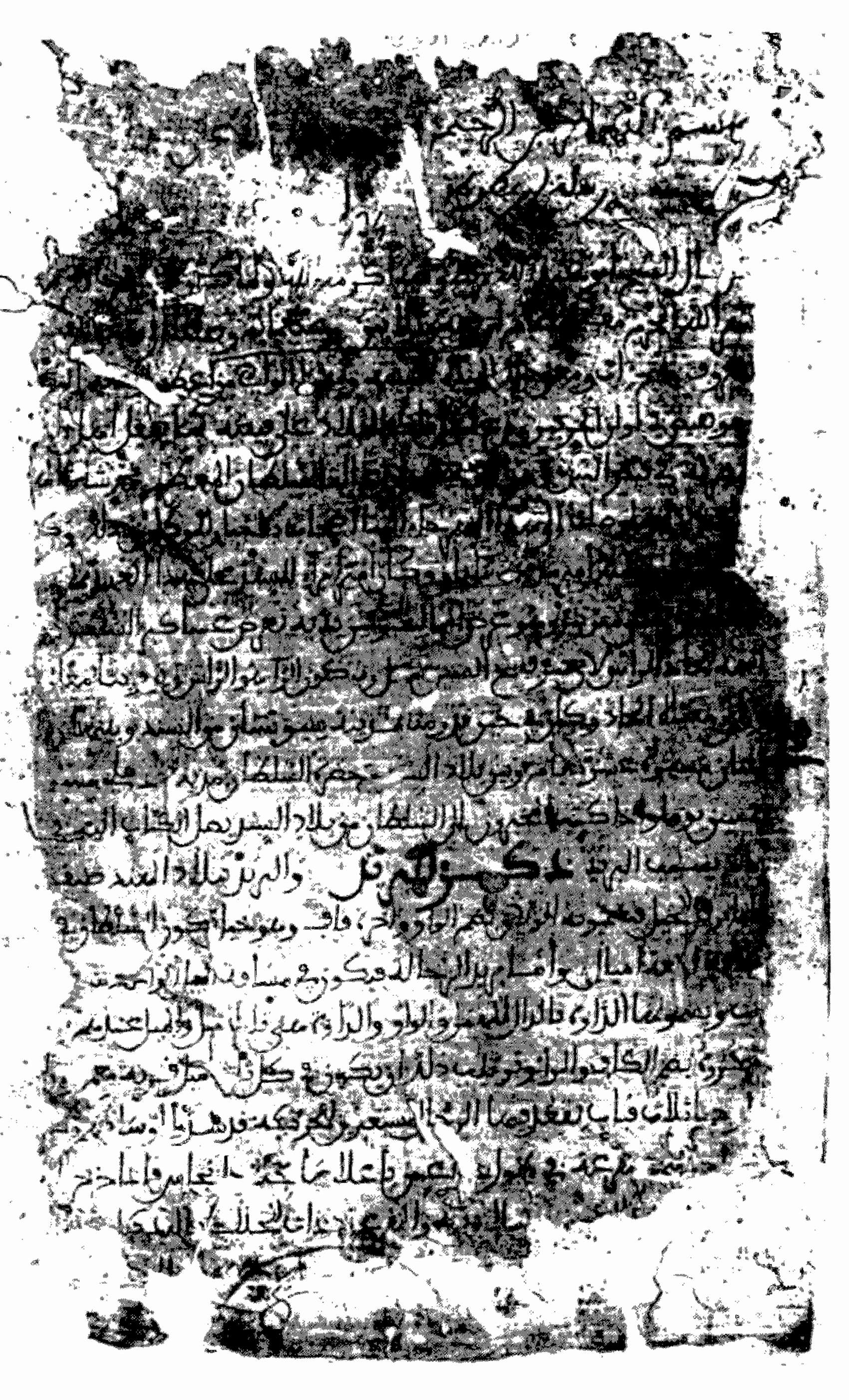
فأين هي تتمة هذه النسخة ؟ بل أين هي النسخ الأخرى التي كان من المفروض أن تتوفر عليها خزائن فاس؟ ذلك ما سنقرأ الجواب عنه في الكلمة التي كتبها زميلنا الراحل الأستاذ محمد العابد الفاسي محافظ الخزانة عندما بكى ضياعَ الكثير من كتب الخزانة التي لم يبق لها أثر اليوم وأغلبها من وقف بني مرين (2)...

---

(1) د. التازي : جامع القرويين، ، ج 2، ص 452، دار الكتاب اللبناني، 1972.

G. Deverdun : Al Karawiyyin, Ency. Islam N.E

(2) محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب، صدر بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس جامع القرويين، مطبعة الرسالة، الرباط 1380 = 1960، ص 32/31. قائمة لنوادر المخطوطات العربية، مطبعة النجمة، الرباط 1960، ص 62.



مخطوطة خزانة جامع القرويين رقم 561 - الورقة الأولى من السفر الثاني



الورقة الأخيرة من مخطوطة خزانة جامع القرويين

2- مخطوطة الخزانة الحَسَنية (3) رقم 8488 :

تضم هذه المخطوطة السفر الأول، وتقع في 229 ورقة (كل ورقة فيها صفحتان) مسطرتها 19 سطراً، ومقياسها 22 – 16.5، مكتوبة بخط مغربي مجوهر جميل، وتوجد بأطرافها خرومٌ شديدة، مجلدة بغلاف أحمر، ولكنّها مخيطة عَلى غير ترتيب ! بالرغم من أنها مرممة بعض الشيء. وتعتبر هذه النسخة، في نظري، في صدر النسخ الصحيحة التي وقفتُ عليها واعتمدتُها كذلك على ما سنرى، مضبوطة، ولو أنها مبتورة مع الأسف في بعض جهاتها حيث نجد بتوراً في صفحة 111 أثناء حديث ابن بطوطة عن الصّراع بين الشيعة والسنة في شيراز : حوالي ست صفحات، كما نجد بتراً في صفحة 176 وابن بطوطة في مدينة مُطُرْني في آسيا الصُّغرى...

وعلى خلاف كلّ النسخ التي تنسب المقدمة، خطأً، إلى ابن بطوطة عند بداية الكتاب، فقد كتب على رأس ديباجة الصفحة الأولى ما يأتي : "... الشيخُ (4) الفقيه الكاتب البارع الناظم ... عبد الله محمد بن الشيخ الفقيه... العالم المتفنن أبي القاسم محمد ... الكلْبي الغرناطي عفا الله عنه".

وهذه النُّسخة لا تحمل تاريخاً وهي تمضي كسائر النسخ إلى نهاية السفر الأول : "ومن هنالك بعث المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند وعرّفوا ملكها بكيفية أحوالنا. وها هنا ينتهي بنا الكلام في هذا السِّفْر..."

3- مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط رقم 4355 :

هذه مخطوطة ثانية للسفر الأول من رحلة بن بطوطة تحمل على خلاف المعتاد اسم : (نزهة الخواطر وبهجة الأسماع والنواظر)، وتقع في 99 ورقة كبيرة، مسطرتها بين 18 و 19 و 24، مقياسها 32 – 20.8 بخطٍّ مغربي كذلك. كتبت على الصفحة الأولى عبارة (يَاكَيْكَتَج احفظ هذا الكتاب (5)). ولا يحمل هذا السِّفر تاريخاً للنسخ (6). وقد تم البيع الأول فيه بتوقيع العدول واشتراه الفقيه عبد الواحد الشفشاوني من الفقيه عبد القادر الغزواني.

---

(3) اشتهر الملوك المغاربة الذين تعاقبوا على الحكم بالحرص على إقتناء الكتب النفيسة، ليس فقط بدافع من شغف الحصول على الذخائر، ولكنه حرص على نشر العلم وإيثار العلماء ... وقد أصبحت الخزانة الملكية بالأمس تحمل اليوم إسم الخزانة الحَسنية (نسبة إلى الملك الحسن الثاني).

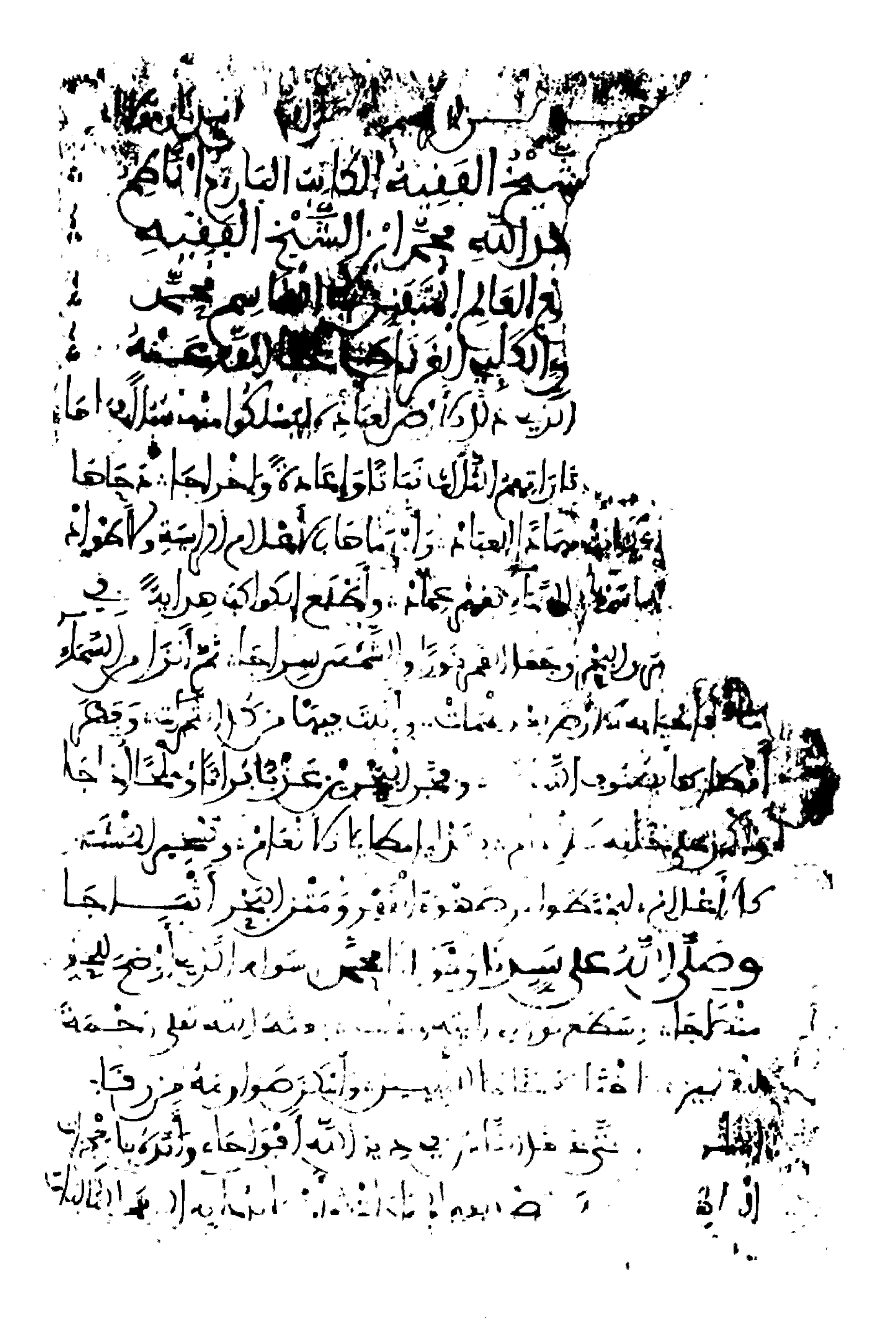
(4) يلاحظ أن النقاط تعوض خروماً في يمين الصفحة، كما يلاحظ شكل الضمة على حرف الخاء من كلمة الشيخ وعلى سائر النعوت فيما بعد، ومن ثمَّ فإنني أفترض أن تكون الكلمة المخرومة قبل الشيخ، قال ... وليس للشيخ كما يرى الأستاذ عنان.

محمد عبد الله عنان : فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول، فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات.

(5) هذه عبارة اعتدنا أن نجدها على ظهر بعض المخطوطات وتعني أنها تحفظ المخطوطات من السوس !!

د. التازي : الرموز السرية ... نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي 1983 ص 35.

(6) Brockelman : ARABICHEN Litteratur 2 Band, Berlin 1902 p : 256 - 257-332-333-365-366.



الورقة الأولى من مخطوطة الخزانة الملكية (الخزانة الحسنية) رقم 8488، وتعتبر في صدر النسخ الموثوقة وربما كانت بخط ابن جزي

الأخيرة منها بعض [illegible] الأيمان مما يلي بلاد الترك

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

رحمه الله [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هلال المحرم [illegible] أربعة وثلاثين وسبعمائة [illegible]

[illegible] بكيفية أخواتها

وهذا ما ينتهي بنا الكلام في هذا السفر والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

وسلم كثيرا

الورقة الأخيرة من مخطوطة الخزانة الملكية رقم 8488

4- مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 3631 :

مـخطوطة ثالثـة من هذا السـفـر الأول من الرحلة تقع في 205 ورقـة، مـسطرتـهـا 16 سطرًا، مقياسها 23 على 17، مكتوبة بخط مغربي، كثيرة الخُروم في سائر أطرافها.

وهي تحمل في رأس الصـفـحة الأولى ما يلي : "قال الشيخ الإمـام العالم الأوحد أبو العباس سيدي أحمد بن بطُّوطة رحمه الله" وقد نسخت بثغر تطاون أوائل المحرم عام إثنين وأربعين وألف. وتحـمل الورقـة الأولى كـذلك عـبـارة ياكَـبْكَتج ! وعلى الهـامش الأيمن لهـذه الصفحة صفْقة شراء مؤرخة في رمضان سنة 1194، وهي مطابقة في نصها وترتيبها مطابقةً تامة للنسخ المعهودة، بدءًا ونهاية.

5- مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 8218 :

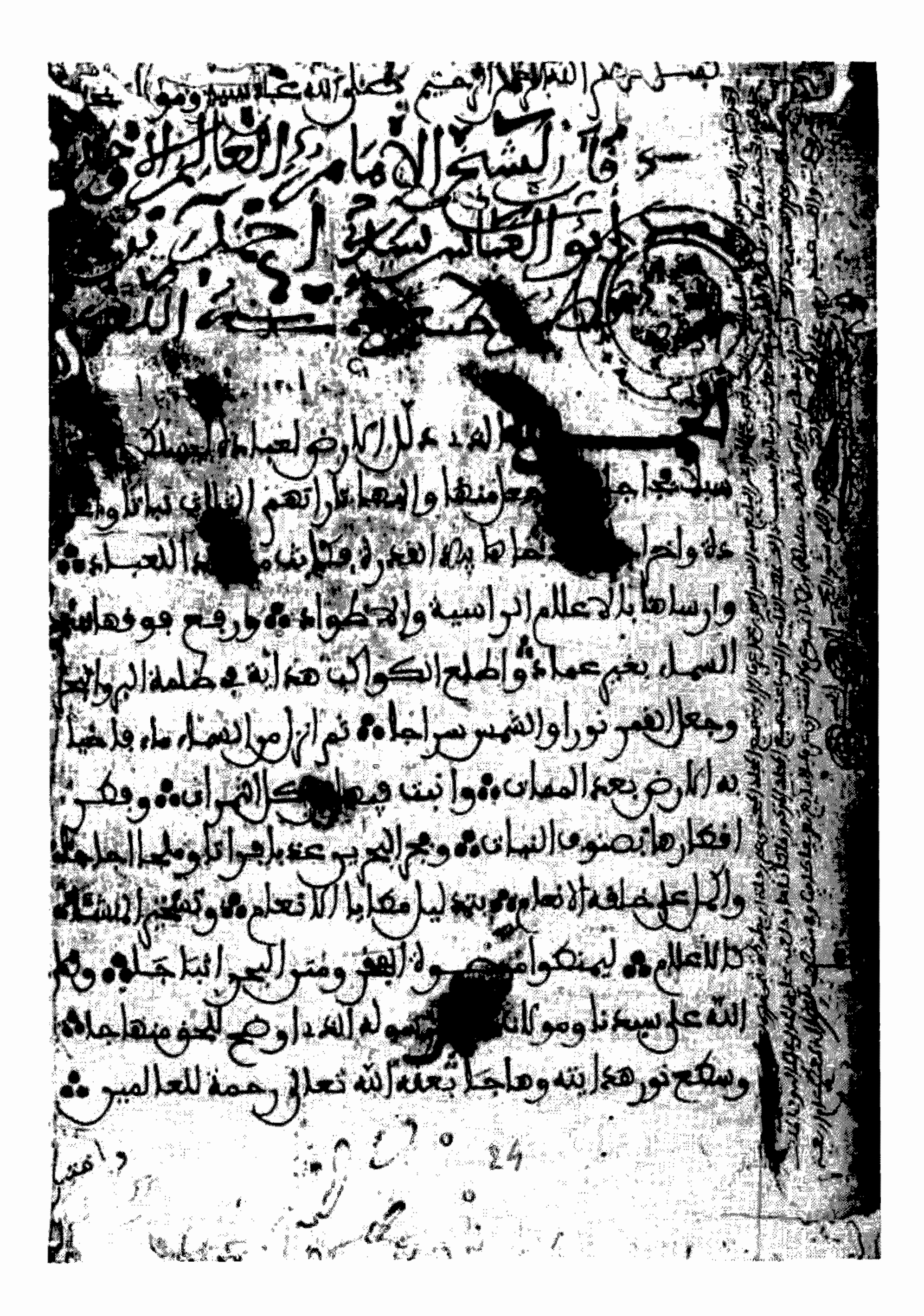
وهذه جـزء من الرحلة يقع في 151 ورقـة، مسطرته 14 سطرًا، مـقـيـاسـه 26 على 17، مكتوب بخط مـغربي واضـح وبأطرافـهـا خـروم شـديدة، وهـو يبدأ فـقط من اجـتـمـا ع الرحـالة بناسك عَبّادان الذي دعا لابن بطوطة بأن يبلغه الله مراده في الدنيا والآخرة. :"فقد بلغتُ – يقول ابن بطوطة – بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الأرض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه، وبقيت الأخرى، والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة".

6- مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 356 :

وهذه مـخطوطة غـابت عن تدوين الأسـتـاذ عنان رحـمـه الله، وهي تقع في مـجلدين أحمرين، عدد أوراق الأول منهما 209 بينما عدد أوراق الثاني 158 ورقة، مسطرتها 33 سطراً ومقياسها 26 على 18.

وقد ورد في نهاية السّفر الأول ما يلي : "انتهى في منسلخ محرم سنة 1125" وقد كُتب التـاريخ بالخط الفـاسي أو القلم الرومي : **عـ س صى ﮥ**، وبعـد هذا يأتي تاريخ نسخ السِّفْر الثاني : "انتهى الكتاب في منتصف المحرم من نفس السنة"، وقد كتب التَّاريخ بنفس الخط الفاسي (7).

(7) حول القلم الفاسي أو الرومي انظر د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 2، ص 41، رقم الايداع القانوني 1986/25، فضالة المحمدية. M.J.VIGUERA : SAFIR. Ency. ISLAM.N.E.



المخطوطة رقم 3631 من الخزانة الملكية وهي تسمي ابن بطوطة أحمد وتكنيه أبا العباس

الورقة الأخيرة من المخطوط رقم 356 من الخزانة الملكية حيث يلاحظ التاريخ بالقلم الفاسي أو القلم الرومي، آخر السفر الأول وآخر السفر الثاني.

7- مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 151 :

وهذه نسخة أيضا غابت عن ذكر الأستاذ عنان، نسخة جيدة الخط، ولكنها أحياناً في منتهى التعب. خيطت خياطةً سيئة بحيث تجد أوراقاً منها تتصل بالسفر الثاني حتى يصل إلى السودان صفحة 136، وهنا ينتقل إلى السفر الأول حتى يصل إلى نهايته !! ص 310 وتتخلل هذه المخطوطةَ أوراقٌ تحتوي على فوائد لا صلة لها بالرحلة !

ومن الطرر التي نقرأها على هامش المخطوطة حديث عن الفدية المالية العظيمة التي تبرَّع بها السلطان أبو عنان لتحرير طرابلس من هيمنة احتلال جنوة حيث نقرأ : "يدخل في كلّ شهرٍ لبيت مال المسلمين على يد مولانا إسماعيل ابن الشريف نصره الله أكثر من هذا العدد المذكور الذي تعجب منه مؤلف الأصل".

ومعنى هذا أن تاريخ النسخة يَرجع لعهد السلطان مولاي إسماعيل الذي استمر حكمه من 1082 هـ إلى 1139 هـ. أوراقها 316، مسطرتها 20، مقياسها 24 على 17.

8- مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 3030 :

وبعد هذا نقف على نسخةٍ كاملةٍ موثَّقةٍ لابن بطوطة، ويتعلق الأمر بالنسخة التي كانت تُقرأ بمجالس السلطان المولى الحسن (الأول) والتي كان يعلق عليها عمُّه الأمير المولى العباس أثناء القيام ببعض الحركات السلطانية عام 1294=1877.(8)

لقد كنت أرجع إلى هذه النسخة عند الحاجة لأنها أولاً لم تنسب في ديباجة الورقة الأولى من السِّفر الأول، "المقدمةَ" التي كتبها ابنُ جزي إلى ابن بطوطة ! وكان هذا عندي دليلاً على مصداقيتها ! ثم إنها كانت النسخة المسْلوكة قبلي من لدن مولاي العباس الذي نعلم أنه، إلى وظيفته كقائدٍ أعلى للجيش المغربي في فترة حرب تطوان، كان على قدرٍ كبير من الثقافة والدبلوماسية. ولعل من المفيد أن نشير إلى طرةٍ هامة للأمير مولاي العباس وهو يقرأ عن العطاء السخي للسلطان أبي عنان حتى يحرر طرابلس.

وجاءت أهمية الطرة من أن مولاي العباس كان هو الواسطة بين المغرب وإسبانيا في أداء المغرب عشرين مليونًا من الريالات حتى ترحل إسبانيا عن تطوان التي كانت احتلتها عام 1860 ... قالت الطرة : "... واستعظمتِ الناسُ ذلك (العطاء من المغرب) جهلاً بالواقعة، وما دروا أنه لو بقي الأمر على حاله لعرفت البلاد الوبال ...!!" ومن الطريف أن نجد طرةً أخرى

(8) للتدليل على المكانة التي عرفتْها الرحلة على هذا العهد نشير إلى الحوار الذي جرى بين د.فايسجيربير وبين الحاج أحمد السوسي. د. التازي : الترجمة العِلمية على عهد العلويين، ندوة أكاديمية المملكة المغربية حول الترجمة العلمية طنجة دجنبر 1995.

ورقة من المخطوطة رقم 151 من الخزانة الحسنية.

المخطوطة رقم 3030 التي كانت تصحب تحركات السلطان مولاي الحسن وتحتوي على تعليقات بخط الأمير مولاي العباس قائد الجيش المغربي في حرب تطوان. الورقة الأولى من السفر الأول.

كمل السفر الثاني من رحلة ابن بطوطة . وبتمامه كمل جميع
الديوان والحمد لله رب العالمين

الورقة الأخيرة من السفر الثاني من المخطوطة 3030

تقول في آخر ورقةٍ من المخطوط : "الحمد لله فرغنا من مطالعة جميع الرحلة المباركة في يوم الأربعاء الخامس من شهر شعبان عام أربعة وتسعين ومائتين وألف (15 غشت 1877) بمحَلَّة مولانا أمير المؤمنين المؤيد بنصر الله الكريم المتين مولانا الحسن بن أخينا سيدي مَحمد رحمه الله، أدام الله نصره في الخافقين وأعانه بمنه آمين وأعلى مناره في عِلِّيين، ببلاد زمور بقرب ؟ ضاية رومي..."

عدد أوراق المخطوط بسفريها 714، مسطرتها 21 مقياسها 29 على 21.

9) مخطوطة الخزانة العامة (9) **رقم 2399/ك :**

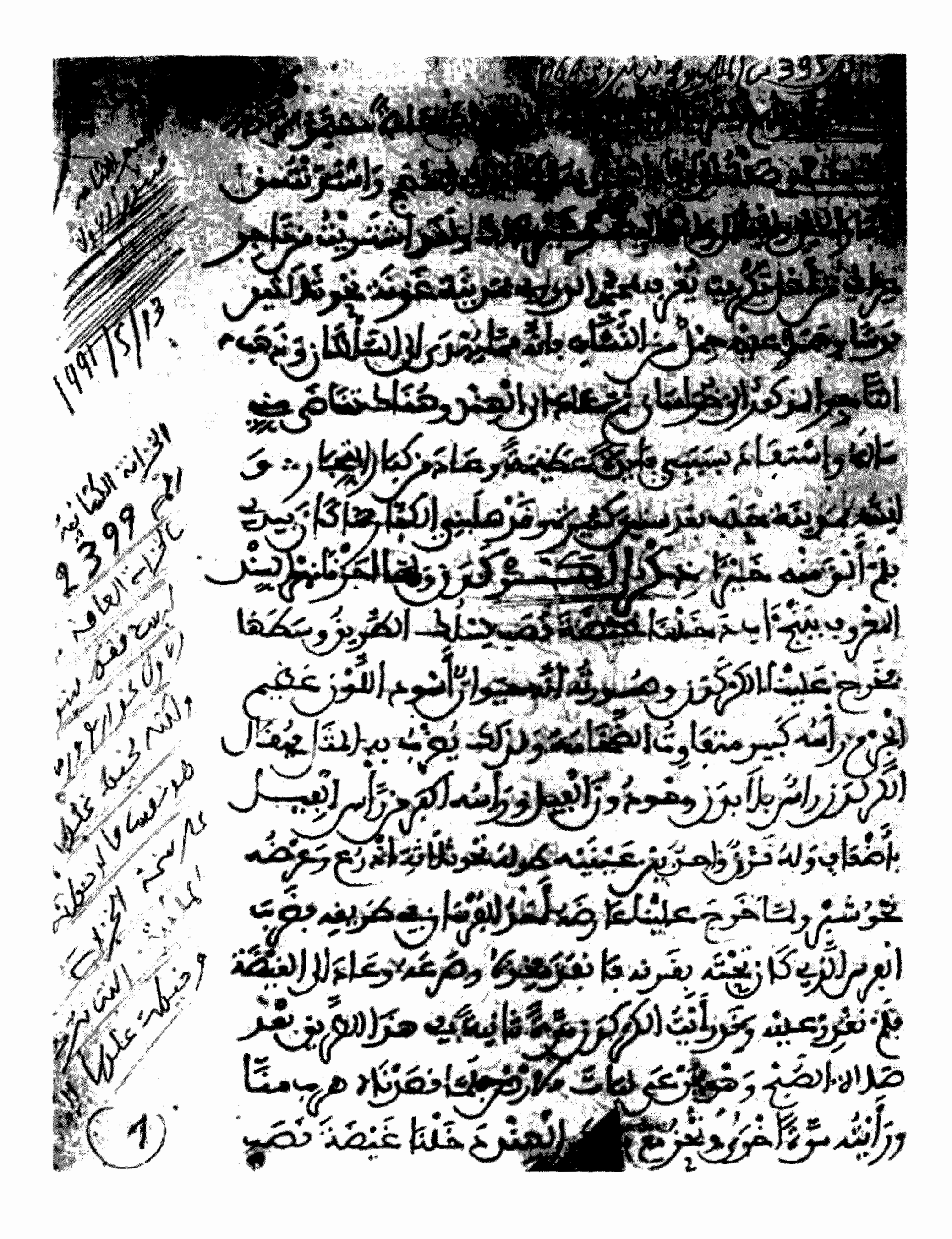
هي السِّفر الثاني من الرحلة وكانت في الأصل ملكاً للخزانة الكتانية، ولذلك يرمز لها بحرف الكاف. أوراقها تصل إلى 360 ورقة، مسطرتها 19 سطرًا، مقياسها : 24 - 18.

النسخة خيطت بالغلط على نحو النسخة السابقة التي تحمل في الخزانة الحَسَنية رقم 8488، وهي مبتورة الأول على عادة معظم المخطوطات، لكن البتر البيّن فيها والذي كان على ما يبدو متعمدًا هو الذي يتصل بزيارة ابن بطوطة للأندلس. وموضوع الزيارة هذا هو الذي اهتم به المستشرق المعروف الأستاذ ليفي بروفنصال الذي كان على ما نعلم، صديقاً للشيخ عبد الحي الكتاني. فلا يبعد أن يكون الشيخ أعاره هذه الورقات الخاصة بالأندلس فلم يُعِدها بروفنصال إلى صاحبها على عكس ما كان بالنسبة لمخطوطة صلة الصلة لابن الزبير (10)

وهذه النسخة الكتانية لها شبه بالنسخة التي تحمل رقم 8488 في الخزانة الحسنية في ضبطها وتوثيقها وتصحيحها اعتمادًا على النسخة الأصلية على ما يبدو من بعض الهوامش التي كتبها الشيخ الكتاني رحمه الله ...

(9) أمام الحاجة الملحة لمنح مدينة الرباط فرصةً للظهور بعد أن أصبحت عاصمةً إداريةً للمغرب في أعقاب نقل مقر العاصمة من فاس إلى الرباط عندما قامت الأولى بثورتها الدامية ضد معاهدة الحماية الفرنسية عام 1912، نتيجةً لذلك أنشئت الخزانة العامة سنة 1922 لا للحفاظ فقط على الكتب ولكن لتأسيس مرجع لسائر التآليف التي لها صلة بالمغرب والشؤون الاسلامية ... وما فتئت الخزانة منذ استرجاع الاستقلال عام 1956 تعمل تحت السلطة المباشرة لعميد جامعة محمد الخامس إلى أن انتقل الإشراف عليها إلى وزارة الثقافة ...

(10) حسب تقييد بخط المرحوم عبد السلام ابن سودة : وجد طرف من صلة الصلة بخزانة الكتاني من الجزء الأول والأخير وبعض الوسط، أخذه منه المستشرق ليفي بروفنصال وطبعه على بتره. وأثناء البحث في خزانة القرويين وُجدت الأطراف التي تخص الجزء بتمامها وعلى أول الجزء تحبيس كله على خزانة القرويين. وعند تقييد خزانة الكتاني وجد بها الجزء الذي أخذه بروفنصال المذكور، وهو بها تحت عدد 391. وبمقابلته مع الأوراق التي هي الآن بخزانة القرويين نجد الخط واحداً والقالب واحداً والرقّاص متساوياً مع المبتور من الجزء من غير زيادة ولا نقصان ...



مخطوطة الخزانة العامة رقم 2399/ك ، وتقتصر على السفر الثاني، وتعتبر من أوثق النسخ وأقربها إلى عصر المؤلف... مبتور الأول.. والوسط ،الورقة الأولى.



حجة عام ستة وخمسين وسبعمائة والحمد لله وسلام على عباده الذين
اصطفى. قال ابن جزي: انتهى ما لخصته من تقييد
الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله ولا يخفى على ذي عقل أن هذا
الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل
بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا بعد طول جولانه
إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنا وأعمهم فضائل
وأكثرهم إحسانا وأشدهم بالوارد عليه عناية وأتمهم لمن ينتمي إلى طلب
العلم حماية فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى أن وفقه في أول حاله
وترحاله إلى استيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحلة
خمسة وعشرين عاما إنها لنعمة لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى
يمن أنه على خدمة مولانا أمير المؤمنين ويبقي عليه ظل حرمته
ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين
اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين وخصصته
بالحلم والعقل الرصين فمد لملكه أسباب التأييد والتمكين وعرفه
عوارف النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك في عقبه إلى
يوم الدين وأر قرة العين في نفسه وبنيه وآله وعشيرته
يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين
وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين

الورقة الأخيرة من مخطوط الخزانة العامة رقم 2399/ك

10- مخطوطة الخزانة العامة رقم D 2541 :

هذه نسخة "كاملة" بالخزانة العامة لكنها تبتدئ بنسبة المقدمة لابن بطوطة ! "قال الشيخ الفقيه السائح الثقة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي شمس الدين ابن بطوطة المعروف بالشريف الغرناطي تغمده الله برحمته".

وكان الفراغ من انتساخ السِّفْر الأول يوم 20 محرم 1133 وانتهى نسخ السفر الثاني صبيحة يوم الخميس الرابع من صفر الخير عام ثلاث وثلاثين ومائة وألف ...

عدد أوراقها : 499، مسطرتها 32 سطرا ... مقياسها 21/28.

11- مخطوطة الخزانة العامة 247 ق :

هذه المخطوطة "مما امتن الله به على الزاوية الناصرية" اكتمل نسخها يوم الأحد مستهل شهر رجب الفرد المبارك عام ستة وعشرين وتسعمائة عرَّفنا الله خيره".

ويلاحظ حرف (القاف) الذي يقترن بالرقم – وهو يشير للأوقاف –. والمخطوط فعلاً من مخطوطات الأوقاف على الزاوية المذكورة.

نسخة مكتوبة بعناية كبيرة، وقد صورت بالميكروفيلم الذي يحمل رقم 325.

عدد أوراق المجلد 452، مسطرته 19، مقياسه 29 على 20. وتحمل هذه النسخة الناصرية عدداً من الطرر المفيدة والطريفة، فقد علق صاحبها مثلا على قول : إن أم المؤمنين عائشة سمعت الحديث في موضع بجامع دمشق : قال : إن هذا خطأ صراح ! فإن عائشة توفيت قبل بناء المسجد بمدةٍ كثيرة ... والعجب من ابن جُزَي كيف أثبت هذا مع علمه واطلاعه. وكتبه محمد المكي بن محمد ناصر الذي كان بفاس عام 1160، ولقي شيخَه الأديب محمد ونّان التواتي المُلُوكي (11).

12- مخطوطة الخزانة العامة 248 ق :

هذه المخطوطة مما "نسخ لِخزانة مولانا السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله محمد الشيخ من دولة بني وطّاس نصر الله أعلامه وأمدَّ في خيرٍ وعافية أيامه" ... فهي تحمل تاريخ شهر رمضان المعظم من سنة تسع وثمانين وثمانمائة : 889. والغريب في هذه النسخة أنها تُشعرنا بأن كِتاب الرحلة قُسم على أسفار وليس على سِفْرين، وهكذا فإن هذا السفر الذي نعت بالثاني إنما هو تكملة للجزء الأول فهو يبتدئ بأخبار سلطان شيراز ...

(11) حول ابن الونّان يراجع ابن زيدان : الإتحاف 3، 344 والتازي : القَرويين ج 3، ص 804.


قال الشيخ الفقيه السائح الثقة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي شمس الدين ابن بطوطة المعروف بالشريف الغرناطي تغمده الله برحمته

المخطوطة رقم 2541/د وهي تنعت ابن بطوطة بالشريف الغرناطي

المخطوطة رقم 247 ق – من الخزانة العامة، وقد كانت تابعة للزاوية الناصرية في تامكروت جنوب المغرب، وتعتبر من النسخ المصححة.

الورقة الأخيرة من المخطوطة رقم 248 ق، السفر الثاني، نسخت برسم السلطان محمد الشيخ من دولة بني وطّاس.

وحتى نعرف عن مدى اهتمام الملوك الوطاسيين بالرحلة وتيسيرها للعامة لقراءتها، وجدنا أن هذه النسخة المخصصة للخزانة الملكية (12) تُشكِّلُ شكلاً تاماً ... ويلاحظ أن عليها طابعَ الزاوية الناصرية، وكانت تحمل فيها رقم 1070. وتعتبر هذه النسخة من أقدم النسخ التي تتوفر عليها الخزائن المغربية. ويحمل الميكروفيلم لهذه المخطوطة رقم 326.

ويدل بعض أوراقها، بما تحمله من تعاليق وطرر، على أن الحُجاج المغاربة وخاصةً منهم المثقفين كانوا يصحبون معهم رحلة ابن بطوطة للاستئناس بها.

عدد الأوراق 262 المسطرة 17 المقياس 28-17.

13- مخطوطة خزانة وَزّان 31:

هذه نسخة تحتوي على السّفرين الاثنين من الرحلة، كنت وقفت على أثرها منذ صيف 1941 لما زرت خزانة وزان لأول مرة أيام قاضي المدينة الفقيه ابن جلون رحمه الله وكتبت عنها مذكرة ما تزال ضمن مقيداتي.

ويبتدئ السّفر الأول بعد البسملة على العادة هكذا : "قال الشيخ الإمام الفقيه الصالح الثقة أبو عبد الله بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه ..."

وقد كانت في ملك بعض الأشراف من أهل وزان : محمد بن عبد الجبار بن علي بن أحمد وانتقلت إلى ولده محمد ثم دخلت في أحباس المسجد الأعظم بالشراء من ورثة الشريف أعلاه ...

وينتهي السفر الثاني بذكر تاريخ النسخ الذي هو سنة 1211، أوراقها : الأول 201 ورقة، والثاني 124 ورقة (كل ورقة بها صفحتان) مسطرتها 19 مقياسها 22 - 17.

14- مخطوطة خزانة مراكش رقم 412 :

هذه النسخة الأنيقة تحتوي على السِّفرين معاً في مُجلّد واحد "وكان الفراغ من تسويدها لستٍّ ليالٍ خلون من جمادى الأولى صبيحة يوم الجمعة سنة تسع ومائة وألف. وبالنسخة خروم" قليلةٌ في الصفحات الأولى، وكانت حبساً عام 1158 من السلطان مولاي عبد الله على مسجد القطب سيدي أبي العباس أحمد السبتي دفين مراكش عام 601 هـ.

(12) كان لبَني وطاس دور بارز في إثراء خزائن المخطوطات بالمغرب، راجع العابد الفاسي في كتابه (الخزانة العلمية) ص 37/36/35.





الورقة الأولى والأخيرة من مخطوطة خزانة المسجد الأعظم لمدينة وزان رقم 31 وهي تحتوي على السفرين كاملين، وكانت ملكاً للشريف سيدي محمد بن عبد الجبار بن علي بن أحمد الوزاني.

مخطوطة ابن بطوطة التي حبسها السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل على جامع سيدي أبي العباس بمراكش وهي بخزانة كلية ابن يوسف رقم 412 الورقة الأولى.

الورقة الأخيرة من مخطوطة خزانة كلية ابن يوسف

أوراقها 248، مسطرتها 24 سطرًا، مقياسها 28 على 18. على ما في فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش الذي حرّره الأستاذ الراحل الصدِّيق بلعَربي رحمه الله !...

15- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريز رقم 2289 = 910 :

هذه المخطوطة - وما بعدها - كانت تابعة للخزانة الملكية الفرنسية (Bibliothèque Royale) وتحمل طابعها القديم.

والمزية الأولى لهذه النسخة أنها من أكمل وأضبط النسخ باستثناء الديباجة (13) التي أُقحمت في فاتحة الرحلة، وبغير خطِّها الأصلي ! والتي تزعم أن "المقدمة" هي من قول ابن بطوطة مع أنها - كما هو واضح - من عمل الكاتب ابن جُزي ... فلو أن الناشرَيْن الفرنسيَيْن الأوّلَيْن : ديفْريميري وسانْگينيتي استغنيا عن تلك الديباجة الطفيلية على المخطوطة أو نبَّها على الأقل لتفاهتها لجنَّبا كلّ الذين نقلوا عنهما تكرار هذا الخطأ على ما سنرى.

وتحمل هذه النسخة رقم 2289 الذي يوازيه رقم إضافي Sup 910 إلى جانب كلمة "Arabe". للتمييز بين اللغة العربية وباقي مخطوطات اللغات الشرقية التي تصل في المكتبة إلى نحو 80 لغة!

وقد ختم السِّفر الأول بهذه الكلمات "وكان الفراغ من كتابة هذا السفر المبارك (الأول) في يوم الاثنين وهو أول يوم من محرم الحرام عشية من عام 1180 ثمانين ومائة وألف (9 يونيه 1766) على يد العبد الفقير ... محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البُوني التَّميمي ... وقد كتبْتُ أكثره وأنا بحال مرض نسأل الله الشفاء" ... بينما ختم السفر الثاني بهذه الكلمات : "كمل السفر الثاني من (الدرر الملقوطة من رحلة ابن بطوطة) على يد العبد الفقير محمد بن أحمد ... بن محمد ساسي بن إبراهيم بن محمد بلعيد ... شفاه الله من جميع الأسقام ... وكان ذلك صبيحة يوم الحادي عشر من صفر الخير من عام ثمانين ومائة وألف".

---

(13) اعتاد النساخ أن يَتركوا - عند الصفحة الأولى من التآليف - بين البسملة وبين المتن فضاء يسع نحو ثلاثة أو أربعة سطور يملأه "من" ياتي بعد ممن يحلي المؤلف -في الديباجة- بالنعوت اللائقة، وأعتقد أن الذي حصل بالنسبة لهذه النسخة أن مالكها عندما لاحظ أن بداية السفر الثاني تبتدئ بنسبة السفر لابن بطوطة ... فكَّر في أنَّ السفر الأول يجري على ذلك المنوال أيضًا فاقحم، بخط شرقي، لا صلة له بخط النسخة ! أقحم نفسَ الديباجة الواردة في السفر الثاني، ومن هنا وقع في خطأ نسبة "المقدمة" إلى ابن بطوطة مع أنها - كما هو واضح مما أسلفناه - لابن جزي، وحيث إن نشر المخطوط أول الأمر من جانب الناشرين العرب اعتمد على هذه النسخة، فقد شاع هذا الخطأ على مدىً واسع ...

المخطوطة البـاريزية 910/2289 – من أكمل النسخ وأضبطها، يلاحظ أن خط الديباجة يختلف عما يليها – الديباجة تنسب – خطأ – المقدمة إلى ابن بطوطة مع انها لابن جزي.

لم ندرك ذلك جميع من بهاذه الغربين من البرابر من سائر بلاد كعادتهم وهي بلد قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها
وعرة ووصلنا يوم عيد الفطر الى سلا بر ابن اهل الشام كعادتنا احاجبو ونا باخبار بلادنا واعلمونا ان اول خروج
وابن يغمور خالعوا وسكنوا انسابهم من توات بجار اهل الفلا منذ ذلك ثم وصلنا الى بشنو في ابعض البلاد
الموحدة وهي من اكبر انوات وارضها رمال وسباخ ونخلها كثير ليس يقرب ولكن احدا يفضلونه على تمر
سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب واكل اهلها التمر والجراد وهو كثير
عندهم يخزنونه كما تخزن التمر ويقتاتون به ويخرجون الى الصيد قبل طلوع الشمس لانه لا يطير اذ ذاك لاجل
البرد وانما يبرد ايامها في سائر ما في بلده ووصلنا اواسط ذي القعدة الى بنية بجملة تمنتيت
ومن جئت منها في ثاني ذي الحجة وذلك لان البرد الشديد ونزل الكثير من ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة
والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الترك فلم ار اصعب من طريق بوان حسبنة ووصلنا البلد عيد
الاضحى الدار البيضاء [illegible] هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فاس فمثلت
بين يدي مولانا امير المومنين ايده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك واقمت في كنف
احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما اوليه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم ايامه
ويمتع المسلمين بطول بقائه وتسلا عصا انتهت الرحلة المسماة بتحفة النظار في غرائب
الامصار وعجائب الاسفار وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة
والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى قال ابن جزي انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ ابي عبد الله
محمد بن بطوطة اكرمه الله ولا يخفى على ذي عقل ان هذا الشيخ رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل
بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنا بعد طول جولانه الا لما تحقق ان مولانا ايده الله اعظم
ملوكها شانا واعمهم فضلا واكثرهم احسانا واشدهم بالوارد عليه عناية واتمهم لمن ينتمي الى طلب العلم
حماية فيجب على مثلي ان يحمد الله تعالى ان وفقني في اول رحلته وحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها
هذا الشيخ بعد رحلة خمسة وعشرين سنة انها النعمة لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى يرزقنا الاعانة
على خدمة مولانا امير المومنين ويبقي علينا ظل حرمته ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه افضل
جزاء المحسنين ادام الله [illegible] وكما فضله على الملوك بفضيلتي العلم والدين وخصصه بالعقل الرصين
[illegible] لك اسباب التاييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك في عقبه
الى يوم الدين واره قرة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا ارحم الراحمين وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا
محمد خاتم النبيين وامام المرسلين والحمد لله رب العالمين كمل السفر الثالث من الدرر الملقوطة في رحلة
ابن بطوطة وبتمامه تم جميع الديوان على يد العبد الفقير الى الله سبحانه الراجي عفوه وغفرانه
محمد بن احمد بن قاسم بن محمد [illegible] بن ابراهيم بن محمد بن بلعيد غفر الله تعالى ذنبه وستر بفضله عيبه
ونفعه من جميع الاسواء بجاه سيد [illegible] مولانا محمد عليه افضل الصلاة وازكى السلام
وكان ذلك ضحوة يوم السبت الثامن عشر من [illegible] من عام ثمانين
[illegible] والف وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم تسليما [illegible]
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي
العظيم

بل الثامن في عشر من [illegible]

وهي تحتوي على 153 ورقة (كل ورقة تحتوي على صفحتين) مسطرتها 31، مقياسها 30 - 20.

16- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريز رقم 2287 = 909.

وهذه النسخة بسفريْها كانت ملكاً لشخصيةٍ فرنسية معروفة : دُولا بُورط (Delaporte) الآتي الذكر. وتحتوي المخطوطة التي تحمل كذلك رقماً إضافياً Sup 909 – على أوراق عددها : 206 (كل منها يضم صفحتين)، مسطرتها 28 سطراً، مقياسها 29 على 20.

ولا يحتوي السّفر الأول ولا الثاني على إشارةٍ لتاريخ النسخ، وإنما يكتفي الناسخ بالدعاء في السفر الثاني – الذي يحمل عنوان : (نزهة النّواظر وبهجة المسامع والنّواظر)- لمن قرأها وسعى في انتساخها ... بما يعبّر عن رضى الناس على الرحلة ...

17- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريز رقم 2288=911

وهذه النسخة ضاعت منها الورقة الأولى والورقتان الأخيرتان علاوة على بعض البتر والتحريف، وهي تحمل كذلك رقماً إضافياً Sup 911 وتحتوي على 160 ورقة، مسطرة 27 سطراً، مقياسها 30 على 20.

ولا تحمل خاتمةُ السفر الأول تاريخاً ... بينما يحمل أول السفر الثاني اسماً كذلك للرحلة على نحو سابقه وهو (نزهة النواظر وبهجة المسامع والنواظر (14)) وهو اسم يضاف إلى الاسم الآخر الذي مرَّ بنا : (الدرر الملقوطة من رحلة ابن بطوطة).

18- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريز رقم 2290=908

تبتدئ هذه النسخة التي تقتصر على السفر الأول بفهرست الرحلة : العناوين وأرقام الصفحات بالأرقام الهندية مما يرجح لديَّ أن دُولاَبُورْط أتى بها من بلادٍ كانت تحت الحكم العثماني ... ولها رقمٌ إضافي أيضاً هو Sup 908.

تحتوي على مائتي ورقة (كل ورقة بها صفحتان) مسطرتها 20 سطرا، المقياس 31 على 21. وقد نُص في آخرها على أن نسْخها تم أواسط صفر سنة 1134 ... (النصف الأول من دجنبر 1721)، وذكر في أول الصفحة أن المقادير ساقتها إلى نوبة سالم بن الحاج يحيى السّاسي (؟) بالشراء الصحيح ... بتاريخ أوائل شعبان في السنة الثانية من العشرة الثانية من المائة الثالثة من الألف الثانية 1212.

(14) يتساءل : هل لهذا الإسم صلة بمخطوط (النزهة في أخبار الأقطار والبلدان)، العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب، ص 32.

مخطوطة باريز 909/2287 - يلاحظ عدم نسبة المقدمة لابن بطوطة ومعنى هذا أنها لابن جزي... - الورقة الأولى لبداية السفر الأول... -

الورقة الأولى من السفر الثاني مخطوطة باريز رقم 909/2287. تحمل اسم نزهة النواظر

مخطوطة باريز 911/2288 – مبتورة الأول

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

ابتدا الثاني من كتاب نزهة النواظر
ونجعة المسامع والخواطر

قال الشيخ ابو عبد الله محمد بن بطوطة رحمه الله ولما كان في تاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام اربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا الى وادي السند المعروف ببنج اب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من اعظم اودية الدنيا وهو يفيض في اوان الحر فيزرع اهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل اهل الديار المصرية في فيض النيل وهذا الوادي هو اول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا هذا النهر جاء الينا اصحاب الاخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك امير مدينة ملتان وكان امير امراء السند على هذا العهد مملوكا للسلطان يسمى سرتيز وهو عارض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الراس فان سر معناه الراس وتيز معناه الحاد وكان حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة ايام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي مسيرة خمسين يوما واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه في خمسة ايام بسبب البريد **ذكر البريد** والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه اولاق وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة اربعة اميال واما بريد الرجالة فيكون منه في مسافة الميل الواحد ثلاث رتب ويسمونها الداوة والداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروه وترتيب ذلك ان يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون خارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا اوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين باعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة اخذ الكتاب باعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل بالاخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده فاذا سمع الرجال الذين بالقبة صوت الجلاجل تاهبوا له فاذا وصلهم اخذ احدهم الكتاب من يده ومر باقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الاخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه وهذا البريد اسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الاطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان وكذلك يحملون ايضا الكبار من ذوي الجنايات يجعلون الرجل منهم على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة اباد يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه وهو على مسيرة اربعين يوما منها واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب واعتنوا بذلك وعرفوه انه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا

يحمل أول السفر الثاني اسم (نزهة النواظر)



مخطوطة باريز 908/2290 – تقتصر هذه المخطوطة على السفر الأول، ويلاحظ أن الديباجة لا تنسب لابن بطوطة! – الورقة الأولى.



تم النصف الأول من رحلة الشيخ البركة
سيدي أبي عبد الله محمد بن محمد بن
إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف
بابن بطوطة رحمه الله
وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

الورقة الأخيرة من مخطوطة باريز 908/2290

19- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريز رقم 2291=907 :

تضم هذه النسخة السفر الثاني من الرحلة، وتعرف على الخصوص بمخطوطة دُولابُورط (Delaporte) كما هو مكتوب بالفرنسية على ظهر الورقة الأولى، ودولابُورط هذا مستعرب فرنسي تقلب في عدة وظائف هامة وخاصة ببعض البلاد العربية مثل مصر وليبيا والجزائر ... وكان منها المغرب :

أولاً بطنجة التي عمل فيها كقنصلٍ مساعد أيام السلطان مولاي سليمان (1206-1238هـ)، حيث اجتمع في خريف 1828 مع رُوني كايي العائد من تنبكتو، وهو الذي صحب السَّفير الفرنسي الكونط دومورني إلى مكناس حيث تم استقبال السفارة الفرنسية في مارس من لدن السلطان مولاي عبد الرحمن.

وثانيًا في مدينة الصويرة عندما أصبح قنصلاً هناك حيث نجده صحبة اليوتنان كولونيل البارون دُولاَري (De Larüe) المبعوث إلى مكناس عام 1836 أيام السلطان مولاي عبد الرحمن لتقديم احتجاج فرنسا على العاهل المغربي الذي ما انفكَّ يساعد ثورة الأمير عبد القادر، حيث نرى السلطان يعهد إلى الوزير محمد الطيب البياز بمتابعة المفاوضات مع البعثة الفرنسية (15).

فيترجح لديَّ أنه عندما كان بالصَّويرة تمكن من الحصول على هذا السفر الثاني من رحلة ابن بطوطة، فلقد أَمْسَتْ الصويرة منذ تأسيسها من لدن الملك محمد الثالث تتوفر على مجتمعٍ علمي ثقافي مهتم بالتراث المغربي...

وقد علق فهرس المكتبة الوطنية الذي ألفه البارون دوسلان بما يفيد أن هذا السفر ربّما كان بخط ابن جزي، حيث إنه يتميز عن غيره من سائر النسخ بأنه ينص في آخره على عبارة لا توجد في غيره، وهي تقول :

"وكان الفرا غ من كتْبها في صفر عام 757 عرف الله مَن كتبها(16)..."، والقصد إلى جملة "عَرَف الله مَن كتبها"

ومع اعتقادنا بأن هذه النسخة ربما كانت من أقدم ما وصلنا من الرحلة إلا أن بعض الأخطاء الإملائية واللغوية التي توجد فيها ربما تُبعد القول بأنها بخط الكاتب ابن جزي سيَّما ولم يتيسَّر لي أن أقف على خط ابن جزي في تآليفٍ من تآليفه...!

(15) Philippe de cosse Brissac : Les Rapports de la France et du Maroc Pendant la Conquéte de l'Algerie 1839-1847 Paris 1931 - P. 22 - 48.

(16) M,G. De Slane : Lettre A. M. Reinaud, Journal Asiatique, Mars 1943

مخطوطة باريز 907/2291 – تعرف بمخطوطة (دولابورط) الدبلوماسي الفرنسي الذي حصل عليها من الصّويرة.
- يذكر أنها ربما كانت بخط ابن جزي... –

2291

907

الورقة الأخيرة من مخطوطة باريز رقم 907/2291

20- مخطوطة دار الكتب، تونس رقم 5048 بـ :

وقفت على هذه المخطوطة في عين المكان (17)، وهي نسخة جيّدة، وجاءت جودتها من أنها كانت ملكًا لأحمد باشا باي صاحب كرسي تونس الذي حبَّسها على "من له أهلية الإنتفاع بها ولو إستنساخا"، بتاريخ أواخر رمضان المعظم من عام 1256، أواخر نونبر 1840.

وقد ختم السفر المكتوب بخط مغربي بإعطاء اسمٍ جديدٍ للرحلة سبق أن سمعناه وهو : "الدرر الملقوطة من رحلة ابن بطوطة".

وقد اهتم مالكُ المخطوطة بالتعريف ببعض المواقع الجغرافية بما ينقله عن بعض المصادر المتداولة مثل كتاب فتوح إفريقية أو المسالك والممالك أو شرح المقامات للشريشي ...

صفحات المخطوطة، 263 مسطرتها 33، مقياسها 27 - 19.

21- مخطوطة مدريد التي اعتمدها دُوزي (Dozy).

أثار انتباهي لهذه النسخة حديث المستشرق الهولاندي المعروف، رينهارت دُوزي (Dozy) عنها في كتابه "المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب" الذي ترجمه الباحث العراقي د. أكرم فاضل (18). عندما ذكر أن دي كايانكوس (De Gayangos) أعاره النسخة النفيسة لرحلة ابن بطوطة التي يمتلكها هو ... "إن هذا الكتاب، يقول دوزي - من النسق الرفيع، أما المختصر المترجم من قِبل القس صَمُوئيل لِي (Lee) فإنه لا يُعطينا إلا فكرةً ضعيفةً كلّ الضعف عن أهمية الكتاب الأصلي".

ومن هنا اتجهتُ إلى زملائي في ليْدن الذين أشاروا علي بالتحوُّل إلى مدريد للاتصال بالأكاديمية الملكية للتاريخ (Real Academia de La Historia) التي استجابت لرغبتي مشكورة بفضل مساعدة زميلي الراحل إيميليوگارسيا گوميز.

هذه النسخة، يحتوي السفر الأول منها على 331 صفحة بينما يحتوي السفر الثاني على 245 صفحة، مسطرتها 21 سطرا، مقياسها 28 على 13. خط مغربي واضح، وتبتدئ بعد البسملة والتصلية هكذا وعلى العادة :

«قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ...»

وتختتم الرحلة بالحديث عن تاريخ تقييد ابن بطوطة لرحلته. وقد نص على أن ناسخ الرحلة هو "أحمد بن عبد الرحمن المغيلي غفر الله ذنوبه وغفر لوالديه ... ولكاسبه وقارئه ولمن سعى في كَتْبه ... بتاريخ ثامن من صفر الخير عام تسعة وثلاثين ومائة وألف" : 1726/10/5.

(17) أغتنم هذه الفرصة لأجدد شكري للزميل د. جمعة شيخة محافظ الدار ولسائر السادة الزملاء

(18) وزارة الإعلام العراقي، سلسلة المعاجم، ص 11.

٥٠٠ قيمته خمسون ريالا

مخطوطة دار الكتب التونسية رقم 5048 ب – وقد كانت في ملك أحمد باشا... –

يختتم السفر الثاني من مخطوطة تونس 5048 بإعطاء اسم جديد للرحلة : الدُّرر الملقوطة...



مخطوطة كابانكوس التي اعتمدها دوزي، نسخة لا تحمل رقما، وقد حصلت عليها من الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد بمساعدة الزميل الراحل إيميليوكارسياكوميز وتحمل تاريخ 8 صفر الخير سنة 1139.

وعيشهم علما انها النعمة التي لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى يرزقنا
الاعانة على خدمة مولانا امير المومنين ويبقي علينا ظل حرمته ورحمته ويجزيه
عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه افضل جزاء المحسنين اللهم كما بسطته
على الملوك بفضيلتي العلم والدين وخصصته بالحلم والعقل الرصين فمهد له
اسباب التاييد والتمكين وعوده عوايد النصر العزيز والفتح المبين واجعل الملك
في عقبه الى يوم الدين واريه قرة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعيته يا ارحم
الراحمين ويا رب العالمين وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين
وامام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

كمل السفر الثاني من رحلة الشيخ ابي عبد الله محمد بن بطوطة
رحمه الله بحمد الله تعالى وحسن عونه على يد اوفق العبيد الى الله سبحانه
احمد بن عبد الرحمن [illegible] تاب الله عليه وغفر ذنوبه وستر عيوبه
ولوالديه ولاشياخه واحبته ولجميع المسلمين ولكاسبه وقاريه ولمن
سعى في كتبه والداعي ولمن قال آمين وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين
بتاريخ شهر [illegible] عام [illegible] وثلاثين ومائة والف

الصفحة الأخيرة من مخطوطة كايانكوس

22- مخطوطة الاكاديمية العِلمية في لشبونة A 1254

وقد وقفتُ على المخطوطة التي طالما تحدث الباحثون عنها، ويتعلق الأمر بالنسخة التي اقتناها الأب خوسي دي سانطو أنطونيو مورا (José de Santo-Antonio Moura) من مدينة فاس أثناء وجوده ضمن سفارةٍ وردتْ من البرتغال عام 1797 -98 = 1211. وقد تَرجم قسماً منها إلى البرتغالية. وقفت عليها في يناير 1993 بالأكاديمية العِلمية في لشبونة (19) ...

والمهم أن نعرف أن المخطوطة هذه تَنسب المقدمة لصاحبها ابن جُزَيّ، وقد نسخت في (تُنبكتو) المحروسة، وقد وافق الفراغ منها أواسط رجب عام ثلاثة وأربعين وألف (أواسط يناير 1634) في عهد الدولة السعدية أي أيام الوليد بن زيدان ابن أحمد المنصور الذهبي (1040-1045 = 1630-1635) (20).

ومعنى هذا أيضا أن مخطوطة ابن بطوطة كانت معروفة بل مطلوبة في تنبكتو وبلاد التكرور، وهو الامر الذي يُفسِّر لنا قيام أبي عبد الله محمد الولاّتي بترجمةٍ لابن بطوطة في كتابه : (فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور)، ترجم له ولو أنه أي ابن بطوطة ليس من تلك الجهات، تكريمًا له وتقديراً لمقامه وتخليداً لزيارته لتلك الديار علاوة على آصرة "الولاّتية" التي تجمع بينهما !

23- مخطوطة الشيخ حمودة :

وهناك مخطوطة للشيخ حمودة بن لفغون شيخ الإسلام سابقاً في قسطنطينة (الجزائر)، وقد نسخت بتاريخ 22 شوال 1160 = 17 أكتوبر 1747 م، وأشار إليها الناشران الفرنسيان : ديفْريميري وسانكينتّي في مقدمة ترجمتهما للرحلة، وردَّد ذلك فانسان مونطي في مدخله الجديد للرحلة

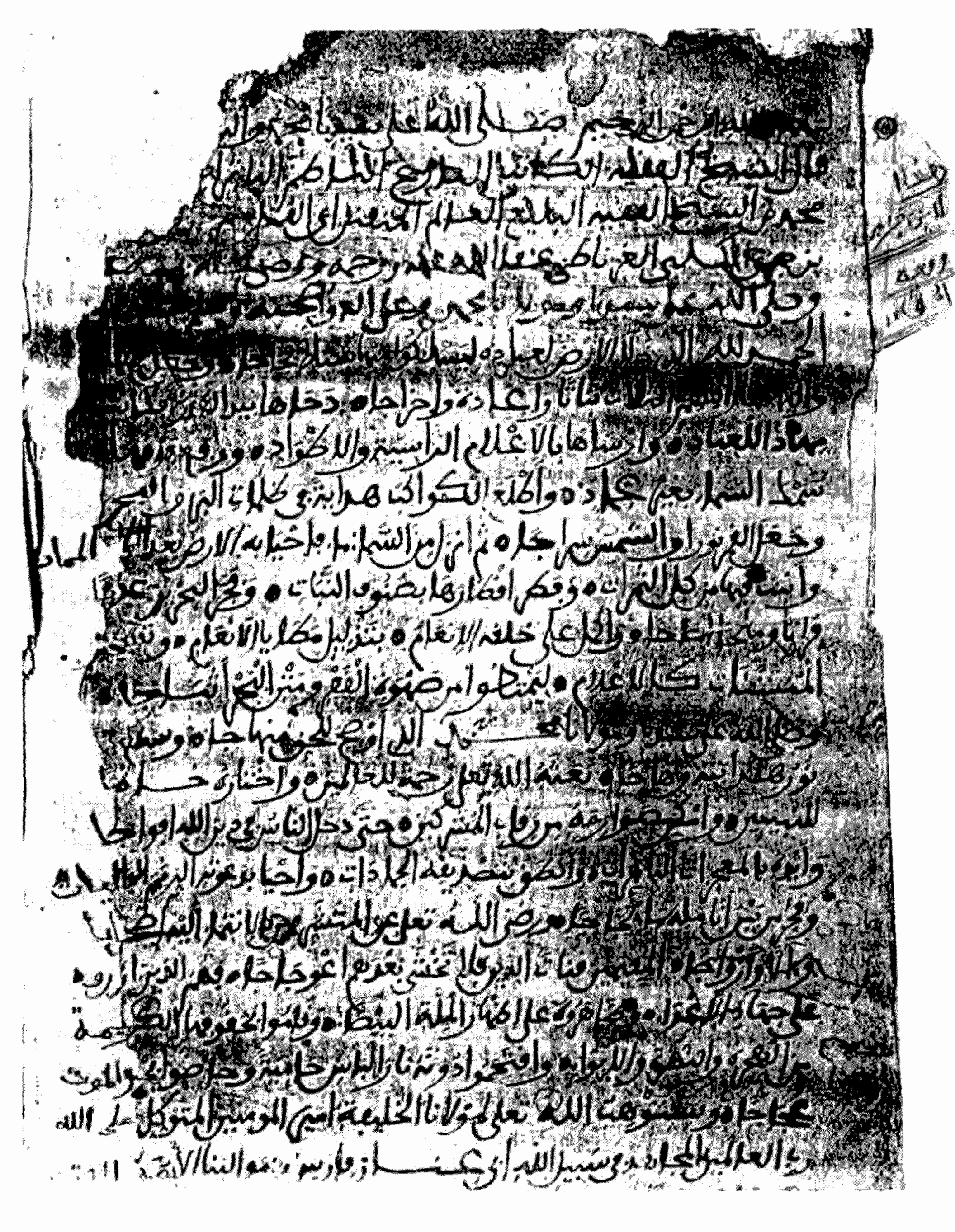
24 - مخطوطة اللّمسي

وقد أهدى لي الزميل التونسي الأستاذ الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الاسلامي في بيروت، صورة مخطوطة للرحلة يمتلكها تقع في سفرين مختلفي الخط، ورقاتها من طول 21 على 14، مسطرتها : السفر الاول 21 بينما كانت مسطرة الثاني 17، وهكذا فإن صفحات الأول تصل إلى 320 بينما تبلغ صفحات السفر الثاني 356.

---

(19) طبعت هذه الترجمة ناقصةً عام 1840 في مجلدين. يُراجع فهرس المخطوطات المغربية المعروضة في ليشبونة أول مايه 1995 تكريمًا للأكاديمية المغربية المجتمعة هناك بدعوة من الرئيس د. مارْيُو سواريس.

(20) أصبحت المخطوطة ملكاً لأحد حفدة السلطان مولاي إسماعيل.



مخطوطة الأكاديمية العلمية بلشبونة A1254 ، وقد كانت ضمن المعروضات في أوائل مايه 1995 بمناسبة انعقاد اجتماع أكاديمية المملكة المغربية في العاصمة البرتغالية كما أسلفنا – الورقة الأولى من المخطوطة... –



الورقة الأخيرة من مخطوطة الأكاديمية العلمية بلشبونة وقد نسخت في تنبكتو

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الورقة الأولى من مخطوطة الحبيب اللمسي ويلاحظ فيها عدم نسبة المقدمة لابن بطوطة...

كانت المخطوطة في ملك الحاج محمد بن حسين العُريبي القلاَّل عام 1257 هـ قبل أن تنتقل إلى محمد ابن الحاج – بالشِّراء الصحيح – على يد الدلال محمود السعيدي يوم 18 ربيع الأنور عام 1286 وقد كتبت تواريخها بالأرقام الهندية.

والمهم في هذه النسخة أن ديباجتها لا ترتكب الخطأ الذي وقع فيه بعض النساخ من نسبة المقدمة إلى ابن بطوطة مع العلم أن المقدمة – كما قلنا مراراً – هي بقلم ابن جُزَي، ويلاحظ كذلك أن ناسخ السفر الأول لم ينتبه للوقوف حيث إنتهى سائر النساخ ... ومن هناك وجدنا أن ناسخ السفر الثاني إبتدأه بالوصول إلى مدينة بخاري عوض الوصول إلى وادي السند المعروف ببنج آب!

* * *

وإذا كانت الرحلة قد عرفت ذلك العدد العديد مما عرفنا بعضه من النسخ، فإن من مظاهر العناية بها قيامَ بعض المشايخ المشارقة "بانتقاء" أو "انتخاب" بعض الأطراف منها.

وعلينا، قبل أن نعرف عن هذا، أن نتساءل : متى وصلت نصوص الرحلة إلى المشرق ؟ وهل عن طريق أحد الحجاج القاصدين للحجاز أو طريق مشرقيٍّ ورد على المغرب وحمل الرحلة معه؟

إن المقريزي المتوفى عام 845=1441 عندما يتحدث عن معركة مرج الصفَّار التي وقعت كما هو معلوم يوم ثاني رمضان 702=120 أبريل 1303، والتي تحدث عنها ابن بطوطة لم يشر لما رواه ابن بطوطة وهو الأمر الذي يدل على أن الرحلة لم تكن قد وصلت للمشرق على عهد المقريزي ...

وكذلك فإن ابن إياس الذي توفى عام 930 = 1524 لم يعرج على معلومات ابن بطوطة حول تلك المعركة، ومعنى هذا أن الرحلة لم تكن قد وصلت إلى تلك الديار، ولهذا فإني على مثل اليقين من أن رحلة ابن بطوطة وصلت إلى ديار المشرق في أواخر القرن العاشر الهجري عندما بعث المغرب، في عهد الدولة السعدية، بسفيره إلى اسطامبول أبي الحسن علي التمجروتي عام 997 = 1589 حيث وجدنا هذا السفير وهو يتحدث –في رحلته– عن بعض المحطات التي مرَّ بها في المشرق ينقل عن ابن بطوطة... فمن هنا قد يصح القول إن التمجروتي اصطحب معه مقيّدات ابن بطوطة منذ ذلك التاريخ (21).

(21) التمجروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية، نشرها دوكاستري بباريز 1929.

يضاف إلى السفير التمجروتي، الشيخُ المقَّري صاحب نفح الطيب الذي رحل إلى المشرق مع بداية الربع الثاني من القرن الحادي عشر، والذي نعتقد أن رحلة ابن بطوطة كانت ضمن حقائبه، كيف لا وهو الذي ردد أيضا "ترتيب" الرحلة في "موسوعته" الأندلسية المذكورة (22)، ومن هنا نؤكد أن الرحلة لم تنتظر أبا القاسم الزياني ليحملها معه عام 1756-1169 إلى موسم الحج، مشهّراً بصاحبها مشككاً في المعلومات التي أتى بها ابن بطوطة!!

فماذا عن الذين قاموا بعملية "الانتقاء" من الرحلة أو "اختصارها" حتى يثيروا الانتباه إلى الرحلة الأصلية...

لقد كان في صدر هؤلاء العلامة محمد بن فتح الله بن محمود بن محمد البيلوني (23) الحَلَبِي المتوفَّى سنة 1085=1674 والذي نوَّه بعمله الزَّبيدي صاحب (تاج العروس)...

وهذا "المنتقي" للبيلوني هو الذي قام القس صموئيل لي (Lee) بترجمته عام 1829 (24)، والذي قال عنه دُوزي، كما ردَّدناه قبل صفحات، عند الحديث عن النسخة التي اعتمد عليها لگايانگوس : "إن ذلك" المنتقي "لا يُعطي إلاَّ فكرةً ضعيفة كلَّ الضعف عن أهمية الكتاب الأصلي".

وقد توفرت مكتبتي على عددٍ من نسخ هذا "المنتقي" :

25- مخطوطة وقف تيمور، دار الكتب المصرية نسخة (أ) :

ميكروفيلم رقم 17732 نسخة (أ)

وهي تحمل تاريخ يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وألف 1091 هـ = 1674 م كتاريخٍ لتحريرها أي بعد ست سنوات فقط من وفاة البيلوني، وهي تحتوي على 197 صفحة، مسطرتها 19 سطرا مقياسها 24 على 16.

(22) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – تحقيق د.احسان عبَّاس بيروت. ج I ص. 152.

(23) نشأ بحلب ورحل إلى الرّوم وسلك طريق القضاء، والبيلوني نسبة إلى البيلون، وهو نوعٌ من الطين يستعمل في الحمامات لتلطيف البشرة. وقد قرأنا في (موسوعة حلَب المقارنة) أن كلمة البيلون مستمدة من اليونانية (Valaniyon) بمعنى الحمَّام ... ومن أقوالهم : (فلان لا يميّز بين الصابون والبيلون). وقد وقفتُ عليه في دكاكين حلَب بمساعدة د.محمد البيلوني الذي أمدني بصورة لما قيل عن أسرة البيلوني في كتاب (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) تأليف محمد راغب الطباخ الحلبي ج 6، غير أن هذا التأليف لم يتعرض لاختصار البيلوني لرحلة ابن بطوطة. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلد 70 ج 3 يونيه 1995

(24) The Travels of Ibn BATTUTA, Cambridge 1829.

مخطوطة منتقى البيلوني وقف تيمور، دار الكتب المصرية الورقة الأخيرة التي تتحدث عن وصول أمر أمير المؤمنين لابن بطوطة بالعودة إلى المغرب – وهي بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٠٩١.

26- مخطوطة أخرى من وقف تيمور ... نسخة (ب) :

وهذه نسخة ثانية أُنجز تحريرها على يد كاتبها الفقير علي الاسلامبولي في 15 شهر شوال 1272، وفي أسفل هذا توجد طرة تقول : «ونقلت من نسخة بخط الفاضل الشيخ محمد العزيزي، كان كتبها برسم الشيخ سليمان الفيومي، وتاريخها 17 شوال 1210=1796 وقوبلت عليها وشارك في مقابلة البعض كاتبه الفقير نصر الهوريني (تـ 1291=1874) ... وكان ذلك في قصر حضرة عبد الحميد بك نافع؟ الذي كتبت هذه النسخة برسمه أسبغ الله عليه ظلال نعمه».

أوراقها 146 (في كل واحدةٍ صفحتان)، المسطرة 21 سطرا، المقياس 22 على 12.

27- مخطوطة الفاتيكان رقم 1601

وهذه نسخة ثالثة من منتقي البيلوني وقد كتبت في أوائل رجب الفرد المعظم من شهور سنة أربع وثمانين ومائة وألف (1184). عدد أوراقها 112 مسطرتها 21 سطرا، مقياسها 20 على 15، خط شرقي كسابقه وقد حصلت عليها من الكرسيّ البابوي بمساعدة مونسينيور جاكلين.

28- مخطوطة الفيومي رقم 4063

هذه نسخة كتبت بتاريخ 17 شعبان 1210 على ما نقرأه في آخر المخطوطة، وهي تذكر أنها كتبت على يد الفقير محمد بن أحمد العزيزي الشافعي الأزهري برسم "أستاذنا الأعظم الشيخ سليمان الفيومي"، وعلى رأس الوَرَقة الأولى من المخطوط هامش يحدد تاريخ رحلة ابن بطوطة ونهايتها وتوقيع الشيخ نصر الهوريني ثم تاريخ 1223.

عدد أوراقها 72 (في كل ورقة صفحتان)، مسطرتها 23 سطرا، مقياسها 20 على 14. ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الورقة الأولى من هذه المخطوطة، وهي التي تحمل العنوان، تحتوي على قطعتين شعريتين لهما دلالةٌ جد مفيدة على مصداقية رحلة بن بطوطة، وعلى المركز الذي كانت تنعم به في المشرق منذ ذلك التاريخ (القرن الحادي عشر الهجري) عندما ظهر "المنتقي"، حيث كان الناس يتوقون للحصول على "منتقاها" ما داموا لم يستطيعوا الحصول على "أصلها" !

تقول القطعة الأولى

إذا ما رحلةُ الطنجيّ عزَّت   وشحّ بها لئيم أو كريمُ !

وألفيتَ الملخّص والمنقّى   من ابن جُزي : البحرُ الخضيمُ

فدَعْ نَجْداً لساكِنِه وأعرضْ   وحسبك من عراراته شَمِيم !!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين وبعد فيقول فقير عفو ربه الغني محمد بن
فتح الله بن محمد البيلوني هذا ما انتقيته مما لخصه الإمام
الكاتب محمد بن جزي الكلبي من رحلة الفقيه أبو عبد الله
محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطه وإنما
انتقيت ما كان غريبا غير مشهور أو مشهور النقل لكن
ربما لا يعتمد عليه لغرابته وتسامح المؤرخين في النقل غالبا
فانتقيته لأن صاحب الرحلة ثقة وكتب ما شاهد من أخبار
الأمم والأقطار فنقل الصدوق وما وقع في الاعتبار ثم الاستنباط
ولو أن بعض ما نقله قد يخالف ما ذكره غيره كما في
وصف بعض ما شاهده من معابد الهند لأن بعضه يخالف
لما ذكره الأطباء في وصفها لكن الظن بالشيخ الصدق
قد خرج الشيخ بن بطوطه صاحب الرحلة
بقصد الحج والسياحة من بلده طنجة عام خمسة وعشرين
وسبعمائة فأول مدينة وصل إليها تلمسان ثم إلى مدينة مليانا
ثم إلى مدينة الجزائر ثم إلى مدينة بجاية ثم إلى مدينة ٢٢
قسنطينة ثم إلى مدينة بونة ثم إلى مدينة تونس ثم
إلى مدينة سوسة ثم إلى مدينة صفاقس وفيها يقول
علي بن حبيب التنوخي شعر
سقيا لأرض صفاقس ذات المصانع والمصلى
بلد تكاد تقول حين تزورها أهلا وسهلا
وكأنها والبحر يحسر تارة عنها ويملا
صب يريد زيارة فإذا رأى الرقباء ولى
وفي عكس المعنى يقول فيها أبو عبد الله محمد بن أبي تميم من أبيات
قد عاين البحر حسنا في جوانبها فكلما آن أن يدنو لها هربا
إلى مدينة قابس ثم إلى مدينة طرابلس قال ابن بطوطه
ثم تجاوزناها إلى مسلاته ومسراته وقصور سرت ثم
تركنا الغابة وتجاوزناها القصر برصيص العابد
إلى قبة الإسلام إلى أن وصلنا إلى مدينة الإسكندرية
ورأينا من علمائها القاضي فخر الدين الريغي وحكي أن جده
كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى
الحجاز فوصل إلى الإسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد
فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا فجلس قريبا من
الباب إلى أن دخل جميع الناس وحان وقت سد الباب
فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه فقال له تهكما ادخل يا قاضي
فقال قاضي إن شاء الله ودخل إلى بعض المدارس ولازم
القراءة وسلك طريقة الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه
وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر
واتفق أن توفي قاضي الإسكندرية وبها الجم الغفير
من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف إلى الولاية
وهو من بينهم لا يتشوف لها فبعث إليه السلطان

مخطوطة أخرى من منتقى البيلوني منتسخة يوم 15 شوال 1272... الورقة الأولى من المخطوط الذي حبسه تيمور نسخة (ب).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه اجمعين وبعد فيقول فقير عفو ربه الغني محمد
ابن فتح الله البيلوني هذا ما انتقيته ما لخصه الامام
الكاتب محمد بن جزي الكلبي رحمه الله تعالى من رحلة الفقيه
ابي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن
بطوطه وما انتقيت الا ما كان غريبا غير مشهور او
مشهور النقل لكن ربما لا يعتمد عليه لغرابته وتسامح
المؤرخين في النقل غالبا فاثبته لكونه صاحب الرحلة
ثقة وكتبت ما ثبت عنده من اخبار الامم والاقطار ونقل
الصحة وقد اوقع في الاعتبار والاستبصار وبعض ما نقله
قد يخالف ما ذكره غيره كما في وصفه بعض ما شاهده من
عقاقير الهند فان بعضه مخالف لما ذكره الاطباء في وصفها
والظن بالشيخ الصدق وقد خرج الشيخ ابن بطوطه
صاحب الرحلة لقصد الحج والسياحة من بلدة طنجه
عام خمس وعشرين وسبعمائة دائما اذكر بعض اسماء البلاد
التي اجتاز بها في رحلته وان لم يكن في ذلك كبير فائدة
للتنبيه على كمال همته وتوكله وعدم سآمته من الحل

والترحال

والترحال وقطع مشاق الفيافي فاول مدينة وصل
اليها تلمسان ثم الى مدينة مليانه ثم الى مدينة
الجزاير ثم الى مدينة بجايه ثم الى مدينة قسنطينه
ثم الى مدينة بونه ثم الى مدينة تونس ثم الى مدينة
سوسه ثم الى مدينة سفاقس قال ابن جزي الكلبي
وفيها يقول ابن حبيب التنوخي

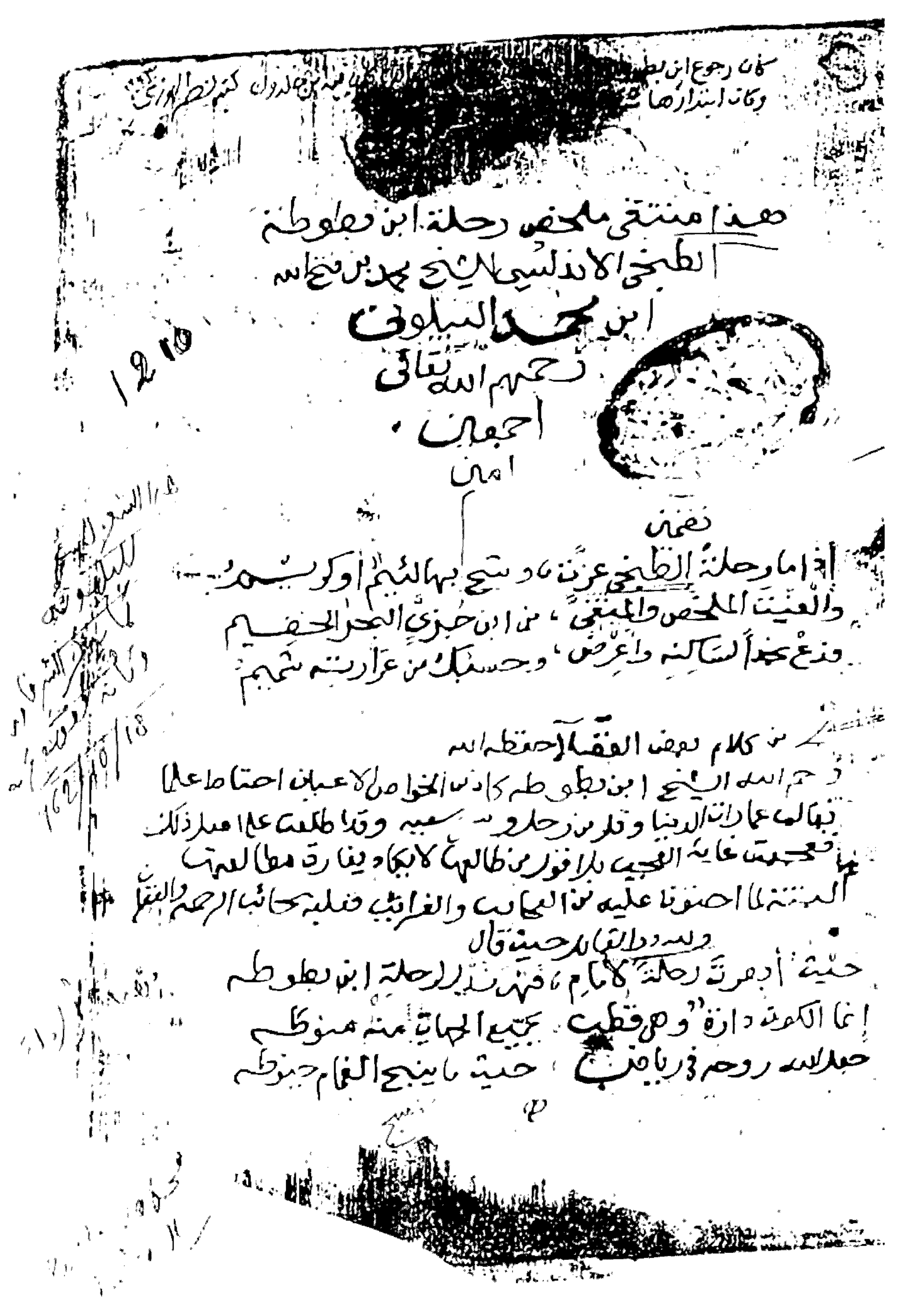
سقيا لارض سفاقس ذات المصانع والمصلا
بلد تكاد تقول حين تزوره اهلا وسهلا
وكانه والبحر يحسر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة فاذا راى الرقباء ولا

وفي عكس المعنى يقول فيها ابو عبد الله محمد بن ابي تميم من ابيات
قد عاين البحر قبحا في جوانبها فكلما هم ان يدنو لها هربا
ثم الى مدينة قابس ثم الى مدينة طرابلس[٣] ثم تجاوز
الى مسلاتة ومسراتة وقصور سرت ثم توسطنا
الغابة وتجاوزناها لقصر برصيصا العابد الى قبة السلام
الى ان وصلنا الى مدينة الاسكندرية ورأينا من علمائها
القاضي فخر الدين بن الريغي ويحكى ان جده
كان من اهل ريغه واشتغل بالعلم وطلبه ثم رحل
الى الحجاز فوصل الى الاسكندرية بالعشي وهو قليل
ذات اليد فاحب ان لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا
فجلس قريبا من الباب الى ان دخل جميع الناس وجاءت

[٣] قال ابن بطوطة زناها

5 ٩
٦٦ ٨٤

مخطوطة أخرى من منتقى البيلوني بالفاتيكان رقم 1601ب، وقد كتبت أوائل رجب 1184. الورقة الأولى من المخطوط وهي هدية من القاصد الرسولي بالرباط مونسينيور جاكلين.



هذا منتقى ملخص رحلة ابن بطوطة
الطنجي الاندلسي للشيخ محمد بن فتح الله
ابن محمد البيلوني
رحمهم الله تعالى
اجمعين
امين

مخطوطة منتقى البيلوني كتبت بتاريخ 17 شعبان 1210 برسم الشيخ سليمان الفيومي، ورقة العنوان تحتوي على معلومات مفيدة عن الرحلة وشهادات حولها

وهو يشير في البيت الأخير إلى البيت المعروف :

تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار!

ثم تقول القطعة الثانية التي تصف الرحلة الأصلية بأنها "قطب" لجميع الرحلات !

حيث أبصرتَ رحلةً لإمام فهي ذيلٌ لرحلةِ ابن بطوطة

إنما الكون دارةٌ، وهي قطب بجميع الجهات منه منوطَة

جعل الله روحَه في رياضٍ حيثما ينسج الغمامُ خيوطه (25)

ونعتقد أنه من المهم أن نورد ما جاء في ديباجة (المنتقي) للبيلوني "...

هذا ما انتقيتُه مما لخصه الإمام الكاتب محمد ابن جُزَي الكلبي من رحلة الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، وإنما انتقيتُ ما كان غريباً غير مشهور أو مشهورَ النقلِ لكن ربَّما لا يعتمد عليه لغرابته وتسامح المؤرخين في النقل غالبًا، فأثبتته لكون صاحب الرحلة ثقة وكتب ما ثبت عنه من أخبار الأمم والأقطار، فنقْلُ الصدوق أوقع في الإعتبار والإستبصار، وبعض ما نقله قد يخالف ما ذكره غيره، كما في وصفه بعض ما شاهده من عقاقير الهند، فإن بعضه مخالفٌ لما ذكره الأطباء في وصفها. والظن بالشيخ الصدق. وقد خرج الشيخ ابن بطوطة صاحب الرحلة بقصد الحج والسياحة من بلدته طنجة عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وانما أذكر بعض أسماء البلاد التي إجتازها في رحلته وإن لم يكن في ذلك كبير فائدة للتنبيه على كمال همته وتوكله وعدم سئامته من الحل والترحال وقطع مشاق الفيافي والجبال ..."

29- "منتخب الرحلة لمؤلف مجهول رقم 22741 :

وإلى جانب "منتقي" البيلوني بنسخه الأربعة ظهر "منتخب" الرحلة رقم 22741 لمؤلف مجهول، وافق الفراغ منه يوم الثلاثاء رابع شهر ذي القعدة من أشهر سنة ألف ومائة واثنتين من الهجرة النبوية (30 يوليه 1691) أخذت النسخة عن الميكروفيلم رقم 22741، دار الكتب القومية

أوراقها 46 (في كلٍّ ورقة صفحتان)، المسطرة 21 سطراً ومقياسها 22 على 14.

(25) يعتقد ذ. محمود الشرقاوي أن الأبيات للبيلوني، وأستبعد ذلك لعدم وجود ما يؤيده، والذي اعتقده أنه تقريظ من أحد الموالين .. أنظر كتابه : رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وإفريقيا، مكتبة الأنجلو المصرية 1968، صفحة 9 - 10.

المنتخب

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد
فهذا ما انتخبته من مختصر الامام العالم الرحال السائح
في البلاد ابي عبد الله محمد بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي
المعروف بابن بطوطه المغربي المعروف في البلاد المشرقية
بالشيخ شمس الدين وهو الذي طوف الافاق معتبرا وطوى
الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب والعجم
التي اختصرها وضبط شكل الفاظها الشيخ الامام العلامة
محمد ابن محمد ابن احمد بن جزي الكلبي المغربي باشارة
امير المومنين المتوكل على الله سلطان الحضرة الفاسية
قال ابو عبد الله بن بطوطه كان خروجي من طنجة
مسقط راسي في رجب عام خمس وعشرين وسبعماية معتمدا
حج البيت الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام منفردا
عن رفيق انس بصحبته وركب اكون في جملته لباعث
من النفس شديد العزايم وشوق الى تلك المعاهد الشريفة
كامن في الحيازم وسني حينئذ ثنتان وعشرون سنة فوصلت
الى مدينة تلمسان ثم الى مليانة ثم الى مدينة الجزاير ثم
الى بجاية ثم الى قسنطينة ثم الى بونة ثم الى مدينة تونس
ثم الى سوسه ثم الى مدينة صفاقس وفيها يقول الكاتب ابو الحسن الحكمي
بلد يكاد يقول حين تزوره اهلا وسهلا
وكانه والبحر يحسر تارة عنه ويملا
صب يريد زيارة فاذا راى الرقبا ولى
وفي عكسه يقول الاديب ابو عبد الله محمد بن تميم
قد عاين البحر جوانبها تكلما ان يدنو لها صبا
ثم سافرت الى مدينة قابس وفيها يقول بعضهم
هم على طيب الرحلة للكاتب البطحا من قابس
كان قلبي عند تذكارها جذوة نار بيدي قابس
ثم الى مدينة اطرابلس الغرب ثم الى الاسكندرية من اقليم
مصر ومن علمائها الامام العابد العالم الزاهد برهان الدين
الاعرج لقيته واقمت بضيافته ثلاثة ايام ومن كراماته
دخلت عليه يوما فقال لي اراك تحب السياحة والجولان
في البلاد فقلت نعم ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد
القاصية من الهند والصين فقال لي لابد لك ان شاء الله من زيارة
اخي فريد الدين بالهند واخي ركن الدين ابن زكريا بالسند واخي
برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم مني السلام فعجبت
من قوله والقى في روعي التوجه الى تلك البلاد ولم ازل اجول حتى
لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وابلغتهم سلامه ولما ودعته زودني
دراهم لم تزل عندي محوطة حتى سلبها مني كفار الهند لما سلبوني
بالبحر ومن شيوخها الشيخ ياقوت الحبشي وهو تلميذ ابي العباس
المرسي وابو العباس تلميذ ولي الله ابي الحسن الشاذلي الشهير
الذكر صاحب حزب البحر ومن كراماته ما اخبرني به الشيخ ياقوت
عن شيخه ابي العباس ان ابا الحسن الشاذلي كان يحج كل سنة فلما كان

منتـخب الرحلة لمؤلف مـجـهـول رقم 22741 ، وقع الفـراغ منه في 4 ذي القـعـدة 1102 الورقـة الأولى. وهذه النسخة غير اخرى طبعت على الحجر بمصر عام 1278=1861 وتعتبر كذلك في عداد المخطوطات...

ثم سافرت راجعا من بلادهم فرأيت خيل البحر على الساحل
نرعى وهي أضخم من الخيل ولها أذناب وأعراف ورؤوسها
كالخيل وقوائمها كالفيلة وبلغني أن لأحد سلاطينهم غضب
على رجل من البيضان فنفاه إلى بلاد السودان الكفار
وهم يأكلون بني آدم فمكث ذلك الرجل سنين بينهم ثم عاد
وما أكلوه لكونه غير نضيج في زعمهم وهم يقولون الأسود
نضيج والأبيض غير نضيج فيضر أكله وفي بلادهم معادن
الذهب ثم وصلت إلى مدينة تنبكتو بضم التاء المثناة وسكون
النون وضم الباء الموحدة وكان سكونه بناء أيضا مضمومة
وبينها وبين النيل أربعة أميال ومن تنبكتو ركبنا النيل
في قارب منحوت من خشبة واحدة كنا ننزل كل يوم بالقرى
ونشتري الزاد بالملح والعطر إلى أن وصلنا إلى مدينة كوكو وهي
مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان ثم سرت
منها إلى بردامة بضم الباء الموحدة وسكون الراء وهي قبيلة من
البربر تسير القوافل في خفارتهم ثم وصلنا المدينة تكدا بفتح
التاء المثناة والكاف والدال المهملة مع تشديده وهي كثيرة
العقارب وتكدا أبنيتها بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن
النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها إلا اليسير
وعقاربها تقتل الأولاد إذا لسعتها وقلما لا يتضرر منها شيء
وأما الرجال فقلما تقتلهم وأهلها لا شغل لهم إلا التجارة بأرض
مصر ويأتون منها بالثياب الحسنة ويتفاخرون بكثرة العبيد
والخدم

والخدم ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض
ويخرجونه ويسبكونه قضبانا في طول الشبر يتعاملون به
ويخدم في ذلك عبيدهم وخدمهم ويحمل النحاس منها إلى بلاد
كفار السودان واجتمعت بسلطانها وأكرمني وأهدى إلي بعض
شيء ثم كررت راجعا إلى سجلماسة فسافرت من تكدا في رفقة
إلى توات وبينهما سبعون مرحلة يحمل فيها الزاد لأنه ليس في
الطريق إلا اللبن والسمن يشترى بالأثواب فوصلت إلى كاهر
من بلاد السلطان الكركري وهي كثيرة الأعشاب وسرنا منها
في برية لا عمارة بها ولا ماء ثلاثة أيام ثم سرنا خمسة عشر يوما
في برية بها الماء لا عمارة بها ثم وصلنا إلى موضع يفترق منه
الطريق إلى غات الآخذ إلى ديار مصر وإلى الطريق الموصل إلى توات
وهناك أحساء ماء تجري على الحديد إذا غسل الإنسان به ثوبه
اسود ثم سرنا عشرة أيام إلى دهكار وهم طائفة من البربر لا خير
عندهم فسرنا فيها شهرا وهي قليلة النبات ثم وصلنا إلى بودا بضم
الباء الموحدة وهي من أكبر قرى توات ثم وصلنا مدينة سجلماسة
وهي باردة كثيرة الثلوج وسرنا منها إلى حضرة فاس فألقينا عصي
الأسفار والله مقلب القلوب والأبصار والحمد لله وحده
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا
دائما أبدا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين ووافق الفراغ
من هذه النسخة يوم الثلاثاء المبارك رابع شهر القعدة سنة [illegible]
ألف ومائة واثنين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

الورقة الأخيرة من منتخب الرحلة لمؤلف مجهول

30- منتخب الأزهري 1278 :

وقد طبع هذا "المنتخب" في القاهرة أواخر ربيع الأول 1278=1861 على نفقة أحمد أفندي الأزهري بتصحيح الشيخ علي المخللاتي، ويقع في 79 صفحة، ولذلك يعرف هذا "المنتخب" باسم منتخب الأزهري، وتعتبر أيضًا في عداد المخطوطات. ونرى كذلك من المفيد أن نورد ما جاء في مقدمة (المنتخب) فيما يلي :

"... وبعد فهذا ما "انتخبته" من مختصر رحلة الإمام العالم الرحّال السايح في البلاد أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المغربي المعروف في البلاد المشرقية بالشيخ شمس الدين، وهو الذي طوّف الآفاق معتبرًا، وطوى الأمصار مختبراً وباحث فرق الأمم، وسِيَر العرب والعَجَم، التي اختصرها وضبط مشكل ألفاظها الشيخ الامام العلامة محمد بن محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي المغربي باشارة أمير المؤمنين المتوكل على الله سلطان الحضرة الفاسية..."

31- نسخة ضُومْباي النّمساوي؟

لقد وردتِ الإشارة إلى هذه النسخة ضمن رسالةٍ بعثها بتاريخ 26 محرم 1200 = 29 نونبر 1785 أحدُ النساخ المغاربة إلى الديبلوماسي النمساوي ضومباي الذي كان يعمل بسفارة النمسا بطنجة، وكان يهتم باقتناء المخطوطات ... في هذه الرسالة يخبر الناسخ المغربي زميلَه بأن رحلة ابن بطوطة الصغيرة كملت ودفعت للسفّار أي المجلّد، فماذا عن هذه النسخة "الصغيرة" وهل هي عمل جديد غير "المنتقي" و"المنتخب" (26) ؟

وهكذا نستشفُ من خلال كلّ هذا أن هناك اهتماماً زائداً بالرّحلة عبر العصور سواء من لدن الحكام أو من لدن العلماء و المثقفين بحيث إنه لم تخْلُ فترة من الفترات دون أن نجد فيها أثراً للرحلة نسْخاً أو بيعًا أو شراءً ... بل إنَّنا كنا نلاحظ في بعض الأحيان أن تواريخ النُّسَخ تتقارب فيما بينها، ومعنى هذا أن هناك طلباً متوالياً على الرحلة من طرف هُواتها والمعجبين بها، من طرف الذين وجدوا فيها ما يُرضي استطلاعهم ويزيد في معلوماتهم عن عالم العروبة والإسلام ...

(26) عند زيارتي للخزانة الوطنية في ڤيينا أكتوبر 1986 حاولتُ أن أجد أثراً لهذه الرحلة الصّغيرة ضمن مخلفات ضومباي هناك، وهي كثيرة، لكني وجدت عوضها رحلة لمغربي آخر متأخر عن ابن بطوطة، هو المتيوي الذي رحل صحبة الملك محمد الثالث ت 1204=1790 إلى جنوب المغرب ...

ما بين الصفحة 3 و 4

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

[illegible]

ليست "المنتقى" وليست "المنتخب" ولكنها الرحلة "الصغيرة" فماذا يعني بها الكاتب المغربي ؟

الأربعة الذين كانوا
وراء إنجاز الرحلة

1) السلطان أبو عنان

عندما يذكر التاريخُ المعالمَ الحضارية التي شيدها السُلْطان أبو عنان (759 هـ 1358 م) بن السلطان أبي الحسن بن السلطان أبي سعيد بن السلطان يعقوب بن عبد الحق مؤسس دولة بني مرين، وعندما يذكر التاريخُ مجالسَه العلمية التي كانت أشبه ما تكون بدور الحكمة بالأمس أو بالأكاديميات كما نسميها اليوم، وعندما يذكر التَّاريخُ الأصداء العظيمة التي تركها أبو عنان على الساحة الدّولية بما وقّعه من اتفاقيات وما أبرمه من معاهدات، وعندما تتحدث مصادر التاريخ عن أسطوله الذي كان يقوم بنفسه على بنائه، وعندما نذكر حِسَّه السياسي المرهف وحزمه في ممارسة الحكم وعندما نذكر هوايته الرياضية المفضلة : القنْص بالصَّقر...

عندما يذكر الناس كلَّ هذا فإن من واجبهم أن يذكروا إلى جانب تلك المناقب والمحامد عملاً آخرَ لا يقلُّ - إن لم نقل إنه ينافس- عن تلك الأعمال أو يفوقها، ذلك العمل هو الأمر الذي أصدره -وهو بفاس- بانتساخ رحلة ابن بطوطة وجعْلها في متناول القراء بالرغم مما ظهر من بعض معاصري الرحالة المغربي من أمثال ابن خلدون الذين شككوا في مصداقية الرحلة وقصدوا الوزير ابن ودرار في محاولةٍ لكتم أنفاسها !

لقد تأكد أن القرار الذي اتخذه العاهل المغربي كان قراراً عظيمًا ورائدًا، وكان وراء تخليد اسم أبي عنان بالرغم من أن حكمه لم يتجاوز عشر سنوات !! فها نحن اليوم نعيش مع اهتمام رجال الفكر كلِّهم سواء كانوا عربًا أو عجمًا... بهذه الرحلة التي كانت بالفعل حدثاً فريدًا من نوعه، حدثاً ربط تاريخ المغرب لأول مرة بتاريخ بقية العالم، بما في ذلك الجهات النائية، وبما في ذلك بعض الجهات التي لم تكن تدين بالإسلام. وهكذا وجدْنا أن الرحلة تمثّل جسرًا متيناً يجسد الحوار بين الحضارات في دول المعمور سواء في القارة الافريقية أو الأسيوية أو الأوروبية. ومن ثمت كان لها بُعد دولي واسع أعطى للعاهل المغربي فرصةً ثمينةً لكي يخلد اسمه عبر التاريخ كنصيرٍ لحرية الفكر وكمنقذٍ للتراث ومشجع للإبداع، ويكفي أن نعرف أن الفكر الحديث يعتبر أن ابن بطوطة ثالث ثلاثة رفعوا اسم المغرب عاليا بعد ابن رشد وابن خلدون وأنه أي ابن بطّوطة أكبر رحالةٍ في التاريخ البشريّ كله على حد قول أندري ميكيل(1) !!

وقد استمعنا إلى الكاتب الفرنسي الأكاديمي جان دور ميصون (J. D'ormesson) (مارس 1995) أثناء حفل تكريمي حاشد "إشادةً كبيرة وعظيمة وعطرة بمركز ابن بطوطة المؤرخ والجغرافي والاجتماعي الذي كان ممّن "استطاعوا أن يؤثروا عَلَيَّ - يقول دُورْميطون- بمفاتن إبداعهم، الأمر الذي لم يظهر أثره فقط على ما كتبتُه ولكن ظهر فيما كنت أستوحيه

(1) عبد الله عنان : ابن بطوطة أعظم الرُّحل في العصور الوسطى (العربي) 1981.
.Gallagher, charles F. The United states and North Africa, Harvard 1963 P.49
أندري ميكيل : العرب الاسلام واوروبا ... - بيروت 1993 ص 252.

مما دوّنه ابن بطوطة الذي كان في صدر الذين أعطوا للإسلام بُعداً دولياً فيما يتصل بعظمته وتسامحه..."

2) ابن وُدْرار

كان في أبرز ما لفت نظرنا من سيرته أنه الوزير الحصيف الذي أنصف ابنَ بطوطة وأرجع ابنَ خلدون إلى صوابه فيما يتعلق بمصداقية الرحلة.

كان أبوزيان فارس ابن ميمون ابن وُدرار الحَشَمِي (2) قائداً مموقاً لدى السلطان أبي الحسن، ومن هنا رشّحه للقيام بالسفارة عنه لدى الملك الناصر محمد بن قلاوون بمصر في أعقاب استرجاع السلطان أبي الحسن لملكه على تلمسان وبجاية عام 737=1337، الأمر الذي ردّدت صداه ممالك إفريقيا على ما تؤكده كتب التاريخ.

وقد تضمنت الرسالةُ التي حملها ابن وُدرار إلى العاهل المصري أخباراً جدَّ هامة عن الحالة في الغرب الإسلامي (3).

ثم أصبح ابن وُدرار وزيراً ملازماً للسلطان أبي عنان بعد تمكنه من الحكم عوض أبيه، فكان السلطان يعهد إليه بالمهمات الجسام، وهكذا نجح عام 753=1352، في المهمَّة التي عهد بها إليه في معركة أنكاد ... كما نجح في تطويق حركةٍ قامت جنوب المغرب عام 754=1353 حيث أنشأ مدينة أسماها (القاهرة) أحكم بها الحصار على المتمردين هناك !

وبعد أربع سنوات، أي في عام 758=1357 عُهد إليه بإخماد ثورةٍ للحفصيين بتونس فجاءوا إليه مهطعين.

وهكذا بلغ ابن وُدرار منزلةً لم يبلغها أحدٌ في الدولة، وهنا حصل ما يمكن أن يحصل عندما يشعر القائد، أيُّ قائد، بأنه أمسى في موقعٍ "لا يمكن الاستغناء عنه فيه"، بل وبأنَّ في استطاعته أن يصبح الرقم الواحد في الدَّولة ! . ولَم يكن السلطان أبو عنان من الملوك الذين تغيب عنهم "الهواجس"، وهكذا فما لبث الوزير أن فوجيء بمداهمة بيته والإجهاز عليه والناس يحْتفلون بعيد الأضحى من عام 758 (أواخر نونبر 1357) (4)

---

(2) نسبة إلى (الحَشم) وهم في الأصل هيأة أنشأها يوسف بن تاشفين عام 470هـ من جزولة ولمطة وقبائل زناتة ومصمودة وضمت جموعاً كثيرةً سماها بالحَشَم، انظر الحلل الموشية – طبع بالرباط، معهد العلوم العليا المغربية – 1936 ص 21-22.

(3) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 209 - 210 – رقم الايداع القانوني 1986/25.

(4) الناصري : الاستقصا، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954 ج III ص 203 .

3) ابن جزي

وتاتي الشخصية الثالثة التي كان سبب ظهورها على الساحة حدثًا وقع على سبيل الصدفة ! ويتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزَي المولود بغرناطة سنة 721=1321.

لقد اجتمع هذا الرجلُ بالرحالة المغربي في غرناطة، وبالضبط في بستان أبي القاسم ابن عاصم حيث انتظم لقاء نزهة جمع عدداً من وجوه العاصمة الاندلسية، ووجدنا أن ابن جُزي يعرب عن ارتياحه للاستمتاع بأخبار رحلة ابن بطوطة، ولم يتردد في الاعتراف بأنه "قيَّد عنه في ذلك البستان أسماء الأعلام الذين لقيّهم ابن بطوطة في الرحلة، وأنه استفاد منه فوائد عجيبة.." وبهذه المناسبة سأل ابنَ بطوطة عن مولده فأخبره بأنه ولد بطنجة يوم الإثنين17 "رجب 703 (5). ولا ننسى أنَ ابن جزي هذا كان على ذلك العهد في خدمة أبي الحجاج يوسف ابن الأحمر النصري ملك غرناطة الذي كان يطرب لأدب الكاتب وفكاهته (6)...

"وإذا أراد الله أمراً هيّأ له أسبابَه "كما يقولون. فقد حدث أن تعرض ابن جُزي لظلمٍ لحقه من مَلِكه أبي الحجاج في أعقاب وشايةٍ آثمة، ولم يتحمل ابن جُزَي إهانة السوط فالتحقَ بالمغرب «في آخر عام ثلاثة وخمسين» حيث وجد من السلطان ابي عنان ما كان يرجوه...

وقد كان ابن جُزَي في صدر الذين قالوا الشعر في "الزاوية العظمى" (7) التي بناها السلطان أبو عنان على ضفاف وادي الجواهر.

وقد شرع في تأليفٍ حول تاريخ غرناطة. وقف لسان الدين ابى الخطيب على بعض أجزائه عام 755=1354 بمناسبة سفارته لدى السلطان أبي عنان.

وعندما قرّر السلطان أبو عنان استنساخ رحلة ابن بطوطة لم يجد في مجلسه أفضل من الكاتب ابن جُزَي صاحب الخط الرفيع البديع سيّما وأنه قام -على ما أسلفنا- بالخطوات الأولى وهو في غرناطة، وهكذا امتثل الأمر على ما كان به من علة لم تمهله. وهكذا كُتب لابن جزي أن يستمر ذكره عبر الأرجاء رغم عمرٍ قصير لم يتجاوز ستّا وثلاثين سنة (8)...

(5) رحلة ابى بطوطة (13,I) .

(6) ابن الخطيب : الاحاطة، تحقيق عبد الله عنان 1394=1974 ج 2، ص 256.

(7) حول الزاوية العظمى وشعره فيها انظر المقري : أزهار الرياض ج 3 ص 196 طبع المملكة المغربية وصندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بالإمارات العربية المتحدة 1398=1978. وانظر ابن الحاج النّميري في كتابه فيض العباب ص 206 ومابعدها... دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990

(8) توفي ابن جُزَي يوم 29 شوال 757، ودفن وراء الجدار الشرقي للجامع الأعظم بفاس الجديد، هذا ويذكر أن لابن جزي شعراً في صراع الأسد مع الثور، (المصدر السابق) 3، 194. كما نذكر من شعره قصيدةً طويلة لم يستعمل فيها حرف الراء، ابن حجر : الدرر الكامنة 1395-1966.

4) ابن بطُّــوطــة

سيكفينا هذا الرجل أمر التعريف بنفسه من خلال ما حكاه هو عن سيرته الذاتية. وهكذا فإننا لا نجد عنه شيئًا سوى ما ورد عن لسان الدين ابن الخطيب (ت 776=-1375-1374) في الإحاطة من معلومات جدّ محدودة، على خلاف صنيعه مع ابن جُبير الذي ينتمي لبلدته والذي خصص له لسانُ الدّين عشر صفحات كاملة !! وسوى ما ورد عن ابن خلدون (ت 808-1405-06) في مقدمته، وما ورد عن ابن حَجَر (تـ 852=1448) في الدرر الكامنة من معلومات أضافت بعض العناصر المفيدة على نحو ما قرأناه عن التمجروتي عام 997=1589 في "النفحة المسكية"، والمقّري (تـ 1041=1632) في "نفح الطيب..."

لكن ما دوّنه في رحلته كان كافيًا وحده ليعطي فكرةً مدققة عن الرجل من نشأته بطنجة إلى أن استقبله بفاس السلطان أبو عنان، وإلى أن صحِب ركبه وهو عائد من مراكش يحتمل شلْو أبيه... فكرة مدققة عن صفاته، عن شخصيته، عن إبائه، عن حالته الاجتماعية. وتبقى بعد هذا نحو ثلاث عشر سنةً من حياة الرجل ظلت تفاصيلها غائبةً عنا لم نعرف عنها شيئا، عن أهله وعن نسله سوى أنه يزاول القضاء في إقليم تامسنا الذي يعتبر من أوسع وأغنى الأقاليم المغربية في مملكة فاس (9)... لقد خفت صوته بإختفاء وليّ نعمته السلطان أبي عنان.

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللّواتي الطنجي الملقب في المشرق بشمس الدّين والمكنّى عندي بأبي أحمد لوجود ولد له يحمل هذا الإسم (10)... ومعلوم أن (لواتة) قبيلة واسعة الانتشار في مصر يؤكد المقريزي أنها عربية (11).

وُلِد بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703 = 24 بيراير 1304، ويبدو أن الأسرة تنسب إلى سيدةٍ كانت تحمل اسم فاطمة : عادةً معروفة من قديم تنسب الناس إلى أمهاتهم، وتتحول فاطمة في المشرق – تدلّلاً – إلى بَطة، ونحن نعرف عن ابن بَطة العُكْبَرى (تـ 387)، وتُمسي بطَّة في المغرب بطُّوطة كسفُّودة على ما في تاج العروس للزّبيدى (فصل الباء من باب الطاء).

وبيت ابن بطوطة معروف على أنه بيت علْم وقضاء... ونعرف أن طنجة نفسَها كانت

(9) ابن الوزان : وصف إفريقيا ج 1 ص 151 ترجمة حجي والأخضر، الرباط 1400 = 1980.

(10) بعض المخطوطات لقبته ببدر الدّين اعتماداً على ما لُقّب به ذات مرة في الهند، وبعضهم نعته بشرف الدّين، ومن المخطوطات من سمته أحمد أو نعتته بالشريف أو حرفت اسمه إلى بوطوطة.

(11) المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، هذا ويستفاد من مذكرات السفير المغربي محمد ابن عثمان (مخطوطة) حول مهمته بمالطة أن اللواتيين الطرابلسيين هم اخوة للّواتيين أصحاب مالطة ! وأن سبب افتراق الأخوة يرجع لاعتناق الدّين النصراني... ويوجد موقع جغرافي على مقربة من مدينة صفرو (إقليم فاس) يحمل اسم ولاته كان معتقلا سياسيًا لنا عام 1944 في أعقاب المطالبة بالاستقلال...

مرفأ دوليًا هامًا يتوفر على كلّ مقومات الحضارة. وقد عرفنا عن استقبالها للشعراء أمثال أبي الحسن الحُصْري صاحب القصيدة التي مطلعها : «ياليل الصبّ متى غده» كما عرفنا عن ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي رحل إلى المشرق وعاد لطنجة ومات بها، وقد وقفنا في البرتغال على نص ملكية لبعض مخطوطات (قضاة قرطبة للخشني) : وهو هكذا "ملكه محمد بن محمد بن عبد الرحمن اللّواتي الشهير في طنجة بابن بطوطة "وسنقرأ حديث ابن بطوطة، وهو في رُنْدَة، عن ابن عمه أبي القاسم محمد بن يحيى قاضي المدينة.. كما نعرف عن أسرة البطوطي التي وضع أحد أفرادها بفاس قطعة أسطرلاب فائقة الدقة (12).

وبعد عودة ابن بطوطة إلى المغرب، وبعد إفلاته من اشاعة "تناجي" بعض المعاصرين حوله على ما أشرنا أمسى من جلساء السلطان أبي عنان الذي أصدر أمرًا لكاتبه ابن جزيّ بتدوين رحلة ابن بطوطة. قبل أن يتقلد هذا الأخير منصب قاضي إقليم تامسنا.

وقد وجدنا في (نفاضة الجراب) للسان الدين ابن الخطيب رسالةً موجّهة من هذا إلى القاضي ابن بطوطة. وكان ابن الخطيب قرَّر عندما التجأ إلى المغرب عام 760=1359 أن يستثمر أمواله في منطقة نفوذ ابن بطوطة، وكانت تامسنا تابعة لمملكة فاس على ما يقوله الحسن ابن الوزان (13).

وإذا كان مترجموه أهملوا الحديث عن ظروف وفاته، فإن الحافظ ابن حجر سالف الذكر في "الدرر الكامنة" (100،4) يفيد أن ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين وأدركته وفاته وهو متولٍ للقضاء يعني حتى عهد السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن أخي السلطان أبي عنان مما يعني أنَّ أجله أدركه بتامسنا التي كانت عاصمتُها آنذاك أنْفا وليس بفاس ولابطنجة ...(14)

ولله در مولانا جلال الدّين الرومي (672=1273) عندما يقول : "حينما نموت لا تبحثوا عن قبورنا في التُّراب ولكن ابحثوا عنا في قلوب الناس!!"

لقد كان رحله دائماً على استعداد، وهو لا يفتأ متنقلا باحثاً عما يضمن له الزاد في

(12) ياقوت : المشترك وضعاً ص 295 – د. التازي : التاريخ الديبلوماسي للمغرب ج 7 ص 52.

(13) لقد أمسى لسان الدّين ابن الخطيب قليل الثقة بالمستقبل السياسي للأندلس، ولذلك وجدناه إلى جانب قراره بالالتجاء إلى المغرب يوصي أبناءه في تلك الظروف العصيبة بقوله : "مَن رُزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد الذي لا يصلح لغير الجهاد فلا يستهلكه أجمعَ في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والإحتقار، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده في الافتضاح والانتهار ومعوقاً عن الانتقال...

أحمد مختار العبادي : النّزعات الاقتصادية لابن الخطيب مجلة كلية الآداب، الاسكندرية 1958.

(14) يؤكد الشيخ سكيرج في (رياض البهجة في أخبار طنجة) (الخزانة الصُّبيحية – سلا) أن القول بوجود القبر بحومة أجز نّاية بطنجة يبقى أضغاث أحلام ! ويقتدي به في هذا الاستاذ عبد الله كنون في سلسلته "مشاهير المغرب" الحلقة 25 – A.AQALAY : TANGER, Porte du Maroc 1956-57

لتعلم سيادة القاضي شمس الدين معلم الجوانب الحسبية والبادي من أبقاها الله
تحاكي الشمس في الجولة وكظهور الصولة والحكم على الدولة وإصلاح حال العولة أن من جب
حقها وشانها بوفقها والعائد بجمعها من وفقها لما انتبذ وانقطع وافتك من جانب العزلة
والتخلي ما اقتطع وفيه لاح نور الرضا بقضاء الله ويطمع أمل أن يكون بجفنه ومن الراحة حتى
تنه من الجراحة وإن أعوز المعاش اختدت الفلاحة وتخيرت في البقع بقعة يؤنس بها
جوار كريم ويؤمن جنب غريم أو لئيم غريم ولم يقع الاختيار إلا على البقعة التي لها الفضل
بسكنى شمس الدين بين جدرانها ووقوف ركائب الاستيفاء بين تخومها ومقراتها والتزمت
وارتبطت واخترت واغتبطت ووجهت تقتني لشراء ما يعين على الدهر ويستعد للفلاحة
والبدء رخوا أن يخرج يونه فيه يتبع سوقه ويجاوز زرعه ببضاعته قومه وعندي أن القاضي
إذا تحقق أن جواره هو المطلوب الأول والفضل الذي عليه المعول يتقيد معه الفرض بوزنه
الذي لا يتأول ويتبع مشاركته بكل وجه من وجوه الإعانة بمقتضى الفضل والديانة حتى
يحصل ببركته ثمرة الفلاحة حسا وثمرة الفلاح معنى وتعتضد للزيادة الحسنى وتأنس
بهذه اللبنة من قربه للمبنى ويدعو التمعشر في جواره إلى العشرة والسكنى والتمتع بفضله
الأسنى ومزية مثله إلى البعض بعده ثم كفيلا أو جنح إلى بيت مثله آثار مجد أصيلا وفرى
جميلا وما يصدر عن محله من وقوف الظن به مقابل من الثناء بأجمل صورة ومن الحمد بأعز
صورة والسلام

خطاب لسان الدين ابن الخطيب لصديقه شمس الدين ابن بطوطة قاضي تامسنا - نسخة خاصة.



تامسنا الأمس قدر لها أن تكتسب اليوم هذه المعلمة الحضارية الكبرى "مسجد الحسن الثاني"

الحل والترحال.. وقد كان يصدق عليه قول ابن زُريق البغدادي في قصيدته :

مــا آب من ســفــرٍ إلا وأزعــجــه
رأيٌ إلى ســفــر بالعــزم يجــمــعــه
كـــأنّـمــا هـو من حِلٍ ومــــرتحل
مـــوكّل بفـــضــــاء الله يذرعـــــه !
إذا الـزمـــــان أراه بـالـرحــــيـل غِـنـى
ولـو إلى السّـنـد أضــحـى وهـو يُزمــعـــه !!

لقد قام ابن بطوطة برحلاته العديدة التي كان يستهدف فيها أحياناً لسائر أنواع الامتحان، ويتعرض للخطر في عددٍ من الحالات...، وحتى عندما قام بزيارة الأندلس وبلاد السودان، لكنه نجا من جميع تلك الأهوال فكان لسان حاله ينشد قول الشريف الادريسي :

دعْني أجُلْ ما بدتْ لي — سفينةٌ أو مطيه
لا بدّ يقطع سيري — أُمـنــةٌ أو منية!!

وإن الذين يسمحون لأنفسهم بتحْجيم ابن بطوطة والإدعاء بأنه كان محدود الثقافة كانوا بعيدين عن الحقيقة..ولعل بعضهم ظُلِّل بما قرأه عن تكليف السلطان أبي عنان للكاتب ابن جُزَي بترتيب الرحلة..حيث وجد في ذلك ما يعبر ـ ربّما ـ عن "عجز" ابن بطوطة عن القيام بالمهمة...! وهذا خطأ"بيّن، تكشف لنا عنه أولاً الصفة التي رَشّحت ابنَ جزي للقيام بهذا العمل والتي أشار اليها المقّري في (النفح) "بأنه أي ابن جزي، إنْ كتب أربى على ابن مقلة بخّطه..." وثانيًا ما أضفاه ابن جزي نفسُه في المقدمة على ابن بطوطة من كل الاوصاف التي تؤكد عن عُمق معارف الرحالة: فهو "الشيخ، وهو الفقيه وهو الثقة وهو الصدوق، وهو الذي باحث فِرَق الأمم، وسَبَر سيرَ العرب والعجم، ولم أتعرض ـ يقول ابن جُزَي ـ لِبحثٍ عن حقيقة ما قال لأنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك...!

ونريد أن نقول، ونحن نقف إلى جانب من يقتنعون بالمركز العلمي الموموق للرحالة المغربي، نقول : إن القرار الذي اتخذه السلطان أبو عنان بالإعلان عن مصداقية الرحلة وأهميتها لم يكن قرارًا ارتجاليًا أو عاطفيًا، ولكنه كان وليد استمزاج رأي أعضاء المجلس العلمي الذي اعتاد السلطان أن يركن إليه كلّ مطلع شمس، ذلك المجلس الذي كان بمثابة أكاديميةٍ حقيقية يلجأ إليها العاهل عند الحاجة، وقد قرأنا فيما سجله الكاتب ابن جُزَي في مقدمة الرحلة أنه "لا تقع في مجلس أبي عنان مسألة علمية في أيّ علم كان، إلا حل مشكلها

وباحث في دقائقـها واستـخـرج غـوامـضـها واسـتـدرك على علمـاء مـجلسـه مـا فـاته من مغلقاتها..فكانت مجالسه لا تخلو من مباحثات ومناظرات...

وقـد ذكـر العـلامـة المؤقت أبو زيد عـبـد الرحـمن الجـاديري (ت 938 = 1534) نقـلاً عن شيخه الرئيس أبي الوليد اسماعيل بن الأحمر (ت 807 = 1405) في شرحه لقول البوصيري :

لعلَّ رحمةَ ربي حين يَقسمها تأتي على حَسَب العِصْيان في القسم

ذكر ما يؤكد أن ابن بطوطة كان مـعدودًا في صـدر أعضـاء ذلك "المجلس الأكاديمي". وقد وقع الكلام بين يدي السلطان أمير المؤمنين أبي عنان...في مقعد ملكه من المدينة البيضاء من حضرة فاس بمحضر الفقهاء والعلماء والأساتذة والقضاة والشرفاء والخطباء وأصحاب العلوم... وأخذ الرئيس أبو الوليد يعددهم واحدًا واحدًا إلى أن قال: وشيخنا الفقيه القاضي الخطيب الحاج الكثير الجولة بالمشرق والمغرب وجميع البلاد محمد ابن بطوطة الطنجي العارف بالتاريخ..." على مانذكره في الملاحق.

ومعنى هذا أن الرحالة المغربي كان معدودًا في صدر رجالات الفكر والعلم والدولة جميعًا (15)

وللمتتبع لغضون الرحلة أن يقف بنفسه عند الخطوات الأولى للرجل، وهو يودّع طرابلس، عندما تقدم على سائر رفاقه وفَرَض نفسه على بقية أعضاء الركب.

وإن ابن بطوطة، وهو ما يزال في بداية طريقه، في الاسكندرية أخذ عن الشيخ ياقوت تلميذ أبي العباس المرسي، فهو شادلي بالواسطة و قد حصل في دمشق على نحو من ثلاث عشرة إجازة، وفيمن أجازوه أم عبد الله زينب بنت الكمال المقدسية، ولقد كان حريصًا على أن يذكر أسماء الذين أجازوه في أرض الشام، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على " انتساب" الرجل إلى بيت العلم والفقه والحديث...

(15) الكتاني : السلوة II ص 157. العابد الفاسي : الخزانة العلمية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط 1960. التازي : تاريخ القرويين 2، ص 502 طبعة بيروت 1972. زمامة : أبو الوليد بن الأحمر، دار المغرب 1979 ص 296.

16) قال في التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية تعليقًا على ملاحظة ابن بطوطة للحن خطيب الجمعة التي ذكرها للاعتبار : وفي ذلك يقول الشيخ عثمان بن سعد المالكي الشهير آخر فضلاء البصريين :

قد كانت البصرة الفيحاء من قِدَم مجْرىً لأبْحـرُ نحو تقذف الدُّرَرَا

فاصبحت وهي صفراء الوشاح فلاَ نحويّ فيها سوى نَزْرٍ، وهم فُقَرا !!

ولا بد أن نستمع إلى الانتقاد المر الذي وجهه الرحالةُ العالِم لِخطيب البصرة الذي لم يحترم قواعد النحو التي إنما عرفت ازدهارها ورواجها بين البصرة والكوفة (16) .

ولْنتتبع زيارته لبغداد حيث نجده بالمدرسة المستنصرية يحضر مجالس الامام الشيخ أبي حفص القزويني الذي كان يتناول بالدرس مسند الدَّارمي ...لقد كان حاضرًا في مثل هذه المشاهد بذاكرته وبحسه يعترض على ما يسمعه أحيانا إذا لم يقتنع، ويصحح ما يرى أن غيره جافَى فيه الصواب.

وهو في بلاد فارس اغتنم الفرصة لاستجماع حصيلة كبرى من المعارف والاتصال بأكبر عدد من رجالات الحديث والفقه والتصوف. وقد كان يعرف كيف يتحبب الى الناس ويتقرب إليهم بما أُوتيه، هو نفسه، من خصال العلماء وفضائل الفقهاء.. وهكذا وجدناه يضيف إلى إجازاته في دمشق إجازاتٍ أخرى من بعض رجال العلم والفضل في إصفهان.

أكثر من هذا، استمعنا إليه يخبرنا عن تأليفٍ له جديد، غير هذه الرحلة، وهو خبر طريف، ويتعلق الأمر بتصنيفٍ طَلَب منه أحد الملوك في آسيا الصغرى : سلطان بِرْكي : أن يؤلفه له حول الحديث الشريف...

وما من شك في أن المرء لا يجرؤ على حمل القلم للتدوين في موضوعٍ كهذا دون أن يكون متوفرًا على زادٍ من العلم كبير...

وقد قرأنا بعضًا من قصيدته اللاَّمية في مدح السلطان وهو بالهند:

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبةً — لكُنتَ لأعلاها إمامًا مؤهَّلا

فانت الامام الماجد الأوحدُ الذي — سجاياه حتمًا أن يقول ويفعلا!!

وكان مما يدل على مكانة الرجل العلمية ما كنا نتحسسه من خلال مذكراته مما كان يعَبِّر فعلاً على أنه أطروفة من أطاريف الزمان وأنّه ليس إمّعةً يردد ما قاله الآخرون دون تمحيص. ولأضرب مثلاً بما ينقله أحياناً عن ابن جبير من معلومات، فهو عند حديثه مثلا (I، 201) عن فوائد مستغلات جامع دمشق في كلّ سنة، يقدر ذلك بنحو خمسة وعشرين ألْفاً دينارٍ ذهبي من سكة بني مرين، وهكذا نجده يحول تقديرات ابن جبير البالغة خمسة عشر ألف دينار من سكة بني عبد المؤمن... وقد فعل ذلك لتيْويم المعلومات أي جعلها مواكبة لعصره...

وهو إذ يستأنس بابن جبير أيضًا، نراه لا يردد ما أفاده سلفه من أن خطبة الجمعة تتضمن الدعاء للخليفة. وخلافًا لذلك نجده يتحدث عن الدعاء لملك مصر لأنَّ اليوم غيرالأمس والحكام الحاليون ليسوا هم الحكام السابقين !!

وإذا كان ابن الخطيب في الإحاطة نسب اليه المعرفة بالطب فإنه مصيب في ذلك نظرًا لما احتوته الرحلة من دلالات وشهادات... وابن بطوطة هو الذي لاحظ أنَّ أهل الهند لا يجعلون بيت المال عاصباً عندما تستكمل حصص الوارثين على عكس ما يوجد عند المالكية الذين يعتبرون بيت المال عاصبًا عند فقدان الوارث وهو ما كان يعتمده المغرب إلى عهد قريب.

وحديث ابن بطوطة عند التعزير عند الشافعية وأنه لا يتجاوز الحد. بينما نجد أن التعزير عند المالكية غير محدد، وان للإمام أن يجتهد فيه حسبما يراه ولو تجاوز الحدّ.

وقد رأيناه بين الفينة والأخرى يتحدث عن أن هذا الحكم يجري على مذهب الشافعية وذلك يجري على مذهب الإمام مالك الأمر الذي يجعل رحلته أيضا مصدرًا من مصادر الفقه الإسلامي. وقد سمعناه يقول وقد عرضت عليه وظيفة سياسية هامة : "إن القضاء والمشيخة شغله وشغل أبائه"... وقد تحدث فعلاً عن فقيه جليل هو أبو الحسن علي الأُنجرى الذي كان يتردد على والد ابن بطوطة بطنجة التي عرفت مجالس أمثال الشيخ أبي سعيد (17)

وما بالك بسائح يلْقى مكانةً رفيعةً عند الحدود المصرية ويستضيفه "أستاذ دار" الذي يُعهد إليه عادة بترصّدُ علِية القوم واداء فروض الاحترام لهم.

ومابالك بفقيه لم يتردد في استنكار ركوب الشيخ هود علي محفّة تحملها أكتاف فتيانه وكأنهم الحيوانات عوض أن يركب متون الخيل التي كانت تمشي مع الموكب مجنوبة ؟!

ولقد كانت آخر وظيفة له كما قلنا أنْ كان قاضياً في (أنفا) عاصمة تامسنا التي احتضنت عدداً كبيراً من رجال العلم والمعرفة ممّن ترجمت لهم كتب التاريخ من أمثال أبي الحسن ابن الرقاص الذي كان يقرئ بمدرسة أنفا التي بناها السلطان أبو عنان بالجامع الأعظم (18)...

وإذا كان ابن بطوطة إنما اشتهر بالرحلة التي توجد بين أيدينا، فإن صاحب كتاب : "دليل مؤرخ المغرب الأقصى" يذكر أن لابن بطوطة تأليفاً آخر يحمل اسم (الوسيط في أخبار مَن حلَّ تِمَنْطيط)(19)، تكلم فيه على رجال المدينة المذكورة التي تقع في إقليم توات، وكانت

(17) A.L. de PREMARE : Maghreb et Andalousie au XIVe Siecle, Lyon 1981.

(18) هو أبو الحسن صاحب البيتين :

اذا كنت في شبْر من الأرض مُكرماً ونلت به عـزّاً وكنـت به صـدراً
فعدٌ عن المثوى وإن كـان مسقَطـاً فما أضيق المثْوَى وما أوسع الشّبْرا !!

(19) تقع تِمَنْطيط على بعد اثنى عشر كيلوميتراً من مدينة أدرار، وهي من مدن توات العلمية، وبها قبر العالم التلمساني الشهير محمد بن عبد الكريم المغيلي، احتلها الفرنسيون في نهاية يوليه عام 1900... ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 1 ص 69 طبعة دار الكتاب - الدار البيضاء 1960 - تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات ... المطبعة الملكية، الرباط 1381=1862.

أهلةً بالعلم في القرنين السادس والسابع الهجري ويقع التأليف في مجلد ضخم على ما أخبره به بعض علماء الإقليم ...

وقد كان مما لفت النظر في الرحلة أنَّ ابن بطوطة - بالرغم مما تقلب فيه من وظائف وما مرّ به من ظروف- لم ينس المغرب الذي ظل أمام مخيلته وبين سمعه وبصره.

وحتى نعرف درجة الحسِّ الوطني للرجل لا بد أن نلاحظ تصيّده الفرصة لذكر المغرب، فهو يفيدنا أن المغاربة شاركوا ضد هجوم القرامطة على الكعبة، وهي الحقيقة التي نجد لها صدى في المصادر القديمة للتَّاريخ الدّولي للمغرب...

ولم ينس أن يقارن بين (الصقورة) في المغرب وبين (سِيرْبِيدار) في فارس... ولم ينس أن يقارن بين نظام "الفيلاّت" في الصين ومثيلاتها في سجلماسة !! بل وبين قطع الأسطول والآجفان بالمغرب وعددها في الصين ... سواء منها الغزْوية او السَّفرية، أو الحربية والتجارية بالمصطلح الحديث.

ولقد عَلِقَت بمخيلته صور الأودية الكبرى بالمغرب، فهو يقارن وادي سلا ، بنهر مدينة إصطنبول... ولا يفوته أن يذكر بأنه يدّخر مذكراته التي يكتبها ليفيد بها مواطنيه بالمغرب... وعند ذكر الطيور وعند حضور الأسماك، وعند رؤيته للأواني الخزفية التي تُقدم إليه، لا بد أن يعتزَّ بالخزف الذي تصنعه الأيادي المغربية. وحتى في شكل الخصومات والمرافعات نجده يقارن بين شكلها ونوعها في بلاده الأصلية وفي الأماكن التي كان يتجول فيها...

ويُلاحظ أن الرجل كان في مستوى ما تنعم به بلاده من ذكرٍ جميل ولا بد أن نحضر معه ذاتَ يوم خروجه للأسواق ليقتني الملابس المناسبة لرحلة صيدٍ دعاه إليها السلطان. إنه كان يريد "أن يُظهر القوة والهمة"... لقد كان حريصاً على أن يمثل بلاده أحسن تمثيل إذْ كان عظيم الاعتزاز بهُويته المغربية في البلاط الهندي. وهو الأمر الذي ما يزال مثقفو الهند يذكرونه إلى اليوم، لقد كان يعلم أن بلاده، في ذلك العهد، كانت على وضع ممتاز، وأحسن على كلّ حال من وضع تلك الجهات، ولذلك فإنه كان يجيب عندما يسأل عن أصله : بأنه ينتسب إلى بلد أصيل اثيل وفي هذا الصدد لا بد أن نلفت النظر إلى نوع من المقارنات الطريفة والدالة على الحسّ الاقتصادي والتجاري الذي كان يتوفر عليه، والّذي يعبر عن شمولية شخصيته واكتمالها : قضية تتبُّعه للأسعار وتتبعه للمكاييل والمعايير والموازين، وقيمة العُملات حتى لَكأنك مصحوبًا بجريدةٍ تطلعك على أسعار ما يجري في السوق. وهكذا لم يكن الرحالة رجلَ فقهٍ وأحكام وأوراق، ولكنه رجلٌ مطلع على كل شيء.

فقد بدا مهتماً بقضايا الصرف والمقارنة بين العُملة في المغرب وغيره، عندما كان بمصر والبصرة، وتُركيا ... والهند، وكذلك المقارنة بين الرطل بالمغرب والمنّ في الجهات

الأخرى، والأوقية والدينار المغربي وما تَعرف عليه هناك مما سماه التَّنْكة... ولم يفته، وهو يتحدث عن دُور ضرب السِّكة في الصّين أن يذكر دُور السكة في بلاده المغرب. إن أسعار الخيول هناك غيرها في المغرب... وإن أسعار الفِراء في أرض الظلمة ترتفع إلى مبلغٍ هائل لا يتصوره شخصٌ نشأ في أرضٍ لا ترتدي الفراء .

وقد رأيناه أحيانا يربط بين المعلومات المتعلقة بآسيا والمعلومات المتصلة بإفريقيا السوداء... ومن هنا اعتُبرت الرحلة في العصر الوسيط دليلاً تجارياً للذين تهمهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه (21)

ومن الملاحظ أن الرجل كان يتأقلم بسرعةٍ زائدةٍ، فهو يتعلم اللُّغة التي يتكلم بها القوم الذين ينزل بساحتهم... وقد بدأ يفهم اللغة الفارسية قبل أن يتعلم التركية، لأن الفارسية كانت منتشرة في المنطقة كلّها حتَّى في بلاد الصِّين ويكتب اللّغتين بحروف عربية على ماكان عليه الحال...

وحتى إذا لم يحسن الكلام باللسان فان آذانه تلتقط ما يصلها من جملٍ وكلمات، ومن هنا وجدناه يردد بعض الكلمات التي تطرق سمعه بالفارسية والتركية(22) ...

وفي سائر الحالات فانه لم يكن يشعر بمركّب نقصٍ وهو يستعين بترجمانٍ ينقل عنه ما يريد أن يقول، وفي هذا الصدد ساق بعض النكت التي وقعت له مع بعض التراجمة من الذين يدّعون أنهم يحسنون اللغة !

ومن تأقلمه وجدناه يتناول التنبول منذ وصوله إلى دمشق وأثناء مقامه بمكة المكرمة وبافريقيا الشرقية وطول مقامه بالهند... إن سائر الأشياء كانت بالنسبة إليه مقبولة ما دامت ترضي مَن يوجد حواليه شريطة أن لا تخالف مبادئه.

ولم يفت ابن بطوطة أن يتعرف على جنسيات السفن التي كان يمتطيها للقيام برحلته، بل لم يفته أن يشيد بمن يستحق الاشادة إنصافاً وعدلاً، ويندد بمن كان سلوكه لا يُرتَضَى، لا فرق عنده بين مسلم ونصراني على نحو ما كان يفعله الرَّحالةُ ابن جبير والرَّحالة أبو حامد الأندلسي الغرناطي... ولقد أخذنا فكرة عن الحركة البحرية على عهده، كما عرفنا عن الأساطيل التجارية التي كانت لها الهيمنة على ذلك العهد، فقد كان يتنقل مع السفن الجنْوية والصّينية واليمنية والعُمانية والكطلانية ...

(21) د. أحمد مطلوب : الملامح الاقتصادية في رحلة ابن بطوطة، المجمع العلمي العراقي 1994.

(22) د. عادل خلف : معجم ألفاظ ابن بطوطة غير العربية – الملاحظات اللغوية لابن بطوطة 1994 مكتبة الآداب ، القاهرة. التازي : ابن بطّوطة استثمار عربي : المجمع الثقافي أبو ظبي – ماي 1996

ومن الملاحظ أنه أي ابن بطوطة لم يتـحـدث – وهـو عـائد إلى المغـرب – عن السـفن أو المراكب المغربية ، مع العلم أن السلطان أبا الحسن المريني كان في تونس يتوفر على عددٍ من قطع الاسطول المغـربـي، ولكنه أي ابن بطوطة فـضَّل أن يعـود، كـمـا نعلم، عن طريق أحـد المراكب القطلانية حتَّى لا يُحرج أحداً بمطلب...!

والحـديث عن المراكب يسلمنا إلى الحـديث عن الرياح الطيـبة وتحكّمـها في مـواعد السـفـر، وهذا مـوضـوع من الأهمـيـة بمكان، وقـد أصـبح ابن بطوطة من العـارفين بـالرياح والقنباص.

وقـد كوّن لديه الوضـع الاجـتـمـاعي للمـرأة ومـركـزها عند الأمم التي زارهـا أفكاراً لا تخلو من إطراف وإتحاف، وقد تحدث عن النساء المتجملات المتعطرات في مكة...

إذا قامتا تضوَّع المسك منهما   نسيمَ الصَّبا جاءت بريّا القرنفل !

وتحدث عن عفة المرأة وشفقتها وهو في خراسان، كما تحدث عما تبلغه المرأة من مكانةٍ ساميةٍ في بلاد الترك والتتر حتَّى أن القرارات لا تُصبح نافذةً إلا إذا صدرتْ عن أمر الخـواتين إلى جـانب السـلاطين !! وحتَّى بلاد السـودان والصـحـراء عندمـا تتـمـتـع السـيـدة بحريتها في التعامل الشريف... وعندما تتميز باستظهار القرآن في هِنَور من بلاد الهند !

انَّ الرحلة مـع ابن بطوطة في عـالم المرأة يجـعلك تشـعـر بأن الرجل نموذج للصـراحـة والبراءة معاً ، فهو رجلٌ مقروء مفتوح، وهو يسمّي الأشياء بمسمّياتها بدون لفٍّ ولا دوران، فكان يعبر بذاك عن قوة شـخـصـيةٍ عندمـا يحكي عمّا تُخفيه مكامِنه... لم يجد أيَّ حرج في الحديث عن الخـصومة التي شبَّت بينه وبين صـهره لزوجته الأولى الصـفاقسيّة... ولـم يجدْ مـا يمنعه لكي يقترح توقيف ركب الحاج في الجبل الأخضر حتى يحتفل بعُرسه على سيدة فاسية كانت ترافق والدها إلى مكة...!

ولم تكن هذه (الفاسية) هي الثانية والأخيرة في حلقات السلسلة الطويلة لزوجاته التي قد تكون بدأت من طنجة ! فقد تزوج بدمشق عند زيارته الأولى حفيدة لـمكناسـي كان مقيما هناك، وقـد عرفنا من أسـمـاء زوجاته الأسـيـويات (مبـاركة) و (الحـور نسب)، أمـا اللّاتي لم نعرف عن اسمهن فعددهن كثير وكثير!.

ويتأكد أن قلَّة السرّاج الذي يساعد على السَّمر هو الذي كان وراء الرحالة المغربي في البـحث عمن تُعوضه عن الحديث والسراج! وكما سنرى فإنه لم يشعر بأي خجل في المقارنة بين هذه أو تلك، ليس فقط من حيث الأخلاق والسلوك والعشرة ولكن من حيث إرضاء الرغبات الجنسية كذلك !

ولم ينس ابن بطوطة في كل مناسبة أن يهتم بكلّ ما يقوي الباءة ويساعد على المضاجعة !! فهو يتحدث دوماً عن الوصفات الطبّية التي تقوّي الظهر، ولا شك أن مثل هذه الشهادات مما يزيد في صدق المقولة السائرة بأن العرب يتميّزون عن غيرهم فيما يتصل بهذه الحقول !!

وفي هذا الصدد أيضا لم يغفل ابن بطوطة عن التّنويه بالسّيدات المَهرتيات (Les mahrattes) اللاّتي "كان لهنّ من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن". وقد شغله أمر اهتمام السلطان بالملكة (طايطو غلي) وحظوتها عنده دون سائر الخواتين حتى اهتدى للسرّ الذي حاول أن يصل إلى حقيقته !!

ولا شك أن هذا الحديث يتبعه الحديث عن الذّرية التي خلّفها ابن بطوطة في تلك الجهات ومن غير أن نعتبر أن هذا ممّا يدخل في اطار حياته الخاصة كما يقولون اليوم. فإن ما عرفناه من تلك الذرية هو اسم أحمد الذي تركه حيّا بالهند عند الامير غياث الدّين والذي قال عنه : إنه لم يعرف ما فعل الله به ! في حينٍ تحدث فيه عن بقية أولاده بما نعرفه...

بين ماركو بولو وابن بطوطة

لقد اقترن الحديث عن ماركو بولو البندقي بالحديث عن ابن بطوطة الطنجي لدى كل الذين اهتموا بالرحالة، وخاصة عند علماء الغرب،(1)

وقد كان من حقّهم أن يفعلوا، فإن الأول هو الذي قصد - قبل نحو من ستين سنة من تحرك ابن بطوطة، بلاد الشرق الأقصى وسجلت مذكراته التي كانت محل تعليق واسع ... لكنّ الملاحَظ أنَّ رحلة ابن بطوطة اتسع فضاؤها أكثر مما كان الأمر بالنسبة لرحلة ماركو بولو علاوة على الحصيلة العلمية التي كانت تختلف من الواحد إلى الآخر...

وهكذا فإذا كان ابن بطوطة قد حقق رحلته وحيدًا، وإذا كان محرر رحلته ابن جُزَيّ كان يقتصر على إضافات محـدودة وموثقـة ، فإن محـرر رحلة ماركـو بولو روستيشِيلّو (RUSTICHELLO) كان يضيف من خياله على مالاحظه بعض المعقّبين وخاصة عند الحديث عن الصين(2)... يضاف إلى كل هذا أن رحلة الأول اقتصرت على آسيا دون افريقيا وأوربا... ومعنى هذا أن الجمهور الذي عرف عن الرحالة المغربي كان أوسع من جمهور ماركو بولو. وفي معرض اعتزاز ابن بطُوطة بطول نَفَسِه في الرحلة، واتساع رقعة منهاجه في التجوال ذكر أنه يفوق السائح المصري الشيخ عبد الله الذي لم يدخل لا إلى الصّين ولا إلى جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان. وأعتقد أنه لو قدر لابن بطوطة أن يجتمع بماركو بّولو لعلّق بمثل ذلك التعليق، إذ إننا عرفنا أن الأراضي التي زارها الرحالة المغربي كانت تفوق كثيرًا وكثيرًا ما قطعه ماركو بُولو.

وقد تفوق رحالة طنجة على رحالة البندقية بشيء أهمّ وهو أنه استطاع أن يمتزج مع سكان البلاد التي وصلها عن طريق المصاهرات، وعن طريق الوظائف السامية التي تقلدها والإتصالات التي كان يُجريها مع مختلف الأوساط، الأمر الذي كان يُرضي فضوله وتطلعاته المتنوعة والمتجددة في ذات الوقت. ويكفي - لكي نعرف حجم الرجلين ونعرف مع هذا مدى رصيد الجانب المعرفي لكلا العَمَلين - يكفي أن نقوم بجردٍ لعدد الأسماء الجغرافية التي وردت عند هذا وذاك، وأن نعدّ الأعلام الشخصية التي جاءت في مذكرات الأول والثاني، يكفي ذلك لنخلص إلى الإشادة بذاكرة الرحالة المغربي التي استطاعت أن تختزن كل تلك الأسماء جغرافيًا وانسانيًا، وأن تحتفظ بشكلها وضبطها ومواقعها بالرغم من العدوان الذي وقع على مذكراته. إن كل ذلك الاستظهار وذلك الاستيعاب كان فوق طاقة البشر حقًا. وحتى جانب الاتحاف والإطراف في كلا الرحلتين كان يُبرز، دون تردد، تفوقَ ابن بطوطة. وقد مر ويمر بنا

(1) Jacques HEERS : MARCO POLO, FAYARD - 1983

(2) FRANCES WOOD : DID MARCO POLO GO TO CHINA - LONDON 1995

كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ص 456

د. التازي : منطقة الخليج بين ماركو بولو وابن بطوطة - بحث قدم للندوة الدولية التي نظمها مركز جمعة الماجد، دبي - الإمارات العربية المتحدة. أبريل 1996.



كان ابن بطوطة أول مغربي أخذت له منذ عام 747=1346 عدة صور بمختلف المدن الصينية بمناسبة زيارته لتلك الجهات (ج 4 ص 262).

وإذا فاتنا الحصول على تلك الصور، فإنه لايفوتنا أن نقدم هنا رسماً من عمل ليون بينيط (Léon Benett) من القرن التاسع عشر يتخيل ابن بطوطة في مصر، حيث تحدّى زميله الشيخ عبد الله الذي لم يبلغ الصين...!

هذا الرسم أخذناه من أرشيف رجي فيولي (ROGER-VIOLLET) باريز بعد الإذن رقم 778 بتاريخ 94/4/11.

نشير بالمناسبة إلى محاولات لاحقة لتخيُّل صُورة لابن بطوطة كان فيها ماظهر على طابع بريدي يوم سابع مايه 1963 ضمن أعلام المغرب العربي ثم يوم ثاني غشت 1966 لمناسبة تدشين خط حاملة السيارات، ابن بطوطة طنجة – مالقة ثم مانشره أبيركرومبي في (ناسيونال جيوكرافيك) دجنبر 1991 وماقدّمه محمد الادريسي إلى دار الأدب في فرانكفورت (العلم 1995/9/14) وأخيرا الطابع الذي هيأته وزارة البريد 1996 بمناسبة الملتقى الدولي المزمع تنظيمه حول الرحالة، وهو يحتوي على النقش الذي وقف عليه ابن بطوطة في مسجد مالديف...

رحلة ابن بطوطة
في
الدراسات الاستشراقية

رحلة ابن بطوطة في الدِّراسات الاستشراقية

نال المغرب نصيبًا وافراً في الدِّراسات الإستشراقية، ليس فقط لأنه غني بما يزخر به من تراثٍ حضاريّ هائل، وليس فقط لأنّه البلد الوحيد الذي ظل يتمتَّع بكيانه كدولة طوال عصور متتابعة، ولكن لأنَّ مركزه الجغرافيّ ووضعه بين الأمم الأخرى جعل منه بلداً إفريقيّاً وبلداً عربياً وبلداً مسلماً، وبلداً له حضورٌ قويّ في القارة الأوربية(1).

ومن ثمَّت كان محلَّ اهتمام من لدن الذين تشغلهم إفريقيا، وممن يهتمُّون بالعالم العربي والعالم الإسلامي، وأخيراً من الذين يولون عنايتهم للعلاقات التي شدّت أوربّا بعالم المشرق والمغرب.

وهكذا فنحن أمام اهتمامٍ متنوّعٍ يتناول سائر الفضاءات التي ربَّما لا يخطر بعضها على البال.

لقد وجد المستشرقون في كلّ ذلك التُّراث مجالاً واسعاً لنشاطهم لأنّه من جهةٍ يساعدهم على فهم الجهات الأخرى، ولأنه من جهةٍ ثانيةٍ يعطي صورةً دقيقة عن نمَط خاصٍّ يتميز عن الأنماط التي عرفوها في بعض الأنحاء...

وسينصبُّ حديثنا هنا على موقف المستشرقين من رحلة ابن بطوطة إنْ في حديثها عن القارة الإفريقية أو الأسيوية أو الأوربية ...

لقد كانت أصداء وجود رحلةٍ مَّا لابن بطوطة تجاوزت بلاد المغرب عندما روَّج أخبارها ابن خلدون في مقدمته والتمجروتي في رحلته وكذلك المقّري في كتابه نفح الطيب، هذا إلى أصداء الرسالة الهامة التي وقفنا عليها ضمن الوثائق التي كان يتوفر عليها الدبلوماسي النمساوي المستعرب ضومباي (DOMBAY) على ما عرفنا في فصل (مخطوطات الرحلة)....

وهكذا فبعد كلَّ تلك الأصداء والأخبار مما عرفنا ومما لم نعرف، أخذ المستشرقون يبحثون عن نُسخها الأصلية، ولكنهم لم يجدوا إلاّ مختصراً اكتشفه المستشرق العالم

(1) اقتبست من هذا البحث في تدخلي عند الندوة التي عقدتها أكاديمية المملكة المغربية بمدينة مراكش يوم 5-6 أبريل 1993 – حول الدراسات الاستشراقية والمغرب – وكالة المغرب العربي للأنباء– جريدة (العلم) 8 أبريل 8 أبريل – (البيان) باللغة الفرنسية 9 أبريل – (الشرق الأوسط) (الأنباء) 10 أبريل (الميثاق الوطني) 8 أبريل 1993 –(النضال الديمقراطي) 8 أبريل – (الأهرام) 30 أبريل – مجلة (ضفاف) المغربية ماي 1993. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات 1413=1993.

الألماني بوركهارت (Burckhardt) الذي كان أولَ مَن أثار انتباه أروبا لهذه الرحلة في أعقاب المهمة التي كلف بها في إفريقيا عام 1809 (2).

وقد حصل سيتزن (Seetzen) – وهو بالمشرق – حوالي سنة 1810 على طائفةٍ من المخطوطات لفائدة مكتبة كوثه (Goethe) كان من بينها تأليف من أربعة وتسعين صفحة يحتوي على مختصرٍ – كذلك – لرحلة ابن بطوطة.

وبعد مضيّ عشر سنوات على عمل سيتزن (Seetzen) نشر المستشرق الألماني كوسگارتن (Kosegarten)، بمناسبة ندوةٍ أكاديمية عام 1818 مقالةً تحتوي على نصٍّ مصحوبٍ بالترجمة لثلاث قطع من ذلك المختصر.

وهكذا كان كوسگارتن الباحث الأوّل الذي قدم إلينا بعض المقاطع من الرحلة، الأمر الذي مكّن أحد الجغرافيين من التعرُّف على مسالك السُّودان ... لقد نشر كوسِگارتن ثلاث مقتطفات من ذلك المختصر : أحداها عن رحلة ابن بطوطة إلى إفريقيا، والثانية عن رحلته إلى بلاد فارس، والثالثة عن رحلة ابن بطوطة إلى مالديف، وإضافةً إلى هذا أعلن كوسگارتن عن نيته في أن يقوم بنشر سائر المختصر، لكن مشروعَه هذا لم يتمّ ...

إلاّ أنّ أحد تلامذته أَبِيتْز (Apetz) قام عام 1819 بنشر مقتطفةٍ رابعةٍ من ذلك المختصر عن بلاد الفلفل والأبزار : المَلَيْبَار (Malabar).

وقد شهدت نفس السنة 1819 ظهورَ رحلةٍ في بلاد النوبة للمستشرق بوركهارت سالف الذِّكر، وفي الملحق الذي صحب هذه الرحلة للنّوبة نجد تعليقاً يتصل بابن بطوطة. وقد تبيّن أن بوركهارت يمتلك مختصراً آخر أكثر ضبطاً من المختصر الذي اشتغل عليه سيتزن وكوسِگارتن وأبِيتْز.

ونذكر من الآن أن بوركهاردت أنصف الرحالة المغربي ابن بطوطة عندما أضفى عليه النعت بأعظم رحّالةٍ يقوم بتسجيل مذكراته في العصر الوسيط، وهي الشّهادة التي نَرَى البروفيسور أندري ميكيل بعد قرن وثلاثة أرباع القرن يزكّيها على نحو ما كان من الكاتب الانجليزي أبيركرومبي والأكاديمي الفرنسي جان دورميصون (3).

(2) توفي جوهن لودويج بوركهارت بالقاهرة 17 أكتوبر 1817. عهدت إليه الشركة الإفريقية بلندن بزيارةٍ داخل إفريقيا، ونظرًا لتمكن بوكهارت من اللغة العربية ومن معرفة الدين الإسلامي، فقد تنكّر في صفة مسلم، وسافر من القاهرة للنُّوبة عام 1813 ثم زار مكة والمدينة (1814-15) وشبْه جزيرة سيناء عام 1816 وأخذ يستعد للقيام بسفر طويل في إفريقيا عندما داهمه المرض ... له من الكتب رحلة إلى بلاد النوبة 1819، ورحلة في سوريا والأرض المقدسة 1822، ورحلة للجزيرة العربية عام 1829.

(3) يراجع الفصل السابق بعنوان : الأربعة الذين كانوا وراء إنجاز الرحلة...

ولم يكن ذلك المخطوطُ المختصر المكتشف – ونسخُه ثلاث – من لدن بوركهاردت غيرَ "المنتقي" الذي ألّفه العالم محمد بن فتح الله البَيْلُوني الذي تحدثنا عنه عند تعرضنا للنسخ المخطوطة من ابن بطوطة، وقد انتقل المخطوط بعد وفاة البيلوني – إلى مكتبة جامعة كِيمبْريدج. وعلى هذا المخطوط، وتحت إشراف الجمعية التي تعني بترجمة المكتبة الشرقية اشتغل العالم المستشرق صامويل لي (Samuel lee) فترجمه إلى الإنجليزية وزوَّده بعددٍ من التعليقات المفيدة.

وعن هذا المختصر قال دوزي كلمته الصادقة التي سجلها عند الحديث عن مخطوطة ابن بطوطة التي كان يمْتلكها المؤرخ الإسباني دي كايانكوس De Gayangos على ما أسلفنا.

وأُحب أن أضيف هنا معلومةً أخرى، تلك أنه إلى جانب (منتقى) البيلوني، وجدنا في المشرق، وبالذات في مصر (منتخباً) آخر للرحلة مجهول المؤلف ولكنه عرف بعنوان "مختصر الأزهري" على ما قلناه...

وبعد هذا الحديث عن هذه المختصرات للرّحلة، أنتقلُ إلى (الرحلة) في نصها الكامل، وعلى ما عُرفت به بعدً في التّاريخ المعاصر بسِفْريها الأول والثاني.

وهنا نلاحظ أن المستشرق البرتغالي الأب جوزي دي سانطو انطونيو مورا (P. José de Santo Antonio Moura) قام عام 1797 بترجمة السفر الأوّل من الرحلة الأصلية إلى البرتغالية ونشرتْه "الأكاديمية" في ليشبونة عام 1840 على ما أسلفناه...

وهذه الترجمة تقوم على مخطوطٍ كان هذا الأب اشتراه أثناء مقامه بمدينة فاس عندما صحب السفارة البرتغالية – ترجماناً – إلى بلاط العاهل المغربي السلطان مولاي سليمان عام 1211-1212 = 1797-1798 قريباً من تاريخ مقام ضومباي بطنجة وكذلك تاريخ مقام دولابّورط بها وبمدينة الصويرة...

وفي مقدمته يؤكد الأب مورا أنه قام بترجمةٍ أمينة لهذا الجزء مضيفاً إلى هذا أن المخطوط مكتوب بخط جميل ومعتنى به أكثر ما يكون الاعتناء، بل إنه (أي الأب مُوراً) يعتقد أنه منقول مباشرةً من النسخة التي كتبها ابن جزي بخطه (4)

ومما يلاحظ أنّ الأب (مورا) لم يبدأ الترجمة إلى البرتغالية إلاّ من الفقرة التي تتحدث عن خروج ابن بطوطة من طنجة لأنه – على ما قال – لم يعثر على الورقتين الأولين لهذا السفر، وفعلاً فإن المخطوط كما وقفتُ عليه في مكتبة الأكاديمية العلِمية بلشبونة عدة مرّات مبتور الورقات الأولى ...

(4) José de Santo Antono Moura : Viagens exetensas e di Latadas do célébre Arabe Abu-'Abd Allah, mais conhecido pelo nome de Ben-Battuta, Lisboa, 1840.

وقد كان مما لوحظ على عمل الأب مُورا أنه أسقط الأبيات الشعرية من حسابه فلم يترجمها ! بل وقد أهمل كلّ النقول عن ابن جبير إلخ ... أكثر من هذا. لقد حذف بعض المقاطع برمَّتها، مثلاً ما يتصل بعلماء الإسكندرية... وقد برَّر هذا الصنيع منه بقوله : "إن اللائحة واسعة ومزعجة." وهكذا كان عمله عند ذكر ملوك مصر وقُضاتها وعلمائها وأعيانها ... وكان هذا فعله وهو يصف مكة والمدينة .... إنَّ ما حذفه كان يوازي رُبع السفر الأوّل، علاوةً على تساهله في ضبْط المواقع الجغرافية والشخصية على ما لاحظه الباحثان المعروفان رينو (Reinaud) ودوزي (Dozy).

والحديث عن محاولة الأب مورا يجرُّنا إلى الحديث عن بقية من حاولوا ترجمة الرحلة. ... وهنا لا بد من التَّذكير بأن هناك أجزاءً كثيرةً ومهمةً من الرحلة الأصليّة أمستْ مترجمةً إلى عدة لغات ...

وقد كان في أوّلها قطعة جيّدة تتعلق بالسُّودان ترجمها البارون دوسلان مصحوبة بعددٍ من التعاليق، ومتبوعة – وهذا مهمّ – بخطاب بعث به دوسلان إلى رينو حول المخطوط الأصلي للرّحلة (5).

وقد أتى بعد هذا إدْوار دولوريي (Edouard Dulaurier) فقدم إلينا في (جُورْنال أسْياتيك (6)) النصَّ والترجمة مصحوبين بالتعاليق للقسم من الرحْلة الخاص بجزر الأرخبيل الهندي، ثم قام كلٌّ من ديفريميري (Defremery) وسانكينيتّي (Sanguinetti) مرَّاتٍ متلاحقةً بترجمة أطرافٍ واسعةٍ من الرحلة الأصلية. وهكذا نُشِر، بادئ الأمر، القسم الخاص برحلة ابن بطوطة إلى فارس وإلى آسيا الوسطى (7)، ثم كان الحديث عن الرحلة إلى القِرَم وقفجق (8) ثم أيضا الرحلة إلى آسيا الصغرى (9)... ثم الفصل المتعلق بالسلطان المغولي الذي كان يحكم العراقين : عراق العرب وعراق العجم ويحكم كذلك خراسان وهو السلطان أبو سعيد بهادور (10) طبعاً كلّ هذه الأعمال كانت مصحوبة بالتعاليق التي يقتضيها الحال أنذاك.

وفي بداية سنة 1852 قدَّم شيربُونُو (Cherbonneau) أستاذ العربية بقسطنطينة ترجمةً مختصرة لقسم أول من الرحلة إلى أن أخذ ابن بطوطة طريقه نحو سوريا، علاوة على المقدمة

(5) Journal Asiatique, Mars 1843 P. 481.

(6) Journal Asiatique, Fév. in 82 de 96 pages, Mars 1847

(7) Nouvelles annales des voyages, janv., Avril, Juill. 1848.

(8) Journal Asiatique, Juillet et Septembre 1850.

(9) Annales des voyages, Décembre 1850 Janv. mars, Avril 1851.

(10) Journal Asiatique, Fev., Mars 1851.

التي حررها ابن جُزَي(11) ، ولم يكن تحت يد الأستاذ شيربونو غير مخطوطةٍ واحدة حديثة العهد، جداً الأمر الذي، ربما. يفسر الأخطاء التي احتوت عليها الترجمة.

وهكذا ومن خلال ما تقدم أخذنا فكرةً عن الصَّحْوة التي أعقبت المبادرة الأولى التي قام بها المستشرقون الألمان...

لكن العمل الذي نبقى مدينين له بكل التقدير هو ذلك الذي قام به فيما بين عام 1853-1858 – وبتكليفٍ من الجمعية الأسيوية – كلٌّ من ديفريميري (C. Defremery) وسانگينتي (B. R. Sanguinetti) سالِفَيْ الذِّكر، ذلك العمل الذي تمثَّل في نشرهما للرحلة مترجمةً بكاملها في أربعة أجزاء، وقد شجعهما على ذلك العمل ما أمست الخزانة الملكية بباريز تتوفر عليه من نسخٍ ثلاث مخطوطة لرحلة ابن بطوطة (12).

وبفضل ظهور المجلَّدات الأربع للرحلة مصحوبةً بالترجمة الفرنسية أمست رحلة ابن بطوطة في متناول العالم الغربي، بل وحتّى في متناول العالم العربي والإسلامي الذي كاد أن يجهل كلَّ شيء عن رحلة ابن بطوطة !!

إن مبادرة هذين الرجلين نبّهت، وبشكل بارز، كلَّ الذين كانوا بحاجة إلى أن يعرفوا أكثر عن الجانب الجغرافي للرحلة وكذا عن الجانب التَّاريخي والأنثروپولوجي. وإذا كان الاثنان قد أسهما بصفة جيّدة في بعث هذا التراث المغربي الكبير من مرقده، فإن هناك شخصيةً ثالثة أسدت معروفاً لا ينسى لذلك التراث، ويتعلق الأمر بالأستاذ الراحل هاميلتون أليكساندر روسكين گيب H. A.R. Gibb الذي قام بترجمة معظم الرحلة إلى اللغة الانجليزية منذ أواخر العشرينات (13)"

ولم يكتف گيب بالترجمة الحرفية ولكنه كان يحاول أن يصل إلى أسرار المعنى. أكثر من هذا قام السير گيب بتحديد طائفةٍ من الأعلام الجغرافية ومواقعها ما أمكنه ذلك، وقد قام إلى جانب هذا بالعمل على التعريف بعددٍ من الشخصيات التي وردت في صُلب الكتاب ذاكراً في أغلب الأحيان مصادره ومراجعه. ويصح القول بأنه لا يمكن للمهتم برحلة ابن بطوطة أن

---

(11) Nouvelles Annales des voyages, Fev., Mars, Avril, Mai 1882.

(12) حتّى أيامنا الأخيرة لم يتردد ذكر لغير هذه المخطوطات الثلاث على ما نقرأه في بحث مُوني (Mauny) وجماعتِه عن إفريقيا مع العِلم أننا نتوفر اليوم على نحو الثلاثين على ما أسلفناه.

(13) كانت لي مراسلات مع الأستاذ گيب عندما كنت أحقق تاريخ (المن بالإمامة) لابن صاحب الصلاة بعد أن سمعت أنه بصدد نشره، وقد أجابني بانه مهتمٌّ بابن بطّوطة – المن بالإمامة، بيروت 1987 ص 36

Hopkins : IBN SAHIB AL SALAM. Ency. ISLAM.N.E

يستغني عن المجهود الذي بذله هذا الرجل في سبيل تصحيح ما قام به السابقون مما استفدنا منه بطبيعة الحال (14).

وقد كان گيب نشر قبل إصدار الجزء الثالث دراسة نقدية حول رحلة ابن بطوطة في آسيا الصغرى وفي روسيا" بمناسبة تكريم الأستاذ الراحل ليفي بروفنصال (15).

ومادُمنا في ذكر گيب نسجّل هنا أنه بعد وفاته اهتم أحد الباحثين بنشر الجزء الرابع من ترجمة الرحلة إلى الإنجليزية، ويتعلق الأمر بالأستاذ بيكينگام Beckingham الذي قام عام 1994 باصدار هذا الجزء واعدًا في المقدمة وفي بعض التعاليق بأنَّ مجلداً خامساً في طريقه إلى الظهور خصّصه، فيما يبدو، للفهارس وللجانب الكرونولوجي والتوثيقي...

وقد كان في صدر مَن استفاد من عمل گيب، المستشرق الروسي أ. يو. كراتْشكُوفسكي (تـ 1951) في كتابه القيّم "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" الذي ترجمه الزميل الراحل صلاح الدين عثمان هاشم.

لقد قال عن ابن بطّوطة : "إنه منافس خطير لِمعاصره الأقدم منه تاريخًا ماركو بولو. ومن الطبيعي - يقول كراتشكوفسكي - أن ابن بطوطة الطنجي كان له إحساس فطريّ ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر ممّا كانَ لَدَى ماركو بولو البندقي وإن وصف الرحالة المسلم لخط سير رحلته كان أدْعى إلى الثقة ممّا عليه الحال مع معاصره المسيحي (16).

وقد قام الأستاذ روس دان (Ross E. Dunn) في كتابه باللّغة الانجليزية : (مغامرات ابن بطوطة) بنشر عرضٍ للرحلة ولو أنه كان يحكي عن ابن بطوطة بأسلوب خاص، ولكنه زود كتابه بتعاليق وبخرائط جدّ مفيدة (17).

وقد ظهر عالم تشيكي جليل قام بدراسةٍ نقدية رائعةٍ للرحلة خاصة ما يتصل فيها بتحديد المراحل والمواقع والمسافات مقرونةً بتحديد الأزمان والظروف، ولا اعتقد أن احداً يستطيع أن يجد من الوقت ومن الصبر ما يمكنّه من القيام، بأناةٍ وتؤدة، من ملاحقة

(14) صدر عن السيد هاميلتون گيب منذ عام 1929 :

Selections from IBN Battuta in ASIA and Africa.

ثم أعيد طبعه ولكن من غير أن يحمل اسم گيب !! ثم صدرت عنه 1956 ترجمة الأجزاء الثلاثة بعنوان (The Traveles of IBN Battuta) عن الدار . (The Hakluyt Society) ، ثم أعيد طبعها من لدن كيمبريدج 1958-1959، ثم صدر الجزء الثالث عام 1971 مع وفاته.

(15) Etudes d'Orientalisme dédités à la mémoire de Lévi-Provencal. Paris 1962.
وقد نشرها أيضا هاميلتون كملحق في آخر الجزء الثاني لترجمته للرحلة.

(16) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، طبعة ثانية مصححة ومنقحة، دار الغرب الاسلامي، 1408=1987. ص 456.

(17) Rosse Dunn : The Adventures of Ibn Battuta, Groom Helm, London and Sydney 1986.

ابن بطوطة وكشف هفواته والوقوف على فجواته على نحو ما قام ذلك المستشرق التشيكي العالم المتمكن الزميل إيفان هربك الذي قرأنا له بحثا جدًّ مفيد في براغ أوائل الستينات (18) قبل أن يتوفاه الله عام 1993 .

وقد تهافتت جهات أخرى ممّن تنتمي للعالَم الناطق باللُّغة الانجليزية على الاستفادة من الرحلة بعد ظهور الترجمة الانجليزية، وهكذا اتسعت دائرة المعرفة بها والاطلاع عليها أكثر فأكثر ...

هذا وقد قرأ الناس ترجمة الرحلة كلاً أو بعضاً بعددٍ من اللُّغات الأخرى غير الفرنسية والانجليزية، فترجمها الدكتور هانس ڤون مزيك (Hans Von Mzik) إلى الألمانية (19) ... وترجمها إيڤان هربك (Ivan Hrbek)، سالف الذكر، إلى اللغة التشيكية، وترجمها إلى الإيطالية گابرييلي (Gabrieli) عام 1961 (20)، وترجمت إلى اللُّغة التُّركية على يد لجنة وزارة المعارف أواخر عهد العثمانيين في خمسة مجلدات (21)، ... وقد ترجمت إلى اللُّغة الفارسية من لدن الدكتور الزميل محمد علي موحّد تحت عنوان : "سفرنامه ابن بطوطة" (22)، وإلى اللغة السويدية وقد قام بترجمتها هيرمان المكيسط (Herman Almquist) وخاصة منها الفصل الخاص بتحرّك ابن بطوطة من طنجة إلى الاسكندرية، هذا إلى ترجمتِها للّغة الهندية واللغة الأرمنية، واللّغة اليابانية واللُّغة الإسبانية (23).

وعلمت أثناء زيارتي لسمرقند صيف 1974 أن جماعةً من المحققين يعكفون على مراجعة ترجمةٍ للرحلة باللغة الرُّوسية. وقد أهديَت لي أثناء زيارتي للصين ترجمة كاملة للرحلة باللغة الصينية (24) عام 1984. لقد ناهزت الترجمات العشرين، ونحن على يقين أن هناك ترجماتٍ أخرى لا نعرفها. وكأنَّ ترجمةً واحدةً للرحلة لم تكن كافية لأصحاب تلك اللغة،

(18) The Chronology of Ibn Battuta Travels. Archiv Orientalni XXX. Prague 1962.

(19) Die Reise des Arabers Ibn Battuta druch Indien und China. Himbung 1911.

(20) F. Gabreli : Viaggiatori arabi. biblioteca Sansoni Firenze Viaggi di Ibn Battuta Scelta E Versione dall Arabio Di Francesco Gabrieli. Sansoni Editore Firenze 1961 - Ibn Battuta Viaggiatore Maghrebion. Universita de Gagliari. Istituto di Studi Africani.

(21) يعني عام 1917 ، ولها ترجمة أخرى تسمى (تقويم وقائع) كما يؤكده ذ. محمد الفاسي (مجلة المغرب غشت 1934) هذا ونشكر د. أكمل الدّين إحسان أوغلي، على فاكسه لـ 1993/12/18

(22) استفدت من مقامي سفيراً لبلادي بطهران حيث اكتشفت المزيد من المعلومات عن حضور «اللغة الفارسية» في الرحلة فأجدد الشكر لأصدقائي الذين أفادوني هناك أو في سفارة إيران بالمغرب...

(23) ارجو أن أجدد الشكر لسعادة الزميل السيد علي بنبوشتى سفير المغرب في مدريد الذي بعث لي بطبعة جديدة للترجمة الإسبانية تمت عام 1993.

(24) كانت الترجمة الصينية من عمل الأستاذ ماجين بونغ أستاذ اللغة العربية وقد أهداه لي الأستاذ شين جيا من نفس الجامعة، وهو قيدوم كلية اللغات الشرقية.

فوجدنا من بين أصحاب اللغة الواحدة مَن ينافس زميله في البحث عن خفايا الرحلة فيقدم لنا رحلة ابن بطوطة باللغة الفرنسية أو الانجليزية أو البرتغالية أو الألمانية في بحوثٍ وترجماتٍ أخرى بأساليب أخرى. ومن هذا ما ظهر 1990 عن مؤسسة (لاديكوفيرت) "La Dé-couverte" بباريز من تقديم وتعليقٍ في ثلاثة أجزاء للأستاذ صطيفان ييرازيموس (Stéphane Yerasimos) اعتمد فيها أساسًا على الناشرَيْن الفرنسيين السابقين وعلى أعمال السّير هاميلتون كيب.

هذا إلى جانب العمل السابق الذي قام به 1968 فانسان مونطي (V. Monteil) عندما أعاد نشر الرحلة وزودها، بدوره «بتقديم جيّدٍ وتعليقاتٍ مفيدة اعتمد فيها على عمل العالم التشيكي إيفان هربك سالف الذكر، هذا إلى البحوث المركزة التي عززت جانب الرحلة من أمثال بحث العالم الفرنسي الأستاذ ر. مُوني وفريقُه، والأستاذ أ. ميكيل وأمثالُهما كثير (25).

وينبغي أن نؤكد أن معظم هذه الترجمات – إن لم نقل كلّها – تصحب بتعليقات لا غنى عنها للقارئ، بل أكثر من هذا فائدةً أن بعض هؤلاء الأساتذة قاموا بوضع مقدماتٍ لكل جزء من الأجزاء حتى يجعلوا القارئ الأجنبي عن العربية في الصورة الكاملة لفهم العالم الاسلامي وتقاليده، ولفهم تاريخ دوَله على ذلك العهد...

لا حظنا هذه المبادرة ابتداءً من الناشرَيْن الأولَين ديفْريميري وسانگينيتّي وانتهاءً بالسِّير هاميلتون كيب والأستاذ ييرازيموس وأخيراً بالأستاذ طوماس ج. ابيركرومبي (T.J. Abercrombie) الذي قام عام 1991 برحلةٍ فريدةٍ من نوعها سار فيها على خُطى ابن بطوطة بتكليفٍ من المجلة الأمريكية الذائعة الصيت : "ناشيونال جيوغرافيك" (26) "(National Geographic) ...

ونذكر إلى جانب كلّ ذلك العطاءِ الجمّ الذي قدمته إلينا الدِّراسات الغربية فيما يتصل بابن بطُّوطة أننا نرى مما يثري هذا الموضوع أن نشير إلى بعض المؤاخذات التي لنا على جانبٍ من تلك الأعمال بالرغم من أنها مؤاخذات جدّ محدودة ...

---

(25) R. MAUNY... EXTRAITS TIRES des voyages d'Ibn BATTUTA-DAKAR 1966
André Miquel : IBN BATTUTA, ENCY de l'Islam 1968 - Les Africains, PARIS 1977
P. 117-140.

العرب والإسلام وأوربا بيروت 1993 ص 252.

(26) بدأ طوماس إيبركرومبي يفكر في رحلةٍ موازية لرحلات ابن بطوطة، ووافقته (ناشيونال جيوكرافيك) على ذلك وكلفت الرّحلة مائة ألف دولار على الأقل ! وقد صدر هذا العدد في دجنبر 1991 بمناسبةٍ احتفال العالم القديم والجديد بذكرى اكتشاف أمريكا ... ومن المعلوم أن هذه المجلة تُصدر زهاء عشرة ملايين نسخة يلتهمها المشتركون والمتخصصون ... وقد تهافتت المجلات على نقل تلك المعلومات، مثل مجلة (المجال) الأمريكية في عددها 255 يونيه 1992، ومجلة (الفيصل) السعودية، (أكتوبر 1992) بعد أن كانت وكالة المغرب العربي للأنباء عممت مشكورةً الخبر عن ذلك العدد من مراسلها في واشنطن.

هناك بعض الكلمات المغربية التي استعملها ابن بطوطة بحكم أنه كان يعيش معها، هاته الكلمات لم تجدْ عند باحثينا عناية بها للبحث عنها في الفضاء المغربي فراحوا يبحثون عنها في قواميس بعيدة عن بيئتنا!!

وأذكر على سبيل المثال كلمة (الفُقَّاع) المغربية التي تعنى بكل بساطة : الفُطْر أو الكمأة لكن زملاءنا رأوْا فيها ما يوحي بنبيذ الشعير...!

وإلى جانب الفقاع نذكر كلمة مغربية أخرى : بوقنينة التي حيَّرت أصدقاءنا فوضع بعضهم علامة استفهام عليها، وراح بعضهم يبحث عن معني لها من خلال معنى القنّينة عند المشارقة، مع أن الكلمة معروفة في شمال المغرب الذي ينتسب إليه ابن بطوطة، وهو نبات قصير يكثر في المناطق الجبلية يستعمل لعدَّة أغراض. وقد حُفظ في الأمثال المغربية هناك : "غرستُه حَبَق فخرج لي بُوقنينه" !(27)

ولقد تعب الناشران في البحث عما تُترجم به كلمة (البوجات) المستعملة في المغرب بمعنى : الهودج أو المحفَّة التي تحمل فيها العروس، فراحا يبحثان عن معناها في اللّغات الأسيوية . وقد التبستْ عليهما كلمة القَريّة (كهَديَّة) فقرآها القربة بالباء ! (146-IV)

ونذكر إلى جانب هذا كلمة (المُقيَّرة) التي استعملها ابن بطوطة نعتاً للجُبة عندما وقع أسيراً بأيدي الهنود وغدا مديناً بحريته لشابٍّ هندي أعطاه الرحالة المغربي جبته – وكانت من نوع رفيع – فأعطاه الشاب الهندي جبة مُقيَّرة باليَّة . هنا بالرغم من أن الناشرين الاثنين يريان أن النسخ التي يتوفران عليها تكتب المقيَّرة فانهما – كما يؤكدان في التعليق – لم يترددا في أنها (المنيرة) بالنون عوض القاف وراحا يبحثان في الأصل الفارسي عن الكلمة وترجماها بالفعل بأنها آتية من النِّيلة الفارسية، ومع أن كلمة مقيَّرة معروفة إلى الآن عند المغاربة بمعنى وَسِخة كأنها مطليّة بالقار، يقال ثوبه مقير يعْني عليه طبقات من الأوساخ ...

والجدير بالذكر أن المخطوطات التي نتوفر عليها بما فيها مخطوطة كايا نكَوس والخزانة الملكية والخزانة العامة، وفيها ما نعتقد أنه بخط الرحالة المغربي، كلّها وبدون استثناء ترسمها مقيّرة على نحو ما نعرفه نحن اليوم.

وقد كان من هفوات الترجمة أنه في معرض الثناء على زوجةٍ له طيبة المعاشرة، ذَكَر أنه إذا تزوج عليها بخَّرت ثيابه، فقد ترجما (تزوج عليها) بما يفيد أنه (تزوج بها) وقد كان من التعسُّف تفرقتهم – في الترجمة– بين كلمة العشارين (IV -204-275)

وقد كان مما أثار انتباهنا – وقد وقفنا في (ماليف) على اللَّوحة التي تنص على اسم

(27) محمد أخريف : مفهوم بعض الأسماء والعبارات عند ابن بطوطة، ملتقى طنجة حول ابن بطوطة، تنظيم مدرسة الملك فهد العليا للترجمة – اكتوبر 1993.

المغربي الذي أدخل الإسلام إلى تلك الجزر- أن بعض المشتغلين بابن بطوطة، وهو (بيرازيموس صطيفان) رأى أن ينتزع تلك "البطولة" من "البربري" ويعطيها إلى التّبريزي نسبة إلى مدينة تبريز بالرغم من أنه اعتمد في الترجمة أساساً على الناشرَيْن الاثنين ! لكنه أي صطيفان رأى في هذه المرة أن يعتمد ليس على الاثنين لكن على آخر اسمه فوربس Forbes الذي اعتمد بدوره على مخطوطةٍ كان صاحبها يجهل كلَّ ما كتبه ابن بطوطة قبله بأربعة قرون عن إسلام جزر ماليديف (28) !

وإذا كان بيرازيموس فضَّل أن يعطي البطولة للتبريزي، فإن العالم التشيكي هربك رأى أن القصد بالبربري إلى أحد المنتسبين لبلاد الصومال نظرا لأنها أقرب جغرافيّا إلى ماليديف ! وكأن هربك لم يقرأ عن اجتماع محمد بن عمر التازي البغدادي بالخليفة العباسي المعتمد (ت 289=902) على ما نجده عند التنوخي في كتابه (نشوار المحاضرة)، ولم يقرأ عن المقدسي في كتابه "أحسن التقاسيم" وهو يجتمع بعدد من علماء الأندلس بمكة عام 377=987.

هذا إلى أنهما أي الناشرَيْن السابقَين أحياناً لم يتريثا قليلاً لتقديم معلوماتهما عن بعض المواقع الجغرافية في المغرب. وفي هذا الصدد ينبغي أن نرجع إلى الجزء الأول من عملهما ص 84 ، والجزء الرابع ص 312. حيث تكررت ترجمة (الزاوية) التي انشأها السلطان أبو عنان بفاس، بالمدرسة البوعنانية! مع أن القصد إلى منشأةٍ أخرى غير المدرسة يقول ابن بطوطة إن العاهل بناها بخارج حضرته، ومعلومٌ أن أبا عنان أنشأ هذه المعلمة الكبرى كفندق لإيواء الضيوف على مقربةٍ من وادي الجواهر وكانت أيةً في النقوش والرسوم المجسَّدة على ماسنَرى في الملاحِق هذا إلى أعلام جغرافية أخرى وقع فيها الخطأ عندهما فسَرَى إلى مَن قلَّدهما. ونذكر على سبيل المثال (ج، 2، 196) ظفار الحبوضي التي نقل الاثنان أنها ظفار الحموض على ما سنرى عند التعليقات على صلب النص.

ونحن نتحدث عن الاسماء الجغرافية في الرحلة لاحظنا أن هناك عددًا من الأعلام لم تنل حظها من البحث والتنقيب على نحو ما كان عليه الأمر في وادي قرة بالأندلس، وجناتة، ودار الطمع بالمغرب على ما سنرى في التعليقات.

وقد اعترضتنا بعد هذا انسياقات أخرى كان عليهما أن يتريَّثا فيها، مثلا حديثهما (ج 1 ص 155) عن الأديب أبي الفتيان جَبُوس عوضا عن ابى حيُّوس الذي هو الصواب.

(28) التازي : أقدم نقش عربي في ماليديف يتحدث عن المغرب، مجلة البحث العلمي العدد 40 السنة 25 - 1410-1411 = 1990-1991- المؤتمر الدّولي حول الاستشراق، تطوان، نونبر 1996.
IVAN HRBEK : Ibn Battūta and The Maldive Islands Expede Pontis - Prague 1992 .

وحديثهما (ج I، 191) عن الشاعر شرف الدّين ابن محسن عوضاً عن الشاعر أبي المحاسن عُنين الذي هو الصواب.

ومثلاً ما ورد (ج I، 222) عن كتاب المفهم في شرح صحيح مسلم للقرطبي، هذا الكتاب سمي عندهما انسياقاً مع إحدى المخطوطات (المعلم) الذي الفه المازري مع أن الصواب كما هو معلوم : المفهم، وقد كان مما ورد عندهما (ج I، 230) نسبة مدرسة هامة بالصالحية في دمشق إلى ابن عمر مع أنها لأبي عمر على ما هو في المخطوطات الموثوقة. وقد كان مما لفَتَ نظرنا ما ورد عندهما (ج I، 248) حول العلامة ابن الشحنة الحجار، فقد نقَلا معاً أنه الحجازي عوض الحجَّار ... وقد كان مما وقفنا عليه عند الناشريْن المذكورين (ج I ص 252) ما ورد حول الشيخ (البجدي) بالباء ثم الجيم فلقد تحرف عندهما الى النجدى، هذا إلى خطأ آخر في نفس الجزء والصفحة (I، 252) ويتعلق الأمر بجمال الدّين أبى المحاسن يوسف المزي الذي رسم خطأً المزني (بالنون)، الامر الذي سار عليه كل الذين نقلوا عن الاثنين دون روية ...!

وفي الأعلام الشخصية التي كانت تحتاج إلى التصحيح ما ورد عندهما (ج II ص 83) حول روز جهان القَبلي عوض روز بهان البقلى الذي هو الصحيح.

وقد كان من الأخطاء التي أثارت الانتباه ما ورد من حديث عن ابن شبرين (بالباء) السبتي نسبة إلى سبتة المغربية، هذا العالِم تحوَّل اسمه عندهما إلى ابن شيرين (بالياء) عوض الباء كما تحول السبتي إلى البستي نسبة إلى بُست، ويا بُعد ما بين سبتة وبُست !!

وفي حديثهما عن ابن بطوطة وهو بتونس عائداً من المشرق تحوَّل عندهما (ج 4، 330) اسم زيان بن أمديون العلوي وزير السلطان أبي الحسن وصهره وظهيره إلى ابن أمريون بالراء عوض الدال.

ومثلاً (ج 4ص 331) تحول اسم الآبلي نسبة لآبلة (AVILA) في الأندلس إلى الأبُلّي نسبة إلى الأبلة في البصرة !

والملاحظ أن هذه الهفوات وقع في معظمها جلّ الذين اعتمدوا على النسخة الفرنسية من الناشرين اللاّحقين على ما سنرى... ! وقد كان من غريب ما وقع فيه المترجمان أن تلتبس عليهما في البداية كلمة (الصاحب) التي كان يقصد بها ابن بطوطة : الصاحب بن عباد، بكلمة (الصاحب) التي تعني الصديق (ج 2، ص 16) !

لنقرأ هذه الفقرة في الرحلة تعليقًا على أن ماء مدينة البصرة غيرُ جيّد، قال ابن جُزَي : ألوان أهل البصرة مصفَرة، حتَّى ضرب بهم المثل، قال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب أترجة.

لله أترج غدًا بيننا معبّراً عن حال ذي عَبرةِ

كما كسا اللهُ ثياب الضّنا أهل الهوى وساكني البصرةِ !

الشاهد عندنا في أَحضرتُ، الهمزة مضبوطة عند الاثنين بالفتح وقد ترجمت هكذا :

Un poête de mes amis, à qui je présentai un citron composa ces vers:

ومن هذا المعنى نذكر التباس كلمة السِّفر بكسر السين وتسْكين الفاء، بمعنى الجزء أو المجلَّد، بكلمة السَّفَر بفتح السين والفاء، التبس ذلك على بعض التراجمة الإنجليز فكان في بعض الأحيان يترجم كلمة السِّفر بـ (Journey) !!

ومع كلّ هذا فإنه لا يسعنا إلا أن ننوه بالعمل الجادّ الذي قام به التراجمة من مختلف الجنسيات من أجل بعث رحلة ابن بطوطة من مرقدها وجعلها في متناول الجميع وبمختلف الوسائل..

والحقيقة أنّني لم أسمع في الدنيا عن رحلةٍ نُقلِت من لغتها الأصلية إلى لسانٍ ثان، ثم ترجمت من ذلك اللّسان الثاني لتعود إلى لغتها الأولى بصياغةٍ حديثة، ولقد تحقق ذلك في رحلة ابن بطوطة التي ترجمها غيرْمُو غوسطافينو عن الإسبانية بأسلوبه العَربي الذي كان يرى أنّه أكثر إثارة وأوفى إشارة (29)!!

وقد لذَّ لي – وأنا أزور دول القارة الأمريكية التي لم يصلها ابن بطوطة – أن أبحث : هل ماإذا كان له صدًى هناك، ولشدَّ ماكان استغرابي وأنا أقف على عشرات البحوث التي كتبها أمريكانيون بل واستراليون عن هذه الرّحلة العظيمة التي لن ينتهي الحديث عنها...

(29) غيرمو غوسطافينوغيانت : الرحّالة الكدود ابن بطوطة، دار النشر المغربية – تطوان 1950.

archiv
orientální

ČESKOSLOVENSKÁ AKADEMIE VĚD
ORIENTÁLNÍ ÚSTAV

1962

Nakladatelství Československé akademie věd

WORKS ISSUED BY

THE HAKLUYT SOCIETY

THE TRAVELS OF IBN BATTŪTA
A.D. 1325–1354
VOL. I

SECOND SERIES
No. CX

ISSUED FOR 1956

textes et documents retrouvés

voyages
d'ibn battûta,

texte arabe,
accompagné d'une traduction

par

C. DEFREMERY
ET LE Dr. B. R. SANGUINETTI

Réimpression de l'Edition de l'année 1854
augmentée d'une préface et de notes
de Vincent Monteil de l'Institut Fondamental d'Afrique Noire

premier tome

éditions anthropos paris
15, rue Racine, PARIS 6e

THE HAKLUYT SOCIETY
Second Series No. CX

The Travels of
IBN
BATTUTA

VOLUME I

Edited by
SIR HAMILTON GIBB

Published for
THE HAKLUYT SOCIETY
by
CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS

Ibn Battûta

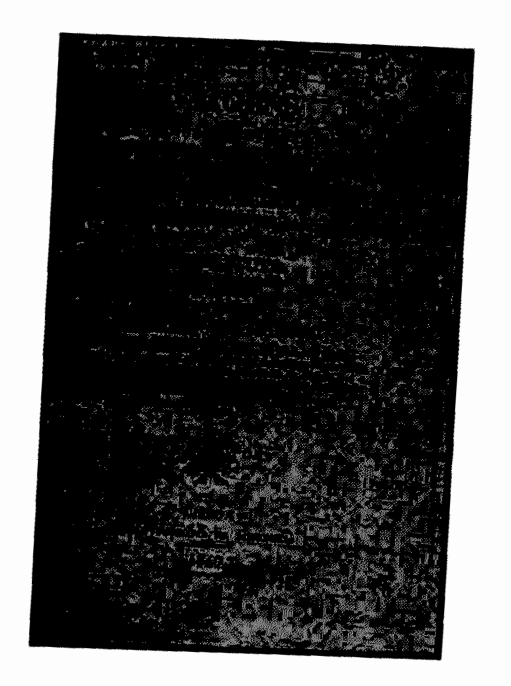
VOYAGES

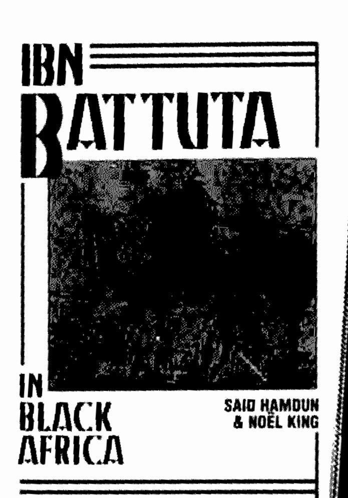
III. Inde, Extrême-Orient, Espagne et Soudan

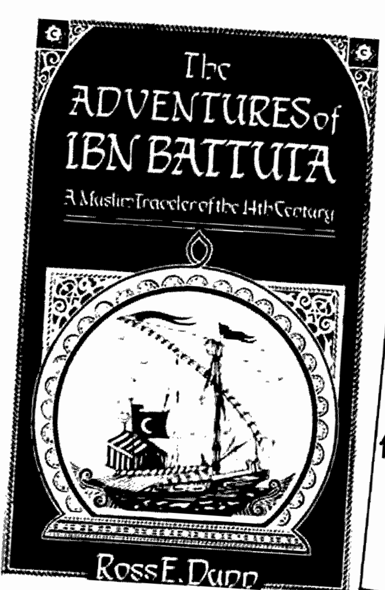
Traduction de l'arabe de C. Defremery et B. R. Sanguinetti (1858)

Introduction et notes de Stéphane Yerasimos

ÉDITIONS LA DÉCOUVERTE
1, place Paul-Painlevé
PARIS Ve
1990




IBN
BATTUTA
IN
BLACK
AFRICA
SAID HAMDUN
& NOËL KING


The
ADVENTURES of
IBN BATTUTA
A Muslim Traveler of the 14th Century
Ross E. Dunn


伊本·白图泰游记

اهتمام الكتّاب العرب بالرحلة

اهتمام الكتاب العرب بالرحلة ...

والآن وقد ألمنا بعض الشيء بعمل المستشرقين من أجل رحلة ابن بطوطة، نرى من المفيد أن نخصص هذا الحيّز لما قام به الزملاء العرب كذلك من جهودٍ متنوعةٍ مشكورةٍ للإستفادة من الرحلة...

وأرى من المفيد، منذ البداية، أن أذكّر بأنه بالرغم مما ظهر في المشرق من طبعات عديدة للرحلة منذ أواخر القرن الماضي وبالضبط 1288 هـ 1871م إلى اليوم فإن كل تلك الطبعات، وبدون استثناء، إنما كانت منقولةً من الطبعة الباريزية، أي إنه لا يوجد ناشرٌ واحد قام بمبادرةٍ من عنده للاعتماد على مخطوطاتٍ جديدة غير التي اعتمد عليها الناشران الفرنسيان : ديفْريميري وسانگينيتّي، بل لم نجد واحداً من زملائنا من كلّف نفسه حتى زيارة المخطوطات الباريزية للقيام ببعض المقارنات والمفارقات ...!

ولكُثر ما اعتمد الناشرون على الطبعات السائرة، وجدنا بعضهم يقتصر على اعتماد هذه "الطبعات" فيما ترسمه وتكتبه، فيقول مثلا : بعض الطبعات ترسمه كذا وبعضها تكتبه كذا ! وكأنَّ الأصول المخطوطة مفقودة (1) !

وفي مصر التي تعتبر – على مرّ العصور – بحقٍّ رائدة الفكر وعاصمة الكتاب العربي، فإن الرحلة لم تشتهر إلا عندما صدرت كاملةً في باريز عام 1853=1858 !. فهنا تحركت الهمم لطبعها بمصر نقلاً – بالحرف – من الطبعة الفرنسية، ونقول بالحرف ونحن نقصد إلى أن الناشرين التَّابعين لم يبذلوا أيَّ جهد حتى في تصحيح نسبة الديباجة لابن جزي وليس لابن بطوطة على ما ندركه من قراءة السطور الأولى للمقدمة ...

وقد تَمَّ هذا الطبع أولاً بمطبعة وادي النيل بتصحيح أبي السعود أفندي (2) في منتصف جمادى الثانية 1288 هـ = أول شتنبر 1871 م" على أصله المطبوع مع ترجمته بالفرانساوية بمدينة باريز في سنة 1858 ميلادية" كما تقول هذه الطبعة.

وتحركت في بداية هذا القرن 1322 هـ 1904 م همة أحد أبناء فاس فتطوَّع الشريف مولاي أحمد بن عبد الكريم القادري الحسني المغربي الفاسي بطبع الرحلة من جديد، وكان عليه – هو الآخر – أن يعتمد على النسخة المطبوعة بمصر المعتمِدةِ بدورها على طبعة باريز .

(1) رحلة ابن بطوطة : تحقيق الشيخ محمد العريان، بيروت، طبعة ثانية 1412=1992. د. عادل خلف : معجم ألفاظ ابن بطّوطة، الملاحظات اللغوية... مصدران سابقان...

(2) يبدو أن أبا السعود أفندي هذا من الشخصيات النشيطة في العمل على نشر التراث الإفريقي، وقد حاولت عبثًا أن أقف له على ترجمة...

لقد عرفنا للشريف القادري بعض المبادرات المماثلة عندما طبع على ذمته" كشْف الأسرار عن علم الغُبَار" للإمام القلصادي عام 1318 هـ = 1900 م، وعندما طبع كذلك على ذمَّتة "مختصر الشيخ خليل" في الفقه المالكي عام 1322 هـ= 1904م بالمطبعة الحجرية بفاس...

ولعلَّ الشريف القادري تعذَّر عليه أن يقوم بطبع رحلة ابن بطوطة في مطابع الحَجَر بفاس، فقام بهذه المبادرة الجزئيّة واتَّصل بمصر التي ظهرت فيها هذه "الطبعة الثانية" للرحلة بمطبعة التقدُّم بشارع محمد علي بالقاهرة يوم 13 ربيع الثاني 1332 = 17 يونيه 1904 (3) ولكن مع حذف أن الأصل هو الطبعة الباريزية كما فعلت من قبلُ مطبعة وادي النيل !!

وقد ظهرت بالقاهرة طبعة ثالثة عام 1928 عن المطبعة الأزهرية : جزآن في مجلد واحد أشرف عليها ابن الشيخ حسن الفيومي إبراهيم ونعتها بـ "الأولى" ولم تقف الرحلة في مصر عند هذا الحد، فقد رأت وزارة المعارف المصرية، على ما يؤكده المستشرق الرّوسي كراتشكوفسكي، أن دراسة الرحلة في المدارس مما يساعد أبناءَ مصر على توسيع مداركهم وإثراء معلوماتهم. وهكذا عهدت 1352 = عام 1933 إلى اثنين من كبار رجال التعليم في أول هذا القرن بالإهتمام بالرحلة وإعدادها لتصبح ضمن المقررات المفروضة على طلاب المدارس الثانوية كما عهدت إلى الشيخ محمد فخر الدين بوضع خرائط لها، فكان كتاب (مهذَّب رحلة ابن بطوطة (4)...)

ونرى من المفيد هنا أن نشير إلى النقد اللاذع الذي لقيه كتاب (مهذّب الرحلة) من لدن عددٍ من الباحثين كان منهم زميلنا الراحل د. حسين مؤنس الذي يقول: "وهل هناك أدلّ على الجهل بقيمة رحلة ابن بطوطة من أن تمسخ في صورة " مهذّب" يستعمل كتاب مطالعة لتلاميذ المدارس؟ ولا ندري كيف يمكن أن يهذب وصف رحلةٍ على هذه القيمة؟ و ما هي الأجزاء التي ينبغي استبعادها حتى تكون الرحلة مهذّبة (5) ؟"

وإلى جانب هذه الطبعات المصرية وجدنا بيروت بدورها تُولي اهتمامها لرحلة ابن بطوطة، وكان أول ما لفت النظر للرحلة، حسب علمنا، سلسلة " الروائع" لفؤاد أفرام البستاني في طبعتها الأولى (يونيه 1927) حيث توالت طبعاتها فيما بعد. وقد قدمت (الروائع) ابن بطوطة عبر رحلته (تحفة النظار) في ثلاث كتيبات صغيرة ...

(3) إنما تمكنتُ من الوقوف على هذه الطبعة بمكتبة الأحقاف في تَرِيم بحضرموت !

(4) وزارة المعارف العمومية : "مهذّب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار". وقف على تهذيبه وضبط عربيته وأعلامه أحمد العوامري بك، ومحمد أحمد جاد المولى بك... المطبعة الأميرية، القاهرة 1933 – البستاني : الروائع 1950 ج I ص يج تعليق 1.

(5) د. حسين مؤنس : ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، مصر 1980 ص 8.

و من هنا تحركت (دار صادر) (6) لتُقدم إلينا عام 1960 طبعتها الكاملة للرحلة، ثم نافست دارُ الكتاب دارَ صادر فنشرتها (7) كذلك، في نفس عام 1960.

ونرى من المهم أن ننبه هنا إلى سابقة خطيرة : تلك أن الناشر في (دار صادر) أقدم على حذف الكلمات المتعلقة بضبط وشكل الأسماء الجغرافية ! هذا الضبط والشكل الذي يذكره المؤتمر العالمي لتنميط الأعلام الجغرافية التابع للأمم المتحدة على أنه من مناقب رحلة ابن بطوطة ومزاياها !!

ومن الواضح أن صنيع (دار صادر) هذا يعتبر بدعةً منكرةً لا تتفق و أهداف البحث الذي يعتبر أن ضبط الأسماء نوعٌ من التوثيق الذي تفرضه الأمانة العلمية. و إذا كان الأوربيون يستغنون عن ضبط الأسماء الجغرافية و الشخصية فلأنَّ كتابتهم تقوم مقام الشكل الموصوف في اللغة العربية.

هذا علاوة على حذف بعض الجمل التي رأت الدار أنها لا تليق بالأحوال الجارية اليوم، ! وعلاوة على بعض التعليقات في الهوامش التي تظل بعيدةً عن مفاهيم الأسرة الإسلامية والبيئة المغربية (8) .

و من الملاحظ أن (دار الكتاب اللبناني) سارت في نفس اتجاه (دار صادر)، فقد استغنت عن ضبط الأسماء الجغرافية و الأعلام الشخصية تقليدًا لزميلتها دارصادر. أكثر من هذا فقد قامت هذه الطبعة هي الأخرى بحذف بعض الفقرات بل وبعض الأشعار(9) التي لم ترُقْها من الرحلة ظلمًا و عدوانًا على نحو ما كان قام به المستشرق البرتغالي الأب انطونيو مُورًا سالف الذكر، وقام به كذلك العالم الايراني د. على موّحد.

لقد حُكي عن الجاحظ أنه صنف كتابًا وبوَّبه أبوابًا، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء و جعله أشلاء، فاحضره الجاحظ و قال له : يا هذا ! إن المصنِّف كالمصوِّر، وقد صورتُ في تصنيفي صورةً كانت لها عينان فعوَّرتهما أعمى الله عينيك ! وكان لها أذنان فصلمتَهما صلم الله أُذنيك ! وكان لها يدان فقطعتهما قطع الله يديْك ! حتى عدَّد اعضاء الصور ... فاعتذر إليه الرجل وتاب إلى الله من المعاودة (10)

(6) دار صادر – دار بيروت : رحلة ابن بطوطة، بيروت 1379= 1960 تقديم كرم البستاني.

(7) دار الكتاب اللبناني، بيروت : سلسلة كتاب التحرير 166 – سنة 1386=1966.

(8) أنظر مثلا صفحة 54 من الرحلة، طبعة (دار صادر).

(9) لقد استكثروا الشعر الذي قيل في حَلَب فاختصروه أو حذفوه !! راجع صفحة 53 من طبعة (دار الكتاب).

(10) ياقوت : معجم البلدان ج I ص 11.

وقد ظهرت بمصر عام 1964 م 1383 عن المكتبة التجارية الكبرى طبعة أخرى للرحلة وذُكر على أول صفحة فيها أنَّها "روجعت وصححت على عدة نسخ صحيحة، بمعرفة لجنة من الأدباء"

وقد أغراني هذا الإعلان فشددتُ الرحلة لطلب هذه الطبعة المصحّحة على عدة نسخ ومن طرف ثلة من الأدباء الذين لم يذكر منهم اسم واحد، لكنها كانت نسخةً طبق الأصل من كل النسخ التي صدرت بمصر. فهي تبتدئ بالخطأ المشهور الذي يَنسب المقدمة لابن بطوطة مع أنها لابن جزي . ثم تسير على نحو سابقاتها في أغلاطها. والفرق الوحيد بينها وبين سابقاتها أنها تجعل الكلمات التي تشكل الأعلام الجغرافية بين هلالين مثلا : بلاد (البَرهْ نَكَار) يقول عنها : (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون و الكاف و سكون الهاء). وهي عبارة عن جزئين في مجلد واحد. وقد ختم المصححون "السفر الاول" بايراد تذييل لابن خلدون حول "تناجي الناس" وحول اتصاله اَي ابن خلدون بالوزير أبن وُدرار ... بينما ختم السفر الثاني بالتنويه "بالحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى شارع محمد علي. "وقد وافق التمام أوائل شهر رجب من عام 1377 = (22 يناير 1958). هذا وقد صدرت طبعة أخرى عن المكتبة التجارية الكبرى عام 1386–1967...

وفي سنة 1388 = 1968 صدر عن دار التراث في بيروت نسخة جديدة مزيَّتُها فقط أنها تنسب المقدمة لصاحبها ابن جُزَي وليس لابن بطوطة، والباقي جارٍ على سنن الطبعات السابقة. وقد ظهرت طبعة جديدة للرحلة عام 1392=1972 لمؤسسة الرسالة في بيروت رأى زميلٌ لنا عزيز (11) أن يقوم بتقليد صنيع الناشرين في لبنان، وهكذا حذف العبارات التي تضبط الأعلام الجغرافية، بل وقام باجتهادٍ جديدٍ وهو أنه "جرَّد أقوال ابن جُزَي من صلب الرحلة وجعلها في ذيولٍ على حدةٍ نظراً لكون فائدتها – في نظره – ثانوية! وقد سلك هذا الصنيع أيضا في بعض النصوص التي وردت أثناء الكتاب. ومعنى كلّ هذا أن الرحلة التي عرفها الناس أيام السلطان أبي عنان راحتْ لتُعوّضها رحلةٌ "أخرى بترتيباتٍ أخرى.

وقد أتعب مثلُ هذا الصنيع أصحابَه فلم يستطيعوا الالتزام به ابتداءً من أول فقرة في الرحلة عندما استهل أبن جُزَي مقدمته بقوله : "الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا فيها سبلاً فجاجًا" إلخ. فهل لم يكن من واجب هؤلاء الزملاء – وقد قرروا فصل كلام ابن جزي عن الرحلة – أن يجعلوا المقدمة ذيلاً كذلك ؟! هذا إلى هفوات بالغةٍ لم يُنتبه لها : مثل كلمة التارات في المقدمة التي تحولت إلى القارات ! وكلمة الفارسية التي تحولت كذلك إلى الفاسية!

---

(11) القصد إلى الزميل الدكتور الأستاذ علي المنتصر الكتاني الذي طبع (الرحلة) مشكوراً في جزئين ...

وما كان لي أن أتحدث عن هذه الهفوات التي افترضتُ أنها مطبعية لولا ما أدَّت اليه حيث جاء بعد هذا أحد زملائنا من لبنان فقام باجتهادات أخرى، وهكذا اعتمد على زميلنا الذي أشرنا إليه من غير أن يرجع إلى أصول الرحلة ونقل عنه منهاجه في الاستغناء عن ضبط الأعلام، وحذْف تعليقات ابن جزي من صلب الكتاب لتصبح في الهامش . ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، ولكنه تجاوزه إلى إعطاء "تفسيرات" غير صحيحة تماماً لبعض الهفوات الواقعة في الرحلة المنقول عنها"، مثلاً فسَّر هذا الباحث : القصد من كلمة (القارات)، مع أنها التارات (12) وليس القارات، فسَّرها بأنها افريقيا وآسيا وأوربا مضيفا إلى هذا قوله : "إن أمريكا وأستراليا لم تكونا قد اكتشفتا بعد"! وفسر القصد من كلمة المملكة (الفاسية). مع أنها المملكة الفارسية : بأنها مملكة مدينة فاس!! وبدَّل هذا الناشر بعض العبارات التي لم تعجبه في الرحلة على نحو ما فَعَل سلفه (13). وأخيراً ظهر له أن يستغنى عن العناوين التي جعلها ابن بطوطة لكتابه وابتكر هو عناوين أخرى...

ومن الإنصاف أن نقدر الجهد المضني للأستاذ طلال حرب في محاولته - لأول مرة - لإعداد فهارس متنوعة، وكنت أتمنى أن يتسع صدره لمراقبةٍ أكثر للكُنى والألقاب وللتحري في التعريف بالأعلام الشخصية، والتصدّي للأخطاء المطبعية التي كنت أحيانا ضحيتَها أيضا!!

وقد وقفنا أخيراً على طبعة للرحلة صدرت عن دار إحياء العلوم في بيروت (1412=1992) وكانت بتقديم وتعليق الشيخ محمد عبد المنعم العريان وقد اعتمد في عمله على ما صدر من بعض الطبعات السابقة على ما أسلفنا...



ويبقى أخيرا أن نذكر أن رحلة ابن بطوطة ألهمت بعض الكتاب العرب المعاصرين فنسجوا على منوالها رحلةً خيالية ابتدعوها تحت عنوان : (رحلة مغربي إلى حضرموت) وحاكوها بدقة وذكاء حتى مرّت الحيلة، ردحاً من الزمان، على بعض زملائنا سيما وقد برع ذلك المخترع في إضفاء حلة البرود اليمانية على البرانس المغربية (14).!!

---

(12) الإشارة إلى الآية الكريمة : "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى"...

(13) أذكر على سبيل المثال عبارة (يطوف كلّ يوم سبعين طوافًا) الموجودة في جميع النسخ المخطوطة، تحولت إلى (يطوف كلّ أسبوع سبعين طوافا) ...

لكن الملاحَظ ان هذا الناشر الثاني تطوّع بتقديم بعض التعليقات التي لا تخلو من تعليق! ص : 26 تعليق : 33 ص 57، تعليق 81 ص 62، تعليق 103 ص 105، تعليق 93 ... هذا وَهناك بترٌ هام عند الدكتور الكتاني فتجدد عند الثاني ص 168 (سطر 6) ، علاوة على أن بعض المواقع الجغرافية التابعة اليوم لتركيا ظلّت تابعةً لسوريا (عين تاب) ص 654 على نحو ما كانت أيام ياقوت الحموي ! رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار، شرحه وكتب هوامشه : طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1407=1987.

(14) د . التازي : رحلة مغربي إلى حضرموت، حديث الخميس 12 نونبر 1993 في جلسة أكاديمية المملكة المغربية ونشر البحث بمجلة (المورد) البغدادية في العدد الأول من المجلد الحادي والعشرين 1993.

ومن السـادة الذين تصـدوا للرحلة - وهم كـثـير كـثـير- مَن تجنّب نشـرهـا حـرْفـيّاً وتحقيقها على الطريقة المعهودة في كتب التراث، واكتفى بعرضها أي إنه كان يحكي عن ابن بطوطة، ويتحدث عنه حديث الغائب وبأسلوبٍ غير أسلوب ابن بطوطة...(15).

وقد برّر بعضـهم هذا الصنيع بأنّه نوع من "التـعريب" أي نوع من ترجـمـة الأسلوب القديم إلى (الأسلوب الحديث)، وقد إستـأنس هذا البعضُ في ذلك بصنيع الدكتور طه حسين في كتابه (صوت أبي العلاء) عندما قال : "وما دام جمهور المثقفين يعظم ويضخم من يومٍ إلى يوم، فـلا بد أن نقرِّب إليـهم أدبنا القـديم... فليس كلُّ الناس قـادراً على قـراءة اللُّزومـيـات والفصول والغايات ورسالة الغفران وفهمها ... وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم وأصبح مكانُ الأدب العربي القديم من المثقفين مكانَ الأدب اللاتيني من الفرنسيين والإيطاليين"...

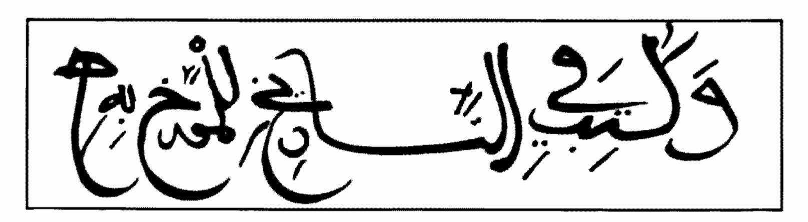
ويلاحظ أن بعض النـاشـرين فـي المشـرق لـم يكلِّفـوا أنفـسـهـم عناء البـحـث عن بـعض الكلمات المغربية الواردة في الرحلة فأطلقوا العنان لاجتهادهم الذي أخطأ الصواب في بعض الأحيان.

وسأكتفي بسرد طائفةٍ من الألفاظ معتمداً على القارئ في العودة إليها : كلمة (مِتِّيجة) وهي عَلَم جـغـرافي كمـا هو مـعلوم، وليـست إسـمـاً لاداةٍ من أدوات النقل في المـغـرب، كلمـة (القَبْرية) التي هي عبـارة عن شـاهد القبر الذي يسجل فيه اسم الميت وتاريخ وفاته، كتبوا عوضها (التِّبرية) وقالوا : إنها نسبة إلى التِّبر أي الذهب وقد تكون من النحاس أو الحديد أو الرصاص !

وقد استـشـكل بعضـهم كلمـة (الظهـير) التي تعني في المغـرب - كمـا هو مـعلوم - المرسوم الملكي، ولفظ (الشكّارة) التي تعني في المغرب ظرفاً من الجلد توضع فيه النقود مثلاً وليست إناءً على كلِّ حال، وكلمة (الفرَجِية) ليست ضرباً من الأقبية ولكنها لباس، وهي لفظ مـغـربي على مـا يؤكد دوزي في كتـابه (مـعـجم الملابس)... وكلمـة (أفراج) : تعني فـي المغرب مجموعة خيام سَكَنية متنقلة تكون صحبة الركب الملكي، والكلمة بربرية، وقد ورد ذكرها مرارا في المصـادر المغـربيـة . أمـا عن (التـهليل) فـإنه ظرف يُجعل فـيـه (المصـحف) وربّمـا (دلائل الخيـرات) كتـعويذةٍ، وليس القصد إلى قطعة ذهبٍ على شكل الهلال.. والمجْشر ويجمع على مـجـاشـر - وقد يحـرف إلى مداشـر- لا يعني في المغـرب الحوض، ولا المبلغ من المال، ولكنه

(15) من هؤلاء الأسـتـاذ مـحـمـود الشرقـاوي في تـأليـفـه رحلة ابن بطوطة، مكتبـة الانجلو المصـرية 1968. والأستاذ المهدي بنبوشته في تأليفه رحلات ابن بطوطة الرباط 1969 . والدكتور خصباك في كتابه : ابن بطوطة ورحلته، مطبعـة الآداب - النجف الأشـرف 1971 والدكـتـور حسين مؤنس في كتـابه : ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف - 1980 ود. خليل ابراهيم السامرائي وعبد الله القطبيبي (المغرب) 1993وغير هؤلاء

يعني مجموعة سكَنية في البادية. هذا إلى كلمة (السّنداس) التي تعني في المغرب المرحاض، وكلمـة (المصرية) التي تـعني في المغرب البيت المنعـزل الذي يأوي إليه شـباب الأسـرة مـثلاً. يكون ملحقاً بالدار التي تسكنها العائلة(16)، وكلمة (التَّبْرِيح) في المغرب تعني الإعلام العَلَني: برَّحوا بالملك على أنَّهُ سيقوم بسَفَرٍ نحو جهةٍ من الجهات، بمعنى أعلموا به وأشـهروه، هذا المعنى فات بعض الناشرين ففسَّروا التبريح بأنه الضَّرب المبرّح ، وهذا معْنى لا صلة له بالموضـوع، وكلمـة (أزواج الحرث) وجـد الاستاذ كرم البسـتانـي أنها تـحريف لكلمة إرْواح وانطلق يؤوِّل، وكلمـة (القِيِّرة) يستعملها ابن بطوطة وابن خلدون على أنها مقتبسة من الكلمة الاسبانية (الگيرة) بمعنى الحرب، حوَّلها البستاني إلى كلمة الغُزاة...! والبحائر التي هي جمع لبَحِيرة على وزن سفينة، جعلها جمعًا لبحرة، و(صاحب العَلاَمة) التي يعني لقباً حضـارياً يعني الموظف السـامي في الدولة الذي يُعـهـد اليه – بعد أن تـحـرر الرسـالة الملكيـة – بوضـع العَـلاَمـة السلطــانيـة عليهـا، هذا المعنى خـفي على بعـضـهم فـحـول العـبارة إلى الصـاحِب العلاَّمة !! بالرغم من أن المشرق عرف أيضا هذه الوظيفة على مافي (بدائع الزهور).

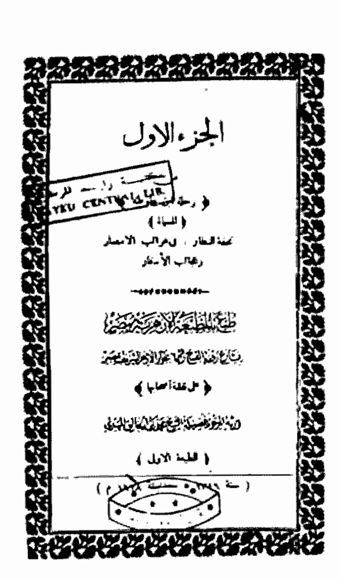


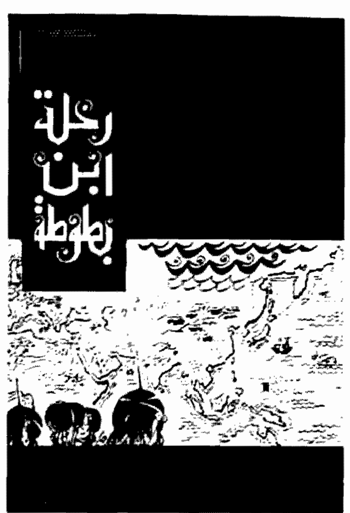
علامة ملوك بني مرين

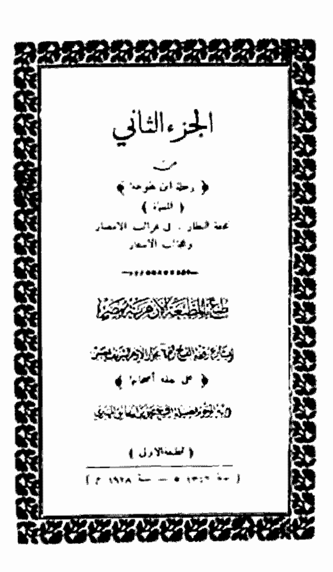
ونحن نلتمس العذر لأولئك الذين لم يدققوا في الفرق بين حـج الإفراد (بكسـر الهمـزة) وحـج القِران (بكسر القاف)، ولم يتتبعـوا التـعابير التي وردت في (حـزب البـحـر) أو الحـزب الصغير كما قد يسمّونه لأبي الحسن الشاذلي رحمه الله.

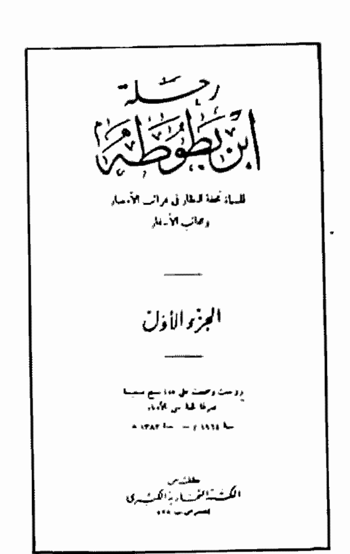
ولايفوتني بعد هذا أن أضيف إلى ما ذكرتُه أن سـائر الذين اهتموا بالرحلة لم ينتبهوا إلى أن الشعـر الفارسي الذي طالب أمير أمراء الصـين بغنائه وترديده مراراً حتـى حفظه ابن بطوطة من أفواههم هو بيتٌ واحد للشيخ سعدي من قصيدة مشـهورة، وليس بيتين من بـحـر الرجز على ماسنرى ذلك في محله...

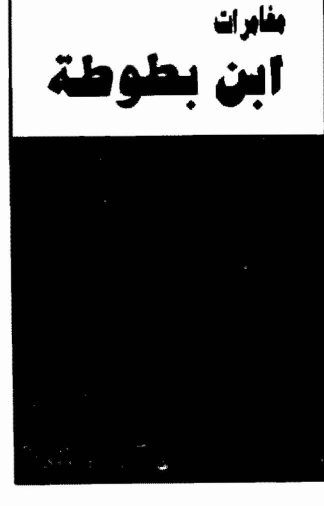
(16) د. سليم النّعيمي : ألفاظ من رحلة ابن بطوطة. مجلّة المجمع العلمي العراقي المجلد 24-25-26 سنة 1974 بغداد – ابراهيم السامرائي : الالفاظ الدخيلة في رحلة ابن بطوطة مجلة البحث العلمي المجلد 26 سنة 1976 – الرباط.

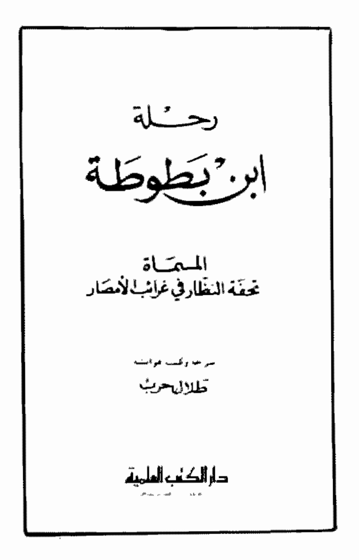

الجزء الاول
(المسماة)
تحفة النظار في غرائب الامصار
وعجائب الأسفار
(الطبعة الاولى)


رحلة
ابن
بطوطة


الجزء الثاني
من
(المسماة)
تحفة النظار في غرائب الامصار
وعجائب الأسفار
(الطبعة الاولى)

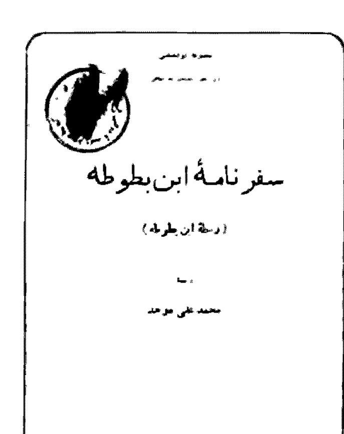

رحلة
ابن بطوطة
المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار
الجزء الأول

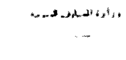

مغامرات
ابن بطوطة


رحلة
ابن بطوطة
المسماة
تحفة النظار في غرائب الأمصار
طلال حرب
دار الكتب العلمية

رحلة ابن بطوطة
المسماة
تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م





مهذب رحلة ابن بطوطة
المسماة
تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار
أحمد العوامري بك و محمد أحمد جاد المولى بك
الجزء الأول
١٩٣٢



رحلة
ابن بطوطة
المسمّاة
تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار
الجزء الثاني
حققه وقدم له وعلق عليه
الدكتور علي المنتصر الكتاني
مؤسسة الرسالة

رحلة ابن بطوطة
تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
الجزء الأول
قدم له وحققه
الشيخ محمد عبد المنعم العريان
راجعه وأعد فهارسه
الأستاذ مصطفى القصاص
دار إحياء العلوم
بيروت

دراسات نقدية

الدراسات النقدية...

ولقد بقيتْ رحلة ابن بطوطة بعيدةً عن كل نقد وعن كلّ تعليق – عدا ما حكيناه عن ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون– حتى قيض الله لها من بعض المستشرقين من قام بمتابعتها وتعقبها، وقد ابتدأت الدراسات النقدية في الواقع منذ اليوم الذي نشرت فيه الأطراف الأولى من الرحلة في بعض البلاد الأروبية.

ومن أشهر من تناولها بالنقد – بعد الناشرَيْن الفرنسيَيْن– السير هاميلتون كيب والعلاّمة التشيكي إيفان هربك (1) والباحثان الفرنسيان فانسان مُونطِي وصطيفان بيرَازيموس، ورُوس دان الاستاذ بجامعة ولاية سان دييكو وآخرون غير هؤلاء

وهكذا توفَّرنا على دراساتٍ نقديةٍ أثرتْ رحلة ابن بطوطة وأثارت انتباه الباحثين اليها من سائر جهات المعمور وبكل لسان.

لقد تتبَّعوا تلك المذكّرات من خلال عدد من المقاييس والمعايير، مثلاً ضبط التَّواريخ التي يوردها مقارنةً بأسماء الأيام التي يذكرها : يوم الاثنين مثلاً، وهل بالفعل يتطابق مع تاريخ اليوم السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة الذي ذُكر تاريخا لميلاده ؟

وهناك حديث ابن بطوطة عن شدّة البرد في شهر قمري : (شوال مثلا) في حين أن هذا الشهر كان يوافق يونيه أو يوليه الذي نعتاد فيه الحر.

وهم يتقَّفَوْن أَثره وهو يجتاز بعض البلاد مثلاً فلا يذكر تاريخاً ليوم ولا لشهر ولا لسنة، وبذلك يتركنا في غموضٍ من أمر التسلسل الزمني .

وقد حاسبوه على ذكر بعض الأحداث في غير محلّها، وأنه يحكى في الرحلة السابقة ما حصل له في الرحلة اللاحقة. على نحو ما حكاه عن الشريف أبي غرة وهو في النجف بينما سَيسمع الحكاية عنه وهو في الهند، وماحكاه في زيارته الأولى عن الطاعون بدمشق.

وقد حاسبوه فيما روى عن بعض الشخصيات واتّصاله بها في حينٍ كان يستحيل عليه ذلك ! هذا إلى إهماله لذكر أسماء الحُكام في بعض الجهات التي زارها مع أن عادته جرت على أن يُعطي الأولوية لزيارة المتنفّذين والمسؤولين عن البلاد. ولم يتردد بعضهم في اتهام ابن بطوطة بأنه كان أحياناً "يصطنع" الرحلات ويتقمص شخصياتٍ أخرى فينسب له ما كان لتلك الشخصيات... كل هذا إلى إهماله لذكر بعض المشاهد والمزارات التي كان من المفروض أن تكون مقصودةً من لدنه، مثلا إغفاله لذكر مزارة الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد !

---

(1) يعتبر هربك أهمَّ باحثٍ دقّق مع ابن بطوطة في يومياته IVAN HRBEK : THE CHRONOLOGY of IBN BATTUTA'S TRAVELS, ARCHIV ORIENTALNI - PRAHA 1962.

وقد كان في صدر ما أثار انتباهنا حقاً تلك الطّفرات والقفزات التي سجلت على الرجل في بعض المناطق التي كنا نصحبه فيها مرحلةً مرحلة. كنا نشعر في بعض الأحيان وكأنه ركب طائرةً ليحلّق فيها من محطة إلى أخرى بعيداً عن الأنظار، وكم بذلنا من جهدٍ حتى نتعرف على خطوط سيْره !!

لقد انشغل عن تعداد المراحل عندما انتقل من بغداد إلى تِبريز عاصمة الإيلخان، ولعل مصاحبته للسلطان أبي سعيد كانت وراء اختفاء شخصيته، فانشغل بغيره عن نفسه، وكثيراً ما يحدث هذا ولاينبّئك مثل خبير! وكذا كان حاله فيما بين ماردين وبغداد...

ومن الوثبات المحيّرة التي لم نعرف لها طريقًا الوثبة التي كانت له من جنوب الروسيا إلى شمال تركيا. هل وصل صحبة الخاتون عبر الصحراء أو عبر الدانوب؟ لقد اختفت شخصيته رفقة الاميرة أيضاً. ومن ميلاس غربًا جنوب الأناضول إلى قونية شرقي شمالها، ثم من أرز الرّوم شرقاً إلى بِركي غربا، لم نستطع تقفي أثارِه، وهو في شرق إفريقيا أيضا، لم نستطع مصاحبته وهو يتحرك من كلوة إلى ظفار بحراً.(2)

وفي طريق ابن بطوطة من مكة صحبة الأمير البَهْلُوَان عن طريق المدينة حتى يصل للعراق عن طريق حصن فَيْد – وهو الحائل – انشغل أيضًا عن تناول القلم والورق على نحو ما كان منه وهو يرافق ركب السلطان أبي سعيد من بغداد إلى تبريز، وركْبَ الخاتون إلى القسطنطينية العظمى.

وهو في الأردن سلك طريقه من الجيزة إلى بُصرى الشام، وهو طريق غير مسلوكٍ اليوم. ولو أنه سافر على الطريق المألوف لكان عليه أن يجتاز على عَمان قصبة البلْقاء، عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حالياً على مايؤكده الزميل الأستاذ الدكتور ناصر الدّين الأسد في بحثه المقدم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورة 1996.

وقد لاحظ زميلنا الراحل السفير خليل الله خليلي وهو يتحدث عن ابن بطوطة في أفغانستان طفرةَ الرحالة من بلخ إلى أن وصل إلى هرات وتساءل أيَّ طريق سلكه ؟ هذا علاوة على وثبة بسطام إلى قندوز وبغلان (3).

وعندما عبر نهر السند مع علاء الملك إلى العاصمة لاَهَري من الحدود الشمالية الحالية وفي اتجاه جنوب البلاد، هناك لم يستوعب المحطات النّهرية التي كان يمر بها. وهو في شرق

(2) تحفة الأعيان II، 358

(3) ابن بطوطة في افغانستان ص 56 - 57.

الصّين ابتداء من مضيق فرموزة وعبْر النهر الأعظم والنهر الأصفر وآب حياة... كان كسولاً في تتبع محطات سيره ولَكأنما كانت الصين صحراء قفراء. لا ذكر لبعض الأطعمة الصينية وأشربتها وفي صدرها الشاي الذي كان انتشر على ذلك العهد(4). لكن الوثبات الكبرى هي التي سجلت عليه وقد قرر أن يعود إلى بلاده المغرب عندما أنهى زيارته للصين ورجع من حيث أتى دون تدقيقٍ ولا تفصيل. فمن مدينة الزيتون حيث عشرات الجنوك... عبْر الجاوة ثم طوالسي وُسُمَطره حيث حضر أعراس الأمير ولد الملك الظاهر في الجاوة، ثم إلى ظفار، وفارس والعراق، ثم الحج السادس والأخير قبل أن يعود إلى المغرب... كان يمر سريعاً وكأن وراءه ما يمنعه عن الاسترسال في الحديث.

وقد لاحظ گيب ومعه هربك أن أمير شيراز لا يمكن أن يكون عام 727=1327 هو أبا إسحاق ابن محمد الذي إنما حكم من عام 1343 إلى عام 1357. وهكذا نجد مرة أخرى أن الرحالة المغربي يمزج مشاهداته عند الذهاب بمشاهداته عند الإياب...!

وعندما يذكر ابن بطوطة أنه زار هرمز عام 731=1331 يعقّب هربك أيضاً بأن الرحالة المغربي إنما زار هرمز عند عودته من الهند والصين عام 1347 !

وعندما وَصَلَ ابن بطوطة لمدينة (العلايا) أول بلاد الروم أمسك هربك بتلابيبه وضبط بالعدّ والحساب أنه زار 29 محلة في انطالية انطلاقا من العلايا حوالي فاتح ربيع الثاني 20 733 = دجنبر 1332. وقد حاول العالم التشيكي أن يقوم هو بإعادة تمثيل خط السير فاصطدم بمصاعب وتناقضات ...!!

وعندما تحدث ابن بطوطة عن استشهاد الأمير عمر بك ابن سطان ´يزمِير، عقّب گيب على ذلك بأن الأمير قام بغزوته الأولى في الدردنيل عام 732=1332، وقد لقي حتفه في شهر مايه 1348 = محرم 749، وهكذا فإن ابن بطوطة لم يمكنه أن يعلم باستشهاده الاّ عند العودة من سفره...

وقد بيّن هربك أن ابن بطوطة – وهو في سوريا – ذكر أنه زار أكثر من عشرين موقعاً خلال شعبان ورمضان 726 يوليه، غشت 1326 ... وهذا غير مقبول، ولامعقول ! وهو الأمر الذي يؤكد أن الرحالة المغربي كان يخلط بين زياراته للأماكن في المرة الأولى والثانية.

وقد حاول بعض الباحثين أن يُشَكِّكَ في أمر وصول ابن بطّوطة إلى اصْطنبول لكن

(4) R. Laussert : le the : un monde de civilisation RAM-MAGAZINE Nov. 1994.

معظم الذين اشتغلوا بالرحلة لا يرتابون إطلاقاً في وصول الرحالة المغربي للقسطنطينية العظمى.

وعلى نحو ذلك شكك بعضهم، من أمثال الدبلوماسي الشهير كابرييل ڤيران، في زيارة ابن بطوطة للصين، إلا أن كثيراً ممّن عالجوا هذا الموضوع كانوا مقتنعين بأن الرجل زار فعلاً تلك الدّيار،(5) وأن الصينيين أنفسهم لا يشكون في ذلك. وخلال المحاضرة التي ألقيتُها هناك في جامعة پكين، قسم الدراسات الشرقية. صيف 1988 كنت أشعر بأنني أمام عددٍ من المثقفين الذين كانوا يدينون للرحالة المغربي بالكثير من المعلومات الأصيلة التي انفرد بها عما سواه ممن تحدثوا عن تاريخ الصين وأسطول الصين بمن في أولئك ماركو بّولو ! وقد وضعوا خرائط لزيارته لبلادهم وهم يرددون اسمه على أنه رائد من روّاد الصّين الكبار...

وتبقى هناك – مع هذا – بعض المواخذات التي تستوقفنا حقّاً :

<u>الأولى</u> : قضية حضور ابن بطوطة لمجلس تقيّ الدّين ابن تيمية وهو بدمشق بعد أن كان وصلها يوم الخميس 9 رمضان 726 = 9 غشت 1326فقد أخبر أولاً عن سجن ابن تيمية وإطلاق سراحه، ثم أخبر أنه وقع منه مثلُ ما استوجب سجنه أولاً فسجن مرةً ثانية وقال : إنه حضر يوم الجمعة وشاهد ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، وإنّ من جملة كلامه : أن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء إلى آخر الحكاية... مع العلم أن ابن تيمية أودع في السجن منذ سادس شعبان... أي قبل وصول الرحالة إلى دمشق (6) !!

فكيف يصحّ قول ابن بطوطة هذا مع تلك الفقرة التي نسبها لشيخ الإسلام في تفسيره لحديث النزول بما هو من قول المجسِّمة المخالفِ لمذهب السلف الذي يُعد ابن تيمية قطباً من أقطابهم ؟

ونعتقد أن أحسن ما يمكن الجواب به عن هذا الانتقاد ما عقب به زميلنا الراحل الأستاذ عبد الله كنون رحمه الله من أن الخبر وقع فيه تزيُّد من خصوم ابن تيمية فرواه رحالتنا على علاته... ولم يُخف الأستاذ كنون شكوكه في صنيع الكاتب ابن جُزَي الذي يجوز

(5) IBN BATOUTA le Voyageur de l'ISLAM 1304-1369 Par HERMAN F. Jansens 1948 P 102.

(6) محمد بهجت البيطار : حياة شيخ الاسلام ابن تيمية، منشورات المكتب الاسلامي للطباعة والنشر 1961 = 1380 ابراهيم بن أحمد الفياني : ناحية من حياة شيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق محب الدين الخطيب، طبعة ثانية 1399.

(7) مجلة مجمع دمشق، يوليه 1965 = ربيع الأول 1385.

أنه توهم حضور ابن بطوطة للواقعة المزعومة (7).

وقد وقفتُ في كتاب نيل الديباج لأحمد بابا السوداني (ت 1032=1623) عند ترجمة أبي زيد عبد الرحمن وترجمة أخيه ابي موسى عيسى ابنى الإمام البرشكي أنهما رحلا إلى المشرق وناظرا تقي الدين ابن تيمية الذي كانت له مقالات يحمل فيها حديث النزول على ظاهره، وقوله فيه "كنزولي هذا"، قال صاحب الديباج وهذه الزيادة أعني قول "كنزولي هذا" اثبتها ابن بطوطة في رحلته ...(8)

الثانية : هي تلك التي أثارت الكثير من التعاليق : وهو سفره إلى مدينة بلغار التي سمع بها وهو بحضرة السلطان محمد أوزبك خان حتى يرى ما ذُكر له عنها من تناهي قصر الليل بها وقصر النهار أيضا في الفصل المعاكس، وانه طلب إلى السلطان مساعدته للوصول إليها وكان بينها وبين محلة السُّلطان مسيرة عشرة أيام.

إن المسافة بين الموقعين ألف وثلاثمائة كيلوميتر، فكيف يصل إليها المرء في عشرة أيام؟ ولم يشفع لابن بطوطة ما نعرفه عن الإمكانات المادية للسلطان والتي من شأنها، كما خَبَرْنا ذلك، أنْ تتجاوز المعروف عند الإنسان العادي، ولهذا أصر المعلقون على أن هذه المعلومة تحتاج إلى ما يدعمها...

أما المؤاخذات الأخرى الباقية فكانت تتصل ببعض الحكايات التي تتسم بالمبالغات التي لا يقبلها العقل، ونذكر على سبيل المثال حكاية ابن بطوطة عن الغواصين الذين يبحثون عن اللؤلؤ في الخليج فيما بين ميناء سيراف والبحرين. فقد ذكر أن في الغواصين مَن يصبر الساعة والساعتين في الماء... مع العِلم أنه لا يمكن تجاوز سبعين إلى مائة ثانية... وقد كان زميلي الراحل الشيخ عبد الله الأنصاري القطَري يحكي لي – وهو ممَّن زاولوا الغوص – أن الغواصين كانوا يتنافسون في مَدَى التحمُّل وقد نبَّهني إلى أن قصد ابن بطوطة ليس هو الغوص تحت الماء طوال تلك المدة ولكن القصد إلى أنَّ عملية النزول إلى عمق البحر والصعود منه تستمر تلك المدة. وهذا ما وجدته في بعض الترجمات الجديرة بالثقة، وهو ما تؤيده شهادة السيدين، جمعة الماجد وسيف الغرير، وكانا أيضا من رجال الغوص..

ولا بد أن نذكّر هنا بأن ابن بطوطة هو الذي كان بين الفينة والأخرى يشعر بأن بعض ما يرويه قد لا يقبل من لدن بعض العقول فيقول مثلا- وهو يتحدث عن مزاعم الناس حول شجرة (دَرَخْت رَوَان)- «ولهم في شأنها أكاذيبُ يحيلها العقل» وقال عن مزاعمهم حول

(8) ابن مرزوق : المسند الصحيح تحقيق د. مارية خيسوس بيغيرا – الجزائر 1981، القاعدة المراكشية لشيخ الاسلام بن تيمية نشر سراج الحق ضمن الكتاب الذي صدر عن مؤسسة بريل Brill عام 1965 ليدن ص. 223، أحمد بابا التكروري التنبكتي : كتاب نيل الابتهاج الطبعة الحجرية بفاس ص 132-140.

مفعول أوراقها – وهي شجرةٍ في سرنديب : "قالوا إن من تناولها عاد له الشباب وهو باطل!! وقال، وقد سمع الناس يتناقلون حديثًا غريباً "لم أذكره خيفة مكذّب به". وقد سخر بعضهم من روايته لرؤية بعض النساء بثدي واحد بينما طالعتْنا صور الأحداث اليوم بوجود إناث لهن ثلاثة اثدَاء !!

ملاحظة أخيرة : كنا نشعر بوجوده في مكان مَّا من الأمكنة لكنه لسبب أو آخر يفقد قلمه ويعطل ذاكرته فلا يحفل بما كان ينبغي له أن يحفل به على ما أشرنا، وهكذا ففي أثناء وجوده بمصر أهمل ذكر جامع ابن طولون الذي تحدث عنه معظم الرحالة المغاربة ولا سيما وقد كان للمغاربة فيه "مأوى يسكنونه ويحلقون فيه حيث تجري النفقات عليهم في كل شهر" على حدّ تعبير ابن جُبير..

هذا إلى اهمال ذكر رواق المغاربة في الأزهر الشريف. ورواقهم – وهذا مهم– في القدس، وقد تحدث عنه علوي في كتابه (سفرنامه)، ولم يتحدث وهو في سلا عن الجامع الأعظم في الوقت الذي تحدث فيه عن حسان التي لم يصعدها على نحو ما فعل في الكتبية. وابن بطُّوطة الذي تحدث عن الزيتونة والأزهر لم يلفت نظرَه جامع القرويين الذي كان كعبة لكبار العلماء وكذاعيونُ الطلاب الذين كانوا يسكنون في المدارس التي تحف به : مدرسة الصفارين والعطارين والمصباحية علاوة على إهماله البيمارستان الذي يسهر على علاج الناس والذي كان موجودا بفاس على ذلك العهد.

وابن بطوطة في الأندلس أهمل ذكر الجامع الأعْظم في رندة التي كانت عاصمة الأمير أبي مالك ابن السلطان أبي الحسن..

لكنَّ الحقيقة التي ينبغي أن نجعلها نصب أعيننا ونحن نتتبع تلك التعقيبات هي أن تلك "التقييدات" التي جمعها ابن بطوطة قرابة ثلاثين سنة قام ابن جُزي "بتلخيصها" في أقلّ من ثلاثة شهور. ومتى كانت ثلاثة شهور كافيةً لتغطية تلك الأعوام واستيعاب ذلك العدد من الأسماء الجغرافية والأعلام الشخصية التي مرت بذاكرة الرحالة عبر تلك الأحقاب ؟! يقوم أحدنا في العصر الحاضر برحلةٍ في أمد معروف البداية والنهاية ولا يذكر بعد مرور بضعة أسابيع من رحلته بعض الأسماء التي مرت به فيأخذ في الاستنجاد برفاقه في الطريق !!

وأعتقد أن ابن جُزَي كان مستعجلاً أكثر مما ينبغي في أداء مهمته، وربما كان مشغولاً بمشكل صحي طارئٍ عليه وهو الأمر الذي عرَّضه للتصرُّف، ودفع به إلى الاستغناء كليةً عن بعض "التقاييد. ولا ندري هل كان ابن بطوطة يجلس إلى جانب ابن جُزَي ليراجع هذا "التلخيص" بعد تحريره ليعطي رأيه فيه؟ مهما يكن فإن بعض التَّبعة تقع على الظرف القصير الذي حُدد للقيام بالمهمة..

وإذا ما أضفنا إلى استعجال ابن جُزَي عنصراً ثانياً قرأناه في أثناء الرحلة، وهو

الحسرة الجارحة التي كانت تحزُّ في ابن بطوطة وهو يتحدث عن السَّطو الذي تعرض له في الجزيرة الصغرى التي تقع بين هِنورَ وفَاكَنُوَر حيث سلبه القراصنة جميع ما عنده من جواهر ويواقيت، حتى الثياب والزّوادات، وبالرغم من القيمة المادية الهائلة لما افتقده في هذه الحادثة، فإنه نسي كلّ تلك الثروات وكلّ تلك التحف ولم يبق عالقاً بذاكرته إلا "التقييدات" التي كان يُودع فيها معلومات عن الشخصيات التي تعرف عليها وعن التصانيف التي ألفتْها تلك الشخصيات! ولم ينتظر للتعبير عن حزنه على ضياع تلك المذكرات الظرف الزمني الذي وقع فيه الحادث، ولكنه. والمذكرات امرٌ ذو بال يشغله – استعجل بذكر ذلك عندما كان يتحدث عن علماء بُخارَى على ماسنرى...

وينبغي أن نضيف إلى كل هذا أيضاً مشاكل الترجمة التي لم يفته هو التنصيص على بعض أخطائها، فقد كان يتلقى أخباراً من المترجمين والمرشدين الذين يجدهم أمامه ليستعين بهم فيما يطلب من معلومات كان يرويها كما سمعها. فلقد قيل له – وهو في بيزنطة – عن النبي إلياس الذي ينطق به عندهم Elic فظنه عليّ... واستغرب هو من ذلك !!

ولكن المهم بعد هذا وقبل هذا أن سائر الذين، تعقبوه وانتقدوا بعض مقاطعه وفقراته أجمعوا على إكباره وتقديره، وعلى براعته في طريقته لجلْب القراء بما كان يختاره من بديع النكتة ودقة التعبير، وبما كان يتخذه شعاراً له من الصراحة في القول مما قد لا يجرؤ أحدنا اليوم على الجهر به. فهو يواجه الأمراءَ بما قد لا يرضيهم، وهو ينصف المستحقين منهم ولو أنه كان بعيداً عنهم، وهو في الأخير متحفظ فيما يرويه إذا لم يكن مقتنعا به حيث نجده «يخرج عن العهدة بما يُشعر من الألفاظ بذلك» على حدّ تعبير ابن جزى الذي عرفه حقّ المعرفة. لقد كانوا جميعاً يتفقون على أن ابن بطوطة هو الرحالة الأمين الذي كانت مذكراته تتميّز عن غيرها بما يحسه القراء ولا يستطيعون التعبير عنه سواء أكانوا يعيشون في أروبا أو آسيا أو إفريقيا.

النقوش كمصدرٍ لابن بطوطة

وأحب أن أثير الإنتباه هنا إلى عنصرٍ في الرحلة كافٍ وحده للتأكيد على جدّيتها وصدق أخبارها، ويتعلق الأمر بالنقوش التي كان يقف عليها مكتوبةً على لوحةٍ خشبية أو قطعةٍ من حجر أو رخام، فكان يسجلها ويحفظها، وقد أمست بالنسبة إلينا اليوم بمثابة وثيقةٍ حية تؤكد ما كان يرويه الرجل قبل نحو من سبعة قرون!

فإن المؤرخ قد يتأثر بما حواليه وبمَن حواليه بينما تبقى الوثيقة المعاصرة أمينةً شاخصة. ولقد لذَّ لي أن أهتم بهذا الجانب من الرحلة وأن أقف بنفسي على مروياتها باعتبارها، كما قلت، دليلاً لا يقبل الطعن سيما وبعض تلك النقوش ما يزال شاخصاً للعيان. وهكذا فقد قرأ ابن بطوطة على شاهد قبر الشيخ أبي الحسن الشاذلي اسمه ونَسَبه متصلاً إلى الحسن بن علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام.

وقد كان فيما اكتشفه من خطوطٍ ما قرأه على قَبْرية فاطمة بنت الحسين بن علي : "هذا قبر أمِّ سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه" بينما قرأ في لوحٍ آخر : "صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر" وتحت ذلك ثلاثة أبيات...

وعندما زار ابن بطوطة قبْر النبي هود عليه السلام شرقيَّ مدينة تَرِيم في حضرموت لاحظ أن القبر مكتوب عليه : "هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم"، وهو ما يعتمده الحضارمة إلى اليوم.

وفي هذا الإطار ما قرأه على قبْرية سعد بن عبادة، وما سجله وهو بمكة عن معالمها التاريخية مما يُعتبر فيه ابن بطوطة حجة، سيّما بعد اختفاء تلك الآثار، هذا إلى ما عَلِق بذاكرة الرَّحالة مما قرأه في دمشق وفي عسقلان ومدينة البصرة وبغداد وسوريا.

ومن المُهمّ أن نسمع ابن بطوطة – وهو الحريص على توثيق تلك المنقوشات – نسمعه يتحسر لضياع مذكّراته على نحو ما وقع بالنسبة لمقيّدات الهروي أثناء احتلال الروم للأراضي المقدسة (1) !

ويخبرنا بأنه كُتب على قبر البخاري : "هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري وقد صنف من الكتب" كذا وكذا... وكذلك كُتبت على قبور علماء بخاري أسماؤهم وأسماء تصانيفهم."وكنتُ قيدتُ من ذلك كثيرًا –يقول ابن بطوطة – وضاع مني في جملة ما ضاع لمَّا

(1) أبو الحسن الهروي : كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات – دمشق 1953 ص 30.

سلبني كفار الهند في البحر ..." وقد اهتم - وهو في بلاد السند والهند - بتقصي المنقوشات باعتبارها الرائد الذي لا يكذب أهله، فأخبرنا بأنه قرأ على مقصورة الجامع في مُلتان التي أمر السلطان غياث الدّين تُغلق شاه بعملها، قرأ : "إني قاتلت التتر تسعاً وعشرين مرةً فهزمتُهم فحينئذٍ سُميتُ بالملك الغازي (2)" وقد اخبرنا كذلك بأنه قرأ على محراب الجامع الأعظم في مدينة دهلي تاريخ افتتاح المدينة من أيدي الكفار سنة 584 هـ = (1188م) ...

وقد أمكنه أن يسجل مانقشه جلال الدّين أحسن شاه على صفحتي الدينار : (سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدّين الواثق بتأييد الرحمن ، أحسن شاه السلطان).

ومما يجري مجرى النقوش نذكر بعض النصوص التاريخية التي حرص على تسجيلها مما يُعتبر اليوم لدى المهتمين بها حججاً يعتمد عليها، ونشير مثلاً إلى النص التاريخي لجواب سلطان الهند على رسالة إمبراطور الصين هيُونْتي (Hyunti) الذي طالب بترميم معبد بودى عتيق بقرب جبل الهيملايا في الموقع المعروف بسمْهل، حيث نجد أن العاهل الهندي يكتب إليه قائلا : "إن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من اتبع الهدى" (3). إلى غير هذا من االوثائق التي لم يغفلها بما فيها الكتابات باللسان الهندي على نحو ما قرأناه له وهو في مدينة تَارْنَا الأثرية من بلاد السند.

وقد تعلقتْ نفسي بمتابعة هذه المعلومات في الرحلات التي قمت بها عبر الأنحاء التي زارها، وقد ذهبتُ بعيداً إلى جزر المالديف في المحيط الهندي لأعرف جليّة الأمر حول ما نقله ابن بطوطة في رحلته عما كان قرأه هناك "على مقصورة الجامع منقوشاً في الخشب من أن سلطان هذه الجزائر أسلم على يد أبي البركات البربري المغربي"

فعلاً طلبتُ أن أقف على اللوحة المذكورة، فوجدت أنها نُقلت من مكانها الأصلي وعوضت بقطعةٍ حديثةٍ حاولتْ أن تنقل ما كان في اللوحة الأصلية لكنها حرّفتْ كلمة أبي البركات إلى أبي الرّكاب! وكلمةَ البربري إلى التبريزي ! ومن حسن الحظ أن اللوحة الأصلية

(2) Dr. AHMAD NABI KHAN : Dévelopment of Mosque Archtecture in Pakistan, Islamabad 1986 P. 36-53.

(3) بدر الدّين حيّ الصيني : العلاقات بين العَرب والصّين طبعة أولى 1370=1950، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ص 207-208.

يحتفظ بها المتحف الوطني اليوم، ويمكن أن نقرأ فيها هذه العبارات بوضوح : ووصل في هذا البلد أبو البركات ... البربري وأسلم السلطان على يده في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (4) (يوليه 1153).

والحديث عن علاقة المغرب مع المالديف بالأمس يسوقنا إلى التذكير بانعكاس تلك العلاقات على حاضرنا اليوم حيث شاهدنا لقاءً فريداً من نوعه تُسبّبه شهادة ابنِ بطّوطة (5).



(4) د. التازي : أقدم نقش عربي في مالديف يتحدث عن المغرب – مجلة البحث العلمي، العدد 40 – السنة الخامسة والعشرون 1410 - 1411 هـ = 1990 - 1991، ص 13 - 21.

(5) رأى الناس شرقاً وغرباً، من خلال التلفزة المغربية – فخامة السيد مأمون عبد القيوم رئيس جمهورية المالديف وهو يُلقي محاضرته مساء يوم السبت 13 مارس 1993 (19 رمضان 1413) برحاب القصر الملكي أمام جلالة الملك الحسن الثاني الذي، قبْل أن يقدّم الرئيسَ المالديفي، أبرز العلاقات التاريخية بين المملكة المغربية وجمهورية المالديف اعتماداً على ما رواه ابن بطوطة الذي اعتمد السيد الرئيس أيضاً على مذكّراته فيما قدمه من معلومات عن تاريخ المالديف في محاضرته القيّمة بعنوان : "الاجتهاد وضرورتُه الملحة لمعالجة القضايا المعاصرة"، وكالة المغرب العربي للأبناء ليوم 14 مارس 1993.

الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدَّولية

تتجاوز الرحلة محتواها كمجرد مذكّرات إلى أنها تعتبر مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الدولي ليس للمملكة المغربية وحدها، بل إنها مرجع أساس للتاريخ الدولي للعالم الإسلامي وعلاقات هذا العالم بعضه بعضاً وعلاقاته مع العالم المسيحي بحيث إن رحلة ابن بطوطة تعتبر من هذه الناحية تاريخاً لما أهمله التاريخ . وهكذا فمن خلال الرحلة استمعنا لابن بطوطة وهو يستعرض أمامنا أقطاب الدول الكبرى التي كانت تهيمن في عهده على معظم أطراف الدنيا، وكان عددهم سبعة : سلطان المغرب، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراقين، وسلطان الترك، وسلطان تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. ولقد وجدنا أن هناك بعضَ الثغرات المهملة من لدُن بعض المؤرخين التقليديين فيما يتصل ببلاد المغرب يملأها الرحالة ابن بطوطة، مثلا حديثه عن مصادفته لسفارةٍ من تونس في قصور بني عبد الواد وهي السفارة التي رافقها عند عودتها لتونس...

وفي هذه المدينة (تونس) نقرأ حديثه عن ظهور العاهل الحفصي أبي يحيى أبي بكر في عيد الفطر 725 شتنبر 1325 وليس بعد هذا التاريخ كما يحكيه آخرون (1)...

ومن هنا كان من المتعذر كتابة تاريخ هذه المغارب دون العودة إلى رحلة ابن بطوطة سواء عندما كان ذاهبا للحج حيث كان هناك ثلاثة مغارب أو عندما كان عائداً حيث كان هناك مغربٌ واحد تحت قيادةٍ واحدة.

وعندما يتحدث التاريخ عن العلاقات الأولى للمغرب مع الأتراك لا بد أنَّنا سنُفاجأ بمعلومةٍ طريفةٍ تتحدث عن استقبال الرحالة المغربي من لدن الأميرة بَيلون خاتون زوجة السلطان اختيار الدّين أورخَان بك بن السلطان عثمان الأول الذي أصبحت تنتسب إليه الامبراطورية العثمانية التي دوّخت العالم بأسره.

وعلى صعيد علاقات المغرب بالمشرق أذكر أيضا الأصداء التي تركتْها معركة مرج الصفّار التي وقعت في ثاني رمضان 702 = 21 أبريل 1303 بين التتر وبين المماليك، بين الملك الايلخاني قازان وبين الملك الناصر. ومن خلال هذه الأحداث شاهدنا علاقات دولة المماليك بالمغرب عندما بعثوا للعاهل المغربي بعددٍ من الهدايا الرمزية من الأكداش التي كان يستعملها التتر... ووجدنا أن المغرب، بالمقابل، يبعث للمشرق بهدايا مماثلة : أجراس ضخمة انتزعها من كنائس الروم كردّ فعلٍ لإتلاف هؤلاء لعدد من المنابر الإسلامية.

(1) القصد إلى ابن القنفذ وابن خلدون، بل ومعظم الذين أرَّخو لتونس، في الماضي والحاضر...

هذا أيضا إلى العلاقات التي ربطت مصر بافريقيا السوداء وخاصة بعد حجة إمبراطور مالي موسى ومقْدم سراج الدّين بن الكويك على العاهل الأفريقي...

وإذا تحدث التاريخ عن المراسم والتشريفات المتبعة في القصور فلا بد أن يرجع إلى الرحالة المغربي وهو يؤدي وصفاً دقيقاً لامر المراسم بالهند عندما يتنقّل السلاطين وعند استقبالهم للأعياد وتنظيمهم للاستقبالات والحفلات واستعمالهم للسَّرير الأعظم والمِبْخرة العظمى.

ومن خلال رحلة ابن بطوطة عرفنا عن ممالك أخرى كانت بالنسبة إلينا وراء الظل، مثلا عن انطاليا (بلاد الأناضول) وما احتوت عليه من إمارات توزعت الحكمَ هنا وهناك : إمارات وممالك في الأناضول كان ابن بطوطة يخترق حدودها بدون تأشيرة. ومن خلال الرحلة عرفنا عن الدولة الأرْتُقية في ماردين شمال العراق وجنوب تركيا وقد استمرت طوال ثلاثة قرون. ولقد عرفنا، عن طريق الرحلة، عن علاقات جمهورية جنوة بآسيا الصغرى وبجنوبي الروسيا، وعلاقات هذه المنطقة بمماليك مصر...

ومن خلال الرحلة سمعنا عن بطل من أبطال التاريخ الإسلامي : عمر بك الذي استمات في الدفاع عن وطنه وحاول جاهدًا أن يفتح القسطنطينية قبل الموعد الذي نعرفه لفتْحها، حيث التجأت الروم إلى البابا الذي عهد إلى جنوة وفرنسا بمساعدة القسطنطينية. كثيرة هي المعلومات التي قدمها إلينا مما لم يكن معروفاً حتى لدى ابناء البلاد المعنية بالأمر. لقد حمل تلك المعلومات معه إلى بلاد المغرب بعيدًا عن الرّقابة حيث تُقدم اليوم لأصحابها حتى يضيفوها إلى ما عندهم.

وقد أصبح اليوم حديثه عن الحدود بين حكومةٍ وأخرى وعن الإجراءات التي كان يقوم بها لدى الجهات المعنية حتى يؤذن له بالزيارة، أصبح ذلك حجةً تتردد أصداؤها اليوم في المحافل الدولية على أنها تعني حقائق تاريخية ينبغي الاستئناس بها إن لم يمكن التمسك بها على ما سنشير إليه في التعاليق عند الاقتضاء.

وقد كشف ابن بطوطة عن دوْر الزواج السياسي في إحكام العلاقات بين أمة وأخرى، وقد عاش هو هذا التاريخ فرأى كيف أن سلطان قِفْجَق يتزوَّج بإحدى بنات أمبراطور القسطنطينية، ورأى أنَّ ملِك مصر يتزوج ابنة سلطان خوارزم ، إلى آخر النظائر التي ذكرها.

وابن بطوطة هو الذي لفت نظرنا إلى مناهضة العنصرية من لدن بعض الحكام الهنود المستنيرين من الذين حرَّموا في إقليمهم إستعمال كلمة (الأجنبي) أو حتى كلمة (الغريب) ...

وهم يستعملون عوض هذين النعتين، كلمة (العزيز) ج (الأعزة) لكل طارئٍ قصدهم. ولهم، أي لهؤلاء الأعزة مكانهم المتميّز في المراسم والحفلات، وقد كان من اللقطات الهامة في تاريخ العلاقات الدولية وخاصة فيما يتصل بشيراز والتتر تلك التي استأثر بذكرها الرحالة المغربي عندما تحدث عن وصول سفير عن سلطان العراق أبي سعيد بَهَادور إلي هذه المدينة، وكان السفير بالصدفة هو الأمير ناصر الدّين الدَّرقَنْدي، وكان خراساني الأصل، وقد قدم في حاشيةٍ تتألف من نحو خمسمائة فارس من خُدَّامه وأصحابه، هذا إلى السفير رجب البُرقَعي، وأصله من القِرَم. راح سفيرًا من الهند إلى "الخليفة" في مصر حيث استُقبل بمحضر الملك الصالح إسماعيل.

وعن طريق إبن بطوطة علمنا عن وجود سفارة مصرية برئاسة صدر الدين سليمان المالكي الذي وجّهه الملك الناصر إلى سلطان العراق في إطار العلاقات بين المماليك وبين الإيلخان.

هذا إلى سفاراتٍ أخرى قرأنا عنها في الرحلة كان من أبرزها الحركة الدبلوماسية الواسعة النطاق التي شاهدتها بلاد فارس عندما قام محمد خُذا بنده بتوجيه بعثات إلى مختلف الجهات لحملها على الموافقة على جعل المذهب الشيعي هو المذهب الأساسي للدولة، هذا إلى سفارة الشيخ زاده الخراساني السفير عن ملك هراة إلى الملك أبي اسحاق في شيراز.

ولقد كان عدد السفراء الذين تبادلتهم الدولتان : المغول والمماليك كثيرا؛ وكان لابن بطوطة فضل الإشارة اليهم، كما كان له فضل الإشارة للعلاقات بين الدولة الرسولية في اليمن وبين المماليك في مصر من خلال وجود المدرسة المظفرية بمكة المكرمة ودوْرها العِلمي هناك.

وعن طريق ابن بطوطة قرأنا عن وفادةٍ من الخان الأعظم إمبراطور الصين إلى سرنديب للحصول على قطعةٍ من الصخرة التي رسم عليها قدم آدم !.

وعن طريقه عرفنا عن صلة ملك الصين بملك طَوَالِسي هذه المملكة الواسعة التي يمكن أن تندرج تحتها أمم عظيمة تعرف اليوم بالفليبين واليابان وما جاورهما ! على نحو ما تندرج تحت اسم (مُلْ جاوة) شعوبٌ وأمم تعرف اليوم تحت اسم طايلاند وبُورْما وفيتنام على ما أسلفنا.

وإن معلومات ابن بطوطة عن سلطنة مُتْرَة (MADURA) وعلاقاتها بالإمارات الأخرى تظل معلوماتٍ دقيقةً أيدتها النقود المكتشفة، هذا إلى حديثه عن مخالفة سُدْكَاوَان للهند !.

وعن طريق ابن بطوطة عرفنا عن أخبار الجماعات اليهودية التي كانت منتشرةً هنا وهناك. وهكذا فكما كانت الرحلة مصدراً هاماً للعقيدة الإسلامية كانت مرجعاً لأهل الديانات الأخرى التي كانت تتعايش فيما بينها طوال التاريخ. وعن طريقه تعرفنا على عدد من قواعد العالم الإسلامي على ذلك العهد من أمثال دولة لورستان الكبرى وإمبراطورية القفجق وسلطانها محمد أوزبك خان.

وقد قدَّم إلينا في ثنايا الرحلة معلوماتٍ تنفعنا على صعيد التعامل الدولي فقد ذكر أن تطبيق الحكومة، في قالقوط، للقاعدة الفقهية التي تقضي بإرجاع إرث الأجانب الهلكى إلى أهلهم وورثتهم أينما كانوا، أقول إنَّ تطبيق ذلك هو الذي كان يساعد المستثمرين على اختيار قالقوط مركزا تجارياً لهم.

كما أفادنا فائدةً تاريخية لم نقرأ عنها في التآليف التاريخية الأخرى مثل جامع التواريخ لرشيد الدّين، عن مأساة اجتياح بغداد من لدن المغول.. لقد قال إن عدد الذين قضوا في تلك الفتنة من العلماء فقط أربعة وعشرون ألف عالم !

وكلُّنا يعرف عن عشيرة آل مُهَنّا العربية بديار الشام وما قامت به من أدوار وما كان لها من صدى سواء على صعيد العلاقات العربية العربية أو العلاقات العربية البيزنطية، مُهَنّاً الأول المتوفى حوالي 660 = 1262، ومُهَنا بن عيسى (الثاني) المتوفي 735 = 1335 والملقب بسلطان العرب، هذا الذي أرسل ابنه موسى إلى ملك التتر في العراق مع قراسنقر وجماعته قبل أن يلتحق هو بالمنطقة التترية. تواريخ مثيرة لهذه العشيرة التي كانت معلومات ابن بطوطة عنها محلَّ تزكيةٍ من لدن الذين كتبوا عن عشائر الشام وصحّحوا ما قاله ابن بطوطة عن آل حيار بن مهنّا بن عيسى (2) قبل أن تنكسر شوكتهم بموت محمد بن حيار.

وقد قدم لنا ابن بطوطة معلوماتٍ جدًّ قيِّمة عن أشراف الحجاز على عهده بمن فيهم الحسَنيون أصحاب مكة بما عرف عنهم من احتكاكات بدولة المماليك، وهكذا قرأنا عن رُميثه بن أبي نُمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة.

كما عرفنا عن الحُسينيين أصحاب المدينة بما عرف عنهم من تنافس ساخن، وهكذا سمعنا عن كُبَيْش بن منصور بن جمّاز بن شيحة بن هاشم(3).

ومن الطريف أن نعرف عن شريف حُسيني، حفيدٍ لجماز يحمل اسم قاسم يلتحق بغرناطة ويشارك في معركة ويستشهد على مقربة من الجزيرة الخضراء.

وابن بطوطة هو الذي ساعدنا على معرفة الظروف التي جعلته يتوجس خيفةً من حركة القراصنة وهو في طريقه إلى المغرب عبْر جزيرة سردانية، فقد كانت الاتفاقية المغربية مع ممالك جنوب أوربا أتت على نهايتها فلا غرو إذن أن يحتاط الرَّحالة لنفسه(4).

---

(2) د. مصطفى الحياري : الإمارة الطائية في ديار الشام 1977 ص 75 – أحمد وصفي زكرياء : عشائر الشام..

(3) ابن حجر : الدرر الكامنة 2، 75 – Ency. ISLAM : Makka – د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 204 رقم الإيداع القانوني 25 / 1986 مطابع فضالة – المحمدية – المغرب.

وقد أجمعت المصادر الإيطالية وهي تتحدث عن تاريخ جنوة، أجمعت على النقل عن ابن بطوطة عندما تحدث عن افتداء السلطان أبي عنان لمدينة طرابلس بتلك المبالغ السخية من العملة الذهبية حتى لا تبقى طرابلس بيد الجنْويين! لقد تحدث ابن فضل الله العُمَري في السفر السابع والعشرين عن احتلالها من لدن جنوة، ولكنه ترك المدينة أسيرة. ولم يكن هناك غير ابن بطوطة الذي تحدث عن تحريرها من لدن السلطان أبي عنان وهي المبادرة التي سجلتها الرحلة، وأكدتها تهاني غرناطة لفاس(5) ثم أتت المصادر الإيطالية وغيرها لتعتمد تلك المعلومات. وقد أفادنا ابن بطوطة عن اهتمام المشرق بأخبار المغرب وأنه أي المشرق ما انفك يتتبع الأخبار الواردة عليه من بلادنا وخاصة منها ما يتصل بحركات الجهاد في الأندلس، ومن هنا علم ابن بطوطة لما وصل إلى بغداد، في شوال عام ثمانية وأربعين، علم من بعض المغاربة الذين كانوا هناك بأخبار كارثة وقعة طريف وإستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء على نحو ما كان وصلنا بالمغرب عن سقوط بغداد كما يذكره ابن عبد الملك المراكشي...

وقد عاش ابن بطوطة مرحلةً دقيقةً جدًا من تاريخ المغرب الكبير أدّى عنها بعباراته ما سمحت به ظروفه، وبحكمةٍ ودبلوماسيةٍ فائقة عندما تحدث عن مروره بتونس فسلّم على السلطان أبي الحسن واجتمع بمجلس علمه ورجال مشورته، ثم لم يلبث أن أصبح ببلاط أبي عنان المناهض لوالده، ومع كل ذلك فإنه لم يسمح لنفسه أن يتدخل فيما لا يعنيه، ويتحدث بما لا يرضي عما يجري بين الوالد وولده بالرغم من أنّه صحب ركب أبي عنان الذي كان يحمل شِلْو أبيه.

وابن بطوطة هو الذي أحاطنا علماً بما كان يضمه بلاط عهد السلطان أبي عنان من وفودٍ ترد من خارج المغرب، مثلاً ابن أمير الموصل وديار بكر الشريف علاء الدين الذي كان -أثناء تحرير رحلة ابن بطوطة- بعاصمة فاس : "مستقر الغرباء ومأوى الخائفين" على حد تعبير ابن جزي! .

وابن بطوطة، ولو أنه لم يصرح بذلك – حفظاً للأسرار على ما جرت عليه الأعراف بين الدول – ...هو الذي وجهه السلطان أبو عنان، على ما يبدو، في مهمةٍ إلى غرناطة في ظروف كانت فيه العلاقات بين أبي عنان وبين والده على ما لايرضى(6) . وبهذا نفسر المرض الدبلوماسي لملك غرناطة وبهذه المناسبة عرفنا وضع (رندة) التي كانت عاصمةً للقسم الأندلسي التابع لدولة بني مرين. وابن بطوطة هو الذي راح مبعوثاً أيضاً في مهمةٍ للسلطان أبي عنان

(4) د. التازي : الحضور العربي في جزيرة سردينية، مجلة مجمع اللغة العربية – الجزء 74، ذو الحجة 1414 = مايه 1994، ص 41.

(5) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب تحقيق عنان ج 1 ص 321 طبعة القاهرة 1980.

(6) – ذ. حسن عبد السميع محسن : ابن بطوطة الرحالة، 1965 ، القاهرة ص 38-106.

إلى بلاد السودان على ما يظهر حيث تم اتصاله المباشر بعدد من أقطاب وأمراء المنطقة، وحيث قضى وقتاً هناك قبل أن يصله مبعوث خاص من العاهل المغربي يطلب إليه أن يعود فوراً إلى حاضرة فاس.

ولا ننسى أن ابن بطوطة هو الذي ذكرنا - وهو يعيش في مالديف - بأنه ترك في المغرب عدداً من الأسرى من الروم. وكان الوقت يصادف فعلاً سلسلةً من الاحتكاكات التي تجري بين المغرب وقشتالة. وقد أعطانا الرحالة المغربي وصفاً للطريقة التي كانت الحكومة المغربية تستعملها لضبط الأسرى ومنعهم من الفرار إلى أن يتم افتداؤهم بمن يوجد من المغاربة في قبضة حكومات الأطراف الأخرى.

وقد حدث أن بعض الدول التي كان ابن بطوطة يتحدث عنها اختفت من مسرح السياسة وأتى بعدها قوم آخرون فأحرقوا كتب الأولين ودمروا آثارهم فلم يعرف عنهم شيء إلا ما قرأناه من خلال معلومات ابن بطوطة التي "فلتت" للخارج فاحتفظت بحياتها وبجدّتها. ونذكر بهذه المناسبة ماحكاه عن بني نبهان في عُمان كمثلٍ شاهدٍ للعيان.

كثيرة هي اللقطات التي تفيد المهتمّين بالتاريخ الدوّلي للعالم الاسلامي... وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الرحالة لم يكن مجرد سائح يمشي في مناكب الأرض، ولكنه كان يهدف إلى تعريف فريق بفريق ... وكأنني به يكتب تقريراً للوك المغرب عما رآه وما شاهده عبر أطراف الدنيا ليأخذوا منه ما يرونه صالحا لسيرتهم إذا كانوا يريدون.

من حسن حظنا أن ابن بطوطة كان يعمل بنصيحة القاضي أبي بكر بن العربي سفير المغرب لدى العراق عام 1097/489 الذي قال : في تأليفه (كتاب الرحلة) عندما دخل إلى بغداد وتعرّف على الخليفة بها : «نعمت المعرفة التعرُّف بالسلطان والتشرف به عند التغرُّب من الأوطان ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان(7).

فبفضل العمل بتلك النصيحة أمكننا التعرف على الكثير من القادة المتنفذين آنذاك...

---

(7) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين تحقيق د. عبد الهادي التازي طبعة ثالثة 1987 دار الغرب الإسلامي - بيروت ص 186/185 تعليق 5 - 6.

مكان رحلة ابن بطّوطة من أدب الرحلات

يلاحظ في المؤلفات العربية على العموم، وخاصةً منها التي تتصل بالأدب العربي، غياب الحديث عن الذين يكتبون تلك التآليف، عن شخصيتهم، عن أفكارهم، عن أحاسيسهم، بحيث إنك تقرأ الكتاب من ألفه إلى يائه دون ما أن تجد أثرًا يعرّفك بمحرّر الكتاب أو بعصر تأليفه أو حتى بظروف تأليفه وما يجري من حواليه.

وقد استُثْنى من كل هذه المؤلفات جميعاً كِتَابُ الرحلة أية رحلة، الذي يمتاز كما هو معلوم بمعرفة المزيد من المعلومات عن المؤلف وهو يتحدث عن مراحل تنقلاته وعن مشاعره، مما يرتضيه ولا يرتضيه، هذا إلى تعرفنا على الجهات التي يمرّ بها جغرافياً وبشرياً وفكرياً، فنشعر بنوع من التجديد في الفائدة، بنوعٍ من تمكن الكاتب من التعبير عمّا يريد أن يؤديه، بأسلوبه الذي يتغلب به على كلّ الصّعاب، والذي يجعله مهيمناً على إبلاغ الناس ما يريد إبلاغه من وصفٍ للطبيعة وتقديمٍ للظواهر التي تحف بمحيطه والبيئة التي يعيشها...

وهكذا فإن الكُتّاب الذين حرروا مذكراتهم التي نطلق عليها اليوم اسم (الرحلات) يمثلون في واقع الأمر جانباً إبداعياً في أدبنا العربي، ومن هنا نحسّ تلقائيا بميل نفوسنا إلى هذا النّوع من الكتابة المحببة لأن ذلك مما يعبر عما يروج في فكر الكاتب دون ما تصنّع أو انفعال، ولأنه يجعلنا نرافقه في رحلته، نشعر بمثل الشعور الذي كان يعيشه سواء كان ذلك الكاتب فقيهاً أو شاعراً أو مؤرخاً أو عالمَ اجتماع...

وقد عُرف المغاربة من قديم بأنهم متفوّقون في أدب الرحلة وموفقون كذلك... يدل على هذا ما تركوه من بصماتٍ لهم في مختلف كتب التراث العربي (1).

وترجع أسباب اهتمام المغاربة بالرحلة والكتابة عن تحركاتهم وخاصة في العهد الإسلامي : أولاً وبالذات، إلى أن الإسلام يجعل من الحج ركنا بارزاً من أركانه، فالمسلم وهو يفكر في الثوابت التي تجعل منه مسلماً مثالياً – تنتصب أمام مخيلته الكعبة المشرفة سواء أكان في شرقها أو غربها، خمس مرات في اليوم على الأقل يتجه إليها في صلاتِه وفي توسلاته...

وهكذا يكون العامل الأول هو تحقيق الأمل في زيارة تلك البقاع التي تشدّنا اليها شدّاً...، ومن هنا ندرك السرّ في توجه المغربي نحو الشرق، نحو مهد الحضارة ومهبط الوحي، ومن ثمت كان بعض من يقصد البلاد الحجازية من الفقهاء والعلماء والأدباء لأداء

(1) يراجع الحديث عن محمد بن عمر التازي في بغداد (نشوار المحاضرة 1، 337) والحديث عن سعد الخير الأندلسي في الصين (نفح الطيب 2، 632)... أحمد أبو سعد : أدب الرحلات، بيروت، دجنبر 1961

فريضة الحج يشعر بأن عليه دَيناً يجب أن يؤديه لإخوته من الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالإلتحاق بتلك الديار والذين كانوا يقنعون بوصف تلك المعالم وما تحتضنه من عوالم.

وهذا الدَّين يتجلّى في تحرير التعريف بتلك البقاع وبِمَن تضمُّهم تلك البقاع من رجال، احياء وأموات، طبعاً مع وصف المراحل التي مرَّ بها الحاج من مدينته التي انتقل منها إلى حيث يجتمع بإخوته من سائر جهات العالم الإسلامي، مُحرماً ملبياً إلى أن يقف على عرفة. وذلك "التعريف" هو الذي نسميه بالرحلة التي يتحدث فيها الرّحالة عن محطاته المتبعة سواء كانت برّا أو كانت بحراً، مُضيفاً إلى هذا حديثه، كما قلنا، عما يعترضه في طريقه من مشاهدات...، ومعرّفا بالآثار التي خلّفها الأسلاف، ومعطياً نبذة عن المواقع الجغرافية التي يسلكها بما تحتوي عليه من نعوت وأوصاف. وهكذا ازدهرت، نتيجةً لهذا، حركة انتساخ المخطوطات، وخاصة منها كتبَ الرحلة لَدَى الحجاج يستصحبونها معهم للاستئناس وللقيام أحياناً بالمقارنات والمفارقات...

ويلاحظ أن تاريخ المغرب وخاصةً في القرن الخامس والسادس والسابع والثامن عرف نوعاً من تطور مثل هذه الرحلات الحجازية بفضل تشجيع الناس بمن فيهم القادة والحُكّام لتوفير هذا النوع من المعرفة للمواطنين. ولم يقلّل من شأن الرحلة الحجازية إلاَّ ما ظهر من ميل لتفضيل الجهاد على الحج في اعقاب العدوان المتوالي على المسلمين في الأندلس، وذلك اعتماداً على فتوى لابن رشد ردّد صداها النَّاصري في كتابه "الاستقصا" وهي تعطي الأسبقية للجهاد على الحج(2).

وهكذا تكوّنت لدينا لائحةُ لهؤلاء الأعلام الذين قصدوا الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، فيهم الكثير ممن لم تصلنا آثارهم إلى اليوم لكن فيهم طائفةً مِمَّن اشتهر ذكرهم بما خلّفوه من أعمال جليلة خلدت أسماءهم.

ونذكر من هؤلاء الرحالة أبا الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (578هـ) الذي سار بالرحلة خطواتٍ واسعة، كما نذكر ابن رُشَيد الفهري السبتي (683 هـ)، صاحب كتاب «ملْء العيْبَة (3)» ومحمد العبدري الحيحى صاحب الرحلة المغربية (688هـ) (4) كما

(2) الاستقصا، طبعة دار الكتاب، البيضاء 1956 ج 7 ص 8. - سلوة الأنفاس 215,2 - 216

(3) اسم العنوان كاملاً : "ملْء العيْبة بما جُمع بطول الغَيْبَة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة" الجزء الثاني والثالث، تقديم وتحقيق الزميل الدكتور الأستاذ محمد الحبيب ابن الخوجة – الدار التونسية للنشر 1402=1982.

(4) حققها وقدم لها وعلّق عليها الزميل الراحل ذ. محمد الفاسي، نشر جامعة محمد الخامس الرباط 1388=1968.

نذكر رحلة أبي القاسم التجيبى (695هـ) صاحب مستفاد الرحلة والاغتراب (5)، وابن بطوطة (725هـ) موضوع الحديث، وخالد بن عيسى البلوى (736هـ) صاحب (تاج المفرق)(6)، وابن الحاج النُّميري صاحب (فيض العُباب) (774 هـ) الذي سجلت له رحلة أيضاً إلى الحجاز في مجلدة (7)، ومحمد بن سعيد الرعينى (778هـ) صاحب الرحلة الحجازية المنظومة (8).

وعلاوةً على السبب المتلخص في أداء فريضة الحج، هناك الرحلة الدراسية : أي طلب العلم ولقاء المشايخ الكبار حيث نجد أن المكتبة العربية تزخر كذلك بمن ألَّفوا عمن أخذوا عنهم في رحلتهم الدراسية من الشيوخ. وعما حصلوا عليه من إجازات تأذن لهم في تلقين ما حصلوا عليه للآخرين...

ونذكر إلى جانب هذا : الرحلات العِلمية وهي غير الرحلات الدراسية. ويمكن أن نصنّف في هذا الباب بعض الرحلات التي كانت تقصد إلى حمل كتاب علمي من جهة إلى جهة قصد تعميم الفائدة منه. واذكر هنا على سبيل المثال الرحلة التي قام بها هشام بن هذيل مكلفاً من قبل الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر من أجل طلب المساعدة على ترجمة مخطوطة ديوسقوريدس المكتوبة باللغة اليونانية والتي كان الإمبراطور البيزنطي أهداها إلى الخليفة الناصر عام 337هـ في حفلٍ مشهودٍ تحدثت عنه المصادر التاريخية والمؤلفات الطبية. وقد استجاب الامبراطور البيزنطي لرسالة الخليفة الناصر فبعث اليه بالراهب نيقولا الذي وصل إلى قرطبة عام أربعين وثلاثمائة (9).

ومن أسباب الرحلة كذلك المهمّات السياسية التي يروح فيها عِلْية القوم من علماء وأدباء بما كان قد يصحبُهم من مرافقين ومساعدين.

(5) حقّق المعروف من هذه الرحلة ذ. عبد الحفيظ بن منصور، تونس 1395، انظر كذلك برنامج التُّجيبي وتحقيقه.

(6) يوجد عدد من مخطوطات البلوي بالخزانة العامة بالرباط (فتح المخطوطات، مخطوط تحت رقم د.3627 ورقم د. 1288 مع شكرنا لمساعدة الخزانة في جزئين، تقديم وتحقيق ذ. الحسن السايح، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات، مطبعة فضالة - المحمدية - المغرب (بدون تاريخ)

(7) د. محمد بن شقرون : فيض العباب، دار الغرب الإسلامي (1990) ص 42

المقري - النفح - ج 7 - ص 109-110

A.L. DE PREMARE : MAGHREB ET ANDALOUSIE AU XIV Siècle, CNRS PARIS 1981.

(8) ابن القاضي : جذوة الاقتباس، طبعة حجرية، ص 341 - عبد السلام ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب ص 353.

(9) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت لبنان، طبعة رابعة 1408=1987،

وقد حفظ التاريخ لنا اسماء عدد من السُّفراء الذين كانوا يدونون رحلاتهم في كراريس يرفعونها في أغلب الأحيان إلى الملوك. ونتيجةً لذلك زخرت المكتبة المغربية أكثر من غيرها بعدد من الرحلات السِّفارية التي أثرتْ الأدب المغربي علاوة على ما قدمته من معلومات جدّ قيمة عن البلاد التي زارها أولئك السفراء وعن الأحوال الدولية على ذلك العهد وعن التطورات التي تمرّ بها الأمم...

وهكذا ظلت اخبار سفارة يحيى بن حَكَم الغَزَّال (تـ250 هـ) التي راحت إلى بيزنطة ردًا على سفارة ثيوفيلوس (Theophilus) إلى الأندلس في اعقاب فتح عمّورية. وقد لخص أخبارها ابن دحية (تـ 633هـ) السبتي في كتابه "المطرب من اشعار المغرب" (10)، أقول ظلت حديث المجالس الأدبية والسياسية بما تضمنته من طريف نكتة وجميل ظرْف، وبخاصة فيما يتعلق بحديث السفير الأندلسي إلى ثيودُورَا زوجة إمبراطور القسطنطينية...

وتعتبررحلة يحيى الغَزَّال أقدم من الرحلات التي قام بها أيام الدولة العباسية أحمد ابن فضلان إلى بلاد الخَزَر والروس، وأبودُلَف إلى إيران والهند والصين في النصف الأول من القرن الرابع... وناصر خسرو علوي إلى الدّيار الحجازية بين عام 437 و 444..

وبين أيدينا خرومٌ من رحلة القاضي أبي بكر ابن العربي الأشبيلي صحبة أبيه عبد الله عام 489=1097 إلى مدينة السلام، وقد بقيت هذه الرحلة حديث المجالس كذلك بما تضمنته من "مكتوب الخليفة المنقول في أيدي الناس" على حدّ تعتبر ابن خلدون (11).

وإلى جانب الرحلات الحجازية والدراسية والعلمية والسّفارية نعيش مع نوع آخر من أنواع الرحلة وهي تلك الرحلات السياحية، التي تكون غايةُ واضعها من سفره مجرد السياحة والوقوف على الآفاق وعجائب المخلوقات والتعرف على أخلاق الشعوب وعوائدها. وهذا النوع ايضا مما تزخر به المكتبة المغربية. ونذكر في صدر ما وصلنا من هذا الصِّنف، في النّصف الثاني من القرن السادس الهجري كتاب (تحفة الألباب) تاليف أبي حامد الأندلسي الغرناطي الذي يقول في مقدمتها : "ومنذ اغتربت عن المغرب الأقصى عام 557 شاهدت من الأيمة الكرام مالا يُعدّ ولا يحصى، وأولاني الله عز وجلّ على ايديهم من أنواع النعم مالا يقدر على إحصائها إنسان".

(10) حقَّقه إبراهيم الأبياري، القاهرة 1954 فازيليف : العرب والروم ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، 1934 ص 164-165. – د. حكمة عليّ الأوسى : يحيى بن الحكم الغزال مجلة المجمع العلمي العراقي – 1971. – د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج I، 267ج 4 ص 61-62.

(11) ابن خلدون : ج 6 ص 186 طبعة بيروت.

وأبو حامد هذا هو الذي أشاد بمعاملة أهل الصين للتجار من المسلمين، وتمنى أن يقتدي ملوك المسلمين بمثل هذا السلوك...!! والطريفُ أن أبا حامد وصل بهذا إلى فهم ذكي للحديث النبوي الذي يقول : (الدُّنيا سِجن المؤمن). فلقد أدرك أنَّ معنى ذلك أن دنيا المسلم خالية في بعض الأحيان من العدل والاحسان!(12)"

وهناك نوع من الرّحلات يمكن أن يطلق عليه اسم الرحلات الاستكشافية وهي غير الرحلة التي تكون أصلاً لغرض السياحة وهي التي يقوم بها اصحابها من أجل اكتشاف بلادٍ جديدةٍ والاطلاع على أحوالها.

ويمكن أن ندرج في هذا النوع من الرّحلات ما قام به أحد عمالقة الأدب الجغرافي في تاريخ الاسلام، ويتعلق الأمر بالشريف الإدريسي السبتي الذي قدم إلينا «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» هذا الكتاب الذي يُعتبر مَعْلَمة من المعالم التي يعتزّ بها العالم الإسلامي على الصعيد الدولي. فهو أي الإدريسي، ولو أنه لا يتعرض كثيراً للوقائع التي حدثت له أثناء أسفاره ولا يتعرض غالباً لشيء من أحواله الشخصيّة، لكنَّ تاليفه ذو صلة قوية بموضوع الرحلات باعتباره يخطط المراحل للجوّالين والمسافرين، وباعتباره مصدراً اعتمد على الرحلات السابقة لغيره.(13)

ونذكر إلى جانب هذا، الرحلاتِ الزياريةَ أي التي يقوم بها بعضٌ بقصد زيارة أضرحة الأنبياء والصحابة ورجال الصّلاح. ولا شك أن هذا النوع من الرحلات يعتبر من أهم المصادر عن تاريخ الحياة الدينية والحركة الصوفية. وهذا يفيدُنا في نفس الوقت من حيث الفنّ المعماري الخاصّ ببناء المساجد والمزارات والمشاهد.

ومن منّا ينكر فائدة كتاب "الإشارات إلى معرفة الزيارات". لأبي الحسن علي بن أبى بكر الهروي وهو كتاب لا تستغني عنه مكتبة (14) ...

وقد أثار انتباهنا ونحن نقرأ عن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد آسيا وفي تخوم إفريقيا الحديثُ عن نوع من الرحلة كان له الأثر الأكبر في دخول الإسلام في تلك المناطق النائية ، لا عن طريق السيف ولا عن طريق الإكراه، ولكن عن طريق إعطاء المثل الحسن ونشر الفضيلة وتقديم القدوة. وكان الذين قاموا بمثل هذا العمل المتئد الرصين والحكيم هم

(12) Journal Asiatique, Juillet -sep. 1925 p. 32-33.

(13) أعتقد أنَّ الإدريسي اعتمد من بين ما اعتمد عليه (أخبار الصّين والهند) التي جمعت سنة 237 والتي نشرها جان سُوفاجي J. Sauvaget عام 1948.

(14) نشر المعهد الفرنسي بدمشق 1953.

الذين كانوا يقومون بالرحلات التجارية إلى تلك الأصقاع. كلّ الذين أشادوا في الماضي والحاضر بظهور الإسلام هناك كانوا يقفون مشدوهين امام الأثر الحميد الذي خلفته الرحلة التجارية في نفوس أولئك الذين اقبلوا على الإسلام بكل ما يملكونه من حب.

وقد ذهب بعض المهتمين بأمر الرحلة إلى أبعد من هذا في استيعاب انواع الرحلة فتحدثوا عن الرحلة البرّية والبحرية، والخارجية والداخلية، والاختيارية والقسْرية، والفردية والجماعية، والرحلة الخيالية والرحلة التي تتخذ شكل المراسلات أو تهدف إلى إبرام المعاهدات (15).

لكننا سنقف هنا لنترك الفرصة للحديث عن نوع أكثر شمولاً وأوفر فضاءً من كل تلك الأنواع التي تقدمت للرحلة... ذاك ما نعطيه اسم الرحلة العامة...

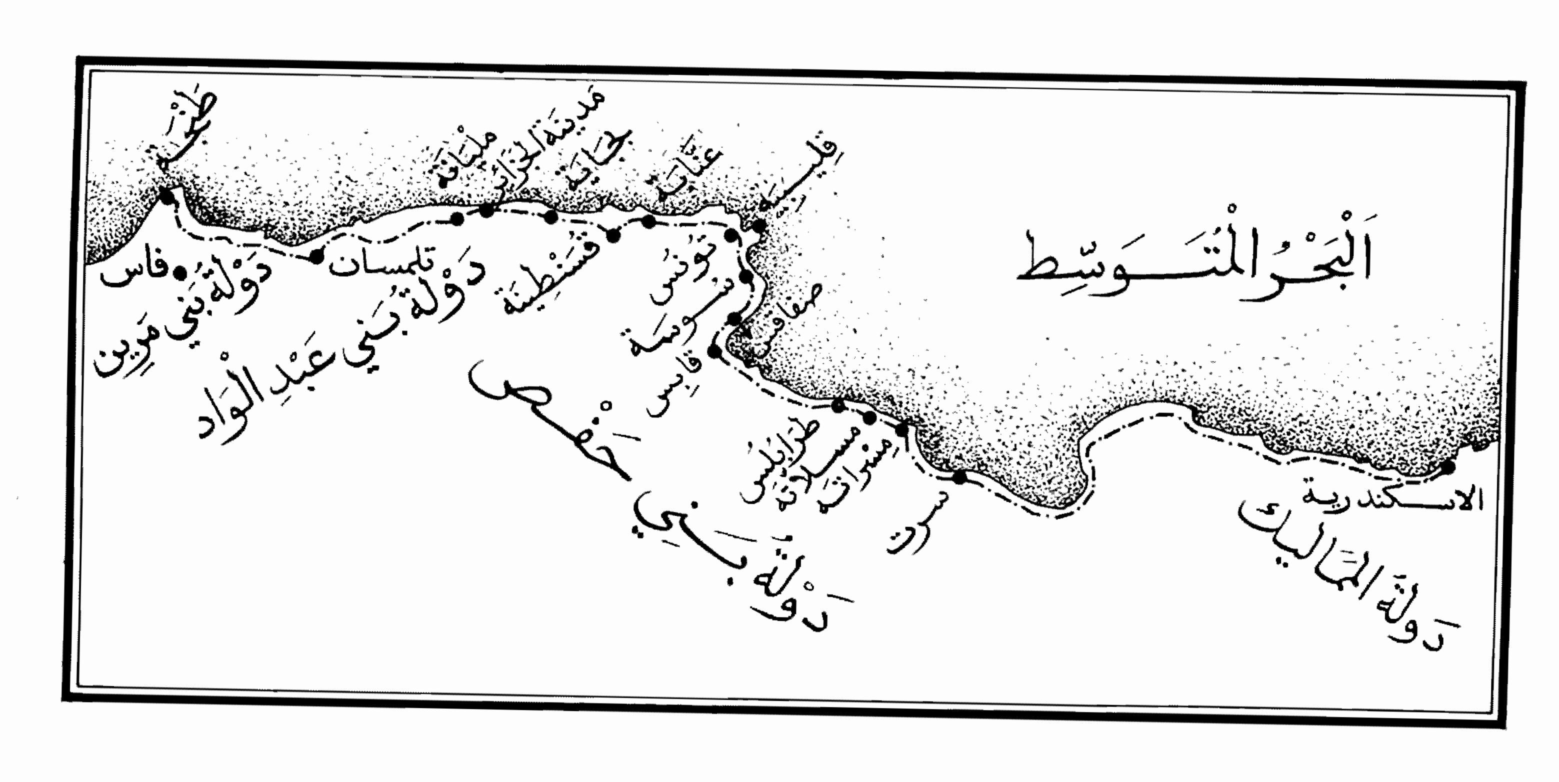
ونقصد بها الرحلات التي جمعت الكثير من كل تلك الأغراض، ونذكر على الخصوص رحلة ابن بطوطة، فقد غادر بلدته طنجة في بداية الأمر عام 725 بقصد الحج. لكن بسبب تعذر الحج تلك السنة لما صادفه من اضطرابات بين البُجاة والمماليك على ساحل البحر الأحمر اضطر للإنتظار سنةً كاملة لحضور موسم الحج عام 726. وهنا أثناء هذا الفراغ نمت فيه الرغبة للقيام بحضور مجالس للدراسة، وفي التزّوج مرةً أخرى ! وفي القيام كذلك بزيارات سياحية على جانب كبير من الأهمية، وفي القيام برحلاتٍ داخل الرحلة. ولم يلبث أن عبر الدنيا وارتاد الأماكن البعيدة. وينبغي أن نقوم بجولةٍ سريعة في المحطات التي مرَّ بها لنجد أن ابن بطوطة كانت تتمثل فيه وتنطبق عليه صفات كلِّ أولئك الرحالة. فهو حاج وهو دارس وهو سفير وهو سائح وهو مكتشف وهو زائر وهو داعية، وهو تاجر أيضا... وهو مبشّر بالمعنى الحقيقي للمبشر.

(15) تراجع مقدمة الرحلة السّفارية المعنونة "بالإكسير في فكاك الأسير" لمؤلفه محمد بن عثمان المكناسي، وهي من تحقيق الأستاذ محمد الفاسي، نشر المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط 1965 وكذلك مقدمة كتاب "فيض العباب... في الحركة إلى قسطنطينة والزّاب" للدكتور محمد بن شقرون سالف الذكر.

الفصل الأول

المغرب الكبير

- تقديم ابن جُزَي للرحلة ونعته لابن بطُّوطة بالثقة الصدوق الذي جال الدنيا بالطُّول والعرض.
- شرح منهاج ابن جُزَي في تحرير الرحلة.
- حديث ابن بطوطة عن خروجه من طنجة أيام السلطان أبي سعيد...
- الوصول إلى تِلِمْسان، وتعرُّفه على سفارة تونس التي صادفها هناك...
- مرضه ببِجَاية.
- حلوله بتونس التي لم يعرفْه بها أحد!
- ذكر ملك تونس
- أخذه الطريق إلى طرابلس وبناؤه بها على سيّدة صفاقُسية ...


اَلْبَحْرُ الْمُتَوَسِّط
طنجة
فاس
دَوْلَةُ بَنِي مَرِين
تلمسان
دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَاد
مليانة
مَدِينَة الجزائر
بجاية
قسنطينة
عنابة
قليبية
تونس
سوسة
صفاقس
قابس
دَوْلَةُ بَنِي حَفْص
طرابلس
مسلاتة
مسراتة
سرت
الاسكندرية
دَوْلَةُ المماليك

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الفقيه الكاتب البارع الناظم
أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الفقيه
العالم المتفنن أبي القاسم محمد
ابن جُزَيّ الكلبي الغرناطي عفا الله عنه (1) :

2/1 الحمد لله الذي ذلَّل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلاً فجاجًا، وجعل منها وإليها تاراتهم (2) الثلاث نباتًا وإعادةً وإخراجًا، دحاها بيد القدرة فكانت مهادًا للعباد، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد، وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر، وجعل القمر نورًا، والشمس سراجاً، ثم أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد الممات، وأنبت فيها من كل الثمرات، وفطر أقطارها بصنوف النبات، وفجر البحرين عذبًا فراتًا، وملحًا أجاجًا، وأكمل على خلقه 3/1 الإنعام، بتذليل مطايا الأنعام، وتسخير المنشآت كالأعلام، ليمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجًا، وصلى الله على سيدنا

(1) هذه هي السُّطور الأربعة (المقدمة) التي وجدناها في مخطوطة لابن بطّوطة نعتقد أنها من أقدم المخطوطات إن لم تكن هي التي كتبها ابن جزي بنفسه في صفر 757 = بيراير 1356 قبل أن يتوفاه الله في شوال من نفس السنة = أكتوبر 1356، ونلاحظ أن هذه المقدمة تختتم بكلمة عفا الله عنه وليس بكلمة رحمه الله، وهي الاشارة التي تزيد في اعتقادنا أن النسخة كتبت بقلم ابن جزّي، ولا بد أن ننبّه هنا إلى أن هذه "المقدمة" توجد في معظم النسخ. وعلى رأسها النسخة الأم، التي اعتمدها الأستاذان المترجمان: ديفريمري وسانكينيتّي عام 1854 على الشكل التالي : قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه بمنه وكرمه آمين آمين.

ومن المعلوم أن هذا خطأ فادح من النساخ ! ومن العجب أن الناشرين للرّحلة، فيما بعد، ساروا على هذا الخطأ بمَن فيهم "اللّذون" قرروا أن يجعلوا كلام ابن جزي في ذيولٍ على حدة، فقد فاتهم أن هذه "المقدمة" هي لابن جزي وليست لابن بطوطة ! وقد تنبه كيب (Gibb) للموضوع فنسب المقدمة لصاحبها ابن جزي.

(2) التارات جمع تارة : ويُعني بها المراحل الثلاث للإنسان : الولادة، والحشر، والنشر، وفي القرآن الكريم : "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى. وهو مايعني «نباتا وإعادة وإخراجا»...

وقد حُرفت عند بعض الناشرين المغاربة إلى قارات بالقاف عوض التاء وأتى بعدُ ناشر آخر من المشرق ففسر القصد من القارات الثلاث وأنها "آسيا وافريقيا وأوربا وهي التي تشكل العالم القديم أما ما تبقى من قارات فلم تكن قد اكتشفت بعد "كذا !!".

ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجًا، وطلّع نور هدايته وهاجًا، بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، واختاره خاتماً للنبيّين، وأمكن صوارمه من رقاب المشركين، حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا وأيده بالمعجزات الباهرات، وانطق بتصديقه الجمادات، وأحيا بدعوته الرّمم الباليات، وفجر من بين أنامله ماءً ثجاجًا، ورضى الله تعالى عن المتشرفين بالانتماء إليه

4/1 أصحابًا وآلاً وأزواجًا، المقيمين قناة الدين فلا ‖ تخشى بعدهم اعوجاجًا، فهم الذين أزّروه على جهاد الأعداء، وظاهروه على إظهار الملة البيضاء، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والإيواء، واقتحموا دونه نار البأس حامية وخاضوا بحر الموت عجاجًا، ونستوهب الله تعالى لمولانا الخليفة أمير المومنين، المتوكل على الله رب العالمين المجاهد في سبيل الله، المؤيد بنصر الله، أبي عنان (3) فارس ابن موالينا الأيمة المهتدين، الخلفاء الراشدين، نصرًا يوسِّع الدنيا وأهله إبتهاجًا، وسعدًا يكون لزمانة الزمان علاجًا، كما وهبه الله بأسًا وجودًا لم

5/1 يدعا طاغيًا ولا محتاجًا، وجعل بسيفه وسَيْبه ‖ (4) لكل ضيقة انفراجًا. وبعد فقد قضت العقول، وحكم المعقول والمنقول، بأن هذه الخلافة العلية المجاهدة المتوكلية الفارسية (5) هي ظل الله الممدود على الأنام، وحبله الذي به الاعتصام، وفي سلك طاعته يجب الانتظام، فهي

---

(3) أبو عنان فارس : هو الملك الذي كان يتربع على كرسي الحكم في الوقت الذي حررت فيه هذه المذكرات بأمره (عام 757 = 1356) على ما عرفناه ... ويلاحظ نعت السلطان أبي عنان بالخليفة وهو اللقب الذي سنعرف عنه بعد قليل...

(4) السّيب : العطاء، ولعل الإشارة إلى فترات امتداد حكم بني مرين وعلى رأسهم أبو عنان فارس إلى باقي بلاد المغرب الكبير ... د.عبد الهادي التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد السادس والسابع 1407 = 1987 - 1408 = 1988 رقم الإيداع القانوني : 1986/25 مطابع فضالة - المحمدية (المغرب).

(5) الفارسية نسبة إلى السلطان فارس، أبي عنان، سالف الذكر .وقد حرفت الكلمة عند ناشر مغربيّ إلى الفاسية، وأتى بعده ناشرٌ مشرقي فعلق قائلاً : "إن الفاسية" نسبة إلى مدينة فاس !!

هذا وقد علّق البروفسور گيب على نعت (الخليفة) الذي أضفاه ابن جزي على السلطان أبي عنان ... بأن عددًا من الأمراء انتحلوا لقب الخليفة بعد اختفاء الخلافة في بغداد عام 656 = 1258، ويضيف إلى هذا أن أبا عنان هو الأول الذي تغلب على اللقب في عائلته .. ونعتقد أن هذا الكلام يحتاج إلى تحرير أكثر دقةً فنحن نعلم أن المغاربة لا يجدون كثير فرق في اللقب بالخليفة أو أمير المؤمنين أو أمير المسلمين وقد وجدنا أن الأمير عليًا بن يوسف بن تاشفين (تـ 537 = 1427) لُقِّب بالخليفة وبأمير المؤمنين والمسلمين د. التازي : تاريخ جامع القرويين، طبع دار الكتاب اللبناني 1972ج II ص 121 - 134 - بلاد الشام في الوثائق الديلوماسية المغربية - تاريخ بلاد الشام - نشر الجامعة الأردنية 1974 ص 447. الأمير مُرْهف المنقذى في سفارته لدى الخليفة المنصور بحث قدم للمؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام ونشرته مجلة الأكاديمية عدد 11 سنة 1994. Gibb : The travels of Ibn Battûta 1958,. T. I P.3 Note 9.

التي أبرأت الدين عند إعتلاله، وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله، وأصلحت الأيام بعد فسادها، ونفّقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند إنهاجها، وسكّنت أقطار الأرض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها، ونقضت أحكام البغي عند استقلالها، وشادت مباني الحق على عُمُد التقوى ‖ واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الأقوى، فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء، والمجد الذي جر أذياله على مَجرَّة السماء، والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه، والعدل الذي مد على أهل الإيمان مديد أطنابه، والجود الذي قطّر سحابه اللجين والنضار، والبأس الذي فيَّض غمامه الدم الموّار، والنصر الذي نفض كتائبه الأجل، والتأييد الذي بعض غنائمه الدول، والبطش الذي سبق سيفُه العذَل، والأناة التي لا يملّ عندها الأمل، والحزم الذي يسد على الأعداء وجوه المسارب، والعزم الذي يفلّ جموعها قبل قِراع الكتايب، والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب، والرفق ‖ الذي أجمع على محبّته بنات القلوب، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات، والعمل المقّيد بالاخلاص والأعمال بالنيات. ولما كانت حضرته العلية مطمح الآمال، ومسرح هِمَم الرجال، ومحط رحال الفضايل، ومثابة أمن الخائف ومنية السائل، توخّى الزمان خدمتها ببدائع تُحفه، وروائع طُرفه، فانثال عليها العلماء إنثيال جودها على الصفاة، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العُداة، وحج العارفون، حرمها الشريف، وقصد السائحون، استطلاع معناها المنيف، ولجأ الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها، واستجارت الملوك بخدمة أبوابها، فهي القطب الذي عليه مدار العالم، وفي القطع بتفضيلها ‖ تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم، وعن مآثرها الفايقة يُسند صحاح الآثار كلّ مسلم، وبإكمال محاسنها الرائقة يُفصح كلّ معلم. وكان ممن وفد على بابها السامي (6)، وتعدّى أو شال البلاد إلى بحرها الطامي، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوّاب الأرض، ومخترق الاقاليم بالطول والعرض، أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين، وهو الذي طاف الأرض معتبرًا وطوى الأمصار مختبرًا، وباحث فِرق الأمم وسبر سير العرب والعجم ثم ألقى عصا التَّسيار بهذه الحضرة العليا، لما علم أن لها مزيةَ الفضل دون شرط ‖ ولا ثُنْيا، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالمغرب، وآثرها على الأقطار إيثار التِّبر على التُّرب، اختيارًا

6/1 — 7/1 — 8/1 — 9/1

(6) هذه الفقرات التي تشيد بابن بطُوطة وبمصداقيته وكفاءته تؤكد- إن كنا في حاجة إلى تأكيد - أن هذه المقدمة كلها من عمل أبي عبد الله ابن جُزَي، وليست من عمل ابن بطوطة كما توحي بذلك "المقدمة" الذي تتصدّر سائر النسخ المطبوعة !!

بعد طول اختبار البلاد والخلق، ورغبة في اللّحاق، بالطائفة التي لا تزال على الحق، فغمره من إحسانها الجزيل، وإمتنانها الحفيّ الحفيل، ما أنساه الماضي بالحال، وأغناه عن طول التَّرحال، وحقّر عنده ما كان من سواها يستعظمه، وحقق لديه ما كان من فضلها يتوهمه، فنسي ما ألفه من جولان البلاد، وظفر بالمرعى الخَصِب بعد طول الارتياد.

ونفذت الإشارة الكريمة بأن يُملي ما شهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار، وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار، 10/1 فأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة أفاد باجتلابها، وعجيبة أطرف بانتخابها، وصدر الأمر العالي لعبد مقامهم الكريم، المنقطع إلى بابهم، المتشرف بخدمةِ جنابهم، محمد (7) بن محمد (8) بن جُزَي الكلبي أعانه الله على خدمتهم، وأوزعه شكر نعمتهم، بأن يضم أطراف ما أملاه، الشيخ أبو عبد الله، من ذلك في تصنيفٍ يكون على فوائده مشتملاً، ولنيل مقاصده مكمِّلا، متوخيًا تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمدًا إيضاحه وتقريبه، ليقع الاستمتاع بتلك الطُّرَف، ويعظم الانتفاع بدُرّها عند تجريده عن 11/1 الصدف، فامتثل ما أُمر به مبادرًا، وشرع في مِنهله ليكون، بمعونة الله، عن توفية الغرض منه صادراً، ونقلتُ معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضّحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردتُ لفظه على وضعه فلم أخِلّ بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما قيده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحثٍ عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يُشعر من الالفاظ بذلك، وقيَّدتُ المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط، ليكون أبلغ في التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء الأعجمية لانها تلتبس بعجمتها 12/1 على الناس، ويخطيء في فك مُعماها معهود القياس، وأنا أرجو أن يقع ما قصدته من المقام

(7) هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد ابن جُزيّ الكلبيّ (الشاعر الكاتب)... استكتبه أبو الحجاج يوسف ابن الأحمر ثم تغيّر عليه - ففارقه إلى المغرب، آخر عام 753 وحظي بمكانة عند السُّلطان أبي عنان، وهو الذي أملى عليه ابن بطوطة رحلته بأمر السلطان أبي عنان فكان الفراغ من كتبها في صفر 757 يبراير 1356 وقد ذكر المقري في أزهار الرياض (189.3-195) أنه -أي ابن جزي- توفي يوم التاسع والعشرين من شوال عام 757 (25 أكتوبر 1356) أي في أواخر السنة التي أنهى فيها كتابة الرحلة. راجع المقدمة.

(8) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن عبد الله ابن جُزي الكلبي، من أعيان فقهاء الأندلس، وهو صاحب تفسير "التسهيل لعلوم التنزيل" وكتاب القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية "وتقريب الوصول إلى علم الأصول و "الفوائد العامة في لحن العامة" ..قال المقري : فُقِد وهو يحرِّض الناس يوم معركة طريف عام 741 - 1340.

العلي أيده الله بمحلّ القبول، وأبلغ من الإغضاء عن تقصير المأمول، فعوائدهم في السماح جميلة، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين بمنه وحوله.

(قال ابن بطوطة)

قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي (9) من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدًا حج بيت الحرام، 13/1 وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفردًا عن رفيق آنس بصحبته، وركْب أكون في جملته (10)، لباعث من النفس شديد العزايم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازيم، فجزمت أمري ولم ابن على السكون، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكُون (11)، وكان والدَيَّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصَبًا، ولقيت كما لقيا نصبًا، وسنّي يومئذ اثنتان وعشرون سنة.

قال ابن جُزي أخبرني أبو عبد الله بمدينة غرناطة أن مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة (12).

رجع، وكان إرتحالي في أيام أمير المومنين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رُويت أخبار جوده موصولة الأسناد بالإسناد، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة 14/1 الإشهاد وتحلَّت الأيام، بحُلا فضله، ورتع الانام، في ظل رفقه وعدله، الإمام المقدس

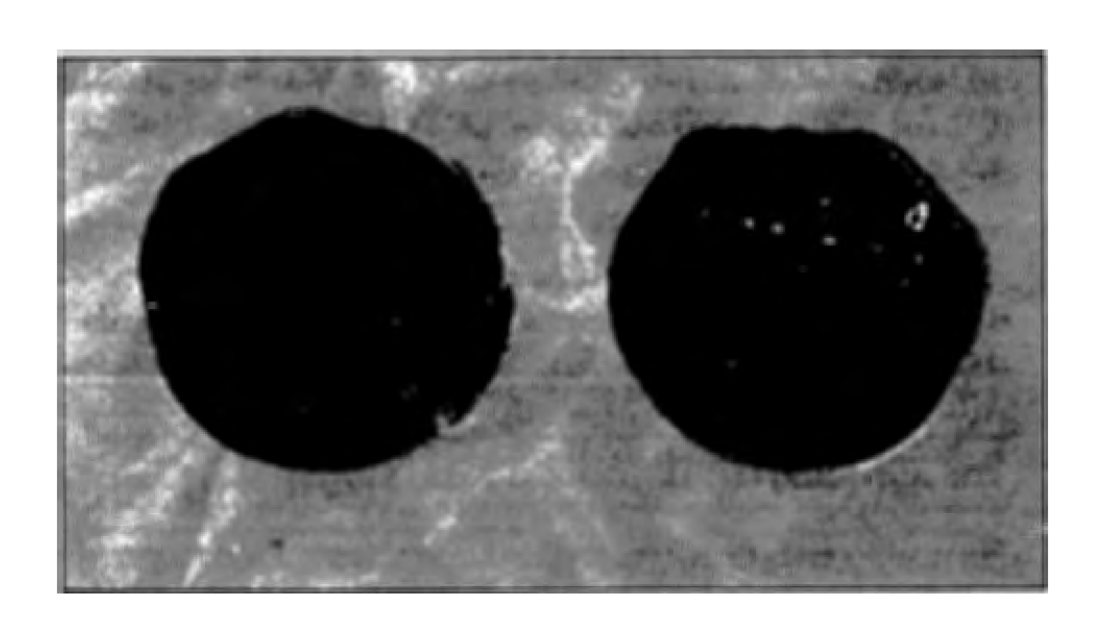
(9) هنا بداية مذكرات ابن بطوطة بعد الانتهاء من مقدمة ابن جزي، وهذا التاريخ القمري يوافق من التاريخ الشمسي 14 يونيه 1325، ويلاحظ من الآن أن ابن بطوطة لم يكن مهتمًا بتقديم معلومات عن المدن المغربية : طنجة تلمسان، وإنما أخذ في ذلك عندما ابتعد عن البلاد وشعر بالحاجة إلى تقديم الفائدة الجديدة ...

(10) الإشارة إلى ركب الحاج المغربي الذي اعتادت الدولة المغربية أن تبعثه إلى الديار المقدسة في كل سنة حيث يرحل في شهور معينة في اتجاه مكة المكرمة، فكان معظم الناس من مختلف الجهات المغربية ينتظر الإنضمام إلى الركب، لكن في الناس من كان يفضل أن يعتمد على وسائله الخاصة حتى لا يتقيّد بيومية معيّنة، وفي هؤلاء الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي نراه هنا يختار التوجه منفردًا إلى تلك الديار ...

محمد المنوني : ركب الحاج المغربي، معهد مولاي الحسن، تطوان. مطبعة المخزن 1953.

(11) الوكون جمع وكن (بالنون) عش الطائر، هذا وتحتوي نسخة باريز على جملة أخرى تقول : "فجَزمتُ أمري على هجر الإناث من الأحباب والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور".

(12) كان هذا التاريخ يوافق 24 يبراير 1304، وحول هذا اللّقاء الذي تم في غرناطة بمناسبة زيارة ابن بطوطة لها بعد عودته للمغرب راجع (371،IV).



فلس ضرب في طنجة في عهد الولاة الأمويين عن أرشيف بنك ـ المغرب



لوحة لطنجة عام 1590

منظر لطنجة عام 1702

منظر لطنجة عام 1826

أبو سعيد (13) ابن مولانا أمير المومنين، وناصر الدين، الذي فل حدَّ الشرك صدقْ عزائمه، وأطفأت نارَ الكفر جداولُ صوارمه، وفتكت بعُبَّاد الصليب كتايبه، وكرمت في إخلاص الجهاد مذاهبه، الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق (14) جدد الله عليهم رضوانه، وسقى ضرايحهم المقدسة من صوب الحيا سحّه وتهتانه، وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين، وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين، فوصلت مدينة تلمسان (15) وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان ابن يغمراسن ابن زيان (16)، ووافقت بها رسولَيْ ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله (17)، وهما قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي والشيخ الصالح أبو عبد الله

(13) أبو سعيد : هو جدّ السلطان أبي عنان وقد تولى الحكم من عام 710 إلى 731 - 1310 - 1331 وهو الذي أمر بإنشاء الأساطيل بدار الصناعة برسم جهاد الإفرنج، وهو الذي بنى بفاس مدرسة العطّارين...
د. التازي : جامع القرويين ج 2 ص 358 طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972

(14) أبو يوسف يعقوب (656-667 = 1258 - 1286) هو الذي حقق أمنية والده عبد الحق الذي كان يهدف إلى إحلال قبيلة بني مرين كرسيَ السلطة، هذا العمل الذي ابتدأه والده عبد الحق، وبقية إخوته، وهكذا جعل حدّاً لدولة الموحدين باستلائه على مدينة مراكش عام 667 - 1269، وتشييده للمدينة الجديدة بفاس 674 = 1275 وتغلبه على ملوك قشتالة في استجه (Ecija) في نفس العام 674 = 1275
د. التازي : التاريخ الديلوماسي للمغرب، ج 7، ص 61، رقم الإيداع القانوني 1986/25 مطابع فضالة - المحمدية.

(15) تلمسان كانت عاصمةً أنذاك لملكة بني عبد الواد التي كان رئيسها هو السلطان أبو تاشفين الذي كان في حالة حرب مع الحفصيين بتونس ... وإذا ما رجعنا إلى ما قدّمه الادريسي عن تلمسان من معلومات على عهده فسنجد أنه ينعتها بأنها مدينة أزلية وأنه لم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منهم حالاً... وقد ذكر ابن الوزان (ليون الافريقي) أنها كانت تحتوي على ستة عشر ألف كانون على عهد أبي تاشفين 718-737 = 1318 - 1337.

(16) بنو عبد الواد أو بنو عبد الواحد يرجعون في الأصل لنفس قبيلة زناتة التي ينتسب إليها بنو مرين كان مؤسس هذه المملكة هو يَغمُراسَن بن زيان (633 - 682 = 1236 - 1283) الذي كان عاملاً في الأصل للدّولة الموحدية، وأبو تاشفين المتحدث عنه كان قتل أباه وحل محلّه سنة 718 = 1318 - 1319.

(17) القصد إلى أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم بن زكرياء (الأول) (1346 - 718) = 746 - 1318 - العاهل الحفصي لتونس (افريقية)، ونحن نعلم أنّ الحفصيين - وهم فرع من الدولة الموحدية - حكموا تونس ابتداءً من عام 626 = 1228 إلى 976 = 1569 في شخص أبي زكرياء الأوّل.

محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزُّبَيدي (18)، بضم الزاي، نسبة إلى قرية بساحل المهدية، وهو أحد الفضلاء، وفاته عام أربعين.

وفي يوم وصولي إلى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فأشار علي بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت (19) الله عز وجل في ذلك، وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مآربي، وخرجت أجدّ السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة (20) وأدركتهما بها وذلك في إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرًا، ثم إرتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فأقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا، وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع، فعاد إبنه أبو الطيب (21) ورفيقه أبو عبد الله الزُّبيدي إلى مليانة فقبروه

16/1

(18) كان على الأمير أبي يحيى أبي بكر أن يقاوم طوال السنوات الأولى لإمارته ضدّ عدد من المنافسين، وقد كان أحد هؤلاء المنافسين المعزّزين من لدن ملك تلمسان - تغلّب على مدينة تونس في رجب - شعبان 725 يونيه / يوليوز 1325، عندما كان الأمير أبو يحيى محاصرًا في قسنطينة من لدن جيوش بني عبد الواد ...!

وهكذا ففي هذه الفترة من التاريخ وُجِدَ ابن بطوطة في تلمسان ولقي بتلمسان السفارة التونسية التي عُهِد إليها - على ما يظهر - أن تقوم بالاتصال مع أبي تاشفين ليسحب مساندته للمناوئين لصاحب تونس، والجدير بالذكر أن ابن خلدون، الذي تحدث بتفصيل في تاريخه عن هذه الأحداث، لم يتحدث عن هذه السفارة. ! كما أنه لم يأت بأسماء السفراء الذين ظلّوا غير معروفين لديه.

أما عن السفير النفزاوي قاضي الأنكحة فقد كان لابن بطوطة وحده فضلُ ترديده هنا، وإن زملاءنا في تونس ليعتمدون فيما كتبوه حول هذا الموضوع على الرحالة المغربي إضافةً إلى ما عند الأبي في إكمال الاكمال (ص 294) حسبما وقفتُ عليه بتونس في إحدى زياراتي لها عام 1982..

أما عن الشخصية الثانية : الزُّبيدي فنؤكد كذلك على أهمية معلومة ابن بطوطة حول هذه السفارة التي أهمل ابن خلدون ذكرها كما قلنا . ابن القنفذ القسنطيني : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي - الدار التونسية للنشر 1968.

عبد الرحمن عون : أطروحة حول الأبيّ صفحة 52-280 وقفت عليها بمكتبة كلية الشريعة بتونس.

المطوي : السلطنة الحفصية، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1406 = 1986

(19) صلاة الاستخارة : تعني أن يقوم المسلم عند حال تردده في الاختيار بين أمرين، مثلا : - بصلاة ركعتين : الأولى بالفاتحة وسورة الكافرون والثانية بالفاتحة وسورة قل هو الله أحد، ثم يدعو : اللهمّ إن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي .. فاصرفه عني .. ويسمّي حاجته... ثم يفعل ما ينشرح له صدره ... ويكرر هذا الدعاء، حتى يظهر له وجه الصواب ..

(20) تقع مَليانة على وادي شلف شرقي المدينة، وقد قال عنها الإدريسي : إنها قديمة البناء، كريمة المزارع، وقال عنها الحسن ابن الوزان : إنها كانت مدينة كبيرة بناها الرومان، وإن سكانها يكادون يكونون كلهم صناعًا نسّاجين أو خراطين ويصنع هؤلاء أواني من خشب في غاية الحُسْن ... وهي على بُعد أربعين ميلا من البحر...

(21) هذه معلومات كذلك استأثر بها الرحالة ابن بطوطة إلى جانب الأبيّ في الإكمال 5، 370 - تراجع أطروحة الأستاذ عبد الرحمن عون حول الأبي (تونس) كلية الشريعة.

دينار مريني يرجع لعهد السلطان
أبي سعيد عثمان بن يعقوب
الذي وَدَّع في أيامه ابنُ بطوطة طَنْجة
مع شكرنا لوالي بنك المغرب

نقش على وجهه

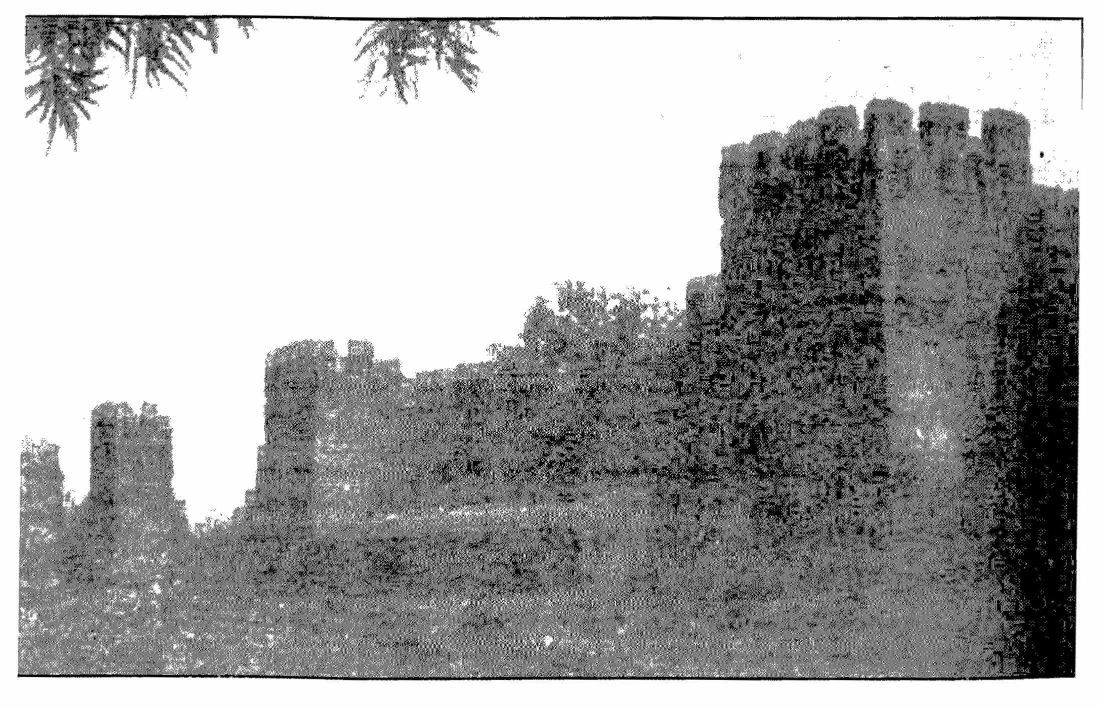
بسم الله الرحمن الرحيم
صلّى الله على محمد وآله
الحمد لله وحده لا إله إلا اللّه
محمد رسول اللّه
وإلا هكم إله واحد/لاإله إلا هو
الرحمن الرحيم.



نقش على ظهره

ضرب بمدينة
سجلماسة أمنها الله
عن أمر عبد الله
أبي سعيد عثمان
أمير المسلمين
أيده الله ونصره
وإلاهكم الاه واحد/
لاإله إلا هو الرحمن الرحيم.

تلمسان .... منارة المنصورة



بعض الأطلال لأسوار مدينة المنصورة (من تأسيس بني مرين)

بها وتركتهم هنالك وإرتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولي ومحمد بن الحَجَر فوصلنا مدينة الجزائر (22) وأقمنا بخارجها أياما إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجَّهنا جميعًا على متّيجة (23) إلى جبل الزَّان، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية (24) فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر. وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا ‖ عبد الله محمد بن سيّد الناس الحاجب (25)، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحَجَر الذي تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب (26)، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيّد الناس المذكور فانتزعها من يده، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم ! 17/1

ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمّى فأشار عليَّ أبو عبد الله الزُّبيدي بالاقامة فيها حتى يتمكن البرء مني، فأبيت، وقلت : إن قضى الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق، وأنا قاصد أرض الحجاز. فقال لي : أمّا إن عزمت فبع دابتك وثقل المتا ع ‖ وأنا أعيرك دابة، وخباء وتصحبنا خفيفا فإننا نجدّ السير خوف معرة العرب في الطريق! فـفعلت هذا وأعارني ما وعد به، جزاه الله خيراً، وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الالاهية، في تلك الوجهة الحجازية. 18/1

---

(22) كانت مدينة الجزائر (العاصمة الحالية) تابعة لملكة تلمسان ...

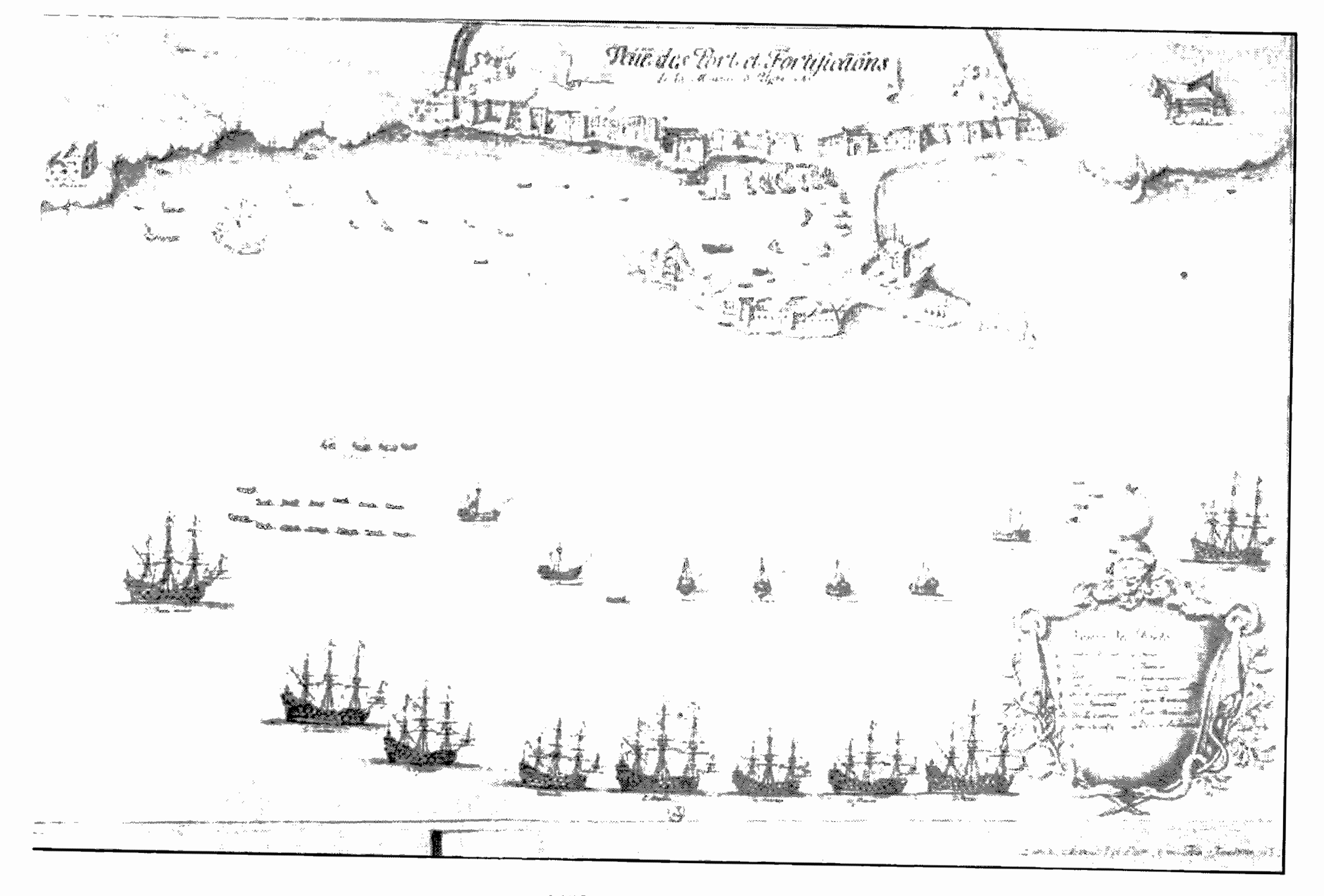
(23) متّيجة : (mitija) وليس منيجة كما حرفت عنه بعض الناشرين ! علَم جغرافيّ، وليس اسما لأداة من أدوات النَّقل كما ذكره بعض أخر من الناشرين ! هضبات ممتدة جنوب مدينة الجزائر العاصمة شمال البليدة.

– جبل الزّان (جبل البلوط) فهو القسم الشرقي لسلسلة جبال القبائل ... أنظر دائرة المعارف الآسلامية بالفرنسية مادة (مدية) – Medéa.

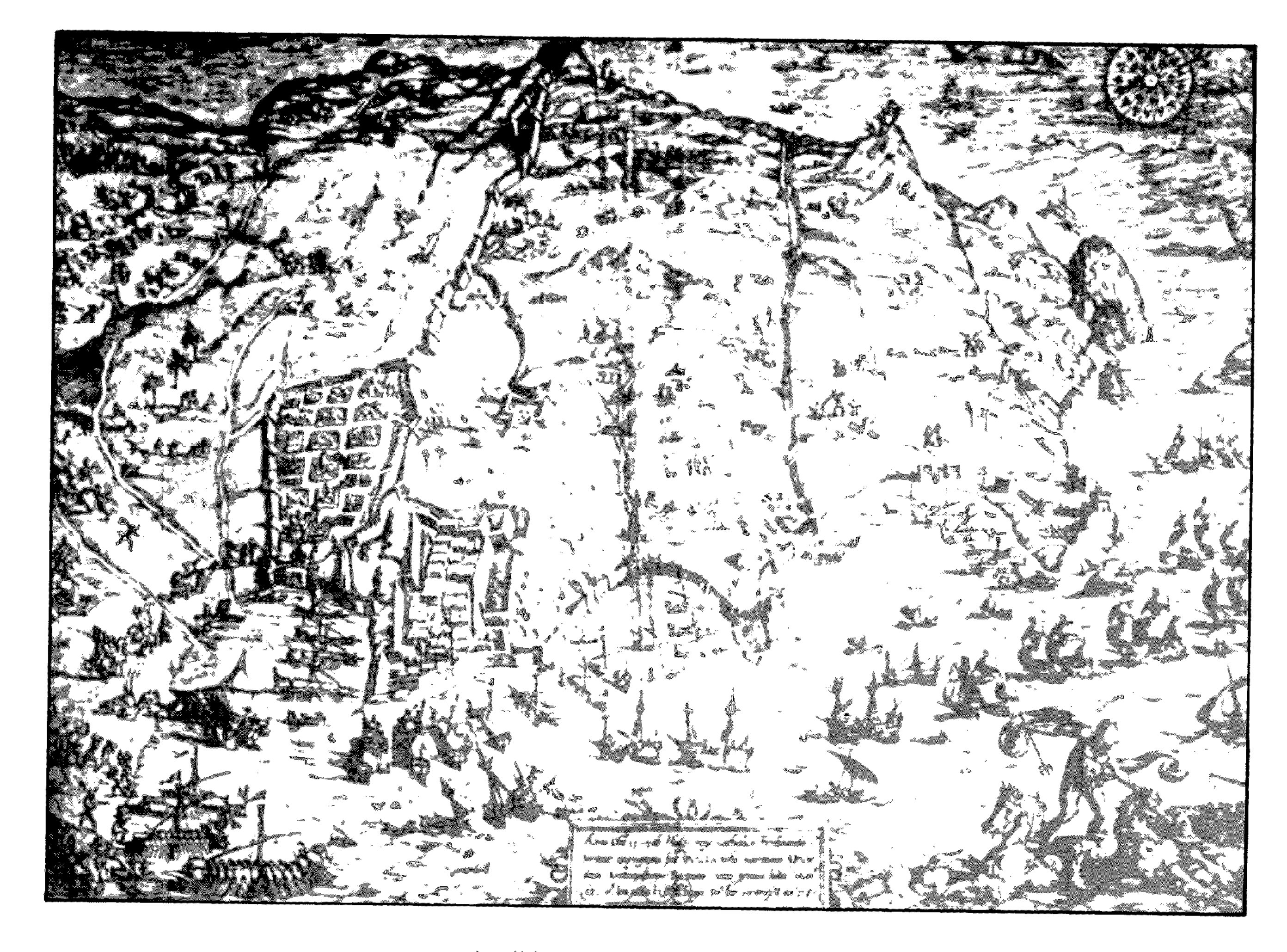
(24) بجاية : تكوّن في ذلك العصر واجهة للمملكة الحفصية، هذا ويلاحظ إصرار ابن بطوطة على اعتبار سلاطين المنطقة على أنهم فقط «عمال الموحدّين وولاتهم» !!

(25) عندما استقر الأمر لأبي يحيى أبي بكر بتونس عين ولده أبا زكرياء واليًا على بجاية، ونظرًا لصغر سنه عزّزه بموظف سام كان هو ابن سيّد الناس الذي ينحدر من عائلة عربية شهيرة باشبيلية وهو الذي سيصبح حاجبًا للملك من تاريخ 727-732 = 1327-1332 وهو التاريخ الذي انتهت فيه حياته. ابن القنفذ : الفارسية –
العروسي المطوي : السلطنة الحفصية.

(26) وزن الدينار الذهبي يساوي مثقالاً واحدًا، يعني حوالي 4,5 كرام ذهبي ...



ميناء مدينة الجزائر عام 1683



منظر لبجاية عام 1509م عندما هاجمها الاسبان

وسرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قُسنطينة (27) فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود إضطرنا إلى الخروج عن الأخبية ليلاً إلى دور هنالك، فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء (28) الفضلاء يسمى بأبي الحسن (29) فنظر إلى ثيابي وقد لوّثها المطر فأمر بغسلها في داره وكان الإحرام (30) منها خلقًا فبعث مكانه إحراما "بعلبكيا" وصرّ في أحد

19/1 طرفيه ‖ دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما فُتح به علي في وجهتي. ورحلنا إلى أنْ وصلنا مدينة بونة (31) ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أيامًا ثم تركنا بها من كان في صحبتنا من التجار لأجل الخوف في الطريق (32)، وتجردنا للسير وواصلنا الجد وأصابتني الحُمَى فكنت أشد نفسي بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف إلى أن وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزُبيدي، ولقاء أبي الطيب ابن القاضي ابي عبد الله النفزاوي، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يُسلّم عليَّ

20/1 أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه ‖ سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل عليّ بالسلام والإيناس. وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين (33).

---

(27) يلاحظ أن ابن بطوطة وصل إلى قسنطينة بعد رفع الحصار الذي كان مضروبًا عليها والذي استمر طوال نصف شهر، حسب المعلومات التي قدمها إلينا ابن خلدون وابن القنفذ.

(28) نعت (الشريف) بالمغرب يدل على المعنى الذي تقصده كلمة "السيّد" في المشرق، اعني المنحدر من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم.

(29) كانت ولاية قسنطينة مسندةً أيضًا للأمير أبي عبد الله محمد أحد أبناء أبي يحيى أبي بكر الحفصي، ولكنه نظرًا لصغر سنه عزز كذلك بأحد أرباب الدولة، وربما كان أبا الحسن أحد أولئك القواد، ابن القنفذ: الفارسية.

(30) لا يقصد بالإحرام هنا الثوب الذي يرتديه الحاجّ (الغير المخيط و المحيط)، ولكن القصد إلى ثوب يجعل على الرأس ويمتدّ إلى الأكتاف على نحو الطيلسان ...

(31) بونة هي بالذات عنابة، وقد كان واليها أيضًا على ذلك العهد الأمير الفضل أحد أبناء أبي يحيى أبي بكر على نحو تعيين ولده أبي العباس بقفصة وولده خالد بالمهدية وولده أبي فارس بسوسة ... ابن القنفذ: الفارسية.

(32) الاشارة هنا إلى الحرب الأهلية التي كانت تشهدها المنطقة بين الزُعماء المحليين وأنصارهم ... ابن القنفذ : الفارسية ...

(33) لا ينبغي أن نغفل هنا دور هذه المنشآت التي عُرفت بالمدارس، إنها – في الواقع – عبارة عن "أحياء جامعية" تؤوي الطلاب من سائر الجهات حيث يتكونون ليصبحوا أطرًا هامة في الدولة ... وقد عرفت مختلف جهات المغرب الكبير عددًا من هذه المدارس، وخاصة عهد بني حفص وعهد بني عبد الواد وبني مرين. أما عن مدرسة الكتبيين بمدينة تونس فيظهر أنها المدرسة التي بناها الأمير أبو زكرياء المتوفى عام 700 هـ. – ابن القنفذ : الفارسية، صفحة 155 المصدر السابق.

قال ابن جُزَي : أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي، هو ابن الحاج البلْفيقِي (34) أنه جرى له مثل هذه الحكاية، قال : قصدت مدينة بلش (35) من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله بن الكماد وحضرت المصلَّى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا في ناحيةٍ لا ‖ يسلم عليَّ أحد فقصد إليَّ شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل عليَّ بالسلام والإيناس، وقال : نظرت إليك فرأيتك منتبذاً عن الناس لا يسلّم عليك أحد، فعرفت أنك غريب فأحببت إيناسك، جزاه الله خيرا. 21/1

• ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبو يحيى ابن السلطان أبي زكرياء يحيى ابن السلطان أبي اسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (36) رحمه الله، وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء، منهم قاضي الجماعة بها

(34) البلفيقي : نسبة إلى حصن بلْفِيق (VELFIQUE)، وقد ترجَمَ غير واحد لهذه الشخصية الشهيرة في الأندلس والمغرب 664-772 = 1266-1369، وقد حلاّه المقري بنادرة الزمان، كان من هواياته الغريبة المفضلة ملازمته للبناء يستمتع برؤية الطوب والأحجار بل وبالمشاركة الفعلية في بناء المساجد والآبار والحصون، وقد افتخر بذلك في شعره ... وله صيغة فريدة في إنشاء عقد طلاق زوجته أمّ العباس عائشة بنت الوزير الكناني، ومن النصائح المنقولة عنه : "أنَّ العالمَ متى واظب على العطاء كثر علمه"... وقد كان من المهام التي أسنِدت إليه سفارته لبلاط فاس لتعزية أبي بكر السعيد في والده السلطان أبي عنان، وهنا أنشد :

لما تبدَّلتِ المجَالس أوجُهًا	غير الذين عهدتُ من جلسائِها
أنشدت بيتًا سائرًا متقدّمًا	والعين قد شرقت بجاري مائِهَا
"أمَّا القِباب، فإنَّها كقبابِهم	وأرَى نسَاءَ الحيّ غير نسائِهَا" !

وقد كان قاضيًا لِلجماعة عند زيارة ابن بطوطة للأندلس ...

العباس ابن ابراهيم : الإعلام : ج 1 ص 154. المطبعة الملكية - الرباط 1974.

المقري : نفح الطيب، ج 1 ص 516 ص 471 تحقيق إحسان عباس. دار صادر - بيروت 1968.

د. التازي : المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي ص 17-18-19، مطبعة النجاح الجديدة - البيضاء، رقم الإيداع القانوني 701-1992.

(35) بلش مالقة (VELEZ MALAGA) تقع شرق مالقة غربي المُنكَّب.

(36) كان والد أبي يحيى أبي بكر سلطانًا لبُجاية، أما عن جده الأعلى الذي يحمل نفس الاسم والذي تملك الحكم من سنة 626 إلى 647 = 1228-1249، فقد كان هو المؤسس للدولة الحفصية بتونس على ما ذكرنا بعد الفصالة من الموحدّين...



منظر لتونس عن المكتبة الوطنية بباريز

مدينة تونس

أبو عبد الله (37) محمد، بن قاضي الجماعة أبي العباس (38) أحمد، بن محمد بن حسن، بن محمد الأنصاري الخزرجي البلنسي الأصل ثم التونسي، هو ابن الغمّاز ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع الرِّبَعي، وولى أيضا قضاء الجماعة في خمس دول (39)، ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قدّاح الهواري وولى أيضا قضاءها وكان من من أعلام العلماء (40)، ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة (41) ويستفتيه الناس في المسائل، فلما أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك.

22/1

وأظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد إحتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا

---

(37) عين أبو عبد الله محمد الغماز قاضيًا بتونس منذ دخول أبي يحيى لهذه المدينة في يونيه عام 1318 ربيع الثاني 718.

الزركشي : تاريخ الدولتين ص 66-67 أطروحة عبد الرحمن عون حول الأبي سالفة الذكر.

(38) كان أبو العباس ابن الغماز (الوالد) قاضيًا في بجاية عام 659-1126، وعين قاضيا بتونس عام 1279-678 وقد شغل هذه الوظيفة سبع مرات، وقد سفر للمستنصر الحفصي لدى بعض ملوك المغرب، توفي عام 693=1293 – العبدري : الرحلة 240. محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين، ج 3 ص 464 – دار الغرب الإسلامي، بيروت 1404 = 1984. – محمد الحبيب الخوجة : الحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية، مجلة الكلية الزيتونية – العدد 4، 1976 - 1977 – عبد الرحمن عون : الإكمال مصدر سابق.

(39) توفي الرِّبَعي سنة 735=1334، ولقد ورد ذكره كقاضي سنة 729-1329، ويلاحظ أن ابن حجر يقول عنه : إنه ابراهيم بن الحسن لا الحسين.. الدرر I، 23 وإن الدول الخمس ترجع بنا إلى عام 708=1309.. محمد الحبيب الخوجة : المجلة الزيتونية عدد 1976-1977 ص 18 - 44 وانظر أطروحة عبد الرحمن عون حول الأبّي. المعهد الأعلى لاصول الدّين، جامعة الزيتونة ص 15-16-18-51-53.

(40) لم يكن ابن قدّاح معروفًا فقط بشهرته في إعطاء فتاويه الفقهية، ولكن أيضًا بالمنقبة التي تميَّز بها وهو أنّه يُعين الموظفين في الشؤون الإسلامية وذلك بهدف أن يجد منافذ لطلبة المدارس العلمية ويفسح للآخرين مجال الفائدة، توفي 734=1333. ابن القنفذ : الفارسية. ابن حجر : الدرر III، 179 وذكره الأبّي في إكمال الاكمال – وله "المسائل الفقهية التي حققها زميلنا د. محمد أبو الأجفان ونشرها مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان.

(41) يعتبر جامع الزيتونة الذي بني منذ عام 116 = 734 بتونس من أبرز المراكز الثقافية في الغرب الاسلامي ويأتي بعده جامع القرويين الذي أسس بفاس عام 245 = 859، ثم جامع الأزهر بمصر عام 359 = 970.

وسيلاحظ أن الرحالة المغربي الذي يذكر الزيتونة ثم الأزهر، لم يذكر جامع فاس القرويين الذي استمر في أداء رسالته العلمية دون انقطاع...

د.التازي : جامع القرويين، المجلد الأول ص 133. الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1972.

في أجْمل هيئةٍ وأكمل إشارة ووَافى السلطان أبو يحيى المذكور (42) راكبًا وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب ‖ عجيب وصليت الصلاة وأنقضت الخطبة وانصرف الناس إلى منازلهم.

23/1

وبعد مدة تُعين ركبٌ للحجاز الشريف، شيخُه يعرف بأبي يعقوب السوسي، من أهل إقلي (43) من بلاد إفريقية، وأكثره المصامدة (44)، فقدموني قاضياً بينهم، وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة (45) سالكين طريق الساحل، فوصلنا إلى بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطئ البحر، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا (46)، ثم وصلنا إلى مدينة صفاقس (47) وبخارج هذه البلدة قبر الإمام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه (48).

(42) كان عيد الفطر لعام 725 يوافق 10 شتنبر 1325 ... وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه أن دخول السلطان أبي يحيى أبي بكر لتونس كان في شوال ... مع أننا رأينا هنا ابن بطوطة يؤكد أنه رآه في هذا العيد، بل ويذكر أبا يحيى كملك لهذه المدينة لما وصل لتونس في رمضان، كما يذكر أن السفراء (الذين أهمل ابن خلدون ذكرهم أيضًا) وصلوا في الوقت نفسه مع ابن بطوطة مما يحمل على الاعتقاد بأن ابن بطوطة كان أكثر قربًا للحقيقة، هذا وقد قدم لنا العُمَري تفصيلات مماثلة عن المراسيم السلطانية بتونس ... ابن خلدون : كتاب العبر، ج 6 ص 767، طبعة دار الكتّاب اللبناني 1985.

(43) كلمة (إقلي) هي التي في سائر المخطوطات الموجودة في الخزانة الملكية بالرباط وبالخزانة الوطنية بباريز وخزانة الأكاديمية الملكية بمدريد وليشبونة ... ويرى الناشران .D.S أن القصد إلى (إقليبية) المعروفة قديما بإسم (Clypea)، وتعرف اليوم بإسم قليبية وقد تصرف كَيب في النص ورسمها منذ البداية : إقليبية (IQLIBIYA). السوسي نسبة إلى سوسة.

(44) المصامدة : قبيلة أمازيغية تسكن القسم الغربي من الأطلس.

(45) يوافق أول نونبر 1325.

(46) سوسة مدينة كبيرة عتيقة بناها الرّومان (HADRUMETUM) واتخذها المسلمون قاعدةً لنائب الوالي لما ملكوها وملكوا الشاطئ، وموقع المدينة جميل وقد خصص لها الحسن ابن الوزان حديثا طريفا ووصف أهلها بأحسن النعوت وقال : إن جلّ أهلها بحّارون في السفن التجارية الذاهبة إلى الشرق، وكذا يستعملون السفن القرصانية التي تهاجم مدن صقلية المجاورة أو غيرها من المدن الإيطالية، وسائر السكان من النساجين والفخارين ...

(47) صفاقس (Sfax) مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان، كانت كثيرة السكان، لكنها أيام الحسن ابن الوزان لم يبق بها سوى ثلاثمائة إلى أربع مائة كانون... يذهب بعض سكانها بسفنهم ليتجروا في مصروفي تركيا وقد انتسب إليها عدد من رجال العلم والفكر.

(48) هو علي بن محمد الربعي أبو الحسن المعروف باللخمي، فقيه مالكي له معرفة بالأدب والحديث، قيرواني الأصل، نزل صفاقس وتوفي بها عام 478 = 1085 صنف كتبًا مفيدة، من احسنها تعليق كبير على المدونة في فقه المالكية سماه : "التبصرة" أورد فيه آراء خرج بها عن المذهب.

محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ج 4 ص 214.

قال ابن جُزَي : في بلدة صفاقس يقول عليٌّ بن حبيب التُّنوخى :

24/1

سُقْيًا لأرض صفاقس ذات المصانع والمُصلَّى
فَحِمَى القُصَير إلى الخليج (49) فقصرُها السَّامي المُعَلَّى
بلد يكاد يقول حين تزوره : أهلاً وسهلاً!
وكأنه والبحر يحْسر تارة عنْه ويمْلاَ
صبٌّ يريد زيارةً فإذا رأى الرُّقباء ولَّى !!

وفي عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي تميم وكان من المُجدّين المكثرين :

صفاقِسُ لا صَفَا عيشٌ لساكنِها ولا سَقَى أرضَها غيث إذا انسكبا
ناهيكَ من بلدةٍ مَن حَلَّ ساحتَها عَانَى بها العَادِيَيْن : الرُّوم والعَربا(50) !!

25/1

كم ضلّ في البرّ مسلوبًا بضاعته وبات في البحر يشكو الأسر والعطَبَا
قد عَايَنَ البَحْرُ قُبْحًا في جوانبها فكلَّمَا همَّ أن يدنو لَهَا هَرَبَا !

رجع، ثم وصلنا إلى مدينة قابس (51) ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشرًا لتوالي نزول الأمطار.

---

(49) يترجم كيب كلمة (المصانع) بالصهاريج والأحواض الأمر الذي يفسّر وفرة الماء بالمدينة ... وينبغي قراءة (فَحِمَى) بالفاء حرف عطف ثم حِمَى ... وليس محمى بالميم أولا...

هذا ويضبط الناشران الأولان .D.S كلمة القُصَير على أنها تصغير قصر ويشكلها كيب بفتح القاف وكسر الصاد.

(50) الاشارة إلى حركات القراصنة المتوالية على الساحل التُّونسي واللّيبي مما سنرى ابن بطوطة عند عودته أيضا يشاهده ! انظر كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي. تعريب صلاح الدين عثمان، دار الغرب الإسلامي 1408 = 1987 ص 459.

(51) يقدم ابن الوزان مدينة قابس على أنها من بناء الرومان على ساحل البحر المتوسط في داخل الخليج ... وأن نهب الاعراب لها أدى إلى انحطاطها ...

وقد كان من أغرب ما قاله البكري عن قابس : أنها لم تكن لها مراحيض فيخرج أهلها للخلا، وحينًا يقف عليهم من يأخذ فضلاتهم للسماد وربما تنازع الواقفون على الفضلات فيعطيها صاحبها لمن يشاء ! وكذلك نساؤهم لا يرين في ذلك حرجًا إذا سترت إحداهن وجهها !! وقد وصفها التيجاني في رحلته بأنها جنة الدّنيا. يلاحظ أن التمجروتي نقل عن ابن بطوطة عنها ما لم يقله !!

قال ابن جُزَي : في ذكر قابس يقول بعضهم :

لهْفي على طيب ليالٍ خلتْ   بجانب البَطْحاء من قابس
كـأن قَلْبي عند تذْكـارها   جـذْوة نارٍ بيـدَيْ قـابس !

رجع ، ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصبّحنا في بعض المراحل إليها نحو ماية فارس أو يزيدون (52)، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم (53)، وأظلنا عيد الأضحى (54) في بعض تلك المراحل، وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس (55) ! فأقمنا بها مدة، وكنت عقدت بصفاقسٍ على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس (56)، ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين (57) ومعي أهلي وفي صحبتي جماعةٌ من المصامدة، وقد رفعتُ العَلَم، وتقدمت عليهم وأقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر، وتجاوزنا مسلاتة (58) ومسراتة (59)

26/1

(52) عوض (أو يزيدون) نقرأ في بعض المخطوطات عبارة : (من عرب يزيد) وهو ما في مخطوطة الأمير مولاي العباس المشار إليها في المقدمة ...

(53) إن من يعرف عن هذه الفترة القلقة من تاريخ المنطقة وتنافس الأمراء والزعماء وتأثير الخلافات بين بني حفص وبني عبد الواد لا يجد غرابة في استهداف ركب الحاج للتهديدات التي أشار إليها الرحالة المغربي ... يراجع ابن خلدون في تاريخه كما يراجع ابن القنفذ في "الفارسية".

(54) عيد الأضحى كان يوافق 17 نونبر 1325.

(55) طرابلس عرفت في التاريخ بإضافة كلمة الغرب إليها تمييزًا لها عن طرابلس الشام، وقد تحدثت الموسوعات الجغرافية كثيرًا عن طرابلس، التي بناها الأفارقة إثر خراب طرابلس القديمة، وقد كان بها – على ما يقول ابن الوزان – عدة جوامع وبعض المدارس والبيمارستانات لإيواء المساكين والغرباء، ويتناول أهلها طعامًا يعرف بالبازين الذي تتقن بعض الجهات هناك إعدادَه ولهم أشعار فيه طريفة...

د. التازي : أمير مغربي في طرابلس نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة فضالة 1976 ص 122 وما بعدها.

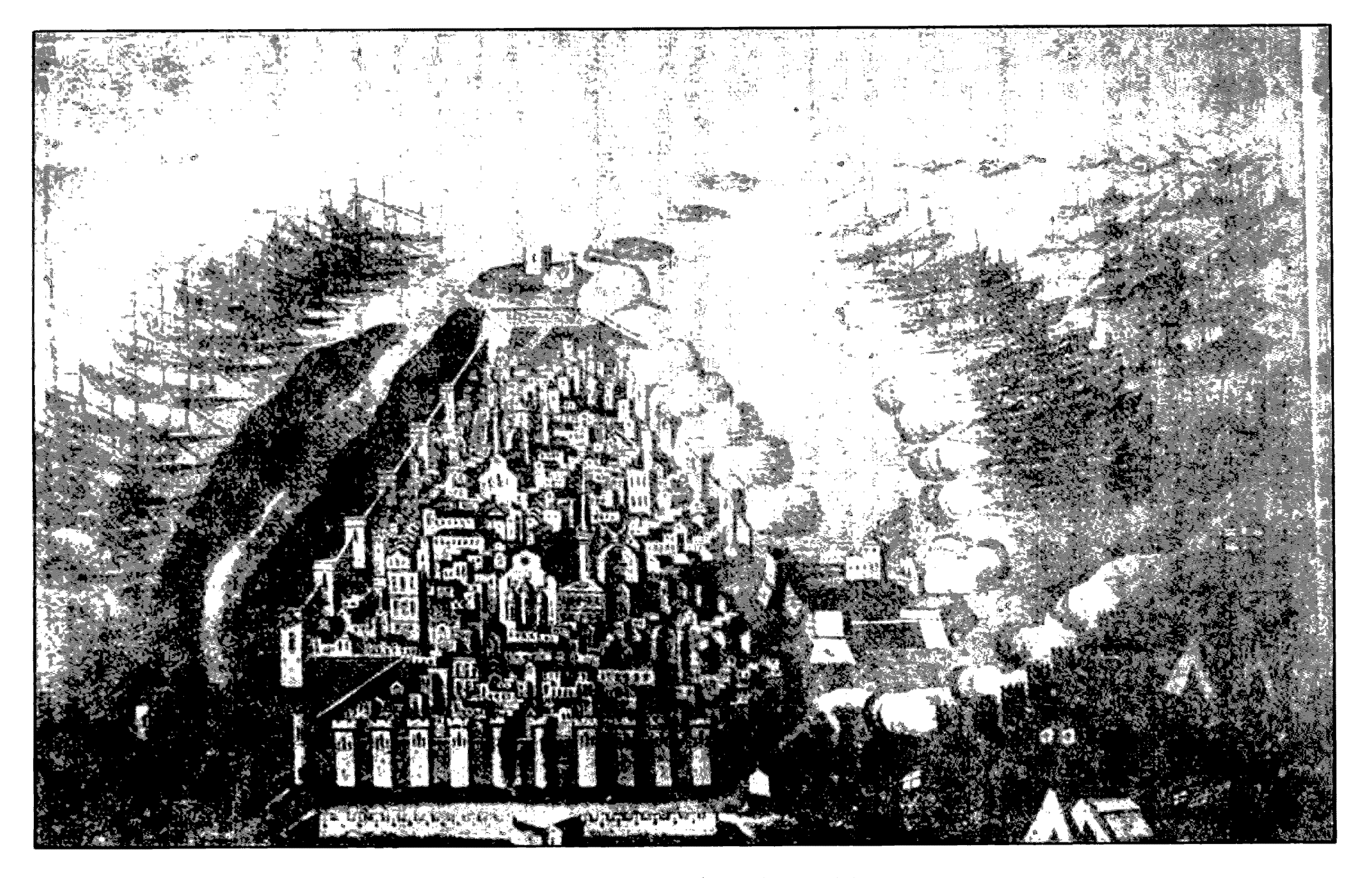
(56) نلاحظ أن ابن بطوطة يبتدئ في طرابلس اللائحة الطويلة للزوجات اللّاتي اقترن بهن لفتراتٍ متوالية أثناء رحلته إن لم تكن الزوجة الأولى من طنجة !!

(57) 24 محرم 726 توافق أول يناير 1326.

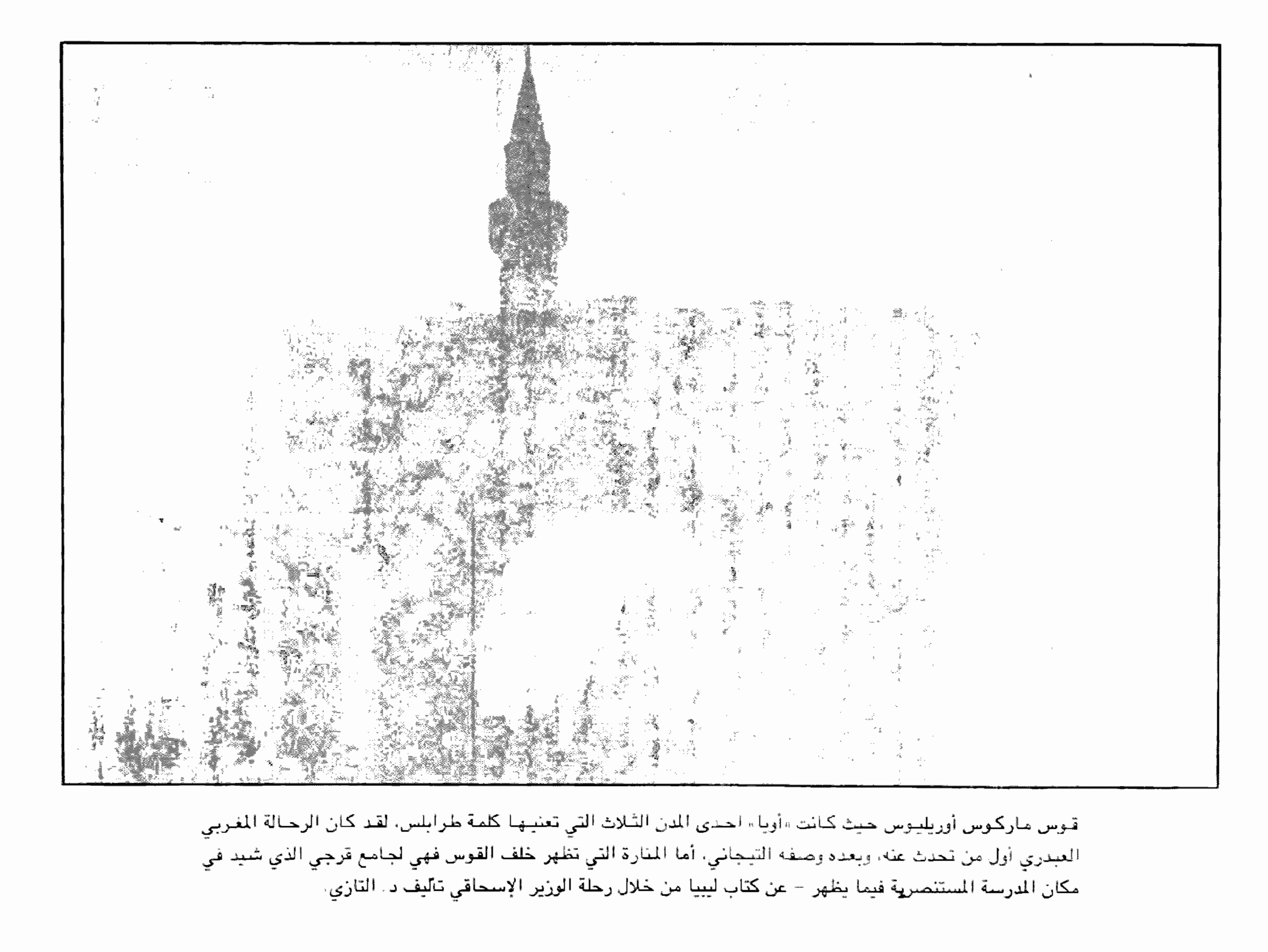
(58) مسلاته : يذكر ابن الوزان أنه إقليم على شاطئ البحر المتوسط يكثر فيه النخيل وشجر الزيتون، كان الإقليم على عهده يختار رئيسه من بين سكانه ويدير شؤون السلم والحرب، هذا ويلاحظ هنا رفع العَلَم من لدن فريقٍ من الحجاج كإشارة مميّزة لهم وهو ما لا نزال نلاحظه إلى اليوم في موسم الحج ...

(59) مسراته أومصراته : إقليم كذلك على شاطئ البحر المتوسط، يتعاطى أهله التجارة ويقتنون البضائع التي تحملها إلى بلادهم سفن البندقية ...

د. التازي : أمير مغربي في طرابلس ص 153 مصدر سابق.



طرابلس في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي



قوس ماركوس أوريليوس حيث كانت «أويا» احدى المدن الثلاث التي تعنيها كلمة طرابلس. لقد كان الرحالة المغربي العبدري أول من تحدث عنه، وبعده وصفه التيجاني. أما المنارة التي تظهر خلف القوس فهي لجامع قرجي الذي شيد في مكان المدرسة المستنصرية فيما يظهر – عن كتاب ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي تأليف د. التازي.

وقصور سُرت(60)، وهنالك أرادت الجمامزة من طوائف العرب (61) الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من إذايتنا. ثم توسطنا الغابة (62) وتجاوزناها إلى قَصْر بَرْصيص العابد إلى قبة سلاّم (63)، وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس. ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته، وتزوجتُ بنتًا لبعض طلبة فاس (64) وبنيت بها بقصر الزعافية (65)، وأولمت وليمةً حبست لها الركب يومًا وأطعمتهم...! 27/1

(60) يذكر البكري في المسالك والممالك أن سرت كانت عامرة مزدهرة بالتجارة في القرن الخامس الهجري ... ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة ... وقد وجدها ابن الوزان خربة لا يشاهد بها إلا آثار صغيرة من الأسوار.
د. التازي : أمير مغربي في طرابلس ص 158.

(61) هكذا في بعض النسخ، والقصد على ما يظهر إلى رُكّاب الجمّازة التي توجد في بعض النسخ وهي الناقة... وفي بعض النسخ الاقتصار على كلمة طوائف العرب.

(62) القصد بالغابة على ما يبدو إلى واحة صحراوية تنبث فيها بعض الأشجار ...

(63) يذكر الطاهر الزاوي في كتابه (معجم البلدان الليبية) أنه توجد الآن قرية صغيرة شرقي مدينة بني غازي بنحو 45 كم. تسمى برسيس أو برسيسة، ولا يبعد أن تكون هذه القرية أنشئت في مكان القصر الذي عناه ابن بطوطة بقوله : "قصر برصيص العابد، لأن الصحراء كانت ممتدة بعد سرت إلى هذا المكان وإلى ما بعده إلى الشرق، ولان مدينة بني غازي لم تكن قد أنشئت أيام رحلة ابن بطوطة. وبرصيص هذا رجلٌ من عبّاد بني إسرائيل وزهادهم، وكان منقطعًا للعبادة في صومعة، فما زال به الشيطان حتى فتنه عن دينه وأخرجه منه ومات كافرًا.
وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن برصيص العابد هذا هو الإنسان الذي ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى : "كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين"، ولم يذكر أحد من هؤلاء المفسرين مكانه ولا أين كانت صومعته، هذا ولم تحدد المصادر التي بين أيدينا كذلك العَلَم الجغرافي : (قبة سلام). معجم البلدان الليبية 1388 = 1968 مكتبة النور - طرابلس / ليبيا ص 268.

(64) ابن بطوطة يتزوج فاسيةً بعد أن فارق الصفاقسية ! ويلاحظ أن كلمة (طالب) تعني عند دولة الموحدين طبقة معينة في نظامهم، وهي تعني عند دولة بني مرين فيما بعد معنى الكاتب.

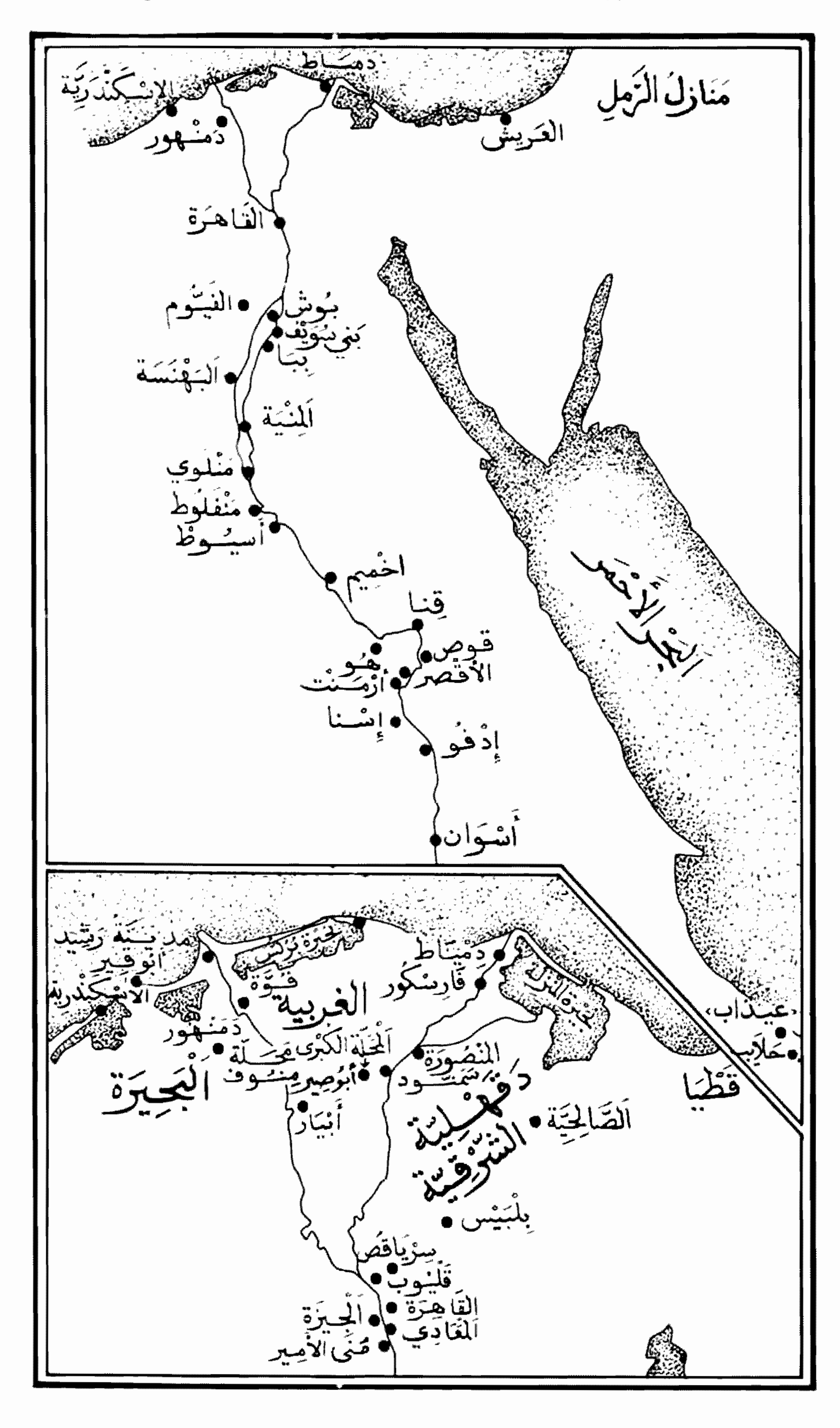
(65) قصر الزعافية، لم أقف على تحديد هذا العَلَم الجغرافي، فهل القصد إلى قصر الجفارة؟ راجع معجم البلدان الليبية. وقد وقفت في بعض المقيدات التي لا أذكر مصدرها أن القصر المذكور يقع في الجبل الأخضر.

الفصل الثاني

مـــصـــر

- مدينة الإسكندرية.
- من الاسكندرية إلى المحلَّة الكبرى شرقًا
- من المحلة الكبرى إلى القاهرة.
- مدينة القاهرة
- أعيان القاهرة
- من القاهرة إلى حدود البحر الأحمر جنوبًا ...
- العدول عن طريق البحر الأحمر والعودة إلى سلوك درب الشام.

خريطة مسالك مصر



ثم وصلنا في أول جمادى الأولى (1) إلى مدينة الاسكندرية، حرسها الله، وهي الثغر المحروس، والقطر المأنوس، العجيبة الشان، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين، ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها، فهي الفريدة تجلّى سناها، والخَريدة تُجْلى في حلاها، الزاهية بجمالها المُغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكلٌّ بديعة بها اجتلاؤها، وكل طرفة فإليها انتقاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصنفوا في عجائبها فأغربوا (2)، وحسب المتشوف إلى ذلك، ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك (3). 28/1

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب باب السِّدرة وإليه يشرع طريق المغرب، وباب رشيد(4)، وباب البحر، والباب الأخضر، وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشأن، ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كَولَم، وقَاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسُرْداق ببلاد الاتراك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين (5) وسيقع ذكرها. 29/1

(1) التاريخ يوافق 5 أبريل 1326

(2) يذكر خسرو علوى الذي زار مصر 444 = 1052 أن عدد السفن يناهز الألف سفينة (سفرنامه) ص 24 ويذكر ليوناردو فريسكو بَالْدي الذي زارها عام 1384، أن سكانها ستون ألفًا ...

(3) يُعتبر الشيخ أبو عُبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري من الجغرافيين المسلمين الأوائل الذين يرجع إليهم الفضل في التعريف بالتراث الجغرافي العربي، وهو من أصل أندلسي (تـ 487 = 1094)، وقد اشتهر بموسوعته (المسالك والممالك) التي نُشِر جزء منها باسم "المغرب في ذكر افريقية والمغرب "عام 1857 من قِبَل البارون دوسلان وترجمه إلى الفرنسية، كما نشرت منه قِطَعٌ خاصة بالروس والصقلب، هذا إلى تآليفه بعنوان "معجم ما استعجم" الذي قام بنشره عام 1876 "Wüstenfele Göttingen" ... يراجع كتاب الجغرافيا لابن سعيد المغربي، تقديم وتحقيق : اسماعيل العربي، الجزائر 1982.

(4) باب رشيد الذي يؤدي إلى مدينة رشيد التي يسميها الإيطاليون رُوزيطو (Rosetto)، وهي المدينة التي يذكر ابن الوزان أنه كان بها عندما مرّ عظيم التُّرك سَليم لدى عودته من الاسكندرية، صحبة حاشيته ليقف على الحمّام الجميل الذي كان يشتمل على عدد من سقايات الماء الباردوا لحار ... هذا وقد هدمت الأبواب الأربعة في القرن التاسع عشر...

(5) كولم (Quilon) وقاليقوط (Calicut) وسرْداق المستودع الجنوي في القِرَم، ومرسى الزيتون بالصين الذي سماه ماركو پولو و (çaiton) وهو قانْزهو (Quanzhou) الحالية، كل هذه المواقع سياتي الحديث عنها مفصّلاً.



الاسكندرية من أرشيف المكتبة الوطنية بباريز رقم C131926

ذكـر المـنـار

قصدت المنار (6) في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً، وصفته أنه بناء مربع (7) ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر إرتفاعه ووضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار، وداخل المنار بيوت كثيرة وعرْض الممر بداخله تسعة أشبار (8) وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرًا، وهو على تلّ مرتفع، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ (9) واحد في بر مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من المدينة، وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية. 30/1

وقصدت المنار عند عودتي إلى بلاد المغرب عام خمسين وسبعماية (10) فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه، وكان الملك الناصر (11) رحمه الله قد شرع في بناء منارٍ مثله بإزائه عاقه الموت عن إتمامه.

---

(6) وصف ابن بطوطة لِمنار الاسكندرية كانه مقتبس من الرحالة المغربي العبدري (688-689=1290-1291) فهل وقف ابن بطوطة على رحلة العبدري ..؟ وقد شبّه به المراكشي في كتابه (المعجب) منارة حسان بالرباط.

(7) كثر حديث الناس عن منار الاسكندرية ونفضل أن نلخص مذكرات الرحالة المغربي العبدري عن المنار لانه زاره وتفحص معالمه، قال : وقد دخلته وتأملته وما وصلت أعلاه إلا بعد جهد ...! أحاط به البحر شرقًا وغربا... وهو يرتفع عن الأرض نحو أربع قامات ... وفي داخل المنار عدة بيوت رأيتها مغلقة، وسعة المنار فيه ستة أشبار وفي غلظ الحائط عشرة أشبار ذرعية من أعلاه، وسعة المنار من ركن إلى ركن مائة وأربعون شبرًا وفي أعلاه جامور كبير عليه آخرُ دونه .. وفوق الأعلى قبة مليحة يطلع إليها في درجة مشرعة إلى النواحي، وانظر مع هذا صبح الأعشى للقلقشندي ج III ص 321-322.

والجامور لفظ ما يزال حيًا في الإستعمال المغربي ويعني ما يُنصب في أعلى منارات المغرب من عمود يحتوي على تفاحات ثلاث في الأغلب تتفاوت في الحجم قد تكون من نحاس أو ذهب ... رحلة العبدري تحقيق وتقديم وتعليق : محمد الفاسي (منشورات جامعة محمد الخامس 1388 = 1968 ص 91-92.

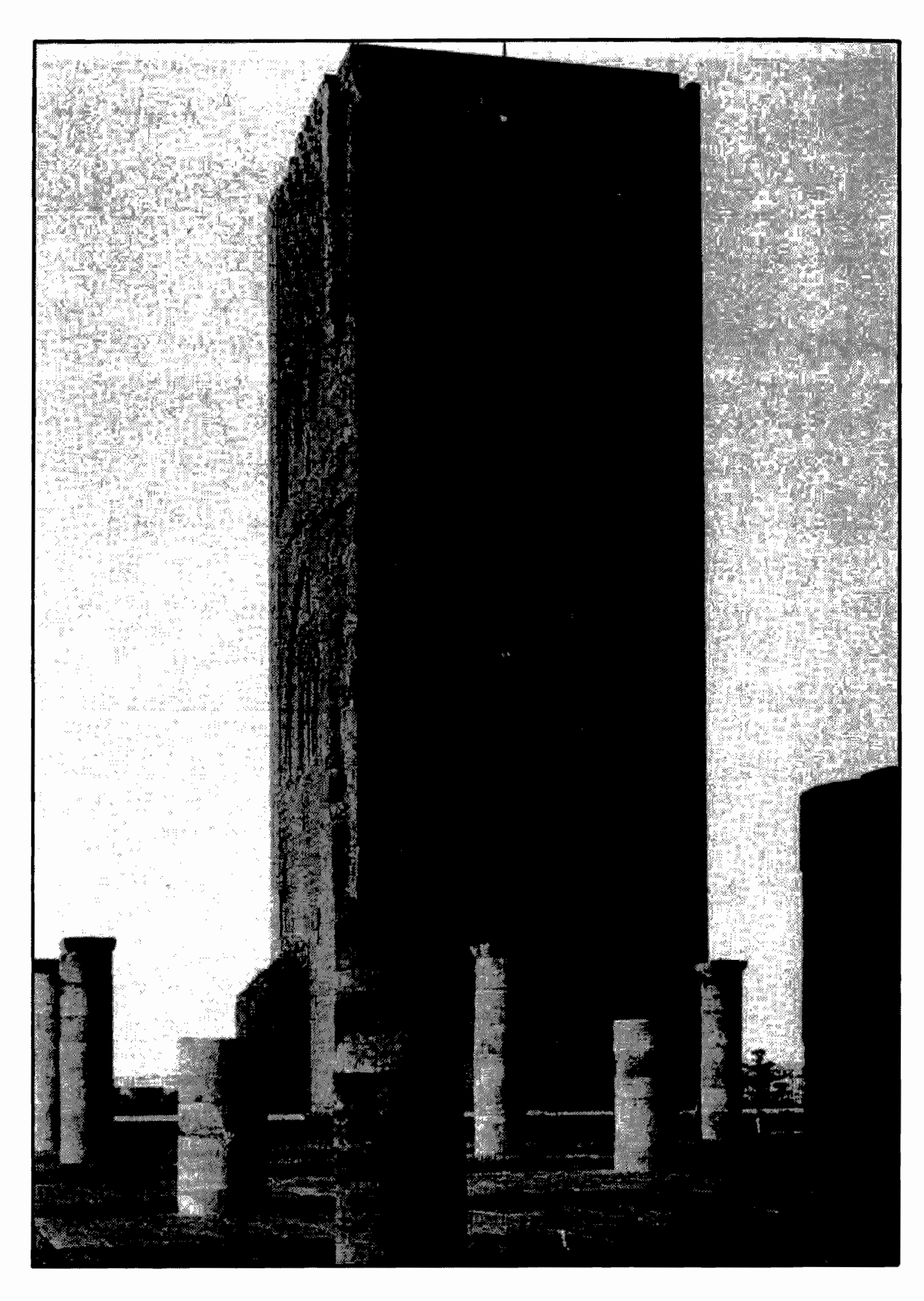
د. التازي : المسجد في المأثور الإسلامي (مسجد الحسن الثاني ص 333).

(8) الشبر يعادل 22.5 سنتيمًا

(9) الفرسخ يعادل 250، 5م والكلمة دخيلة أصلها بالفارسية (PARSAN).

(10) سنة 750 توافق 1349

(11) الملك الناصر هو المعروف تحت إسم محمد بن قلاوون كان سلطانًا ثلاث مرات، وكان مملوكًا في الأصل للملك الصالح، ملك ما قبل الأخير من السلاطين الأيوبيين 638=647 = 1240-1249.



عندما كان المراكشي يتحدث عام 621 هـ في كتاب (المعجب) عن منارة حسان قال : إنها على هيأة منار الاسكندرية...

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمى عندهم بعمود السواري (12) وهو متوسط في غابة نخل وقد إمتاز عن شجراتها سموًا وإرتفاعًا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك | . ولا يتحقق من وضعه. 31/1

قال ابن جُزي : أخبرني بعض أشياخي الرحالين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه إحتياله واظنه كان خائفًا أو طالب حاجة فأنتج له فعله الوصول إلى قصده لغرابة ما أتى به.

وكيفية إحتياله في صعوده أنه رمى بنُشابة قد عقد بفوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقًا. فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضًا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط | فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض وتعلق به صاعدًا من الجهة الأخرى واستقر بأعلاه وجذب الحبل وإستصحب مَن احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه. 32/1

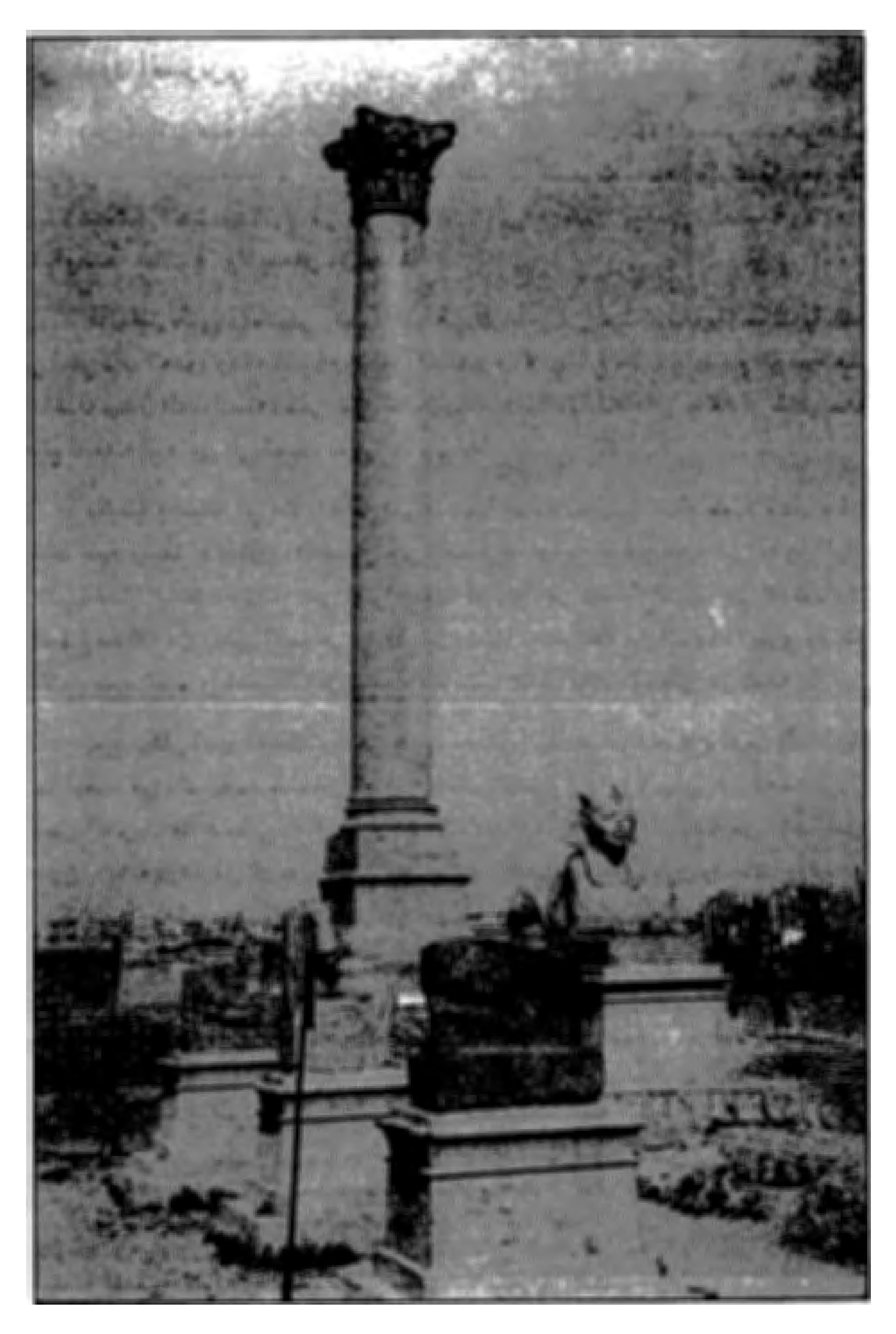
رجع. وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي إليها يسمى بصلاح الدين (13)، وكان فيها أيضا في ذلك العهد سلطان إفريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللِّحياني (14)، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من الإسكندرية، وأجرى له مائة درهم في كل يوم، وكان معه أولاده : عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله ابن ياسين، وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي مصري بها إلى اليوم.

---

(12) يراجع الإدريسي : النزهة ص 140 ويراجع المقريزي : الخطط ج 1 ص 159 ويسميه الصليبيون عمود بومبّي (Pompéé)

(13) القصد إلى صلاح الدَّوَادار (يعني الكاتب) حاكم الاسكندرية من سنة 724-729 = 1324-1329.

(14) تملك ابن اللحياني بتونس من عام 711 إلى 717 = 1311-1318، وقد أقصيّ في هذا التاريخ من لدن أبي يحيى الذي كان على ذلك العهد سلطانًا في بجاية ... وقد أدرك ابن اللحياني أجله بالاسكندرية عام 727=1327. نلاحظ ظاهرة اللجوء السياسي بمصر على ذلك العهد...
– الفارسية، لابن القنفذ ص 159-163... مصدر سابق
– السلطنة الحفصية، للعروسي المطوي. مصدر سابق



عمود السوارى – كوم الشقافة

33/1 قال ابن جُزَي : من الغريب ما إتفق ‖ من صدق الزَّجْر في إسمى ولدى اللحياني الإسكندري ومصري فمات الإسكندري بها وعاش مصري دهرًا طويلاً بها، وهي من بلاد مصر. رجع. وتحوّل عبد الواحد ببلاد الاندلس والمغرب وافريقية، وتوفي هنالك بجزيرة جربة

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكِندي إمام أيمة علم اللّسان، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامةً أعظم منها ! رأيته يومًا قاعدًا في 34/1 صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ ‖ المحراب ! ومنهم فخر الدين بن الرِّيغي (15) وهو أيضا من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم.

حكاية [الفأل الحسن]

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي كان من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم، ثم رحل إلى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي، وهو قليل ذات اليد، فأحب أن لا يدخلها حتى يسمع فألاً حسنا، فقعد قريبًا من بابها إلى أن دخل جميع الناس، وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكّل بالباب من إبطائه، وقال له متهكمًا : أدخل يا قاضي فقال : قاضٍ إن شاء الله ! ودخل إلى بعض المدارس ولازم القراة وسلك طريق الفضلاء، فعظم 35/1 صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع، واتصلت ‖ أخباره بملك مصر وإتفق أن توفي قاضي الاسكندرية وبها إذْ ذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوفٌ إلى الولاية، وهو من بينهم لا يتشوف لذلك، فبعث إليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك فأمر خديمه أن ينادي في الناس : من كانت له خصومة فليحضر لها. وقعد للفصل بين الناس، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه ! وحضر لذلك أحد الحذاق 36/1 من المنجمين فقال لهم : لا تفعلوا ذلك فإني عدلت طالع ولايته ‖ وحققته فظهر لي أنه يحكم

---

(15) الرِّيغي : هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الاسكندري فخر الدين المدعو بابن الرِّيغي توفي سنة 767=1365، سمع من عبد الرحمن مخلوف بن جماعة والجلال بن عبد السلام وغيرهما وهو والد كمال الدِّين الذي ولي قضاء الاسكندرية ... وريغة عند الادريسي قرية لها أرض متسعة وحروث ممتدة ... ولها سوق صالحة تقصد في يوم معلوم. وبها مياه كثيرة وعيون مطردة اما عند ياقوت فإن الكلمة بربرية معناها السَّبْخَة . اقليم بقلعة بني حماد. ونسخ الدرر الكامنة تختلف بين الربعي والريغي. ابن حجر . الدرر الكامنة تحقيق محمد سيد جاد الحق ج 1 ص 289 - 290 - دار الكتب الحديثة - القاهرة طبعة ثانية 1385=1966.

أربعين سنة، فأضربوا عما همُّوا به من المراجعة في شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم، وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنّيسي فاضل شهير الذكر، ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته، ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة (16) صاحب المكاشفات.

ذكر كرامة له

37/1 أخبرني بعض الثقات من أصحابه، قال : رأى الشيخ ‖ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له يا خليفة زرنا. فرحل إلى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيّى المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقعد مستندا إلى بعض سواري المسجد ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة التزييق (17)، فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقاً فيه تمر فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد، وأفراد العبّاد، لقيته أيام مقامي

38/1 بالإسكندرية وأقمتُ في ضيافته ثلاثا ‖ .

ذكر كرامة له

دخلت عليه يومًا فقال لي : أراك تحب السياحة والجولان في البلاد، فقلت له : نعم إني أحب ذلك، ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين، فقال : لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين ! فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام. فعجبت من قوله، وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه. ولما

(16) القصد إلى خليفة بن عطية بن خليفة القريطي المنيالي أبو سعيد الاسكندراني الرجل الصالح الفقيه ... اشتغل في مذهب مالك فمهر وتصدر للتدريس بالاسكندرية فنفع الناس وشغل الطلبة إلى أن مات بالاسكندرية في رابع عشر ذي الحجة سنة 734 = غشت 1334 ذكره ابن جامع في معجمه. الدرر الكامنة 2 ص 183-184.

(17) التَّزييق : هذا هو الصواب على ما نجده في مخطوطة الخزانة الملكية و مخطوطة الأكاديمية الملكية بمدريد وهي مخطوطة گايانيگوس وليس الترفيق كما نجد في النسخة الباريزية التي نشرها الاثنان. D.S/ يراجع دوزي مادة زيّق : Gibb : Travel ... T.1 p.23 Note 60.

ودعته زوّدني دراهم لم تزل عندي محوطة ولم احتج بعد إلى إنفاقها إلى أن سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لي في البحر. ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي (18) من أفراد الرجال، وهو تلميذ أبي العباس المرسي (19)، وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية (20). 39/1

كرامة لأبي الحسن الشاذلي

أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبا الحسن كان يحج كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى إنقضاء الحج، ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير إلى بلده، فلما كان في بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها، قال لخديمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطاً وما يجهز به الميت، فقال له الخديم: ولماذا يا سيدي ؟ فقال له : في (حُمَيْثَرَا) سوف ترى، وحُمَيْثَرَا بصعيد مصر في صحراء عَيْذَاب (21). وبها عين ماء زُعاق، وهي كثيرة الضباع، فلما بلغا حُمَيْثَرَا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك، 40/1

(18) ياقوت الحبشي صوفيٌ شهير بالكرامات التي تروى عنه، أدركه أجله يوم 18 جمادى II 732 = 17 مارس 1332 بالاسكندرية حيث يزار قبره ويعرف باسم العرشي. – ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة x I - 295. الدرر الكامنة ج 183.5. التازي : حول الإمام البوصيري جريدة العلم 26 /9 /1995

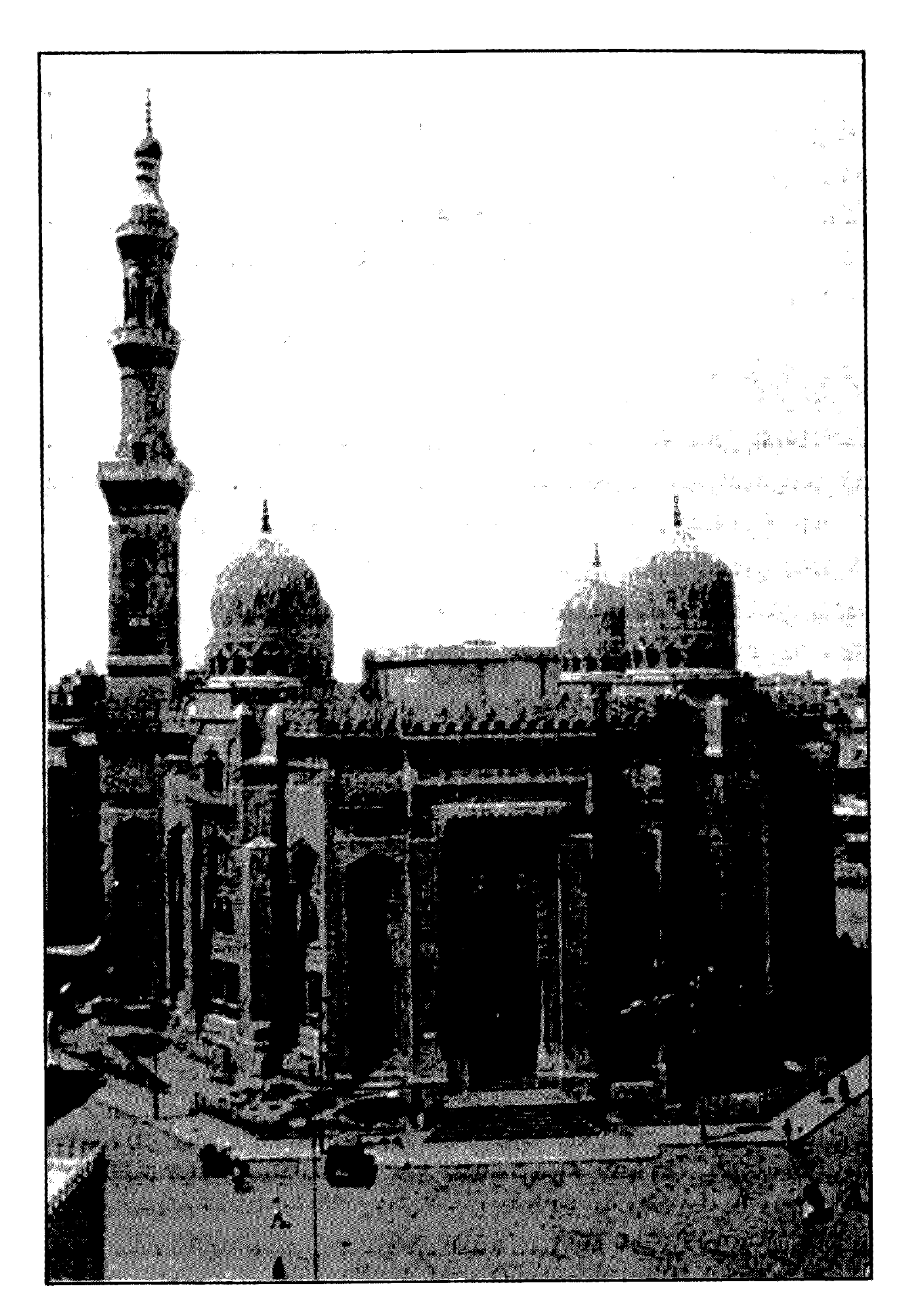
(19) هو أحمد بن عمر المرسي، أبو العباس، شهاب الدين، فقيه متصوف من أهل الاسكندرية ولأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم أصله من مرسية في الأندلس وقد توفي عام 686 = 1287. تاريخ الإسكندرية وحضارتها للدكتور السيد عبد العزيز سالم – دار المعارف 1969.

(20) أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي المغربيّ الأصل، مؤسس الطريقة الشاذلية، ولد في قبيلة شاذلة فنسب إليها، ورحل إلى بلاد المشرق ودخل العراق ثم سكن بالإسكندرية وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج عام 656=1258 ... ينتسب إلى الادارسة بالمغرب، وفي رحلته لبلاد النوبة 1887 يتحدث بورخارت (Burckardt) عن وجود سهل في مصر العليا يحتوي على بعض الآبار الحلوة يحمل ذلك السهل إسم الشيخ الشاذلي، يوجد هناك قبر لأحد الأولياء يقصده الناس للتبرك...

(21) يذكر التُّجيبي أن حميثراء بئر لايقيم ماؤها بالمعدة وينزل مسرعا... وبإزائها قبر أبي الحسن الذي يقصده أهل القوافل للزيارة وقد تميزت معلومات ابن بطوطة بذكرها للقبْرية. وقد كان ابن جبير نقل عن أصحاب المراكب في عيذاب أنهم يشحنون الحجاج في مراكب كأنها أقفاص الدجاج لايبالون بما يصنع البحر بهم قائلين : علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح !!

التجيبي : مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور. الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس 1395-1975 ص 205. وقد وصف التجيبي مراكب هذا البحر بأنها في غاية من ضعف البنية ! وقال : أنه ركبها مضطراً ومتوكلاً على الله !

ابن اياس : بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى – الهيئة، المصرية للكتاب القاهرة 1402=1982، ص20 .



الاسكندرية - جامع أبي العباس المرسي

قبْره وعليه قبْرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا إلى الحسن بن علي رضي الله عنه.

ذكر حزب البحر المنسوب إليه

كان يسافر في كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جُدة (22) فكان إذا ركب السفينة يقرأه كل يوم، وتلامذته إلى الآن يقرأونه في كل يوم (23)، وهو هذا : "يا الله، يا عليّ يا عظيم، يا حليم، يا عليم، أنت ربي وعلمك حسبي، فنعم الرب ربي، ونعم الحسب حسبي تنْصر مَن تشاء وأنت العزيز الرحيم، نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام السَّاترة للقلوب، عن مطالعة الغيوب، فقد إبتُلِي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا، فثبِّتْنا وانصرْنا وسخّر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى عليه السلام وسخّرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداوود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام، وسخرْ لنا كل بحر هو لك في الأرض والسماء، والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة، وسخرْ لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء، كهَيعَص (24) انصرنا فإنك خير الناصرين، وافتح لنا فأنت خير الفاتحين، واغفر لنا فإنك خير الغافرين، وارحمنا فإنك خير الراحمين وارزقنا فإنك خير الرازقين واهدنا ونجّنا من القوم الظالمين، وهب لنا ريحا طيبة كما هي في علمك، وانشرها علينا من خزائن رحمتك، واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية في الدّين والدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير، اللهم يسّر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبًا في سفرنا، وخليفةً في أهلنا وأطْمِس على وجوه

41/1

42/1

---

(22) بَحْر جدة يقصد به البَحْر الأحمر ...

(23) لقي حزب البحر اهتمامًا كبيرًا لدى عدد كبير ممن لهم صلة بالبحر من المسلمين، وقد وجدنا أن الدولة المغربية تُوصي ربابنة السفن بتلاوة هذا الحزب، كما قرأنا أن العثمانيين جعلوا على تلاوته أوقافا خاصة في بغداد ... وقد ترجمه إلى الإنكليزية السير بيرطون Burton في عام 1893 في الفصل 11 من تآليفه : PERSONAL NARRATIVE. هذا وقد وضعتُ على نهج حزب البرّ وحزب البحر، وردًا أطلقت عليه (حزب الجو) نظرًا لكثرة أسفاري جوًا !! نشرتْه بعض المجلات والصحف في المغرب والمشرق.

د. التازي : حزب الجو، دعوة الحق أبريل 1984 – جريدة الشرق الأوسط : 29 غشت 3/1988 أكتوبر 1988.

(24) سورة الأحزاب 11 – فاتحة السورة رقم 19 سورة مريم، وقد كثر الكلام حول معنى كهيعص ...

د. التازي : الرموز السرية، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، ص28-29 رقم الإيداع 332-1983.

43/1 والعافية في ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبًا في سفرنا، وخليفةً في أهلنا وأطْمِس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضيَّ ولا المجي الينا، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيًا ولا يرجعون (25) يس شاهت الوجوه، وعَنَتِ الوُجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما (26)، طسّ (27)، حمَ عسق (28)، مَرَج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان (29)، حَم حَم حَم حَم حَم حَم حَم (30)، حُمَّ الأمر وجاء النصر، فعلينا لا ينصرون، حَم تنزيل

44/1 الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل الثوب شديد العِقاب ذي الطول، لا إله إلّا هو، إليه المصير (31)، بسم الله بابُنا تبارك حيطانُنا، يسّ سقفنا، كَهيعصَ كفايتنا، حَم عسقَ حمايتُنا، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم،(32) سِتْر العرش مسبولٌ علينا، وعين الله ناظرة" إلينا، بحول الله لا يُقدَر علينا، والله من ورائهم محيط، بل هو قرآن مجيد في لوحٍ محفوظ (33)، الله خير حفظًا وهو أرحم الرَّاحمين، إن وليّى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولىَ الصالحين، حسبي الله لا إلاه إلا هو، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم، بسم الله الذي لا

45/1 يضرُّ مع اسمه شيء "في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم. له معقِّبات" من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (34)، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حـكـايـة

ومِمَّا جرى بمدينة الاسكندرية سنة سبع وعشرين – وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها

(25) هاتان أيتان تحملان رقم 67/66 من السورة رقم 36 : سورة يَس.

(26) الآية (وعنَت الوجوه) من السورة رقم 20 : سورة طه، الآية رقم 111. هذا ويوجد في النسخة الباريزية قبل هذه الآية حرفان : عين وميم، ونحن نعلم أنه لا يوجد أثر لهذه الكلمة سِوى في عمّ يتساءلون تعليق 88

(27) طس : بهذين الحرفين تبتدئ السورة رقم 27 : سورة النمل.

(28) حم عسق بهذه الحروف الخمسة تبتدئ السورة رقم 42 : سورة الشورى.

(29) السورة رقم 55 : الرحمان، الآية 19-20.

(30) حرفا حاء ميم يتكرران سبع مرات في سبع سور من القرآن : ابتداء من السورة : 40 سورة غافر وانتهاءً بالسورة : 46 (سورة الاحقاف) ..

(31) السورة رقم (40)، الآيتان 3/2.

(32) السورة رقم (2) الآية 137...

(33) السورة رقم (85) الآية 21/20.

(34) السورة رقم (13) الآية 11

بالكَرَكي (35) فذهب إلى حماية الروم، وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلي باب المدينة، وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم فأنكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا إلى منزل الوالي فتحصّن منهم وقاتلهم من أعلاه، وطيّر الحمام (36) بالخبر إلى الملك الناصر فبعث أميرًا يعرف بالجمالي (37) ثم أتبعه أميرًا يعرف بطوغان، جبار قاسي القلب متهم في دينه، يقال : إنه كان يعبد الشمس، فدخلا ‖ إسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكويك وسواهم وأخذا منهم الأموال الطائلة وجعلت في عنق القاضي عماد الدين الكندي جامعة حديد، ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً وجعلوا كل رَجُل قطعتين وصلّبوهم صفين وذلك في يوم جمعة.

46/1

وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان في جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فمتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة.

---

(35) القصد إلى الأمير ركن الدين الكركي ... وقد تعرض لهذه الحادثة التي جرت سنة 727 = 1327 أكثر من مؤلف من أمثال المقريزي في الخطط والسلوك، والنويري في نهاية الأرَب ... وها نحن نرى ابن بطوطة في صدر من يهتم بهذا الحدث في التاريخ الدوّلي للإسلام ...

وفي هذه الحادثة يقول ابن الوردي :

تبارك الله ذو الجلال لقد * ادهش عقلي في زماننا الفاسد

مُصادرات جرت وسفك دما * وأصلُها ضرب كافرٍ واحدِ !

هذا ولم نتمكن من الوقوف على ترجمة الكركي ولا على ترجمة ابن رواحة ...

د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها صفحة 299.

(36) استعمال الحَمَام الزاجل أو الحمام الرسائلي كما يسميه العُمري في ذلك الوقت كوسيلة للبريد العاجل والآمن أمر معتاد وخاصة أيام الملك الناصر، وقد كثر الحديث والتعليق على هذه الظاهرة الحضارية الرفيعة.

ويذكر القلقشندي أن خلفاء الفاطميين بمصر قد بالغوا في الاهتمام بذلك حتى لأفردوا له ديوانًا وجرائد بأنساب الحمام الأصيل، وقد ظل يستخدم في مصر قرونا طويلة على نحو ما كان يستعمل في الغرب الإسلامي...

(37) مُغلطاي الجمالي ويعرف بخُرز ومعناه الدّيك، كان من مماليك الناصر فترقى إلى أن أمَّره وندبه لعدة مهمات وأرسله أميرًا على الحج عام 718 ثم ولي الوزارة ... ثم أرسله إلى الاسكندرية في الفتنة التي وقعت بها عام 727. ثم تنكر عليه الناصر وصرفه عن الوزارة ... في شوال 729... أدركه أجله بعقبة أيلة عام 730 = 1329 عائدًا من الحج. الدرر ج 5 ص 124.

وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها، فزلَّ لسانه وقال للأميرين أنا أضمن هذه المدينة 47/1 وكلما يحدث فيها أطالَب به، وأحوط على السلطان مرتّبات العساكر والرجال. فأنكر الاميران قوله، وقالا : إنما تريد الثورة على السلطان ! وقتلاه ... وانما كان قصده رحمه الله إظهار النصح والخدمة للسلطان، فكان فيه حتفه.

وكنت سمعت أيام كوني بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي (38) وهو من كبار الأولياء المكاشفين أنه منقطع بمُنيَة ابْن مرشد، له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الأمراء والوزراء وتأْتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام، وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعامًا أو فاكهةً أو حلواء فيأتي لكل 48/1 واحدٍ بما نواه ! وربما كان ذلك في غير إبانه، ويأتيه الفقهاء لطلب الخطط فيولي ويعزل، وذلك كله من أمره مستفيض متواتر، وقد قصدَه الملك الناصر مراتٍ بموضعه، فخرجتُ من مدينة الاسكندرية قاصدًا هذا الشيخ نفعنا الله به. ووصلت قرية تَرَوَجَة (39) وضبطها بفتح التاء المعلوة والراء وواو وجيم مفتوح.

وهي على مسيرة نصف يومٍ من مدينة الإسكندرية، قرية كبيرة بها قاضٍ ووالٍ وناظر، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة، صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من أهلها يسمى بمبارك وينعت بزين الدين، ونزلت بها على رجل من العبَّاد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب، وأضافني ناظرها 49/1 زين الدين ابن الواعظ، وسألني عن بلدي وعن مجْباه فأخبرته أن مجباه نحو اثني عشر ألفًا من دينار الذهب، فعجب، وقال لي : رأيتَ هذه القرية؟ فإن مجباها اثنان وسبعون الف دينار ذهبا. وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال. ثم (40) خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دَمَنْهُور (41) وهي مدينة

(38) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي المجد إبراهيم المرشدي كانت له همة في خدمة الناس وضيافتهم .. كان يتمتع بذكر جد طيب.. يفتي بلفظه لا بكتابه، عظم شأنه في الدولة جدا حتى كان يكتب ورقة إلى كاتب السر والدويدار وغيرهما من أركان الدولة في المهمات فلا يستطيعون ردها ! بات ذات يوم في عافية، فأرسل إلى من حوله يدعوهم لامرهمّ فحضروا الزاوية فأبطأ فطلبوه فوجدوه ميّتًا، رمضان 737 = 1737، الدرر 4 ص 82-83-84.

(39) يتحدث فريسكو بالدي عام 1384 عن مدينة مهدمة تقريبا .. بعد أن كانت مدينة غنية حافلة في العهد الماضي، كانت تسمى أنذاك تيورجيا (Tiourgia) وهي حاليًا توروكًا (Tourouga).

(40) ترجع مداخيل تَرَوَجة وإقليمها بصفة مباشرة إلى الخزينة الخاصة بسلطان مصر، وليست موزعة على شكل إقطاعات توزع على أعيان المملكة، ومن الجدير بالذكر أن تحقيقا سجل عام 777 = 1375 يصدق تمامًا الأرقام التي قدمها لنا ابن بطوطة - الجغرافيا لابن سعيد المغربي ص 148.

(41) يفيد ابن جبير أن مدينة دمنهور كانت محاطة بأسوار في سهل فسيح يمتد حتى الاسكندرية. رحلة ابن جبير : مكتبة الهلال، بيروت 1981 ص 17.

كبيرة جبايتها كثيرة، ومحاسنها أثيرة، أمّ مدن البُحَيرة (42) بأسرها، وقطبها الذي عليه مدار أمرها، وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء، وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين (43) من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الوقعة التي قصصناها، وأخبرني الثقة

50/1 ‖ أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين الف درهم، وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار (44)، على ولاية القضاء بالاسكندرية. ثم رحلنا إلى مدينة فَوًّا (45) وهذه المدينة عجيبة المنظر، حسنة المخبر، بها البساتين الكثيرة، والفوائد الخطيرة الأثيرة، وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو، وبها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم، خبير تلك البلاد، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينهما خليج هنالك، فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلّمت عليه ووجدت عنده الأمير سيف الدين يلْمَلَك (46) وهو من كبار الأمراء الخاصّكية.

51/1 (47) وأول اسمه (يا) آخر الحروف، ولامه الأولى مسكنة والثانية مفتوحة ‖ مثل الميم، والعامة تقول فيه : الملك فيخطئون، ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية، ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلي وعانقني، وأحضر طعاماً فواكلني، وكانت عليه جُبة صوف خضراء وعمامة صوف سوداء، فلما حضرتْ صلاة العصر قدمني للصلاة إمامًا وكذلك لكل من حضرني

---

(42) البُحيرة : الإقليم الذي يكوّن الشمال الغربي لدلتا النيل والذي يقتبس إسمه من بحيرة ماريوط (Le Lac MARRIOTTE).

(43) نُقِل ابن مسكين لقضاء الاسكندرية في محرم 731 أكتوبر 1330 بعد ثلاث سنوات.

(44) الأضبط 1.250، لأن الصرف العادي يقتضي أن يساوي الدينار عشرين درهما ...

(45) تحدث الأستاذ حسن عبد الوهاب عن آثار الوجه البحري وخصّ آثار فوّا بجزء كبير من المقال الذي نشرته مجلة المجمع العلمي المصري في المجلد 38 ج 2-1956-1957 - خالد محمد عزب : (فوّه مدينة المساجد) رقم الإيداع بدار الكتب 9270-1989.

(46) سيف الدّين هذا هو المعروف بآل ملك، كان ممن سباه الظاهر بَيْبَرس عند دخوله إلى بلاد الرُّوم فوهبه للمنصور قلاون فوهبه المنصور لابنه ثم ترقى في الخدمة حتى أُمِّر، ثم كان في أيام الناصر من أهل المشورة، وكان يتردد بين المظفر والناصر وهو في الكَرَك فأعجبه عقله وأرسل إلى المصريين يقول لهم : لا يصل إلي رسول غيره ... ولي نيابة مصر فشدّد على مَن شرب الخمر ! ثم أخرجه الكامل لنيابة دمشق ثم لَحِقَ به من توجه به إلى صفد، ثم أمسك بغزة وجهز إلى الاسكندرية فاعتقل بها وأعدم أواخر عام 746 = 1346. - ابن حجر : الدرر I ص 439-440.

(47) كلمة الخاصّكية مفردها خَاصِكّي، كلمة من أصل عربي مع تصغير فارسي، وهي تعني بطانة السلطان فكان من أفرادها مَن يصل إلى مرتبة الأمراء، على حسب درجاتهم المتنوعة. - د. عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلو المصرية 1967، ص 14.

عنده، حين إقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لي : اِصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القيظ، فقلت للأمير : بسم الله، فقال لي (وما منا اِلا له مقام معلوم) (48) فصعدت السطح فوجدت به حصيرًا ونطعا وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب. فنمت هنالك.

كـرامـة لهـذا الشيـخ

52/1 رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة، ثم يتيا من ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمةٍ خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا، وقلت في نفسي : إن كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكى عنه ! فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إمامًا لها، ثم أتاه الأمير يَلْمَلَك فوادعه وانصرف. وودعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كُعَيْكَات صغارا. ثم صلى سبحة الضحى، ودعاني وكاشفني برؤياي، فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن

53/1 والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخي دِلْشَاد الهندي، ويخلّصك من شدة تقع فيها، ثم زوَّدني كعيكات ودراهم وودعته وانصرفت، ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري إلا خيراً وظهرت علي بركاته، ثم لم ألق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمد الموله، بأرض الهند.

ثم رحلنا إلى المدينة النَّحرارية (49) وهي رحبة الفناء، حديثة البناء، أسواقها حسنة الرواء، وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين، وأميرها كبير القدر يعرف بالسَّعدي وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره، وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي

(48) السورة رقم 37، الآية 164 – النّطع : البساط من الجلد.

(49) النّحرارية كانت مدينة هامة، غنية بأسواقها وفنادقها حسبما يرويه ابن دقماق (تـ 809=1407) الذي يسميها (النحريرية).

من كبار المالكية(50) سَفَر عن الملك الناصر إلى العراق، (51) وولي قضاء البلاد الغربية وله هيئة وصورة حسنة وخطيبها ‖ شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلْت إلى مدينة أَبْيار (52) وهي قديمة البناء، أرجَة الأرجاء، كثيرة المساجد، ذات حسن زائد، وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء، وهي بمقربة من النَّحرارية يفصل بينهما النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تغلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها، ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها.

54/1

ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليحي الشافعي وهو كريم الشمايل كبير القدر، حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان. وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء ‖ المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان (53) بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعمّمين، وهو ذو شارة وهيئة حسنة، فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا : بسم الله. سيدنا فلان الدين ! فيسمعه القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضعٍ يليق به، فإذا تكاملوا هنالك ركب

55/1

(50) صدر الدّين هذا هو سليمان بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق بن عبد الجبار المالكي المُربَقي، ذكره ابن رافع في معجمه ... ولي قضاء الشرقية ثم الغربية من الديار المصرية وسار رسولاً إلى بغداد عن الناصر محمد وقد أدركه أجله في شعبان 734 = أبريل 1334 ابن حجر: الدرر الكامنة II ص 335.

(51) أرسلت هذه السفارة سنة 703-704=1304 من لدن السلطان محمد بن قلاون إلى إيلْخان فارس والعراق السلطان محمد خُذَا بَنْده أُولْجَايْتَو في أعقاب سفارة وردت من الايلخان عند توليه الحكم بعد وفاة أخيه غازان خان ...

حول محمد خذا بنده انظر الدرر الكامنة 3، 468، وحول محمد بن قلاون انظر الدرر الكامنة كذلك وانظر تاريخ إيران بعد الإسلام تأليف عباس إقبال أشتباني بترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع 1989 ص 475. - د. السيد الباز العريني : المغول، دار النهضة العربية، بيروت 1406=1986 ص 331-334. - د. التازي : إيران بن الأمس واليوم 1404=1984، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي ص 64 وما بعدها، دار الثقافة والنشر والتوزيع 1989 ص 475.

(52) يتحدث ابن دقماق عن أبيار ويذكر أسواقها ويشيد بدقّة نسيجها...

(53) من خلال التنصيص على هذا التاريخ يلاحظ الذين يتابعون خطوات الرحالة المغربي من أمثال السير هاميلتون كيب أن ابن بطوطة لم يقم بزيارة أبيار أثناء هذه السفرة بل في سفرة لا حقة، وقد نبهنا في المقدمة إلى أن الرجل ربما حكى عن جهة من الجهات ما تم له في وقت غير الوقت الذي كان يحكي فيه...، هذا وقد تضمنت هذه الفقرات من الرحلة معلومةً طريفة عن نقيب المتعممين ينبغي أن نضيفها إلى ما دُوّن عن الزيّ على ذلك العهد د. عبد المنعم ما جد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم ... مكتبة الأنكلو مصرية 1967 ص 64.

القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والعبيد والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مرتقب الهلال عندهم، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب، وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ‖، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون، هكذا فعلهم كل سنة. 56/1

ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة (54) وهي جليلة المقدار، حسنة الآثار كثير أهلها، جامع بالمحاسن شملها، واسمها بيّن، وبهذه المدينة قاضي القضاة، ووالي الولاة، وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد وهو عز الدين. بن خطيب الاشمونين (55)، فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم ابن بنون المالكي التونسي، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف (56) وأقمنا عنده يوما. وسمعت منه، وقد جرى ذكر الصالحين، أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلادَ البُرُلس (57) ونَستَرَوْ(58)، وهي بلاد الصالحين وبها ‖ قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات، فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور، وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري، والحوت المعروف بالبوري، (59) ومدينتهم تسمى مَلطين (60) وهي على ساحل البحيرة 57/1

---

(54) المحلة الكبيرة هي بالذات المحلة الكبرى، التي كانت منذ تلك الفترة من بين المراكز الهامة للتجارة في النسيج، ومن المهم أن نعرف أن الاقتصاديّ المصري المعروف طلعت حرب اختار هذا المكان ليؤسس عام 1927 أضخم مصنع متكامل للمنتجات القطنية ... زرناه يوم 30-3-1995 رفقة أعضاء مجمع اللغة العربية فاكتشفنا جانباً هاماً من الجوانب الصناعية والحضارية الكبرى لمصر...

(55) هو عبد العزيز بن أحمد بن عثمان الهكّاري ثم المصري الشافعي عماد الدّين أبو العزّ بن تقي الدّين، يعرف بابن خطيب الأشمونين سمع بمكة وبدمشق، من تصانيفه الكلام على حديث المجامع في مجلدين صنف فيه ألف فائدة وفائدة ... أدركه أجله في ثامن رمضان 727 =28 يوليه 1327، الدرر الكامنة 478,2.

(56) تقع مدينة منوف على نحو عشرين كيلومترا شمال طنطا.

(57) تقع البرلُس في وسط الدلتا على ساحل البحر المتوسط، وقد وصفها ابن حوقل (388=998) في المسالك والممالك بأنها مدينة كثيرة الصيد وبها حمامات جميلة.

(58) يتحدث ابن حوقل عن نَستَرَوَه كمدينة حسنة تقع على بحيرة البُشمُور وتحيط بها مياه، كثيرة الصيود من السموك وعليها قَبالة كبيرة للسلطان، وبها قوم مياسير، ويوصل إليها في المعدّيات إذا زاد الماء وإذا نضب وُصل إليها بالجسور، وقد قدم ابن دقماق معلومات عنها لا تخلو من فائدة.

(59) البوري : منسوب إلى بلدة بورا بمصر بين تنّيس ودمياط، وهذا النوع من السمك يكثر في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ... بيضه المُلح هو الذي يعرف في مصر تحت إسم البطارخ (BOTTARGO) الإيطالي.

(60) مَلطين هي بالذات (BALTIM) وتعتبر دائما من أبرز مواقع إقليم البرلّس.

المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تِنّيس (61) ونَسْتروَ بمقربة منها، نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين الفلوي من الصالحين، وكانت تِنّيس (62) بلداً عظيماً شهيراً وهي الآن خراب.

قال ابن جُزَى : تِنّيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل، وإليها ينسب الشاعر المجيد أبو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها.

قمْ فاسقني، والخليج مضطرب
والريح تثني ذوائب القَصَب 58/1
كأنها والرياح تعطفها
صبّ قنا. سندسية العَذَب
والجوُّ في حُلّةٍ ممسَّكة
قد طرزتْها البروق بالذّهَب

ونَسْتَرَوْ، بفتح النون وأسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن، والبرلُّس بباء موحدة وراء وآخره سين مهمل، وقيده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث وتشديد اللام، وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الاولين، وهو على البحر. ومن غريب ما إتّفق به ما حكاه أبو عبد الله الرَّازي عن أبيه أن قاضي البُرُلّس، كان رجلاً صالحًا، خرج ليلةً إلى النيل فاسبغ الوضوء وصلى ما شاء الله أن يصلي فسمع قائلا يقول :

لولا رجالٌ لهم سَرْدٌ يصُومونَا … وآخرون لهم وِرْدٌ يقُومُونا
لزُلزلت أرضُكم من تحتكم سَحَرًا … لأنكم قومُ سوءٍ لا تُبالونا ! 59/1

قال : فتجوزت في صلاتي وأدرت طرفي فما رأيت أحدًا ولا سمعت حسًا فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى.

(61) هذا سهوٌ من ابن بطوطة في حق بحيرة البُرُلُّس فإن بحيرة (تنّيس) أو بحيرة (المنزلة) توجد في شرق الدلتا ولا صلة لها ببحيرة البرلس ! تراجع الخريطة.

(62) تنيس مركز رئيسي للنسيج المصري، وقد تعرض للخراب أثناء الحروب الصليبية وهدم اخيرًا من لدن السُّلطان الأيوبي الكامل عام 624=1227 كإجراء احتياطي خوفًا من أطماع فريديريك الثاني. وقد جرت عادة القادة على أنهم إذا تخوفوا من هجوم على ثغر من ثغورهم فضلوا نسفه على أن يروا خصومهم يستولون عليه !!

رجع، ثم سفَرْتُ في أرضٍ رملةٍ إلى مدينة دمياط (63) وهي مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، آخذة من كل حسن بنصيب، والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال، وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي، وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المومن ابن خلف الدمياطي (64) امام المحدثين يضبطها بإهمال الدال، ويتبع ذلك بأن يقول : خلافاً للرشاطي وغيره، وهو أعرف بضبط اسم بلده.

60/1 ومدينة دمياط على شاطئ النّيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمرهُ إلى مصر في المراكب، وغنمها سائمة هملاً بالليل والنهار، ولهذا يقال في دمياط : سورها حلْوى، وكلابها غنم ! وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبرًا طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به ! والطير البحري بهذه المدينة كثير متناهي السمن. وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم وطيب المذاق، وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وبلاد

61/1 الروم ومصر، وبخارجها جزيرة بين البحر والنيل تسمى البرزخ (65)، بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار قطعوا ليلتهم صلاةً وقراءةً وذكرًا.

ودمياط هذه حديثةُ البناء والمدينة القديمة هي التي خرَّبها الافرنج (66) على عهد الملك

(63) المدينة العتيقة لدمياط استهدفت لهجوم الفرنج بقيادة سان لوي وقد حررها المماليك وأعادوا لها هُويتها الإسلامية كما هو معلوم في أحداث 646 - 1248

(64) عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف الدمياطي أبو محمد وأبو أحمد، وكان يعرف بابن الجامد!، وكان جميل الصورة جدًا حتى كان أهل دمياط إذا بالغوا في وصف العروس قالوا : كأنها ابن الجامد! سمع عن الكثير من العلماء، وجمع معجم شيوخه في أربع مجلدات، وبلغ عدد مشياخه ألف شيخ ومائتي شيخ وخمسين شيخًا (1250)، صنف كتابًا في الصلاة الوسطى وآخر في الخِيَل ... وكتاب العقد المُثمِن فيمن اسمه عبد المؤمن، قال الذهبي : كان مليح الهيأة حسن الخلق. بسامًا فصيحًا لغويًا جيّد العبارة موسَّعًا عليه في الرزق. أدركه أجله يوم 15 ذي القعدة 705 = 29 ما يه 1306. الدرر الكامنة 3، ص 30.

(65) تحدث ابن إياس عن أعجوبة النيل : البرزخ الذي يوجد عند ثغر دمياط، لماذا أعجوبة؟ لان البحر العذب ينصّب في الماء المالح ولا يختلط أحدهما بالآخر بل يشاهد كل منهما متميزًا عن الآخر بمسافة طويلة، كالزيت مع الماء...!

(66) المعلومات التي قدمها ابن بطوطة هي التي تعضدها الوثائق الفرنجية عن الحرب الصليبية التاسعة وهناك من المعلّقين عربًا وعجمًا من يرى أن أمراء مصر هم الذين خرَّبوا دمياط بعد تحريرها خوفًا من عودة الفرنج إليها على نحو ما فعلوا بتِنِيس ... د. التازي : مصر ترفض رسالةً فرنسيةً حول القدس 730-1330 دعوة الحق مارس 1994.

الصالح، وبها زاوية الشيخ جمال الدين السَّاوي (67) قدوة الطائفة المعروفة بالقرَنْدَرية (68) وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم، ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري.

[لحية الشيخ جمال الدين]

حكاية، يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه
62/1 أنه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم، فلما مر بها قالت له ياسيدي : أتحسن القراءة؟ قال نعم، قالت له : هذا الكتاب وجهه اليَّ ولدي وأحب أن تقرأه علي، فقال لها : نعم، فلما فتح الكتاب قالت له : يا سيدي إن لولدي زوجةً وهي باسطوان الدار، فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تُسمعها : فأجابها لذلك، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز
63/1 الباب (69) وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار. وراودته المرأة عن نفسه، فلما رأى أن لا خلاص له، قال لها : إني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء، فأرته إياه فأدخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله ! وأمرت بإخراجه، وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كلّ من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه.

كرامة لهذا الشيخ

يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج
64/1 يومًا إلى جنازة بعض الأعيان فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له : أنت الشيخ المبتدع؟ فقال له : وأنت القاضي الجاهل تمرُّ بدابتك بين القبور وتعلم أن حرمة الانسان ميتا كحرمته حيًا ! فقال له القاضي : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك !! فقال له : إياي تعني ؟ وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة، فعجب القاضي ومن معه ونزل

(67) جمال الدين الساوي نسبة إلى المدينة الإيرانية ساوة (SAVEH)، وقد درس في دمشق من 1210=607 إلى عام 622=1225 واستقر بعد ذلك في دمياط.

(68) القرندرية بالعربية، (قَلَندرية بالفارسية) جماعة من الدراويش التائهين لا تخلو من تطرُّف، هذا ويربط الباحث الفرنسي مونطي الشيخَ التكروري هنا بالحاج يونس ترجمان التكروري الذي سيسأله، فيما بعد، ابن خلدون – في القاهرة – عن امبراطورية مالي ...

(69) القصة تجعلنا نفكر في قصة نبي الله يوسف المذكورة في القرآن، السورة رقم 12، الآية 23.

إليه عن بغلته ثم زعق ثانية فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى، فقبل القاضي يده وتلمذ له وبنى له زاويةً حسنة، وصحبه أيام حياته، ثم مات الشيخ فدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره ! وبخارج

65/1 دمياط ‖ المزار المعروف بشَطا (70) بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة، وهو ظاهر البركة يقصده أهل الديار المصرية، وله أيامٌ في السنة معلومة لذلك، وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية (71) فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده.

وكان بدمياط أيام إقامتي بها والٍ يعرف بالمُحْسني (72) من ذوي الإحسان والفضل، بني مدرسةً على شاطىء النيل بها كان نزولي في تلك الأيام وتأكدت بيني وبينه مودة.

ثم سافرت إلى مدينة فارِسْكُور (73) وهي مدينة على ساحل النيل، والكاف الذي في اسمها مضموم، ونزلتُ بخارجها ولحقني هنالك فارس وجَّهه إلي الأمير المحسني، فقال لي

66/1 إن الأمير سأل عنك وعرف بسيرتك فبعث إليك بهذه النفقة، ودفع اليَّ جملة دراهم جزاه ‖ الله خيرا. ثم سافرت إلى مدينة أَشْمُون الرُّمان (74)، وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الشين المعجم، ونسبت إلى الرّمان، لكثرته بها، ومنها يحمل إلى مصر، وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلج النيل، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها. فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدةً ومنحدرة. وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة (75).

ثم سافرت عنها إلى مدينة سَمَنُّود (76) وهي على شاطىء النيل كثيرة المراكب حسنة

---

(70) شَطَا حسب بعض الرائجات المحلية التي تتفق مع حكاية ابن دقماق تعتبر قطعة من الجنة على وجه الأرض...

(71) هناك ثلاثة أمكنة تحمل هذا الإسم بضواحي دمياط على ما عند ابن دقماق..

(72) يعتبر بَلَبَن المحسني من أعيان المماليك وكان وليًا للقاهرة ثم دمياط، وقد أدركه أجله في رمضان عام 737 أبريل 1337. الدرر الكامنة 2، 28.

(73) تقع فارسكور جنوب دمياط على الساحل الشرقي لوادي النيل وما تزال تعرف بهذا الاسم...

(74) يسميها ابن دقماق أشموم الرمان وتقع على قَناة البحر الصُّغَير الرابطة للجناح الشرقي للنيل ببحيرة المنزلة ... في ذلك الوقت كانت عاصمة لاقليم الدَّقَهْلية التي تعتبر المنصورة قاعدتها ...

(75) والي الولاة المتحدث عنه كان هو الحاكم العام لِمصر السفلى بيد أنَّ مقره كان يوجد في ذلك العصر بمدينة دمنهور ... ونذكر أن القاهرة هي التي كانت تتوفر على قاضٍ للقضاة لكل مذهب من المذاهب السنية علاوة على المحلة الكبرى سالفة الذكر...

(76) تقع سمنود جنوب المنصورة غير بعيد عن المحلة الكبيرة التي زارها قبل ...

الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ، وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل، ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدًا إلى مصر ما بين مدائن وقُرى منتظمةٍ متصل بعضها ببعض، ولا يفتقر ‖ راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مصر ومن مصر إلى مدينة أسوان (77) من الصعيد. 67/1

ثم وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد (78)، ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجادّ وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم، على سعة مكانها وإمكانها (79)، شبابها ‖ يجدّ على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح منزل السعد، قهرت قاهرتها الامم، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم، ولها خصوصية النيل التي جل خطرها، واغناها عن ان يستمد القَطْرَ قُطرُها، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير، كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة. 68/1

قال ابن جزي : وفيها يقول الشاعر :

لَعمرُك ما مصرُ بمصرٍ وإنما ... هي الجنَّة الدُّنيا لمن يَتَبصَّر
فأولادُها الولِدَانُ والحورُ عِينها ... وروْضتُها الفردَوْسُ، والنيلُ كوثر.

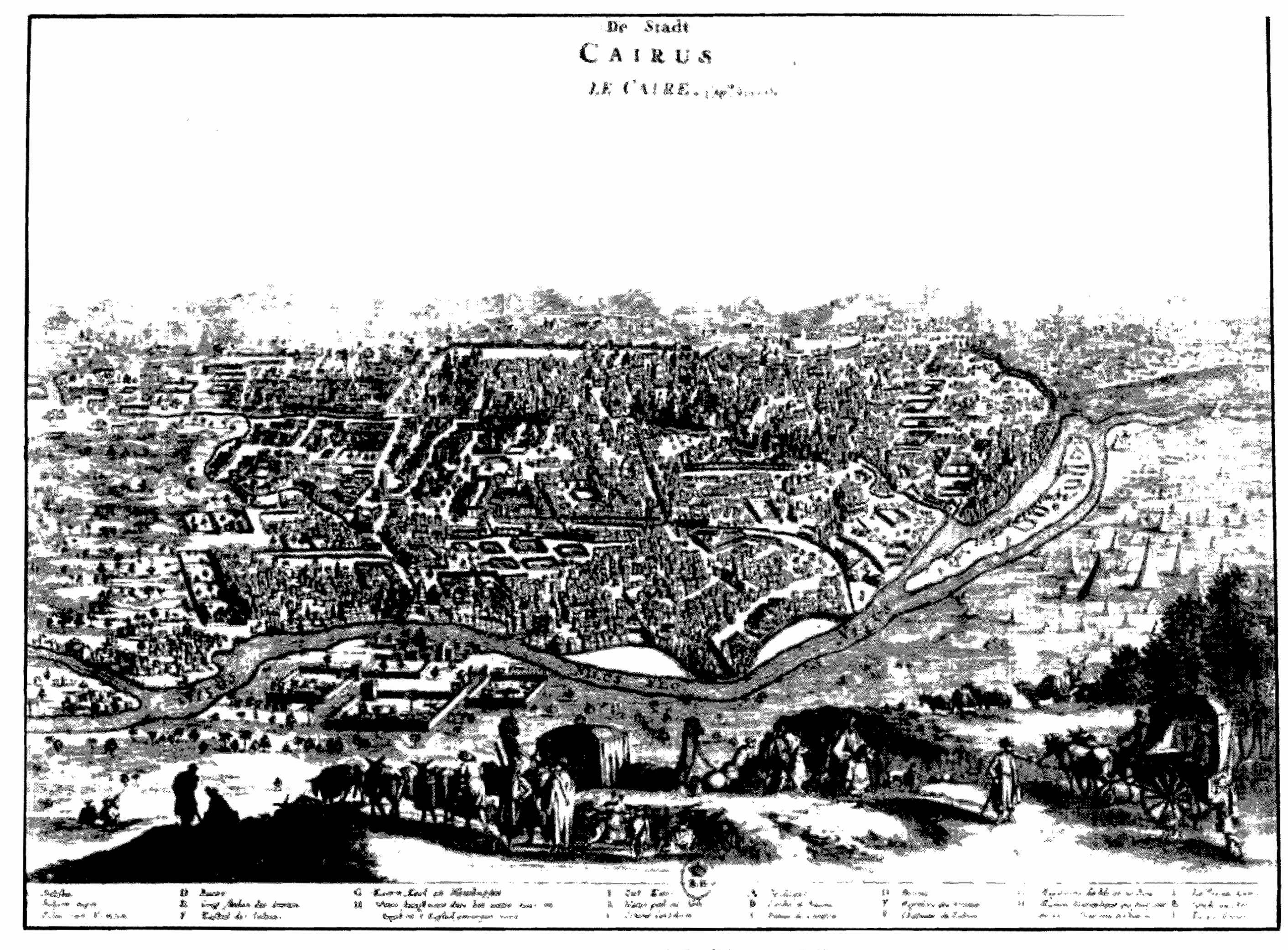
وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئُ مصرٍ جنَّة ... ما مثلُها من بلد
لا سيما مذْ زخرفت ... بنيلها المُطرِدِ
وللرِّياح فوقهُ ... سوابغٌ من زرَدِ
مَسْرُودةٌ ما مسَّهَا ... داوُدها بمِبْرَدِ
سائلة هواؤُها ... يُرعِد عاري الجَسَدِ
والفُلْكُ كالافْلاك بَيْنَ ... حَادرٍ و مُصْعِدِ

(77) ما تزال البلاد على ما كانت، فلك في كل محطة ما تريد وما تشتهي !

(78) فرعون ذو الأوتاد – يُرَاجع تفسير السورة رقم 38– . د. بهاء الدين الوردي : حول رموز القرآن ج 1 دار الرشاد الحديثة – البيضاء 1983 ص 76.

(79) يذكر فريسكُوبالدي (FRESCOBALDI) 1348 : أن أكثر من مائة ألف من الناس ينامون ليلاً خارج القاهرة لعَدم توفرهم على السكن ونذكر اليوم أن عدد سكانها يقدر باثني عشر مليوناً !



مصر القاهرة عن المكتبة الوطنية بباريز رقم C 61657

رجع، ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء وإن بها ثلاثين ألف مُكار (80)، وإن بنيلها من المراكب ستةً وثلاثين ألفا للسلطان والرعية، تمر صاعدةً إلى الصعيد، ومنحدرةً إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيْرات والمرافق، وعلى ضفة النِّيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة.

وأهل مصر ذووطرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده (81) فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير وبقوا على ذلك أيامًا.

ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص (82) مسجدٌ شريف كبير القدر شهير الذكر، تقام فيه الجمعة، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي(83). وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها (84)، وأما 71/1 المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون (85) فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مَجْباه ألف دينار كل يوم.

(80) المُكار : من كاراه مكاراةً وكِراءً الدابةَ : اجره، فهو مُكار بضم الميم وفتح الكاف. هذا وقد عوّضت اليوم آلاف سيارات الأجرة ما كانت الدوّاب تقوم به بالأمس !.

(81) عرف هذا الإحتفال عند بعض المؤرخين في يوم 4 جمادى الثانية 730 = 25 مارس 1330...

(82) كان هذا المسجد هو الأول الذي شيّد في مصر عام 20=641 من قبل الفاتح عمروا بن العاص، ثم أعيد بناؤه عدة مرات، وقد صادف أن كان في حالة خراب عند زيارة ابن بطوطة لمصر، وأمًا البناء الحالي للمسجد فإنه يرجع لِعام 1212 = 1798.

(83) الإمام الشّافعي هو الذي ينسب إليه المذهب الشافعي أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد في غزة، وتوفي بمصر عام 204=720، ومشهده بالقاهرة مقصود....

(84) كان عدد المدارس بمصر على ذلك العهد يتراوح بين الثلاثين والأربعين.

(85) تعتبر القطع المحفوظة للمارستان ولتربة السلطان قلاون 678-689=1279-1290 من أبرز المعالم الأثرية العربية في القاهرة ... وإن إسم طريق "بين القصرين" آتٍ من القصرين الذين بناهما الفاطميون في القرن الرابع والخامس = القرن العاشر والحادي عشر الميلادي. وإسم (بين القصرين) اختاره عام 1956 نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، لإحدى قصصه.

وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق(86)، واحدتها خانقه والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب.

ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحًا فيعين له كلُّ واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناءٍ على حدة لا يشاركه فيه أحد 72/1 وطعامهم مرّتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح (87)، وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبةٍ داخل الزاوية.

ومن عوائدهم أنْ يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به، وإذا صلّوا صلاة الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمّ (88)، ثم يؤتى بنسخٍ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءًا ويختمون القرآن ويذكرون، ثم يقرأ القرآن على 73/1 عادة أهل المشرق (89)، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر. ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الإبريق (90)، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه ويخرج اليه ويسأله من أي البلاد أتى؟ وأي الزوايا نزل في طريقه؟ ومَن شيخه؟ فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادةً في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة، فيجدّد الوضوء، ويأتي إلى سجادته فيحل وسطه، ويصلي ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر، ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجدهم 74/1 فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هناك ويخرجون مجتمعين ومعهم

(86) كانت الخانقاه بالفارسية (KHANEQAH) بمثابة الزاوية والرباط، والمكان [لإيواء الحجاج والمنقطعين للعبادة.

(87) تأتي مداخيل المؤسسات من الأموال المخصصة لذلك من لدن المؤسس الذي يكون غالبًا من أحد المماليك الموموقين.

(88) في البيضاوي : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من قرأ سورة عمَّ سقاه الله برد الشراب يوم القيامة." تعليق 26

(89) أهل المشرق أو المشارقة عند ابن بطوطة الذين يسكنون شرقي النيل، وأما عن طريقة تلاوتهم فإنها تتميّز بِميلها إلى أداءٍ موسيقيّ مؤثر على نحو ما نسمعه اليوم حتى بالنسبة للذين يرفعون الآذان للصلاة.

(90) كانت هذه علاماتٍ ورموزٌ للفقير الشارد ...

شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كلّ واحد على سجادته فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم.

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولمصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها، وقد جاء في فضلها أثر خرجه القرطبي (91) وغيره لانها من جملة الجبل المقطم (92) الذي وعد الله أن يكون روضةً من رياض الجنة، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهارًا بالأصوات الحِسان، ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على المزارات الشهيرةَ، ويخرجون أيضا إلى المبيت بها ليلة النصف من شعبان (93)، ويخرج أهل الأسواق بصنوف المآكل. 75/1

ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي (94) عليهما السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء (95) على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك، وهو موفي الحق من الإجلال والتعظيم، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن

(91) القصد إلى الفقيه المالكي أبي العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الأنصاري القرطبي، من رجال الحديث، كان مدرسًا بالاسكندرية وبها توفي عام 656=1258، من كتبه "المُفهم في شرح مسلم" و (مختصر الصحيحين)...

(92) يقع تلُّ المقطَّم الذي قد يسمونه جبلا، في الجنوب الشرقي للقاهرة وفي شمال القرافة، وإن ما رواه ابن بطوطة هنا مقتبس من مصادر أخرى سابقة...

(93) ليلة النصف من شعبان لها منزلة خاصة في المجتمع الإسلامي بسبب ما وَرَدَ فيها وعنها من آثار نبوية، وينعتها العامة في المغرب بليلة "تَزْمِيمْ العُمر" وربما عرف يوم 15 شعبان بيوم النسخة حيث يتم فيه موسم مولاي عبد السلام بن مشيش شمال المغرب.

(94) نحن نعرف أن الحسين السبط استشهد في كربلاء يوم عاشر محرم 61 = 10 أكتوبر680 أثناء اصطدام مع جيش يزيد بن معاوية ... وقد أُرسل رأسه ونساؤه وأطفاله إلى دمشق عاصمة الأمويين ... وفي أثناء محاصرة عسقلان من لدن الصليبيين عام 547=1153 قام الفاطميون – وهم منحدرون من الحسين – بنقل رأس الحسين إلى القاهرة وبنو عليه مزارةً رفيعة...

(95) يتعلق الأمر بمدرسة شيدها السلطان صلاح الدين، ووصفت كذلك من قبل الرحالة المغربي ابن جبير عام 578=1183.

الحسين بن علي عليهم السلام (96)، وكانت مجابة الدعوة، مجتهدة في العبادة، وهذه التربة أنيقة البناء، مشرقة الضياء، عليها رباط مقصود ‖ ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان، العجيبة البنيان، المتناهية الأحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا. (97)

76/1

وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر (98)، وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلق رضي الله عنهم، مثل عبد الرحمن بن القاسم، (99) وأشهب بن عبد العزيز (100)، وأصبغ بن الفرج (101) وابن عبد الحكم (102) وأبي القاسم

(96) بعض النسخ المخطوطة سواء منها التي توجد داخل المغرب أو خارجه لا تذكر قبر السيدة نفيسة، ونحن نعلم أن السيدة نفيسة هي صاحب المشهد المعروف بمصر... وكانت عالمةً بالتَّفسير والحديث، وُلِدت بمكة ونشأت بالمدينة وتزوجت إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق، وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت بها سنة 208=824 سَمِع عليها الإمام الشافعي، ولما مات أدخلت جنازته إلى دارها وصلّت عليه ... كان العلماء يزورونها ويأخذون عليها، وقد بنى الفاطميون قبرها الذي يوجد على حدود المدينة في بداية القرافة ... وتتابعت العناية به وأمسى مقصدًا للناس ...

(97) مقبرة الامام الشافعي أعظم مشهد بمصر، ويرجع تاريخها، في شكلها الحالي إلى سنة 607=1210 وتعتبر من أكبر المزارات ... حتى لَقيل مَن لم يزر مشهد الشافعي بمصر لا يعد من زوارها.! تعليق 83

(98) تمتد تربة القرافة ومقبرتها إلى جنوب القاهرة الحالية، ولها شكل المدينة بسبب ما بني فوق المقابر وحولها من بيوت وخلوات، وقد تحدث ابن جبير عن مشاهدها : معاذ ابن جبل وعقبة بن عامر وساريّة الجبل وأسماء ابنة أبي بكر وعبد الله بن حذافة ... ومع الأسف فإن معظم، إن لم نقل كلّ، هذه المشاهد تعتبر في حكم المجهول لا يُميز بينها باستثناء بعض المنحدرين من ابن عبد الحكم، وقد خصصها الأستاذ لوي ماسينيون في مرتين اثنتين بحديثين رائعين

Bulletin de l'IFAO du Caire, LVII - 1975 p.25-79. PAROLE Donnée, PARIS 1962 p. 375-388.

(99) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتيقي المصري أبو عبد الله تفقّه بالامام مالك ولد وتوفي بمصر عام 191-806، صاحب "المدونة"، رواها عن مالك.

(100) الإمام أشهب هو الذي خلف ابن القاسم، سابق الذكر، في إمامته للمذهب المالكي، توفي عام 205=820. هذا وإن قبري الرجلين : ابن القاسم وأشهب اللّذين كان أحدهما قبالة الآخر، اختفى أثرهما الآن.

(101) أصبغ بن الفرج، فقيه من كبار المالكية بمصر، قال ابن الماجشون : ما أخرجت مصر مثل أصبغ، له تصانيف. ترجمه ابن خلكان في وفيات الأعيان، أدركه أجله بمصر عام 225=840. هذا وقد ذكرت هذه القبور من لدن ابن جبير ...

(102) القصد إلى عبد الله بن عبد الحَكَم بن أعين بن ليث بن رافع أبو محمد كان من أجلة أصحاب مالك انتهت إليه الرياسة بمصر بعد أشهب، ولد في الاسكندرية وتوفي بالقاهرة سنة 214 = 829. هذا ويوجد في بعض النسخ ابني عبد الحكم .

بن شعبان (103)، وأبي محمد عبد الوهاب (104) لكن ليس لهم بها إشتهار، ولا يعرفهم الا من له بهم عناية، والشافعي رحمه الله ساعده الجد في نفسه واتباعه وأصحابه في حياته ومماته فظهر ﷺ من أمره مصداق قوله رحمة الله عليه : 77/1

الجِدُّ يُدني كلَّ أمرٍ شاسع والجَدُّ يفتح كلَّ بَابٍ مغلق !

ذكر نيل مصر

ونيل مصر (105) يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه ما يزدرع على النيل، وليس في الأرض نهر يسمى بحرًا غيره قال الله تعالى : فإذا خفت عليه فألقيه في اليم (106) فسماه يمًا وهو البحر.

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى (107) فإذا في أصلها أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان ! فسأل 78/1

(103) لم نقف على ترجمة ابن شعبان الذي ذكر في بعض النسخ على أنه أبو اسحاق ابن شعبان.

(104) القصد إلى القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي، أبو محمد من فقهاء المالكية، ولد ببغداد ثم توجه إلى مصر فعلت شهرته وتوفي بها عام 422=1031، له عدة تآليف وهو صاحب البيتين المشهورين :

بغداد دارٌ لاهل المال طيّبةٌ وللمفاليس دار الضنك والضيق

ظللت حيران أمشي في أزقّتها كأنني مصحف في بيت زنديق !

هذا ومن المعلوم أن تربة القرافة تضمّ عددًا كبيراً من علماء المذاهب الفقهية الأخرى إلا أن انتساب ابن بطوطة للمذهب المالكي جعله يهتمّ بأعلام هذا المذهب أكثر من غيرهم !.. وستحتضن مقبرة القرافة بعد زيارة ابن بطوطة رفات الشيخ خليل بن اسحاق (ت 767=1365) صاحب (المختصر) الذي يعتمده المالكية كمصدر للفقه المالكي. ذ. التازي : الشيخ خليل.. بحث ألقى في الندوة الثانية للعلاقات المغربية المصرية - جمعية أبي رقراق 1993.

(105) إنما ميزه بنيل مصر للتفريق بينه وبين نيل بلاد السودان الغربي الذي هو في الواقع نهر النيجر ويناقش (كيب) الناشرين الأولين حول ترجمتهما لعبارة : (اتساع قطر) التي قد تعتبر مصطلحا تقنيا .. ويتساءل هل ما إذا كان ابن بطوطة يقصد إلى هذا المعنى الاصطلاحي ؟

(106) سورة القصص رقم 28 الآية 7 : (وأوحينا إلى أم موسى ان ارضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ...) ونذكر هنا أن أم سيدنا موسى كانت تحمل إسم يوخيبيد (YO-KHEBED)، وفي الأدعية الشعبية التي كنا نسمعها : الله يعطيك سعد أمّ سيدنا موسى أرضعت ولدها وأخذت عليه الأجرة !!

(107) السورة 53، الآية 14 حول (الاسراء) تراجع الموسوعة الإسلامية ..

عنها جبريل عليه السلام، فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنّيل والفرات.

وفي الحديث أيضا أن النّيل والفرات وسيحان وجيجان (108) كل من أنهار الجنة. ومجرى النّيل من الجنوب إلى الشمال خلافًا لجميع الأنهار. ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها، ونهر السند مثله في ذلك، وسيأتي ذكره.

وأول إبتداء زيادته في حزيران، وهو يونيه (109) فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعًا تم خراج السلطان، فإن زاد ذراعا كان الخصب في العام، والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعًا أضر ‖ بالضياع وأعقب الوباء، وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد. 79/1

والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار : وهي النيل والفرات ودجلة وسيحون وجيجون، وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى بنج آب (110)، ونهر الهند، ويسمى الكنك، واليه تحج الهنود وإذا حرّقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه، ويقولون هو من الجنة، ونهر الجون بالهند أيضا، ونهر إتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السّرا، ونهر السرو (111) وبأرض الخطا، وعلى ضفته مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا، ثم إلى ‖ مدينة الزيتون بأرض الصين (112) وسيذكر ذلك كله في مواضعه ان شاء الله. 80/1

---

(108) سيحان وجيحان : نهران يوجدان في آسيا الصغرى : ساروس (Sarrus) و بيراموس (Pyramus)، وقد التبس فيما يبدو، على ابن بطوطة (الذي لم يكن الأول الذي تعرض لهذا الإلتباس) ، التبس عليه سيحون (Jaxartes SYR DARYA) وجيحون (OXUS AMUS DARYA) الموجودين في آسيا الوسطى، واللذين، حسب ما يروى في الاثر، هما اثنان من أنهار أربعة تتوفر عليها الجنة. والباقيان : النيل والفرات GIBB. T.2P.49 Note 152-P

(109) كان هذا إلى غاية سنة 1966 = 1386 هـ تاريخ تشغيل السد العالي في أسوان.

(110) بنج أب : معناه الأنهار الخمسة وسيأتي الحديث عنها مفصلا...

(111) يقطد بالكنك نهر (Le Gange) كما يقصد بنهر الجون نهر (La Jumuna) ويقصد بنهر إتل (ETEL) نهر (La VOLGA)، أما بالنسبة لصحراء قفجق ومدينة السرا العاصمة، ونهر سرو فسياتي الحديث عنها في السفر الثاني.

(112) يعقب الناشران .D.S على هذه الفقرة بأنها تحتوي على هفوات ظاهرة وسياتي الحديث عن الموضوع في السفر الثاني...

والنيل يفترق بعد مسافةٍ من مصر على ثلاثة أقسام (113) ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وصيفًا، وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا مدّ أترعها ففاضت على المزارع.

ذكر الأهرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور، وللناس فيها كلام كثير وخوض في شأنها، وأولية بنائها ويزعمون أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، ويسمى خنوخ و هو إدريس عليه السلام (114) وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية والجواهر العلوية وأول من بنى الهياكل ومجّد الله تعالى فيها وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابي (115) وصور فيها جميع الصنائع والالات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة. ويقال إن دار العلم والملك بمصر مدينة (منوف) وهي على بريدٍ من الفسطاط (116) فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس

81/1

(113) معظم الجغرافيين العرب يتحدثون عن "سبعة فروع للنيل" وبعضهم يتحدث عن فرعين فقط ويتفق تقدير ابن بطوطة مع معاصره أبي الفداء

OMAR TOUSSOUN : MEMOIRE SUR LES ANCIENNES BRANCHES DU NILE, EPOQUE ARABE (CAIRO 1923)

(114) ينبغي أن نرجع في الحديث عن هذه الأسماء الثلاثة : هرمس وخنوخ وإدريس أولاً إلى القِفْطي المتوفى سنة 646 هـ ف كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء وهو يتضمن في بدايته حديثاً عن نبي الله إدريس عليه السلام المسمى هرمس وخنوخ ... وانه هو الذي جمع طلبة العلم وعلمهم العلوم ... وكان مسكنه صعيد مصر فبنى هياكل الأهرام ومدائن البرابي، ولما خاف ذهاب العلم بالطوفان بني البرابي وصوّر فيها العلوم برسوم لمن بعده ... ثم ثانيا إلى الموسوعة الإسلامية (مادة هرم ج أهرام) حيث نقف هُنا على ملخص لما كتبه المقريزي ونسمع عن محاولة الخليفة المامون لفتح الهرم الاكبر كما سيقوله ابن بطوطة ونعرف عن الأساطير التي يرويها القبط عن الأهرام...

(115) إسم يعطى من لدن المصريين للمعابد الفرعونية، والكلمة : من أصل قبطي جمع بِربة، ويقال في الإصطلاح المصري الصعيدي للمرأة التي لا تخلّف : (شُقّي بربّة !) يعني زوري معبداً واخترقيه من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق للغرب.. وقد سعدت بزيارةٍ دراسيةٍ لكل هذه الأماكن في يناير 1983 رفقة صاحب السمو الملكي الأميرة لالة مريم كريمة الملك الحسن الثاني ...

(116) منوف (MEMPHUS) أما (الفُسطاط) فهي المدينة العربية الأولى، وقد أحرقها القادة السياسيون عام 564=1169 خوفًا من أن يستولي عليه الفرنج... وتلك عادة جارية : وكلمة البريد من أصل لاتيني (VEREDUS) تَعني أربعة فراسخ والأربعة فراسخ تكون نحوًا من واحد وعشرين كيلوميترًا ... ابن جبير قدم لنا وصفًا لهذه الأهرامات من غير أن ينسى الصورة الغريبة من الحجر التي كانت تعرف، كما يقول ابن جبير، بأبي الأهوال (SPHINIX) بدائع الزهور لابن اياس، الهيأة العامة للكتاب 1982 ص 232.

اليها وصارت دار العلم والملك إلى أن أتى الإسلام فاختط عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد.

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل المخروط، ولا أبواب لها ولا تُعلم كيفية بنائها.

82/1 ومما يذكر في شأنها أن ملكا من ‖ ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح منها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه، ومبلغ الانفاق في فتحه، فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه، واشتد في البناء فأتمه في ستين سنة، وكتب عليها : بنينا هذه الأهرام في ستين سنة فلْيهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة، فإن الهدم أيسر من البناء

83/1 (117). فلما أفضت الخلافة إلى أمير المومنين‖ المامون (118) أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل، فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار، ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها إلى اليوم ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المومنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدهما سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا.

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولي اليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي (119)، وكان قلاوون يعرف بالألفي، لأن الملك الصالح

84/1 إشتراه بألف دينار ذهباً، وأصله من قفجق، وللملك الناصر رحمه ‖ الله السيرة الكريمة

(117) لاحظ السيرهاميلتون كثيب أن ابن بطوطة ربّما لم يزر الأهرامات ! فهو يتحدث عنها وكأنّها بناية واحدة، ولم يذكر أبا الهول، وهكذا فإنه لم يكن دقيقا كسلفه ابن جبير...

(118) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء العباسيين نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند وتمّم ما بدأ به جدّه المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل، جلس على كرسي الخلافة من 198 هـ إلى 218 هـ = 813م – 833 م كان الخليفة العباسي الوحيد الذي زار مصر أثناء خلافته.

(119) تولّى الملك ثلاثة مرات من عام 692=1293 إلى 742=1341 كان والده سلطانا من 678 إلى 689 = 1279 - 1290 كان في الأصل مملوكًا كسائر المماليك للسلطان الصالح وهو السلطان ما قبل الأخير لبني أيوب الذي تملك من 638 إلى 647 = 1240 - 1249.



والفضائل العظيمة، وكفاه شرفًا إنتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي. وبنى زاوية عظيمة بسرياقص (120) خارج القاهرة. لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المومنين، وناصر الدين، وكهف الفقراء والمساكن، خليفة الله في أرضه، القائم من الجهاد بنفله وفرضه، أبو عنان، أيد الله أمره وأظهره، وسنى له الفتح المبين ويسَّره، بخارج حضرته العليةِ المدينة البيضاء (121) حرسها الله لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله، وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمارستانات والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه. 85/1

(120) سِرْيَاقُص (SIRYAQUS) على بعد ثمانية عشر كيلوميترًا شمال القاهرة، كانت في تلك الظروف إقامةً مفضلة بضواحي القاهرة للسلاطين والأمراء ...

(121) القصد بالزاوية إلى المؤسسة الحضارية الكبرى التي شيدها السُّلطان أبو عنان عام 754=1353 بضاحية المدينة البيضاء، فاس الجديدة على الضفة الشمالية لوادي الجواهر شيدها برسم استقبال الواردين لإيوائهم والقيام بشؤونهم وربما عرفت بدار الضّيفان، ولئن آلت اليوم إلى اندثار، مما أدّى إلى جهلها من قبل الذّي اشتغلوا بابن بطوطة، فإن ابن الحاج النميري في كتابه (فيض العباب) يصفها باسهاب، وبدورنا نفضل أن نعيد هذه الصورة الجميلة إلى الأذهان اليوم إشادةً وتنويها بها، لقد كانت شامخة البناء منفسحة الساحة مبيضة المظهر يقوم في قبليّها جامع زيّن سقفه ببدائع الزخارف، وتقابله في الشمال – قبة سامقة ازدوج فيها الحسن الباطن مع الجمال الظاهر من عمل المنهدس محمد بن جدار

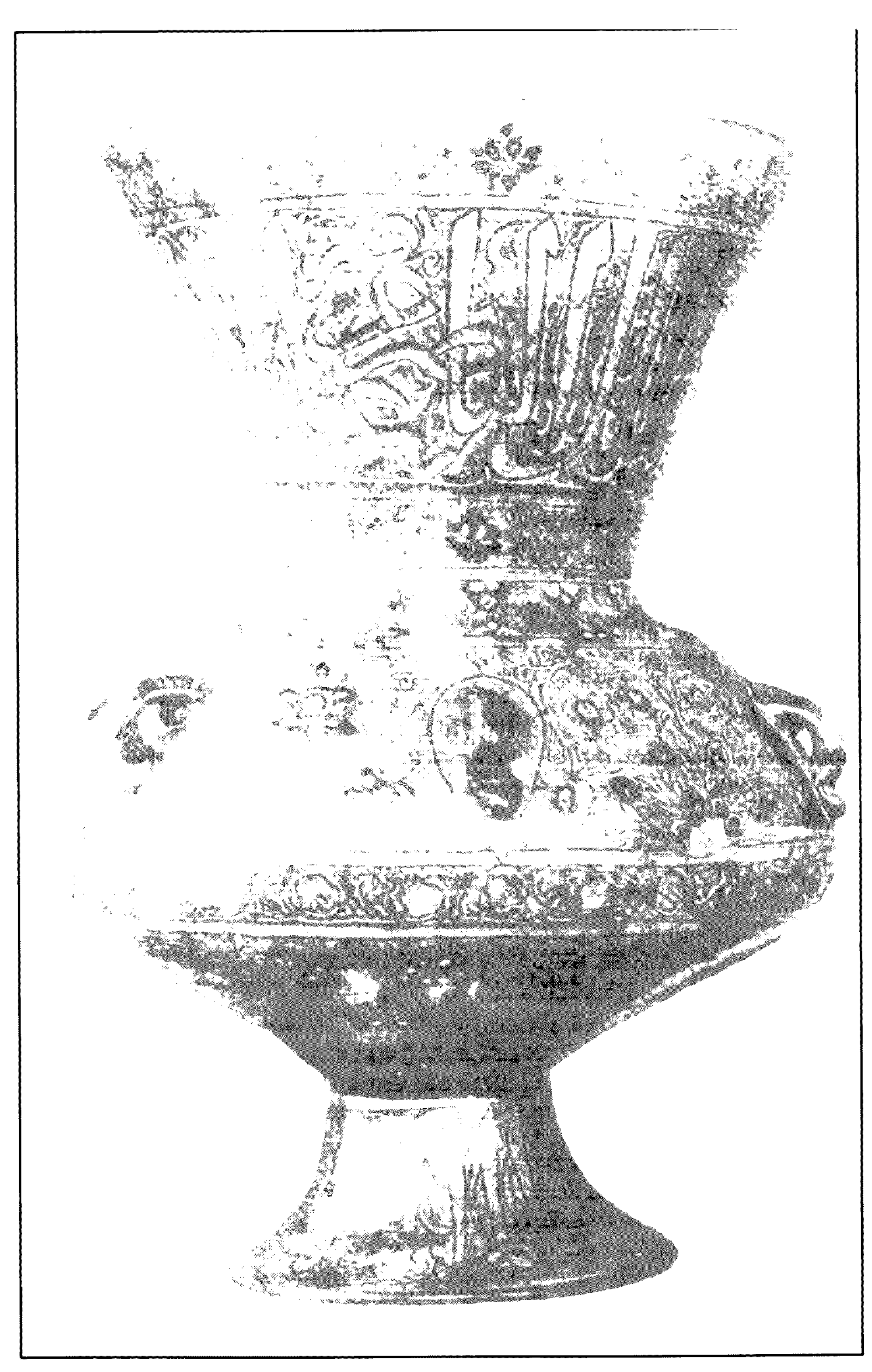
وتدور بالزاوية – من جهاتها الأربعة – مساحات بديعة الإختراع متقابلة الأشكال والأوضاع، قامت أساطينها كأنها عرائس تجلى، كما يقول ابن الحاج الذي زارها عام 758 هـ.

وقد امتد من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر، ليقذفا من أفواههما الماء النازل للصهريج.

وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء متناسبة الأجزاء، مكتملة المنافع، إلا الباب الواقع في الشمال الغربي فإنه يشرع إلى دار وضوء مستوفية المرافق، والديار الثلاث : إحداها لامام الصلاة، والأخرى للقائم بالآذان والثالثة للناظر في الأوقاف الذي كان محمد بن عبد الله بن أبي مَدْين.

وتتصل الزاوية دار معدة لاستقبال الواردين، مفتحة أبوابها لنزول القاصدين تقابلها دار أخرى برسم الطبخ وعلاوة على السّانية التي قامت بإزائها لتزويدها بالماء نُصب على وادي الجواهر دولاب يضاعف كميات الماء حيث يتفرغ في قناة واصلة إلى الزاوية إلخ.

وقد استمرت الزاوية المتوكلية قائمة حتى صدر المائة الهجرية الحادية عشرة حيث سجل المقَّري الكتابة المرقومة عليها في نتفةٍ شعريةٍ من نظم الكاتب أبي عبد الله ابن جزي ... وأعتقد أن زلزال نونبر 1755 محرم 1669 هو الذي كان وراء اختفاء هذا الصرح الحضاري المنقطع النظير. وقد أخطأ البروفيسور كيب عندما توهّم كسابقيه أن القصد بالزاوية إلى مدرسة أبي عنان فهذه شيء آخر... وقد تبعه على خطأه كل مَن اقتفى أثره : من مونطي وإصطيفان ... فيض العباب ، دراسة د. محمد بن شقرون، طبع دار الغرب الإسلامي – بيروت 1990 ص 206-218 النفح 532,5 الاستقصا للناصري، طبعة البيضاء 1954 ، ج 3 ص 206 أزهار الرياض ج 3 ص 196-197 طبعة المغرب 1978. تعليق 126 ج IV.



قنديل يحمل اسم الملك الناصر عن المتحف العربي بالقاهرة

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقي الملك الناصر وهو الأمير بُكْتمور (122)، وضبط إسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء، وهو الذي قَتَله الملك الناصر بالسّم، وسيذكر ذلك. ومنهم نائب الملك الناصر أَرْغُون الدَّوَادَار (123)، وهو الذي يلي بُكْتُمور في المنزلة وضبط إسمه بفتح الهمزة وإسكان الراء وضم الغين المعجمة.

ومنهم طُشْط (124) المعروف بحمّص أخضر، واسمه بطاءين مهملين مضمومين بينهما شين معجم، وكان من خيار الأمراء، وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلّمهم القرآن، وله الإحسان العظيم للحرافيش (125) وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وُجُوه ودعارة، وسجنه الملك الناصر مرةً فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس، يعنون الملك الناصر، أخْرِجْهُ، فأَخْرجه من محبسه وسجنه مرةً أخرى ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه.

86/1

ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجَمَالي (126) بفتح الجيم، ومنهم بدر الدين بن

---

(122) كان بكتمر (يضبط عند آخرين بفتح الباء والتاء) من مماليك المظفر بيْبرس، فلما استقر الناصر في السلطنة دخل في مماليكه وتنقل إلى أن صار خصيصاً بالناصر وعظم قدره جداً، وكان الناصر لا يفارقه ليلاً ولا نهارًا ... كان ظريف الشكل حلو الكلام أشقر أسود اللحية ... وتمكن إلى أن صار هو العبارة عن الدولة وكان يقضي حوائج الناس ويتلطف بهم ... كثرت أمواله جداً ... حج مع السُّلطان في تجمّل هائل ... وتنكر النّاصر له في الطريق ... فكان ما كان مما يفسر صراخ زوجة الناصر وأم ولده أحمد وقد قتل مع بَكتمر – صراخها في وجه الناصر قائلة : "تقتل مملوكك فابني إيش عمل ؟! توفي أوائل 736=1335 –. ابن حجر : الدرر الكامنة 2، 19 - 20 - 21.

(123) أرْغون عهد إليه بهذه المهمة : الدَّوَادَار (رئيس الكتاب) ثم أصبح نائبًا لِملك مصر في عام = 1312 712 ثم نقله إلى ولاية حَلَب بعد عام 726 = 1326 حيث أدركه أجله في ربيع الأول 731 = 1330 - 1331 الدرر الكامنة 1 ص 374.

(124) هو الأمير طَشْتَمُر البدري المعروف "بِحُمُّصْ أخضر" لانه كان يحب أكله فلقّب به ! اشتُرى كعبد من لدن الملك الناصر ثم لم يلبث أن سُمي حاكمًا لصفد وحلب وقد آل أمره إلى السجن في الكرك ثم فر أوائل محرم 743 = يونيه 1342 إلى بلاد الروم وتنقلت به الأحوال إلى أن مات أثناء سنة 743 المذكور.

(125) الحرافيش : يقصد إلى طائفةٍ من الناس تجتمع إلى زعيم يعدل بينهم فيما يحصلون عليه من أموال، ويهتمون بالفقراء ويهتمُّ الأقوياء منهم بالضعفاء ورد ذكرهم لدى المؤرخين المصريين وفي ألف ليلة وليلة، وقد وجدنا ذكرًا للكهم عام 792 = 1390 ... وقد كتب عنهم نجيب محفوظ.
Gibb T.I. p. 54 Note 169.

(126) هو بالذات الوزير مغلطاي الجمالي سالف الذكر عند الحديث في الاسكندرية وقد توفي عام = 1329 730.

البابه (127) ومنهم جمال الدين نائب الكرك (128)، ومنهم تُقُزْ دُمُور، (129) واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاى مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء، ودمور بالتركية الحديد. ومنهم بَهادُور الحجازي (130) واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء، ومنهم قَوْصُون (131) واسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم ومنهم بشتك (132)

(127) القصد إلى جَنْكِلِي بن محمد بن البابا بن جنكلي بن خليل بن عبد الله العجلي بدر الدين كان مقامه بالقرب من آمد تحت حكم المغل : كان يحب العلماء ويطارحهم وكان يميل لابن تيمية ويتعصب له، توفي 16 ذي الحجة 746 = 9 أبريل 1346. – ابن حجر : الدرر الكامنة 2 ص 76 - 77.

(128) أقُش الاشرفي جمال الدين البرناق المعروف بنائب الكرك، كان من مماليك المنصور وولي عن الأشرف نيابة الكرك نحو العشرين سنة ثم ولي نيابة دمشق عام 711 ... كان متقشفًا لا يلبس المصقول ! وولاه السلطان نظر المارستان فباشره بمهارة عظيمة وعمَّره، وقاتل الفرنج وغلب على مركبين فأسر من فيهما ... فتوصل الفرنجي إلى أن أعلم السلطان بأنه تاجر، وأن أقش طمع في ماله فظنَّ السلطان صدقه فأنكر على أقش وألزمه بإعادة المركب للفرنجي ... فشق عليه ذلك ولم يلبث أن طلب الإعفاء ... ثم اعتقل ... كان كثير الذكاء فيما يكتبه على القصاصات، كتب مرة على قصاصة أحد يطلب الإجتماع به : الإجتماع مقدَّر ! وعلى قصاصة مُتوسل إليه أنْ يعفو عنه في أعقاب ارتكاب فاحشة: أحصنَّاك فإن عدتَ أخصيناك ! توفي بالاسكندرية سنة تسع وثلاثين وسبعمائة 1335. الدرر الكامنة ج I ج 423-424.

(129) طُقُزْتَمُرْ (Tuquzdamur) هكذا يرسمه ابن حجر ويشكله، كان من مماليك المؤيد صاحب حماة ثم قدمه للناصر، ولم يزل معظما في دولة الناصر إلى أن مات، وولي نيابة السلطنة بمصر في دولة المنصور ثم ولي نيابة حماة ... ونقل إلى نيابة حلب ثم إلى نيابة دمشق في رجب 743 فاستمر بها إلى سلطنة الكامل شعبان فأحضره إلى مصر وهو مريض فقدِمها ... ومات بها في جمادى الأخيرة عام 746 = أكتوبر 1345.

(130) يظهر أن القصد إلى بهادُور التَّمُرْتاشي ... الذي قَرَّبه النَّاصر وأمَّره على مائة (قائد المائة) واختص به حتى كان يبيت عنده رابع أربعة، وهم قوْصُون وبَشْتاك وصغاى تمُر وبهادر ... توفي في شوال 743 = مارس 1343. الدرر ج 2 ص 31 - 32.

(131) قَوْصون الساقي الناصري كان حضر مع الجماعة الذين أحضروا ابنة القان أُوزبك زوج الناصر، فرآه السلطان فألزم كبير الجماعة ببيعه منه فاشتراه بثمانية آلاف درهم فسلمها التاجر المذكور لأخيه صَوْصُون، ثم عظمت منزلته عند الناصر ... وزوَّجه بنته عام 727 واحتفل بعرسه حتى كانت قيمة الهدايا التي حملت إليه من الأمراء خمسين ألف دينار ... وقد كان من جملة مَن تناولهم كتاب الصفدي : (الأس فيمن وصل عن طريق الكُس) ! إليه ينسب الجامع الكبير بالقاهرة ... ولما مات الناصر تعصَّب للمنصور أبى بكر حتى سلطنه وقام هو بتدبير المملكة ... ولكن الدائرة دارت عليه وتمَّ قتله بسجن الاسكندرية أواخر شوال 742 = أبريل 1342. – الدرر ج 3 ص 342-343.

(132) بشتاك الناصري (هكذا يرسم في الدرر) كان ممن جلب من بلاد القان أزبك فاشتراه الناصر بستة آلاف درهم وسلَّمه لقوصُون لتربيته فشغف به السلطان وأفرط له في العطاء وزوَّجه أم ابنه أحمد !... ولما حج انفق في الطريق من الأموال ما لا يحصى، ويذكر أن سبب حظوته عند الناصر أن هذا طلب إلى مكلف عنده يسمى مجد الدّين أن يحضر له من البلاد مملوكا يشبه بوسعيد (يعني أبا سعيد) ملك التتر، فقال له مجد الدّين : مملوكك بشتاك يشبهه ! فكان ذلك سبب تقريبه ... كان كثير الحروب إلا أنه كان مولعًا بالنساء : لم تكن تجتاز به امرأة الأغلب عليها حتى نساء الفلاحين والملاَّحين !! ولما مات الناصر تحالف مع قوصون ثم تخالفا .. ولم يلبث أن سيق إلى سجن الاسكندرية واستولى على حواصله التي بلغت آلاف الآلاف ... ثم قتل في شهر ربيع الآخر 742 أكتوبر 1341. – الدرر الكامنة 2، 11 - 12 .

87/1 واسمه بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة. وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا.

ومنهم ناظر جيش الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي (133)، وكان نصرانيا من القبط فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضايل التامة، ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل، ومن عادته أن يجلس عشى النهار في مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتي بالطعام، ولا يمنع حينئذ أحدًا من الدخول كائنًا من كان، فمن كان ذاحاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكًا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه إلى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ما قدّر له

88/1 ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء، ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه.

ذكر القُضاة بمصر في عهد دخولي إليها

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرًا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الامام العالم بدر الدين بن جماعة (135) وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك، ومنهم قاضي القضاة المالكية الامام الصالح تقى الدين الإخناءى (136) ومنهم

(133) تبوأ فخر الدين منصب المفتش المالي للجيش عام 710 = 1310 إلى وفاته عام 732 = 1332.. وقد عهد إليه بتشييد عدد من مساجد القاهرة.
معلومات عن كيب (Gibb) نقلا عن : ZETTERSTEEN T.I p. 55 Note 171

(134) القصد إلى صحيح الامام البخاري المتوفّى سنة 256 = 870 ويعتبر كتابه هذا من أوثق المراجع في الحديث النبوي على ما هو معلوم.

(135) بدر الدين محمد بن ابراهيم ابن جماعة، وُلِدَ بحماة عام 639 هـ كان من أشهر القضاة في عصره، وقد تولى هذا المنصب ثلاث مرات بالقدس وبمصر وبالشام، كان من خيار القضاة، مليح الهيأة جميل البزّة مستدير اللحية، ولم يسلم من هجو النصير الحمامي لكنه سامح هذا المعتدي. وأدركه أجله بمصر، جمادى الأخيرة عام 733 = مارس 1333، له عدة تصانيف، منها تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلّم "و" تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام "و" مستند الأجناد في آلات الجهاد وله رسالة في الأسطرلاب ... وقد تولى ولده عز الدين عبد العزيز 693-767 = 1294-1366 مرتين منصب القضاء. - ابن حجر : الدرر الكامنة 3، 367-368.

(136) محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي، تقّي الدين، اشتغل بالفقه على مذهب مالك وغيره ثم ولى قضاء الديار المصرية للمالكية، وكان الناصر يحبه ويرجع إليه في أشياء، أصيب بماء كاد يهدد بصره (Glaucome)، فطلب من السلطان أن يمهل عليه إلى أن يعالج نفسه فأمهله ستة أشهر فقدح الطبيب عينيه فأبصر ... وقال عنه الناصر : لا أعزله أبدًا ولو استمر أعمى حتى يموت !! مات بالطاعون الذي عم بديار البحر المتوسط أول عام 750 = أواخر مارس 1349. - الدرر 4، 27.

89/1 قاضي القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريري (137)، وكان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت الأمراء تخافه، ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : إني لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريري : ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين (138).

حكاية [الملك الناصر يقعد للمظالم]

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه، ويعين مَن يسأل صاحب القصة عنها، وقد سلك مولانا أمير المومنين، ناصر الدين، أيده الله في ذلك مسلكا لم 90/1 يُسبق إليه، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه، وهو سؤاله بذاته الكريمة، لكل متظلم وعرضُه بين يديه، مكرمة أبى الله أن يخص بها سواه، ادام الله عليه أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية، فلما توفي شمس الدين الحريري وولّي مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي (139) أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه،

(137) محمد بن عثمان بن أبي الحسن بن عبد الوهاب الانصاري، القاضي شمس الدّين بن صفي الدين الحريري الحنفي كان والده يتجر في الحرير .. ولى قضاء دمشق ودرس بالظاهرية وغيرها ثم تولى القضاء بالديار المصرية ... كان حريصًا على تخليص الحقوق وفصل القضا، لا يقبل لأحد هدية !!.. إلا أنه كان يُنتقد عليه البَأْو : اتخذ في منزله امرأة سماها النقيبة تتلقاه من الباب قائلة : سيدنا قاضي القضاة ... وتبالغ في نعوته إلى أن يصل إلى مكانه، ويأمر كل من في الدّار من النساء بالوقوف ! وكان يقول لزوجته : أكرمي النقيبة فإنها تعظِّم بعْلك !! له قصص في تعامله مع كتاب النصاري ... أدركه أجله في جمادى الأخيرة 728 = أبريل 1328. - الدرر 4، 158.

(138) لقد كان قاضي الحنابلة من عام 712 = 1312 إلى عام 738 = 1337 هو أحمد بن عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي تقّي الدين القاضي، ولى أبوه قضاء الحنابلة بالديار المصرية عام 699 إلى عام 738 حيث صرف عن القضاء بسبب ولده الذي كان يتعاطى للإرتشاء !! وكان أعظم القائمين في ذلك الأمير جنكلى بن البابا سالف الذكر ... توفي إثر صرفه عن القضاء ... - الدرر الكامنة 1، 239.

(139) ابراهيم بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يوسف ابن ابراهيم الحنفي، برهان الدين بن كمال الدين المشهور بابن عبد الحق كان سبط ضياء الدين عبد الحق الحنبلي فاشتهر بالنسبة إليه ... ولى القضاء بمصر بعد الحريري عشر سنين ثم تحول إلى دمشق سنة 738.. انتهت إليه رئاسة المذهب، توفي بدمشق في ذي الحجة 744 = مايه 1344. - الدرر الكامنة I ر 48.

وذكروا أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف (140) يلي قاضي الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد، فأمر الملك الناصر بذلك، فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفةً من ذلك فأنكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده 91/1 فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمرَّ حاله على ذلك.

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات (141)، ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي (142)، ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح (143)، ومنهم ركن الدين ابن القويع التونسي من الأيمة في المعقولات (144)، ومنهم شمس الدين ابن عدلان كبير الشافعية (145)، ومنهم بهاء الدين ابن عقيل فقيه كبير

(140) علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النّويري المالكي قاضي القضاة زين الدين ... اشتغل على مذهب مالك ومهر ... ثم استقر في القضاء بعد ابن شاس .. إلا أن الناصر عزله لما رجع فاستناب القاضي بدر الدين ابن رشيق ثم بعد قليل أعيد ابن مخلوف وكان كثير الاحتمال والإحسان للطلبة ... توفي بحادي عشرين جمادى الأخير 718 = 20 غشت 1318 واستقر بعده تقي الدُين الإخناني. - الدرر 3 ص 222.

(141) شمس الدين هذا هو محمود بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي، ولد وتعلم في أصبهان ورحل إلى دمشق فاكرمه أهلها وانتقل إلى القاهرة فنال بها حظوة لدى الحكام إلى أن توفي عام 749 = 1349 بالطاعون العام، له عدة تاليف منها "التفسير"، سماه أنوار الحقائق. - الدرر الكامنة 5، 95.

(142) يعتبر شرف الدين عيسى بن مسعود الزواوي 664 - 743 = 1265 - 1342 من العلماء المالكية الموموقين، تفقه ببجاية والاسكندرية، ورجع إلى قابس فولى القضاء بها، وانتقل إلى مصر فدرس بالأزهر وناب في الحكم بدمشق ثم بالقاهرة وانقطع للتصنيف، من كتبه : إكمال الإكمال ... و "تاريخ" كبير شرع في جمعه فكتب منه عشر مجلدات. - الدرر الكامنة 3 ص 289 - 290.

(143) لم نقف على ترجمة لسبط الشاذلي هذا ...

(144) القصد إلى الطبيب الشاعر محمد عبد الرحمن بن يوسف ابن القويع المالكي -738 = 1266 - 1338 664، وهو من فضلاء المالكية، كان يفتى مع اشتغاله بالحكمة والطب، ولد بتونس وتعلم بها وبدمشق واستقر بالقاهرة وكان يفتى على مذهب الامام مالك ... الدرر الكامنة 4، 299.

(145) كان محمد بن أحمد بن عثمان بن ابراهيم ابن عدلان هذا قاضيًا للعسكر في أيام الناصر يلقب شمس الدين وكان مدار الفتيا عليه وعلى الشهاب الانصاري، وقد توجه رسولاً إلى صاحب اليمن أوائل سنة 707هـ. ولد عام 660 = 1262 وتوفي في ذي القعدة 749 = يبراير 1349. - الدرر الكامنة 3 ص 423.

(146)، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي (147) وهو أعلمهم بالنحو، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي (148) ومنهم برهان الدين الصفاقسي (149)، ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكناه بأعلى سطح الجامع الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب، ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء، ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرَج والنزهات منفردًا عن أصحابه (150) ! ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء (151)، ومنهم شيخ شيوخ الفقراء بديار مصر نجد الدين الأقصراءي، نسبة إلى أَقْصَرَة من بلاد الروم، ومسكنه سرياقص (152) ومنهم الشيخ جمال

93/1

(146) ابن عقيل هذا هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل بن عبد الله من نسل عقيل ابن أبي طالب، مشهور بالنحو أكثر من اشتهاره بالفقه، حتى قال ابن حيان : ما تحت أديم السماء أنْحى من ابن عقيل، له شرح ألفية ابن مالك متداول بين الناس، وقد درسنا النحو به بجامعة فاس الشهيرة بجامع القرويين، وقد ترجم مع (الألفية) إلى اللغة الألمانية، وله أيضًا الجامع النفيس في فقه الشافعية، وتيسير الإستعداد لتربة الاجتهاد وهو تلخيص الجامع النفيس، أدركه أجله 23 ربيع الأول 769 = نونبر 1367. الدرر الكامنة 2، 272 - 273.

(147) أبو حيان النحوي محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي من كبار العلماء باللغة العربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، ولد في إحدى جهات غرناطة ورحل إلى مالقة وتنقل إلى أن أقام في القاهرة وتوفي فيها 28 صفر 745 = 11 يوليه 1344، من كتبه : البحر المحيط في تفسير القرآن، ثمان مجلدات، وله كتاب : زهوّ الملك في نحو الترك، والادراك، للسان الاتراك، وله كتاب : نور الغبش في لسان الحبش. – الدرر الكامنة 5، 70 - 75.

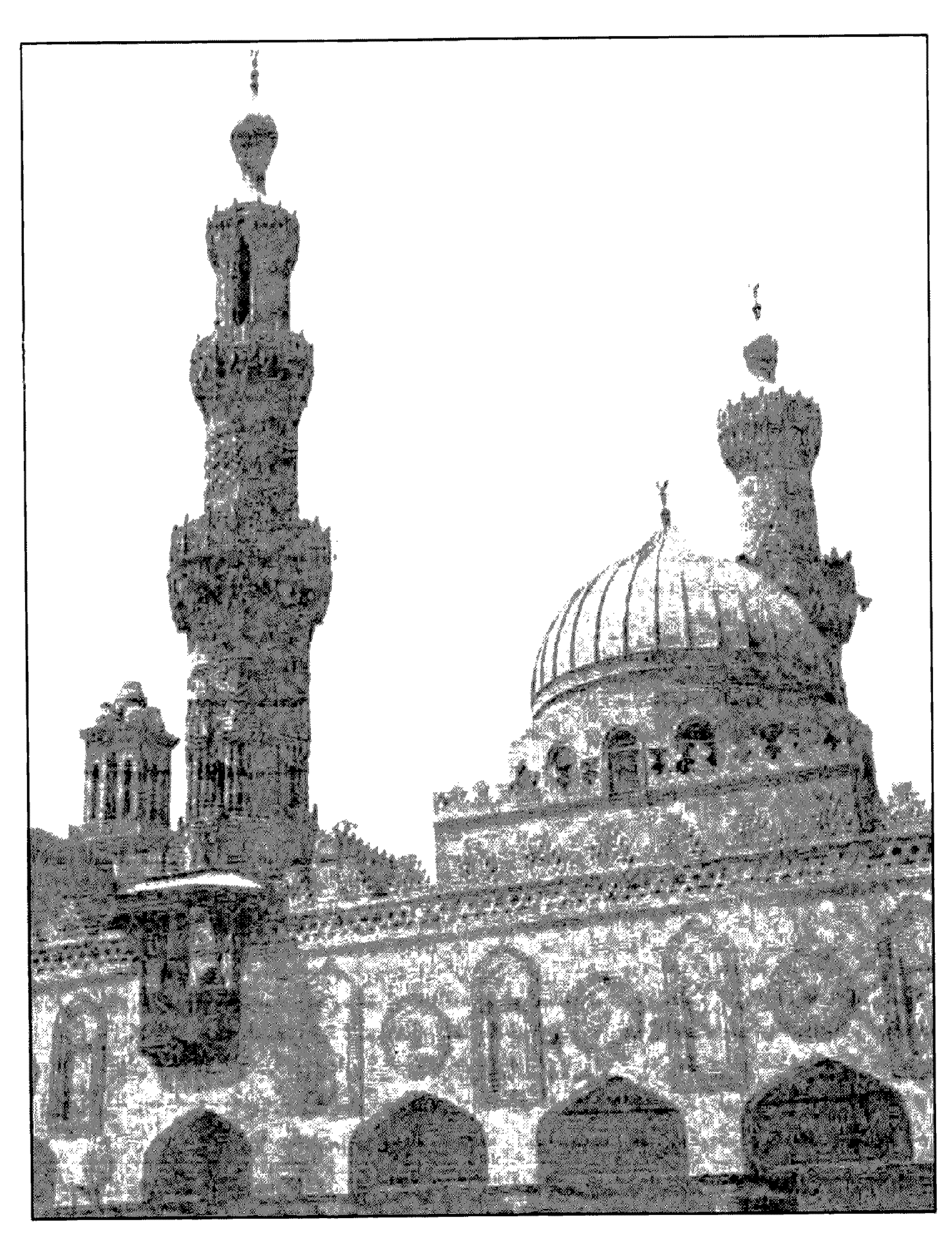
(148) لم نقف على ترجمة المنوفي هذا ...

(149) الصفاقسي ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن أبي القاسم القيسي السفاقسي، برهان الدين، فقيه مالكي تفقه في بجاية وحج فأخذ عن علماء مصر وسمع بدمشق كثيرًا من زينب بنت الكمال، توفي في 18 ذي القعدة 742 = أبريل 1342. الدرر الكامنة، 57،1.

(150) هو مسعود بن محمد بن محمد بن سهل الكرماني، قوام الدين، من فقهاء الحنفية تعلّم في بلاده ومهر في الفقه والأصول والعربية، سكن دمشق ثم القاهرة حيث أقام بسطح الجامع الأزهر مدة، له كتب منها : "شرح الكنز" في فقه الحنفية وحاشية على المغنى للخبازى في أصول الفقه، أدركه أجله عام = 1348 748 – الدرر الكامنة 5، 120. وعلى ذكر الأزهر نذكر(رواق المغاربة) الذي لم يتأخر إنشاؤه بالجامع عن مرور ابن بطوطة بمصر، د. التازي . رواق المغاربة في الأزهر، دعوة الحق يونيه 1983 مجلة المصور مارس 1984.

(151) الصاحب تاج الدين بن حنَّاء : هو محمد بن محمد بن علي بن محمد بن سليم ويلقب بالصاحب، كأبيه فخر الدين بن الوزير بهاء الدين ... انتهت إليه رئاسة مصر في عصره واشتغل بالحديث والأدب وحدث بمصر ودمشق ... هو الذي اشترى الآثار النبوية بمبلغ ستين ألف درهم وبنى لها المكان المنسوب إليه ووقف عليها البستان المعروف بالمعشوق أدركه أجله سنة 707 = 1307 الدّرر الكامنة 4، 323.

(152) توفي مجد الدين عيسى الأقصرائي سنة 739 = 1339، وكان شيخًا للزّاوية النّاصرية التي بناها الملك الناصر بمصر. Gibb 1,58



الجامع الأزهر منظر خارجي

الدين الحويزاءي، والحويزاء (153) على مسيرة ثلاثةٍ من البصرة ومنهم نقيب الأشراف بديار
مصر السّيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني (154) من كبار الصالحين ومنهم وكيل بيت 93/1
المال المدرس بقبة الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي (155)، ومنهم المحتسب بمصر نجم
الدين السهرتي (156) من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه.

ذكر يوم المحمل بمصر

وهو يوم دوران المحمل (157) يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاة
الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب، وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء، وأمناء
الرؤساء، وأرباب الدولة ويقصدون جميعًا باب القلعة : دار المَلِك الناصر فيخرج إليهم المحمل
على جمل وأمامه الأمير (158) المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ،معه عسكره والسقاؤون 94/1
على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من
ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر، والحُدَاة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك
تهيج العزمات وتنبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج في قلْب
من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد (159).

(153) كان جمال الدين الحويزائي شيخًا لزاوية سعيد السُّعداء ... وسيرد ذكره عند ابن بطوطة عندما يصل إلى مدينة الحويزاء ... بعد أن يذكر زاوية سعيد السُّعَدَاء عند حديثه عن سماعه بدمشق ومن أجازه بها.

(154) هو الحسن بن أحمد، بن محمد بن عبد الرحمن .. الحسيني الملقب بدر الدين حدّث هو وأبوه وجدّه وولوا كلهم نقابة الأشراف بمصر، توفي في جمادى الأولى 743 = 1342. - الدرر 2، 23.

(155) هو حرمي بن هاشم بن يوسف الفلاقوسي العامري الفقيه الشافعي مجد الدين، وكيل بيت المال، مهر في الفقه، كان مبذول الجاه لكل من يقصده وكان قد درس بقبّة الشافعي ... كان يلازم الاشتغال مع الشيخوخة، توفي ثاني ذي الحجة 734 = غشت 1334، الدرر الكامنة 2، 88.

(156) السَّهرتي محمد بن الحسين بن علي، من أصل تركي، عين محتسبًا للقاهرة عام 720 = 1320 وتوفي في الوظيفة عام 736 = 1336. يلاحظ اختفاء وظيفة المحتسب بمصر منذ زمن....

(157) عبارة عن محفة شبه الهودج، ذات قِمَّة هرمية، كُسيت بثوب مزَخرف يصحب ركب الحاج إلى مكة.

(158) كما هو الشأن في المغرب - على ما أسلفنا - فإن مصر كانت تعرف وظيفة أمير ركب الحاج، وكانت من الوظائف السامية ... ومن واجب هذا الأمير أن يسهر على سلامة وأمن القافلة التي تقصد البقاع المقدسة علاوة على مهامه الدبلوماسية والسياسية..

(159) يظهر أن ابن بطُّوطة إنما كان يحكي عما يجري عادةً لأنه - كما يبدو - لم يحضر هو هذا المشهد وأيضًا فإنه عند العودة عام 749 = 1348 يدقق بأنه عند الوصول إلى القاهرة وجد أن قافلة رجب كانت قد ذهبت فعلاً...

Gibb. I. 58-59 - IVAN HRBEK : THE CHRONOGY OF IBN BATTUTA'S TRAVELS ARCHIV ORIENTALNI 1962 p. 421.



مسيرة احتفالية بالمحمل...

ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف، فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حِناء بدير الطين (160) وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة، وآثار كريمة، أودعها فيه، وهي قصعة من قطعة رسول الله صلى الله عليه
95/1 وسلم، والميل الذي ‖ كان يكتحل به، والدِّرَفْش وهو الأشفى الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المومنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه. ويقال إن الصاحب اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بماية الف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخُدام تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك.

ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القايد (161)، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل، ثم سرت منها إلى مدينة بُوش (162)، وضبطها بضم الباء الموحدة وأخرها شين معجم، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانًا ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية. ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة دلاص (163)، وضبط اسمها بفتح الدال المهمل وآخره صاد
96/1 مهمل، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل الذي ذكرنا قبلها ‖ ويحمل أيضا منها إلى ديار مصر وإفريقية. ثم سافرت منها إلى مدينة بِبَا (164)، وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما

---

(160) دير الطين : قرية توجد دائمًا على الساحل الأيمن للنيل على بعد خمسة كيلوميترات جنوب القاهرة القديمة، هذا وإن أول ما عرف عن تلك الآثار المشار إليها أنها كانت عند بني ابراهيم بالينبوع، واستفاض أنها بقيت موروثة عندهم من الواحد إلى الواحد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اشتراها في القرن السابع الهجري أحد بني حِنَّا الوزراء الأماثل، ونَقَلَهَا إلى مصر وبني لها رباطًا على النيل عرف برباط الآثار وهو المعروف الآن بجامع أثر النبي، وقد تحدث عن هذا الرباط المقريزي في خططه ... وسماه ابن دقماق بالرباط الصاحبي التاجي ... واستطرد ابن كثير في البداية والنهاية بذكر بعض تلك الآثار ... وذكره القلقشندي عند كلامه على الرُّبُط التي بالفسطاط ... وذكره البرهان الحلبي في حاشيته نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس ... وها نحن نرى ابن بطوطة يخصص للرباط هذه الفقرات الدالة ... وقد عرَّف العلامة أحمد تيمور بباني الرباط تعريفًا جيِّدًا ... في الحلقة الثانية من بحثه حول الآثار النبوية الذي نشرته مجلة الهداية الاسلامية ج 12/ م1 القاهرة جمادى الأولى 1348 (أكتوبر 1929)، يراجع تعليق سابق رقم 160 حول ترجمة الصاحب تاج الدِّين بن حناء ...

(161) منية القائد توجد في الجيزة على الساحل الشمالي للنيل، ربما كانت هي المعروفة اليوم تحت إسم منى الأمير.

(162) توجد مدينة بوش بين مدينة الواسطة وبين مدينة (بني سويف) في منطقة الفيُّوم.

(163) تقع دلاص في نفس موقع بوش، وقد ورد ذكرها في (نزهة المشتاق) للإدريسي الذي يتحدث عن قيام صناعة الحديد بها في زمانه، وإليها تنسب اللجم الدلاصية ...

(164) تقع بِبَا على نحو من عشرين كيلوميترًا جنوب بني سويف، وتسمى أيضًا بِبَا الكبرى ...

مكسورة، ثم سافرت منها إلى مدينة البَهْنَسة (165)، وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، وضبط اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين، وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة.

ومن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين، وهو كريم النفس فاضل، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي، ونزلت عنده وأضافني، ثم سافرت منها إلى مدينة مُنية ابن خصيب، وهي مدينة كبيرة الساحة، متسعة المساحة، مبْنية على شاطئ النِّيل (166)، وحقيق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل، بها المدارس والمشاهد والزوايا، والمساجد، وكانت في 97/1 القديم منية لخصيب عامل مصر (167) ‖.

حكاية خصيب

يذكر أن أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يُولي عليهم أحْقر عبيده وأصغرهم شأنا قاصدًا لإرذالِهم والتنكّل، وكان خصيب أحقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام (168)، فخلع عليه وأمَّره على مصر، وظنُّه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالإذاية حسبما هو المعهود ممن ولى عن غير عهد بالعز، فلما إستقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة، وشُهِر بالكرم والإيثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون إلى بغداد شاكرين لِما أولاهم.

98/1 وإن الخليفة افتقد ‖ بعض العبَّاسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه، فأخبره أنه قصد خصيبًا، وذكر له ما أعطاه خصيب، وكان عطاءً جزيلاً، فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح في أسواقها، فلما ورد الامر بالقبض

(165) البهنسة من مدن الفيوم ويتحدث ابن حوقل عن الستور والبسط والمضارب والفساطيط الكبار المستعملة بها وكذا الطُّرَف السلطانية، ويقال : إنَّهَا الرَّبوة التي أوى إليها المسيح.

(166) منية ابن خصيب هي بالذات المِنْيَا الحالية التي ورد ذكرها كمدينة ذات أهمية من لدن الرحالة بن جُبَير ... ثم من لدن كذلك ابن الوزَّان في كتابه (وصف إفريقيا)، تقع في منتصف الطريق بين بني سويف وبين أسيوط ... انظر ابن دقماق..

(167) الخصيب بن عبد الحميد المتحدث عنه ينتسب لأسرة فارسية، كان محاسبًا لِمصر عام 187 = 803 في عهد هارون الرشيد ...

(168) كانت هذه المهنة بمصر من المهن الحقيرة، ويذكر أنه عند فقدان الأخشاب والأعواد فإن على المسخِّن أن يستعمل أرواث البقر لضمان سير الحمام ...

عليه حيل بينه وبين دخول منزله، وكانت بيده ياقوته عظيمة فخبَّأها عنده وخاطها في ثوب له ليلاً، وسُملت عيناه وطرح في أسواق بغداد، فمر به بعض الشعراء، فقال له : يا خصيب، إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحًا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب أن تسمعها، فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه؟ فقال إنما قصدي ‖ سماعك لها، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت جزاك الله خيرًا قال : فافعلْ فأنشده :

99/1

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفَّقًا، فكلاكما بحْر ! (169)

فلما أتى على أخرها قال له : افتق هذه الخياطة، ففعل ذلك، فقال له : خذ الياقوتة فأبى فأقسم عليه أن ياخذها فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين، فلما عرضها عليهم، قالوا له : إن هذه لا تصلح إلا للخليفة، فرفعوا أمرها إلى الخليفة، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها فتأسف على ما فعله بخصيب، وأمر بمثوله بين يديه وأجزل له العطاء وحكّمه فيما يريد فرغب أن يعطيه هذه المنية، ففعل ذلك وسكنها خصيب إلى أن توفي وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا.

وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي إليها فخر الدين النّويري المالكي وواليها شمس الدين أمير خيّر كريم، دَخلت يومًا الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك ‖ علي، وأتيته فأعلمته بذلك فأمرني أن لا أبرح وأمر بإحضار المكتريين للحمامات وكتب عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون ميزر فإنهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم أعظم الاشتداد، ثم انصرفت عنه.

100/1

وسافرت من مُنية ابن خصيب إلى مدينة مَنْلَوِي (170) وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل، وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو، وقاضيها الفقيه شرف الدين الدّميري بفتح ‖ الدال المهمل وكسر الميم الشافعي، وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بنى أحدهم جامعًا انفق فيه صميم ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم أنهم لا يمنعون فقيرًا من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة

101/1

---

(169) هذا البيت مطلع لقصيدة لأبي نواس قالها في [illegible] قدم إليه وهو أمير مصر... ومن أبياتها:

في مجلس ضحك السُّرُورُ به عن ناجذية [illegible] الخمرُ !

ديوان أبي نواس، تحقيق فاغر، القاهرة 1958 ص 226.

(170) هي ملاّوي (MALLAWI) الحالية، انظر ابن دقماق

الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ فيها السكر ثم يخرجها وقد امتلأت سكرًا فينصرف بها.

وسافرت من مَنْلَوِي المذكورة إلى مدينة مَنْفَلُوط (171) وهي مدينة حسن رواؤها، مؤنق بناؤها، على ضفة النيل، شهيرة البركة، وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل.

حكاية [منبر ملك الناصر]

أخبرني أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبرٍ عظيم محكم 102/1 الصنعة بديع الإنشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفًا وتعظيماً، فلما تمّ عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى مَنْفَلُوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجري مع مساعدة الريح، فعجب الناس من شأنه أشد العجب وأقاموا أيامًا لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر رحمه الله، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك، وقد عاينتُه بها.

ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النِّيدا (172) يباع بأسواق مصر.

وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط (173) وهي مدينة رفيعة، أسواقها بديعة، 103/1 وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو وطاء مهملة، وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب "بحاصل ما ثمَّ" لقب شهر به، وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لابناء السبيل فإذا أتى فقير لمدينةٍ من المدن قصد

(171) تقع منفلوط على نحو عشرين كيلوميتر شمال أسيوط، عرف بها ابن الوزّان وذكر أنه لا تزال بها أعمدة غليظة ومرتفعة وبوابات كتبت عليها أشعار باللغة المصرية، ويعثر السكان فيها على مداليات تحمل على الوجه الواحد حروفًا مصرية وعلى الوجه الآخر صورًا لِملوك قُدَامي ... ولا يوجد في الصعيد ما يضاهيها على حدّ تعبير ابن جبير.

(172) النِّيدًا عبارة عن قمح ينقع في الماء لِبضعة أيام ثم يِيَبِّسُونَه ويسحقونه ويطبخونه ...

(173) كانت أسيوط مقر إقامة الحاكم العام لِمصر العليا على ما يقوله ابن دُقماق، وسنرى أن ابن بطوطة يجعل مدينة قوص هي مقر الحاكم، وقد تحدث ابن جبير عن أسوارها، وبعد ذلك ذكر ياقوت أن بها نحوًا من خمسة وسبعين كنيسة...

القاضي بها فيعطيه ما قدر له، فكان هذا القاضي إذا أتى الفقير يقول له : (حاصل ما ثم) (174) ! أي لم يبق من المال الحاصل شيء، فلُقِّب بذلك ولزمه.

وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ، أضافني بزاويته، وسافرت منها إلى مدينة إخميم (175) وهي مدينة عظيمة أصيلة البُنيان، عجيبة الشأن بها البَرْبي المعروف باسمها، وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابة للأوائل، لا تفهم في هذا العهد 104/1 وصور الأفلاك والكواكب، ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب، وبها صور الحيوانات وسواها، وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها.

وكان بإخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابي وابتنى بحجارتها مدرسة، وهو رجل موسر معروف بالإيثار، ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البربى. ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر، (176) وبها تربة جدِّه عبد الظاهر، وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين، ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضي المدينة 105/1 الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيختمون القرآن ويذكرون الله إلى صلاة العصر، فإذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا.

وسافرت من إخميم إلى مدينة (هو) (177) مدينة كبيرة بساحل النيل، وضبطها بضم الهاء، نزلت منها بمدرسة تقي الدين ابن السراج ورأيتهم يقرأون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزبًا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين.

---

(174) إسم لا يخلو من طرافة : أي لا يوجد شيء يمكن أن يطمع فيه ! وسمعتُ العراقيين يقولون : "حاصِل مَاكُو" أي لا يوجد محصول !!

(175) تقع على النيل غير بعيدة عن سوهاج، كان ابن بطوطة دقيقًا في وصف إخميم (PANOPOLIS أو KHEMMIS) وكان صادقًا عندما تحدث عن كتابات الأوائل التي لم تفهم في عهده ... وقد أتيح لي أن أزورها رفقة الأميرة على ما أسلفت وأشاهد صور الأفلاك والكواكب بها ... والنسر الطائر : مجموعة من النجوم معروفة بمشابهتها للنسر... ويُلاحظ أن ابن بطوطة لم يذكر غير هذا المعبد حتى ولو معبد الأقصر!

(176) أبو العباس بن عبد الظاهر بن عبد الوالي من ذرية جعفر أخي علي بن أبي طالب .... Gibb T.I p. 65 Note 204

(177) مدينة هُوْ (HIW) (DIOSPOLIS PARVA) : تقع على النِّيل منتصف الطريق بين جيركا وقِنا ...

كـرامة لـــه

دخلت إلى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدي، فأخبرته، إني أريد حج البيت الحرام على طريق جُدة، فقال لي : لا يحصل لك هذا في هذا الوقت فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم اعمل على كلامه ومضيت في طريقي حتى وصلت إلى عيذاب فلم يتمكن لي السفر فعدت راجعًا إلى مصر ثم إلى الشام، وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب الشامي حسبما أخبرني الشريف نفع الله به. 106/1

ثم سافرت إلى مدينة قِنَا وهي صغيرة حسنة الاسواق، واسمها بقاف مكسورة ونون، وبها قبر الشريف الصالح الوالي صاحب البراهين العجيبة، والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القِناوي رحمة الله عليه (178)، ورأيت بالمدرسة السيْفية منها حفيده شهاب الدين أحمد.

وسافرت من هذا البلد إلى مدينة قوص (179) وهي بضم القاف مدينة عظيمة، لها خيرات عميمة، بساتينها مورقة وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارس الأثيرة، وهي منزل ولاة الصعيد، وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين ابن عبد الغفار، وزاوية الأفرم، وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة، ومن علمائها القاضي بها جمال الدين بن السديد (180)، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد (181) أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك، لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطي وسيقع ذكرهما، ومنهم 107/1

---

(178) لعلّ القصد إلى الشيخ عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد القناني المتوفى عام 592 = 1196، من كبار النساك، مغربي الأصل ولد في إحدى قرى سبتة، أقام بمكة سبع سنين واستقر في قنا ... الأعلام، الزركلي 4، 118.

(179) قوص (QUS) حسب ابن دُقماق فإنها كانت مقرّ القيادة العسكرية في مصر العليا، وفي أيام ابن جبير كانت قوص نقطة انطلاق القوافل نحو عيذاب ...

(180) القصد إلى محمد بن عبد الوهاب بن علي الأسنائي جمال الدين ابن السديد، درس الفقه على البهاء القِفطي وأجازه بالفتوى وأخذ بالقاهرة عن الدمياطي وابن دقيق العيد وابن جماعة وأبي حيان، ولي العقود بالقاهرة وناب في الحكم، ثم قسَّم الجلال القزويني عمل قوص بينه وبين القمولي، توفي عام 1339 = 739 = الدرر الكامنة 4، 155.

(181) القصد إلى محمد بن عثمان بن علي بن وهب بن دقيق العيد، ويلقب بجلال الدين (لا فتح الدين كما عند ابن بطوطة) سمع من جده ومن الدمياطي واشتغل في المذهبين، وكان ابن جماعة يكرمه ويبره وكتب له بتدريس دار الحديث بقوص، أدركه أجله بالقاهرة سنة 726 = 1326 - 1327. - ابن حجر : الدرر 4، 162.

الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية، ومنهم الفقيه برهان الدين ابراهيم الأندلسي له زاوية عالية.

ثم سافرت إلى مدينة الأقصر (182) وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل، وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصرى (183) وعليه زاوية، وسافرت منها إلى ‖ مدينة أَرْمَنْت، (184) وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء معلوة، وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النّيل، أضافني قاضيها وأُنْسِيتُ اسمه، ثم سافرت منها إلى مدينة أسْنا (185) وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون، مدينة عظيمة متسعة الشوارع، ضخمة المنافع، كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع، لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان، قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين، أضافني وأكرمني وكتب إلى نوابه بإكرامي، وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين علي والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص.

108/1

ثم سافرت منها إلى مدينة أدْفُو وضبط إسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الفاء. وبينها وبين مدينة أَسْنَا ‖ مسيرة يوم وليلة في صحراء. ثم جزنا النيل من مدينة أَدْفُوا إِلَى مدينة العطواني، (187) ومنها اكترينا الجمال، وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم، بالغين المعجمة، في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السبل، وفي بعض

109/1

(182) الأقصر (LUXOR) تعني كما هو معلوم جمع قصر حيث معبد الكرنك ... وقد زرتها مرارًا وتكرارًا...

(183) لعلَّ القصد إلى يوسف بن عبد الرحيم بن عربي القرشي المهدوي الأقصري، من كبار الصوفية في عصره المتوفى عام 642 = 1244 كان من تلامذة الجزولي، ولا يزال قبره موجوداً في قلب معبد أمينوفيس الثالث (AMENOPHIS III) Gibb T.1 p.67 Note 212. الزركلي : الاعلام 9 ص 314.

(184) أرمنت (ARMANT) تقع على نفس خط عرض مدينة الأقصُر على الساحل المقابل في النيل وقد وصفها ابن دقماق بتفصيل.

(185) هي بالذات إسنا الحالية، وقد تحدث ابن دقماق عن إنتاجها الزراعي، وقال عنها ابن الوزان إن سكانها أثرياء بالحبوب وبالمواشي وبالعملة النقدية لانهم يزاولون التجارة مع النُّوبة عن طريق الصحراء وبواسطة النيل ... وفيها معابد وقبور تحمل كتابات بحروف مصرية ...

(186) القصد إلى أدفو الحالية ذات المشاهد الأثرية الرائعة ... وقد سجلت هنا مذكرات عن الأدلاَّء المتخصصين الذين كانوا يقدمون معلومات موثوقة للأميرة المغربية لالة مريم بمناسبة زيارتها الدراسية للمنطقة...

(187) يقول محمد رمزي في تآليف : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية : "لا يزال إسم العطواني معروفاً إلى اليوم بنجع العطواني، وهو من توابع ناحية الرديسية بحرى، بمركز أدفو بمديرية أسوان" وهكذا فإن افتراضات المعلّقين الأجانب تبقى في ذمّتهم، وقد دققت الأمر مع الزميل محمد مستجاب ونحن في شَرعم الشيخ أثناء زيارة أعضاء مجمع اللغة العربية لمحافظة جنوب سيناء يوم 5 أبريل 1995.

منازلها(188) نزلنا (حُمَيْثَرَا) حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي ، وقد ذكرنا كرامته في إخباره أنه يموت بها، وأرضها كثيرة الضباع، ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع، ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به واجترَّتْ منه جرابَ تمر وذهبت به، فوجدناه لما أصبحنا ممزقًا مأكولاً معظم ما كان فيه.

ثم لما سرنا خمسة عشر يومًا وصلنا إلى مدينة عِيذاب (189) وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت ‖ واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر، وأهلها البجاة (190) وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفرًا ويشدون على رؤوسهم عصايب يكون عرض العصابة منها أصبعا وهم لا يورّثون البنات، وطعامهم ألبان الإبل ويركبون المهاري (191) ويسمونها الصّهب، وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البُجاة وهو يعرف بالحَدْرَبي (192) بفتح الحاء المهمل وإسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء، وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني (193) شهير البركة رأيته وتبركت به، وبها الشيخ الصالح موسى، والشيخ المسن محمد

110/1

(188) كانت دغيم تتولى حماية المسلك الرابط بين قوص -وهي مركز تجاري وعلمي متميز- وميناء عيذاب الهام جدا... وقد أسهب التجيبي في الحديث عن أمانتهم وحسن صوتهم في الحداء. مستفاد الرحلة والاغتراب مصدر سابق 1 ، 40 .

(189) كان ميناء عيذاب ابتداء من القرن الخامس الهجري إلى القرن الثامن الميناء الأخير الذي يربط مع اليمن وبلاد الهند، وكان يمثل أهمية كبرى، لكنه لم يلبث أن خُرِّب من لدن ملك مصر عام 829 = 1426 وتولى مكانته ميناء سواكن ... على بعد 12 ميلا شمال حلايب وبالضبط بين درجة 22 - 20 شمالا و 32 - 36 شرقًا ...، وإنما جاء ابن بطوطة على طريق الصعيد لأنه أراد أن يسلك في حجه طريق صحراء عيذاب كما سلكها قبله ابن جبُير والتُّجيبي، لكن لم يتيسر الحج منها بسبب الحرب القائمة في المنطقة بين المماليك وبين البجاة الآتي ذكرهم، حيث اضطر للعودة من حيث أتى للحج على درب الشام...

(190) يقول التجيبي الذي مرّ بعيذاب قبل ابن بطوطة بنحو ثلاثين سنة : «وبهذه البلدة عامل من قبل ملك الديار المصرية والشامية وأخر من قبل ملك البُجَاة الساكن بجزيرة سواكن... يقتسمان جبايتها نصفين... وسنرى أن ابن بطوطة يتحدث عن أن القسمة في عهده تغيرت. Encycl.Béja

(191) الإبل المنسوبة إلى مهرة بن جيدان من عرب اليمن، وهي مشهورة بسرعتها، والصهب منها (الحمراء البيضاء) هي التي تعرف باسم البشاري.

(192) الحَدْرَبي نسبة إلى قبيلة حَدرَب التي يذكر أنها من أصل عربي وهي تعيش في ضواحي عيذاب وكانت عاصمتهم في هذه الضواحي على البحر الأحمر ويجمع على حدارب على نحو حضارم.

(193) يتحدث التُّجيبي وهو في حُمَيثراء عن الشيخ قطب الدّين القسطلاني مؤلف كتاب (ارتقاء الرتبة باللباس والصحبة) الذي تحدث فيه عن أبي الحسن الشاذلي الذي صحبه. لعله قطب الدّين المتوفى بالقاهرة 686=1287. Gibb T.I P. 69 Note 223.

المراكشي زعم أنه ابن المرتضى (194) ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة. ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحَدْرَبِي سلطان البُجَاة يحارب الأتراك، (195) وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه، فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعدادناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر فوصلنا إلى مدينة قُوص التي تقدم ذكرها.

111/1

وانحدرنا منها في النيل وكان أوان مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر فبت بمصر ليلة واحدة... وقصدت بلاد الشام وذلك في منتصف شعبان سنة ست وعشرين، (196) فوصلت إلى مدينة بَلبَيْس (197)، وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهمل وهي مدينة كبيرة، ذات بساتين كثيرة، ولم ألق بها من نحبّ ذكره (198)،

ثم وصلت إلى الصالحية (199)، ومنها دخلنا الرمال، ونزلنا منازلها : مثل السَّوَادة

---

(194) من المعروف أن أبناء الخليفة الموحّدي المرتضى قصدوا بعد مصرع والدهم (665 = 1266) على مقربة من أزمور مولاي بوشعيب، قصدوا ديار الأندلس ومكثوا بإشبيلية في ضيافة ألفونس عدة أعوام قبل أن ينتقلوا إلى جهات أخرى ...

د. التازي : التاريخ الديلوماسي للمغرب، ج 6 ص 148.

(195) يستعمل ابن بطوطة كلمة الاتراك ويعني بهم جنود الجيش المملوكي الذي يرجع رجاله - بالفعل - إلى أصل تركي، وهذه الإصطدامات بين سلطان البُجَاة وملك مصر سمعنا بها من خلال هذه الإفادة لشاهد عيان هو الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي تهيَّب امتطاء المراكب كما أشرنا بعد أن بلغه في عين المكان أن طريق البحر الأحمر أمسى غير آمن ... وهنا قرر أن يعود على مثل طريقه ليختار خطًا آخر هو بلاد الشام الذي يوصله إلى البقاع المقدسة. هذا ويلاحظ هربيك (HRBEK) أن ابن بطوطة وصل عيذاب حوالي 15 يونيه 1326 وأنه عاد للقاهرة حوالي 16 يوليه - يلاحظ إهمال الباحثة السودانية آمال ابراهيم محمد لهذه الفقرة الهامة من تاريخ الصّراع الدولي حول البحر الأحمر - مركز الدراسات والبحوث - صنعاء 1993.

(196) كان ذلك يوافق منتصف يوليه 1326.

(197) بَلبَيس : مدينة معروفة جداً على بعد ثلاثة وثلاثين ميلا، شمال شرقي القاهرة، وكانت في تلك الظروف عاصمة اقليم الشرقية وكانت مقراً للقيادة العسكرية، وبها أقام الإمام البوصيري (ت 665 هـ)

(198) يلاحظ السير هاميلتون كيب أن هذه العبارة (نحبّ) من التعابير المغربية الصميمة، وقد كانت من أوائل الكلمات ذات الطابع المغربي مما يستعمله الرحالة المغربي.

هذا ويوجد في بعض النسخ كلمة (يجب) عوض (نحبّ)

(199) أسست الصالحية من لدن السلطان الأيوبي الملك الصالح (تـ 647 = 1249) على أن تكون حصنًا على حدود المملكة ...

112/1 والورّادة والمُطَيْلب والعَريش والخروبة (200) وبكل منزل منها فندق، وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان سانية للسبيل، وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته. ومن منازلها قَطْيَا (201) المشهورة وهي بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة والف والناس يبدّلون ألفها هاء تانيث، وبها توخذ الزكاة من التجار (202) وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، ومجباها في كل يوم الف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من (203) الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر الا ببراءة من الشام احتياطًا على أموال الناس وتوقيًا من الجواسيس العراقيين (204).

وطريقها في ضمان العرب قد وُكِلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا 113/1 يبقى به أثر ثم ياتي الامير صباحًا فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثرًا طلب العرب بإحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء، وكان بها في عهد

(200) يقصد بالرمّال منطقة الحدود بين مصر وسوريا. هذا والترتيب الصحيح لهذه المنازل هو قطيا ثم المُطيلب ثم السوادة ثم الورّادة ثم العريش ثم الخروبة وغزة هي الأخيرة وهذه الحدود هي التي أقرت في عهد الملوك بَيْبَرس عندما ترد الرسائل والبضائع - وفيها الثلج ...
J.SAUVAGET : La poste au chevaux dans l'empire des Mamelouks. Paris. 1941.

(201) قطيا هي التي تحمل إلى اليوم إسم قطيا على بعد نحو خمسة وأربعين كيلومتراً شرق قناة السويس ويصفها ياقوت الحموي كموقع، وسط الرمال، يحتوي على عدد من الديار وهي على مقربة من الفَرَمَا (PELUSIUM) ويلاحظ هنا وجود الفنادق بما تحتويه من مرافق لايواء البضائع واستراحة المطايا، والتزوّد بالماء من السواني ... أنظر صبح الأعشى ص 461.

(202) المبلغ الذي تتقاضاه الديوانة حسب القاعدة الفقهية هو خمسة في المائة على الذهب والفضة الذي يدخل لمصر، هذا إلى بعض الواجبات الإضافية، وتعتبر (قطيا) من أبرز المدن التي ترتفع فيها المبالغ المتحصلة للدولة ... والبراءة هنا في الاصطلاح عند ابن بطوطة تعني جواز السّفر.

(203) ويبدوا أن (مِن) في تعبير ابن بطوطة أحدُ من الشام' ينبغي أن تبدل بكلمة (إلى).

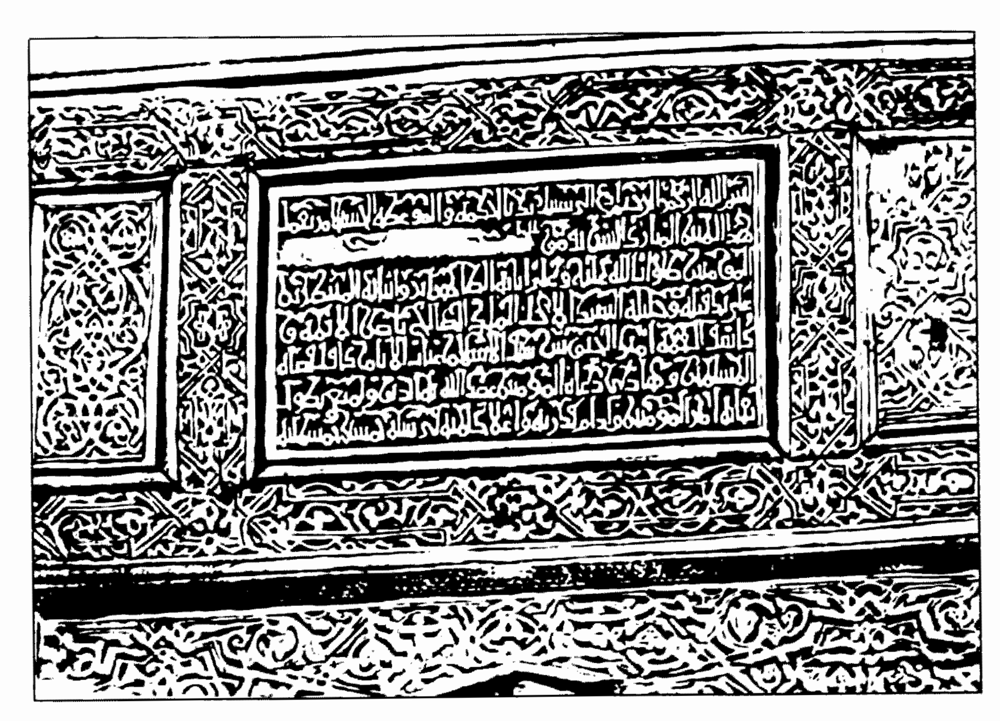
(204) لقطة تاريخية هامة فيما يتصل بالعلاقات السياسية بين المماليك وبين الإيلْخان (المغول) حكام العراق وفارس على ذلك العهد ... وهي تُعَبِّر عن مدَى اليقظة الدائمة مما قد يحصل ... وقد لا حظنا وسنلاحظ أن ابن بطوطة يعتبر من مراجع التاريخ الدولي للمنطقة...

وصولي اليها عز الدين استاذ (205) الدار أقماري، من خيار الأمراء، أضافني وأكرمني وأباح الجواز (205) لمن كان معي، وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف، وهو يعرف المغاربة وبلادهم، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد؟ لئيلا يلبّس عليهم فإنّ المغاربة لا يعترضون في جوازهم على (قطْيا).

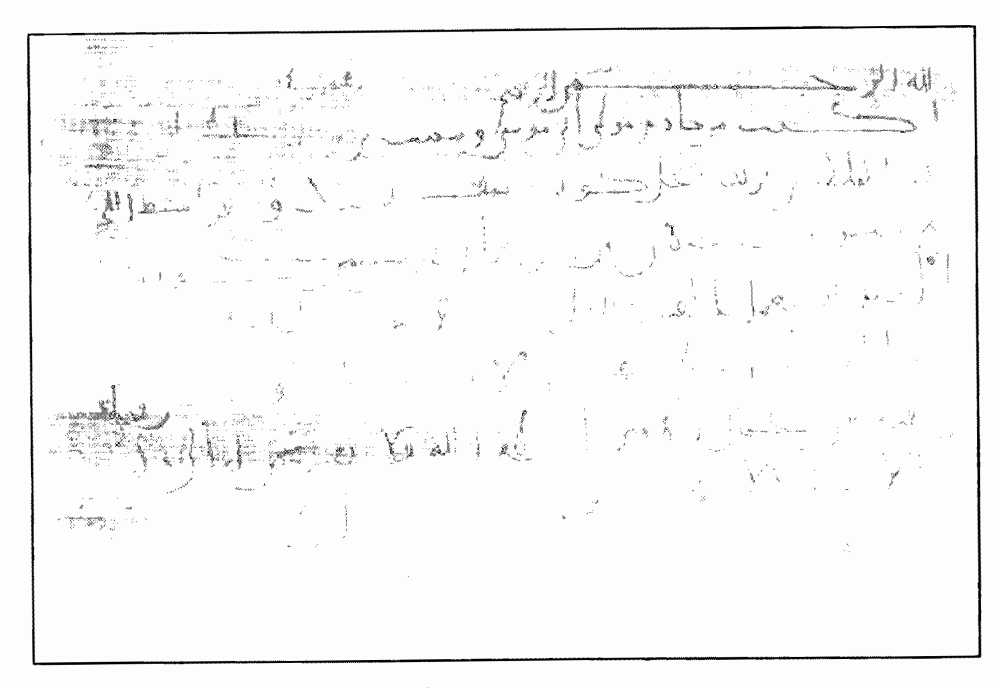
(205) حول أستاذ الدار ترك لنا ابن فضل الله العمري حديثًا جيّدًا عنه، إنه الحاجب الملكي وهو يحتفظ بالتوصية التي ينبغي لهذا "الأستاذ" أن يسلكها من تفقد أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها وأنوا ع وظائفها، ليرتبها في الخدمة على ما يجب، وينظر في أمورها نظرًا لا يخفى معه شيء مما هم عليه ولا يحتجب، إلى آخر الوصية الهامة التي تحدد اختصاصات هذا "الحاجب" وياما أكثرها ...!

التعريف بالمصطلح الشريف للعمري تحقيق د. سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤته – الأردن 1413 – و 1992 ص 127 - 128 - 129 - 130.

(206) الجواز : يعني المرور، ويمكن أن يكون القصد إلى (البراءة) أي رخصة المرور، وأصل الجواز ما يقدم من الماء للمسافر من لدن القبيلة التي يمر على أراضيها إيذانًا له بالأمان والحماية ... إلى أن يغادر أرضها ويتسلم (جوازًا) آخر من أعيان القبيلة الأخرى. ويُجمع على أجوزة..



نقوش من قوص عن أرشيف بيرشم - جنيف



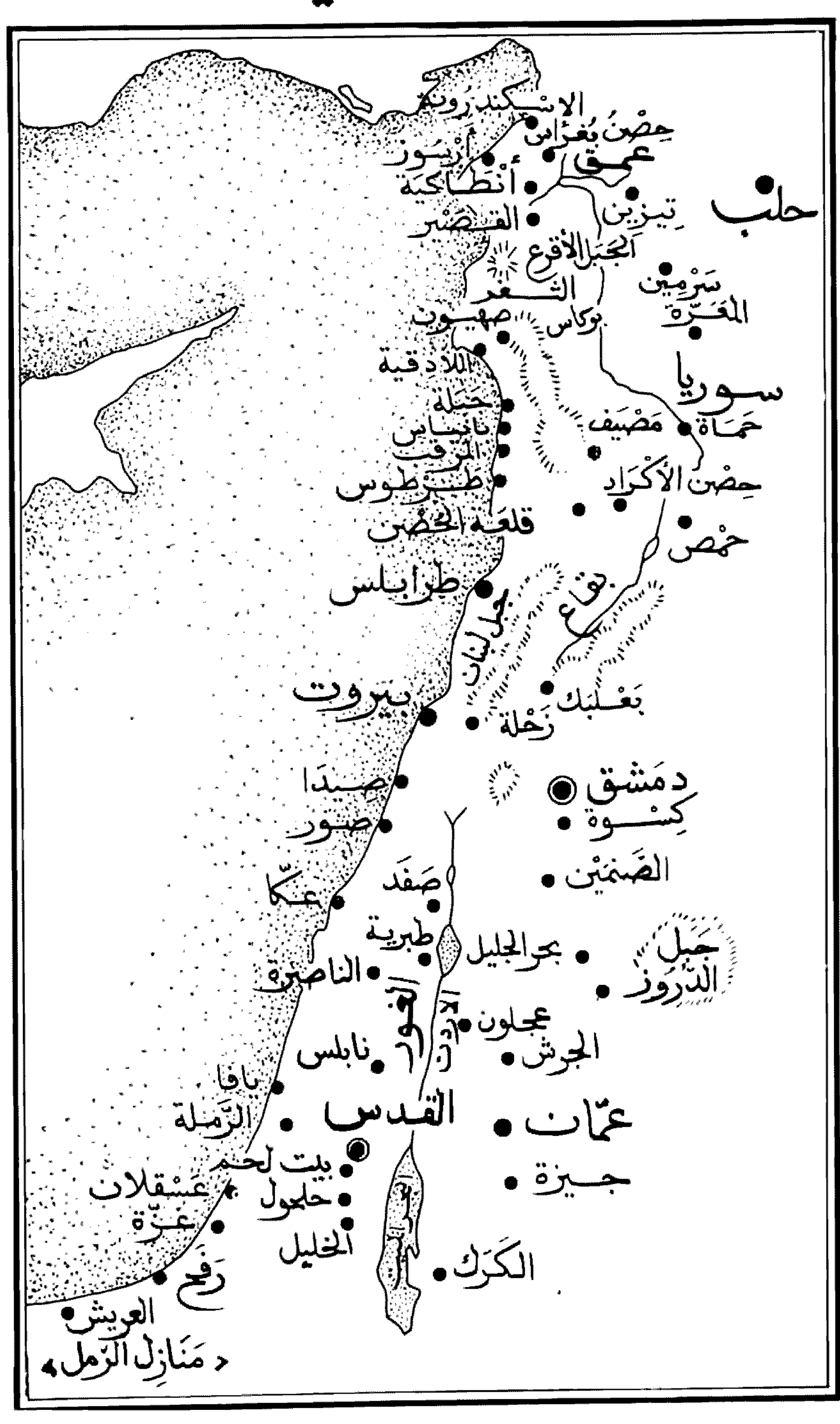
أقدم جواز سفر على البردي، أهداه إلينا مشكوراً معهد د. حسين رجب بالقاهرة

الفصل الثالث

الشام وفلسطين

- من غزة إلى القدس فعسقلان
- من عسقلان إلى حلَب
- مدينة حلَب
- من حلب إلى جبلة
- من اللاذقية إلى دمشق
- مدينة دمشق والجامع الأموي
- ضواحي دمشق
- الأوقاف في دمشق ومجيزو ابن بطوطة بها.

خريطة مسالك الشام وفلسطين





ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة (1)، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق بها المساجد العديدة ولا سور عليها، وكان بها مسجد جامع حسن، والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناه الأمير المعظم الجاولي (2)، وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض، وقاضي غزة بدر الدين السلختي الحُوراني، ومدرسها علم الدين بن سالم، وبنو سالم كبراء هذه المدينة، ومنهم شمس الدين قاضي القدس.

114/1

ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل (3) صلى الله على نبيّنا وعليه وسلم تسليما، وهي مدينة صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار حسنة المنظر، عجيبة المخبر، في بطن وادٍ، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع (4) مبني بالصخر المنحوت، في أحد أركانه صخرةٌ أحد أقطارها سبعةٌ وثلاثون شبرًا. ويقال : إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه (5)، وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس، فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب، صلوات الله على نبينا وعليهم، ويقابلها قبور ثلاثة : هي قبور أزواجهم، وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق يفضي إلى ساحةٍ مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة، ويقال : إنها

115/1

---

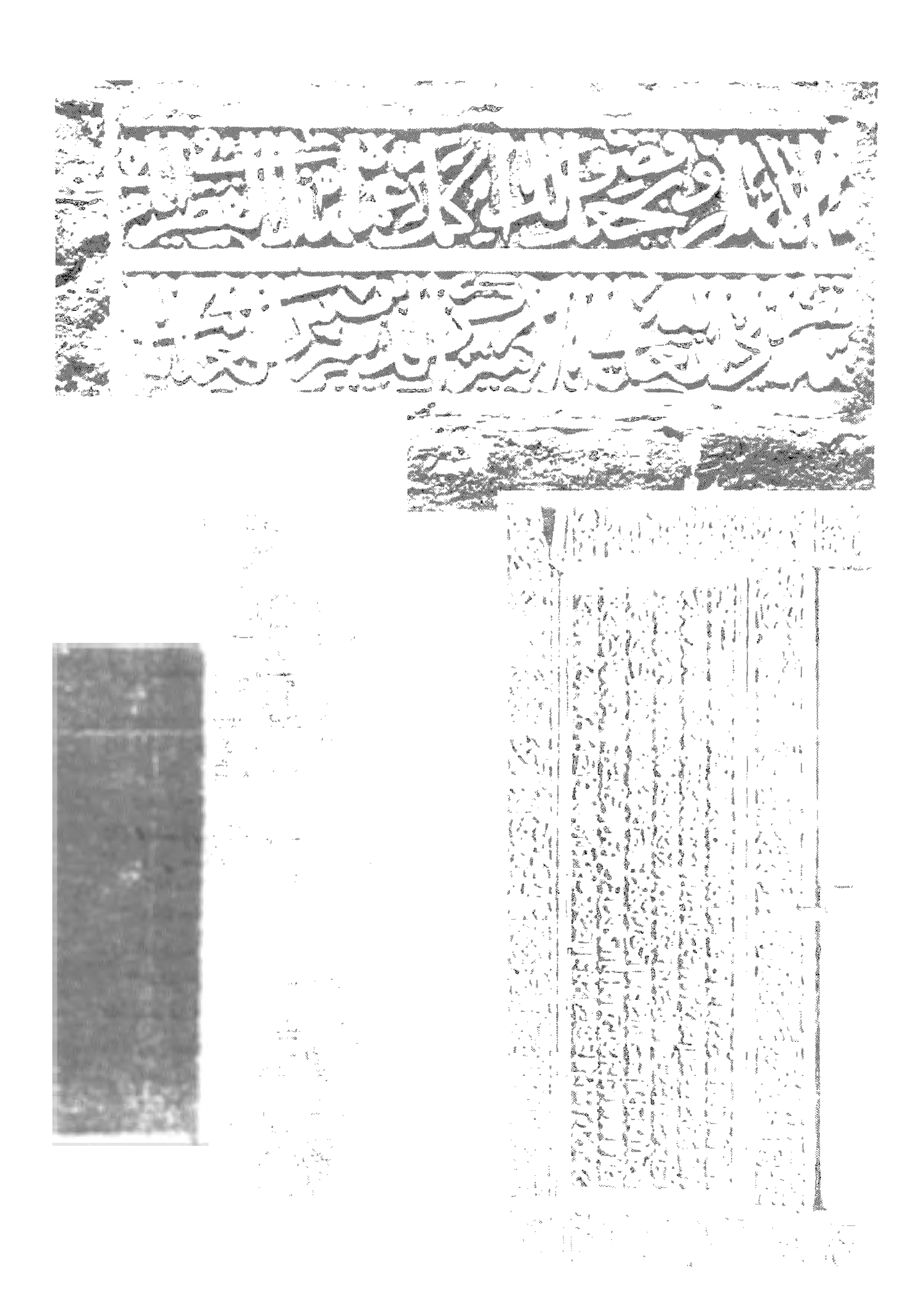
(1) كانت غزة سابقا بلدةً بسيطة تابعة لإقليم الرَّملة لكنها لم تلبث أن أصبحت مركزا حكوميًا في عهد الملك الناصر... وقد استعادت ذكرها اليوم بعد اتفاقية أوصلو 1993/9/13 بين الرئيس عرفات وبين الرئيس بريز (إسحاق رابين).

(2) القصد إلى سنْجر بن عبد الله الجاولي كان من مماليك (جَاولي) أحد أمراء الظاهر بَيْبَرْس. وولي نيابة غزة وبنى عدة مساجد منها هذا المسجد الذي بناه سنة 714 كما تفيده وثيقة التأسيس توفي بالقاهرة 745=1345 والمسجد الآن خراب ومنعزل عن العمران. سليم عرفات البيضي : البنايات الأثرية في غزة وقطاعها. نجدد الشكر للسيد عبد السلام سيناصر رئيس مكتب الاتصال بغزة على «فاكْساته» المفيدة.

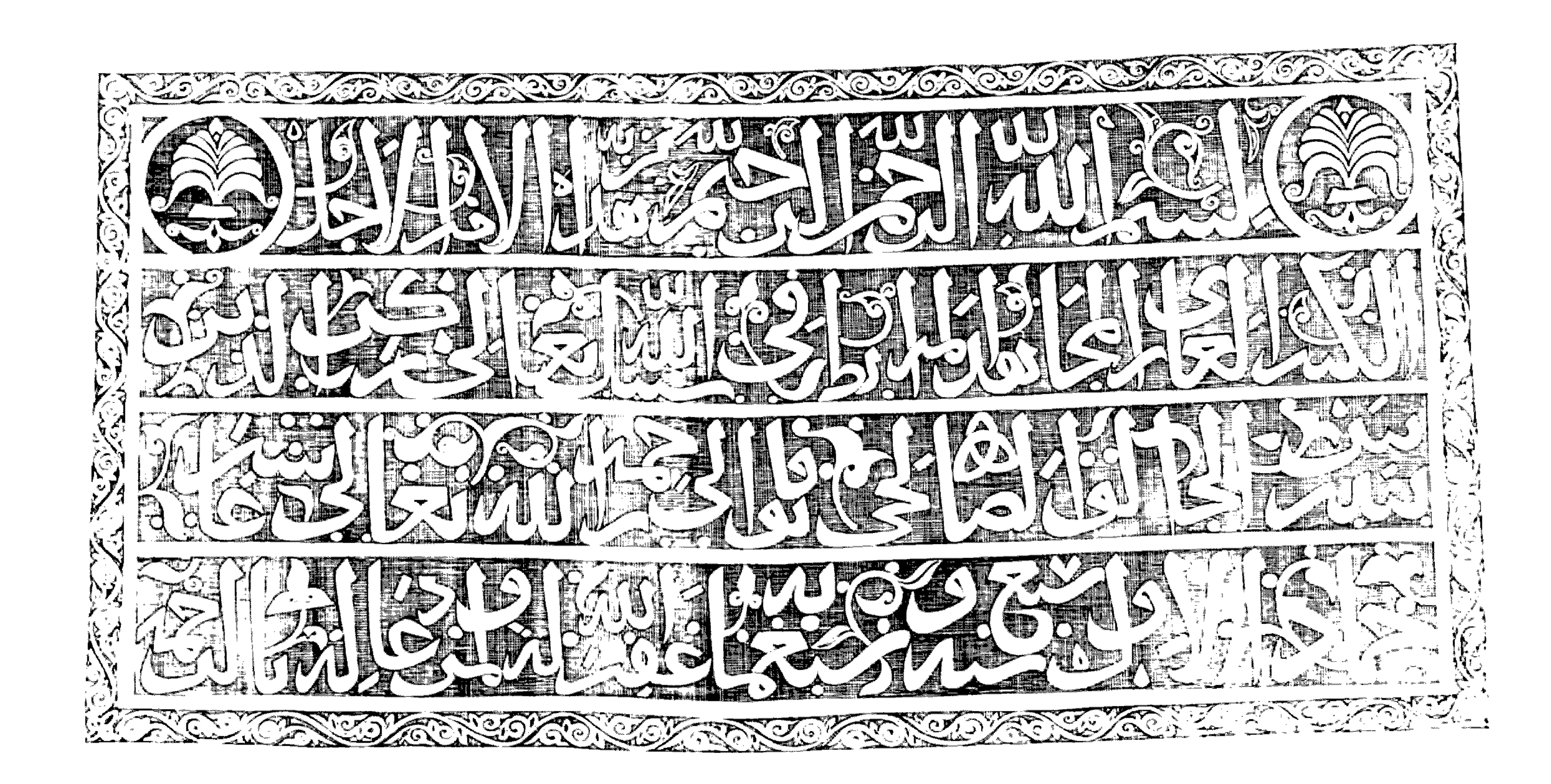
(3) الخليل لقب سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهذه المدينة هي التي تحمل إسم حَبرون (HEBRON) ويتحدث الهروي عن زيارته لمدينة الخليل بالمدينة في عهد بُودْوان عام 513هـ ... الإشارات – دمشق 1953 ص 31.

(4) يذكر أن هذا المسجد أيضا بني محل كنيسة شيدت على أثر روماني قديم ...

(5) "ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ... يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور رَاسيات ... السورة 34، الآية 13.



نقوش من غزة و من مدينة الخليل



قبرية بَيْبَرس الصالحي

محاذية لها. وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات، ومما ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه "المسفر للقلوب، عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب" (6) أسند فيه إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي إلى بيت المقدس مرَّ بي جبريل على قبر إبراهيم، فقال : انزل فصَلِّ ركعتين فإن هنا وُلد أخوك عيسى عليه السلام، ثم أتى بي إلى الصخرة، وذكر بقية الحديث ... ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري (7) أحد الصلحاء المرضيين، والأئمة المشهورين، سألتُه عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك، فقال لي : كلُّ من لقيتُه من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبيِّنا وعليهم السلام، وقبور زوجاتهم، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع، وهو نقل الخَلَف عن السلف لا يشك فيه.

116/1 117/1

ويذكر أن بعض الأيمة دخل إلى هذا الغار ووقف عند قبر سارة، فدخل شيخ فقال له : أي هذه القبور هو قبر إبراهيم ، فأشار له إلى قبره المعروف، ثم دخل شاب فسأله كذلك، فأشار له إليه، ثم دخل صبي فسأله أيضا فأشار له اليه، فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر إبراهيم عليه السلام لا شك، ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد، وبداخل هذا

---

(6) لم نقف على ترجمة لمؤلف هذا الكتاب علي بن جعفر الرازي ولا على هذا الكتاب ... ومن الطريف أن نقرأ في (كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات) تأليف أبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي سنة 611 أنه اجتمع في مدينة الخليل بمشايخ حدثوه أنه لما كان زمن الملك بردويل (Baudoin) انخسف الموضع في المغارة فدخل جماعة من الفرنج إليها بإذن الملك فوجدوا فيها ابراهيم وإسحاق ويعقوب قد بليت أكفانهم وهم مستندون إلى حائط وعلى رؤوسهم مناديل ... فجدد الملك أكفانهم ثم سدَّ الموضع وذلك سنة ثلاث عشر وخمسمائة..."

يبقى بعد هذا أن نذكر أن زيارة مدينة الخليل وزيارة بيت لحم من قبل الرسول عليه الصلوات، وهو في طريقه إلى بيت المقدس، مما لم تنص عليه الآثار النبوية والتي لم يروِها أبو هريرة، ولذلك فإن المسألة تظلّ محلّ دراسة من قبل المهتمين بالسيرة النبوية الشريفة.

الهروي : الزيارات، تحقيق جانين سورديل طومين، دمشق 1953 ص 30 - 31 - 32

Gibb : Travel I p. 75 Note 21.

(7) القصد إلى إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل بن أبي العباس الجعبري الرَّبعي، برهان الدين، ولد بقلعة (جعبر)، تعلم ببغداد ودمشق، واستقر بمدينة الخليل واشتهر هناك بشيخ الخليل، له نحو من مائة كتاب أكثرها مختصر ...منها نزهة البررة في القراءات العشرة، وشرح الشاطبية وشرح الرائية، أدركه أجله في رمضان 732 يونيه 1332. - الدرر الكامنة ج 1 ص 51 - 52.

المسجد أيضا قبر يوسف عليه السلام (8)، وبشرقيّ حرم الخليل تربة لوط عليه السلام (9)
118/1 وهي على تل مرتفع يشرف منه على غَور الشام، وعلى قبْره أبنية حسنة، وهو في بيت حسن البناء مبيض ولا ستور عليه.

وهنالك بحيرة لوط (10) وهي أجاج يقال إنها موضع ديار قوم لوط. وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين (11) وهو على تل مرتفع له نور وإشراق ليس لسواه ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيّمه، وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيء فيه صورة محراب لا يسع إلا مصليًا واحدًا، ويقال إن إبراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الأرض قليلاً.

119/1 وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام، وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوبٌ منقوش بخط بديع : بسم الله الرحمن الرحيم، لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبرأ وعلى خلقه كتب الفناء، وفي رسول الله أسوة، هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه، وفي اللوح الآخر منقوش : صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر، وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنتَ مَنْ كانَ في الأحشاَء مسكنُه
بالرَّغم منِّيَ بين التُّربِ والحَجَرِ
يَا قَبْر فاطمةٍ بنت ابن فاطمةٍ
بنت الأيمةِ بنتِ الأنْجُمِ الزُّهُرِ

(8) حول قبر سيدنا يوسف يُذكر ما قاله الهروي في كتابه الزّيارات (ص 24) "بلاطة قرية من أعمال نابلس وبها حقل يوسف الصديق وقبر يوسف بهذا الموضع عند الشجرة وهو الأصح..."

(9) قبر سيدنا لوط عليه السلام يوجد في قرية تحمل إسم (كفربريك) على ما يقوله الهروي (ص 22) ويضيف إلى هذا أن لوطا كان يقيم في قرية حملت إسم (يقين) وبها كان يسكن بعد رحيله من زغر .. وسميت (يقين) لأنّه لما رأى العذاب نزل بقومه سجد في هذا الموضع، وقال (أيقنت أن وعد الله حق).

(10) البحيرة : هي بالذات البحر الميت ... وقد زرناها مرارًا وتكرارًا وسبحنا في مائها المالح الأجاج الذي يرفع جسمك من غير حاجة إلى تحريك أطرافك !! ويُضمد جروحك إلى حدّ الازعاج !!

(11) مسجد اليقين يذكر أنه بنى عام 352 = 963 على نفس التُّربة التي سجد فيها سيدنا لوط في أعقاب عذاب قوم لوط.

يا قــبــرُ، مــا فِــيكِ من دينٍ ومن وَرَعٍ

ومِنْ عَـفَـافٍ، ومن صَـوْنٍ ومـن خَـفَـر (12)

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس، فزرت في طريقي اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد، وزرت (13) أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام، وبه أثرُ جذْع النخلة (14) وعليه عمارة كثيرة (15) والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ويضيّفون من نزل به.

ثم وصلنا إلى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه إلى السماء، والبلدة كبيرة منيفة بالصَّخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب (16)، جزاه الله عن

120/1

(12) تابعية، روت عن جدتها فاطمة ... ولما قتل أبوها حملت إلى الشام مع أختها سُكَينة وعمتها أم كلثوم بن علي ... فأدخلن على يزيد فقالت فاطمة يا يزيد، أبنات رسول الله سبايا ؟! قال : بل حرائر كرام أدخلي على بنات عمك، فدخلت على أهل بيته ... وعادت إلى المدينة، فتزوجها ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي ومات عنها (تـ 90 = 708) فتزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ومات ... أدركها أجلها عن سبعين سنة عام 110 = 728.. هذا وقد حملت إلينا معلومة ابن بطوطة هذه مشكلةً ينبغي التفكير فيها، ويتعلق الأمر بقبر فاطمة التي نعرف أنها توفيت بالمدينة. – عمر رضا حكالة : أعلام النساء ج 44.4.

(13) توجد التربة المذكورة في قرية حلحول شمال (حبرون) مدينة الخليل .. أما عن نبي الله يونس فالذي نعرفه عنه أنه يوجد على مقربة من مدينة الموصل وقد زرته مرارًا أثناء سفارتي لدى العراق ...

(14) الإشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم : "فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا ... الآية 23 - 26 من السورة التاسعة عشرة، وقد ذكر ابن حوقل أن "النخلة إلى الآن هناك معظمة" ... وقد اختفت النخلة اليوم.

(15) القصد إلى كنيسة ميلاد المسيح (La Nativité) التي أعيد بناؤها عام 564 = 1169 من لدن مانييل كومنين (M. Comnène) أمبراطور بيزنطة.

(16) استرجع صلاح الدين بيت المقدس (أوا يلياء) من يد الصليبيين عام 583 = 1187 – وعن الملك الظاهر المعروف تحت إسم بَيْبَرس (BAYBARS) نعرف أنه كان سلطانًا من المماليك على مصر من عام 658 = 1260 إلى عام 675 = 1277، أما عن الأسوار المهدومة فيظهر أنه لا هذا ولا ذاك هو الذي قام بهدمها، ولكن الذي قام بذلك هو الملك المعظم عيسى بن أخي صلاح الدين وأمير دمشق عام 616 = 1219 أثناء الحرب الصليبية الخامسة ... وأخيرًا نذكر أنّ الأسوار الحالية هي من بناء العاهل العثماني سليمان القانوني 926 = 1520 - 974 = 1566 . هذا ومن أسماء البيت المقدس أورشليم التي وردت بالعبرانية في شعر الأعشى :

وطوَّفتُ للمال آفاقه ... عُمان فحمص فأوريشَلَم

أتيت النجاشيَ في داره ... وأرض النبيط وأرض العَجَم

أنظر مادة أورِيشلَم في معجم البلدان.



رسم قديم لبيت المقدس من المكتبة الوطنية لباريز

121/1 الإسلام خيرًا، لما فتح هذه المدينة هَدَم بعض سورها، ثم استنقض الملك ▒ الظاهر هدمه خوفًا أن يقصدها الروم فيمتنعون بها، ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم، وجلب لها الماءَ في هذا العهد، الأمير سيف الدين تنْكِيز (17) أمير دمشق.

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن، يقال إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه وأن طوله من شرقٍ إلى غرب سبعماية واثنتان وخمسون ذراعًا بالذراع المالكية (18) وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعماية ذراع وخمس وثلاثون ذراعا، وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا بابًا واحدًا وهو الذي يدخل منه الامام، والمسجد كله فضاء غير مسقف إلا المسجد ▒ الأقصى فهو مسقف، (19) في 122/1 النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والاصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقفة.

(17) يعتبر تَنكيز من أبرز الشخصيات في المملكة، يكني أبا سعيد ... جُلب إلى مصر وهو صغير ثم صار إلى الناصر ثم كان في صحبته يترسل بينه وبين الأفرم ... لم تكن له همة في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا منكح إلا في تأمين الرعايا، وكان يقول : أي لذّة للحاكم إذا كانت رعاياه يدعون عليه ؟! وكان الناصر لا يفعل شيئا إلا بعد مشورته ... وله عدة منشآت حضارية وهو الذي أجرى العين إلى بيت المقدس، وكان من المولعين بالصيد بالصقور ... ولم تلبث الأيام أن تنكّرت له، فقد أشيع عنه أنه عزم على الفرار إلى بلاد التتار (الإيلْخان) فبلغ ذلك للسلطان الذي تغير عليه وأصدر أمرًا بالقبض عليه وتعرض للإهانات والمصادرات ولم يدم في الإعتقال إلا دون الشهر، وأدركه أجله أوائل 741 = يوليه 1340. الدرر 2، 55 وما بعدها ...

(18) قبل ابن بطوطة وجدنا خسرو علوي الذي سجل مذكرات حجّه 437 - 444 = 1052 في كتابه (سفرنامه) يقول : إن طول المسجد أربع وخمسون وسبعمائة ذراع وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع بذراع الملك " قال : وهو أي ذراع الملك أقلُّ قليلاً من ذراع ونصف، هذا وإذا كان ابن بطوطة غفل عن نقوش الأقصى... فإن البلوي في رحلته (تاج المفرق)، استطاع أن ينقل زهاء خمسة من المنقوشات التاريخية المفيدة، وكذا السفير المغربي ابن عثمان في رحلته اجراز المعلى والرقيب...) انظر مخطوطة البلوي في الخزانة العامة.

ناصر خسرو علوى : سفرنامه، ترجمة د. يحيى الخشاب (مشروع الألف كتاب الثاني، 122 - الهيأة المصرية العامة للكتاب 1993 ص 69. رحلة ابن عثمان : إحراز المعلّى والرقيب مخطوطة.

(19) يتعلق الأمر بفناء كبير يسمى الحرم الشريف يحتوي على مسجدين : المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، والأول يتألف من بلاط بيزنطي يعود تاريخه للقرن الأول الهجري = السابع الميلادي، كما يتألف من مدخل قوطي بني سنة 624 = 1227، هذا ولابد من الإطلاع على ما في (نزهة المشتاق) للادريسي الذي يقارن بين جامع قرطبة وبين المسجد الأقصى (ج 4 ص 359 - 360)، مطبوعات المعهد الشرقي نابولي، إيطاليا فليراجع ...

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة، وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة، ورايق الصنعة، ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي تتلألأ نورًا وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها ‖ ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. 123/1

وفي وسط القبّة الصخرةُ الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي صلى الله عليه وسلم عرج منها إلى السماء، وهي صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة (20)، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير إرتفاعها نحو قامة أيضا، ينزل إليها على درج، وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل يغلقان عليها : أحدهما وهو الذي يلي الصخرة من حديد بديع الصنعة (21) والثاني من خشب، وفي القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(20) نرى من المهم أن نؤكد هنا على أن اهتمام المسلمين ببيت المقدس، لايقل اطلاقا عن اهتمامهم بمكة والمدينة د. التازي. طرق الايمان - بحث قدّم لاجتماع خبراء اليونيسكو حول الأديان السماوية - الرباط يونيه 1995. هذا ويلاحظ أن القبة مثمنة الشكل تشبهها صومعة شفشاون ووزّان بالمغرب.

(21) يذكر الهروي الذي زار القدس سنة 569 = 1174 أنه رأى الصخرة في زمان حكم الفرنج بالقدس وأنه قرأ كتابةً في سقفها هذه صورتها : بسم الله الرحمن الرحيم الله الذي لا إلاه إلا الله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم الآية ... والكتابة بالفص المذهب ... ولم تغيّره الفرنج ... تحتها مغارة الأرواح ... ذكروا أن أرواح المؤمنين يجمعها الله بها. ويُنزل إلى هذه المغارة في أربعة عشرة درجة ... وقد ذكر خسرو الذي زار قبة الصخرة قبل الهروي بقرن وربع القرن أن الصخرة كانت قبلة لِموسى وسليمان وظلت قبلة إلى عهد نبيّنا عليه السلام وضع يده عليها ليلة المعراج ... ويذكر كيب (Gibb) أن الشباكين نصبا أيام احتلال الصليبيين للقدس في القرن السادس الهجري ... د. التازي : القدس والخليل عند الرحالة المغاربة بحث وزع في الدورة الثانية المنعقدة في عمان لأكاديمية المملكة المغربية دجنبر 1996.

مسجد الصّخرة، القدس / فلسطين

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

124/1 فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد على تلٍّ مرتفع هنالك بنْيةٌ يقال إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء (22)، ومنها أيضا قبر رابعة البدوية (منسوب إلى البادية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة (23)، وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ويقولون : إن قبر مريم عليها السلام (24) بها، وهنالك أيضا كنيسة أخرى معظمة يحجها النصارى (25)، وهي التي يكذبون عليها ويقولون إن قبر عيسى عليه السلام بها (26)، وعلى كل من يحجُّها ضريبة معلومة للمسلمين، وضروب من الإهانة يتحملها

125/1 رغم أنفه، وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغَزّي بفتح الغين وهو من أهل غزة وكبرائها (27)، ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي، ومنهم المحدّث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقات الكريمة أبو عبد الله محمد بن

---

(22) يلاحظ من خلال الوصف الدقيق الذي قدمه ابن بطوطة تعلق الرحالة المغربي ببيت المقدس ... وقد قرأنا في (سفرنا مه) لناصر خسرو علوي عن (الرواق المغربي) الذي كان هناك على عهده 444 = 1052 كما قرأنا عن الحُصُر المغربية التي كانوا يفرشون بها الحرم الشريف وكانت تفوق الديباج حسنًا ونعومة إلى جانب الدنانير المغربية التي كانت رائجة هناك مما يؤكد الوجود المغربي المبكّر في هذه الأماكن ...
د. التازي : أوقاف المغاربة في القدس - مطبعة المحمدية رقم الإيداع القانوني 1981.

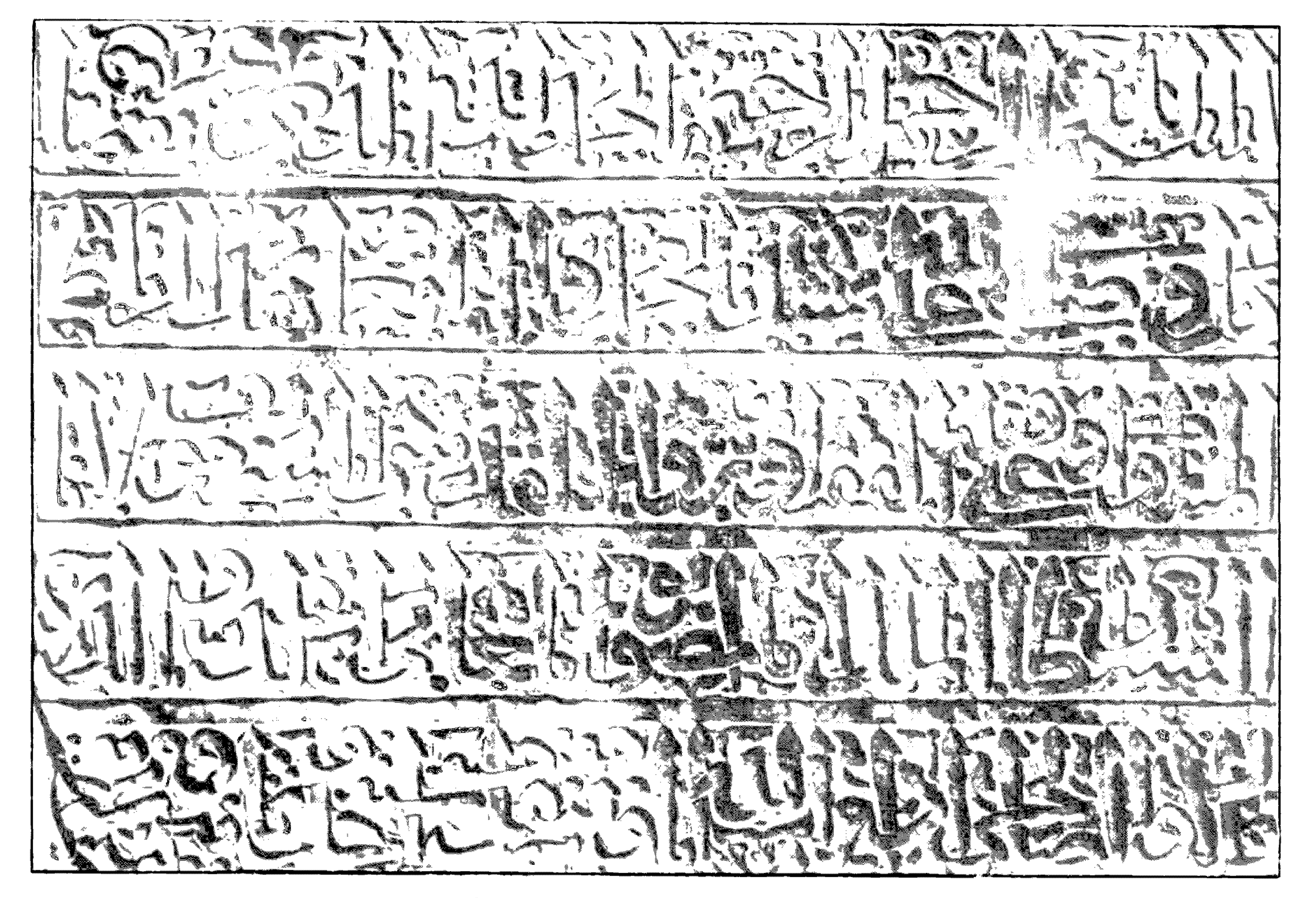
(23) ربيعة البدوية سيدة عابدة، قبرها في جبل الزيتون وهو الموجود في مقبرة سانت بيلاجي (Saint-Pelagie) حسب نقول بعض الحجاج الغربيين أما رابعة أو ربيعة بنت إسماعيل العدوية فهي صوفية كبيرة شهيرة. عاشت بالبصرة، وأدركها أجلها بالبصرة عام 185 = 801، ويظهر من كلام الهروي أن الذي يوجد بالجبل هو بيت العدوية وليس قبرها ... قال : والصحيح أن قبرها بالبصرة، وأمَّا التي توجد بجبل القدس فهي رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواريّ (ص 28 من الاشارات).

(24) الذي في كتاب الاشارات للهروي إن قبر مريم أم عيسى في وادي جهنم يُنزل إليه في ست وثلاثين درجة ... ص 28.

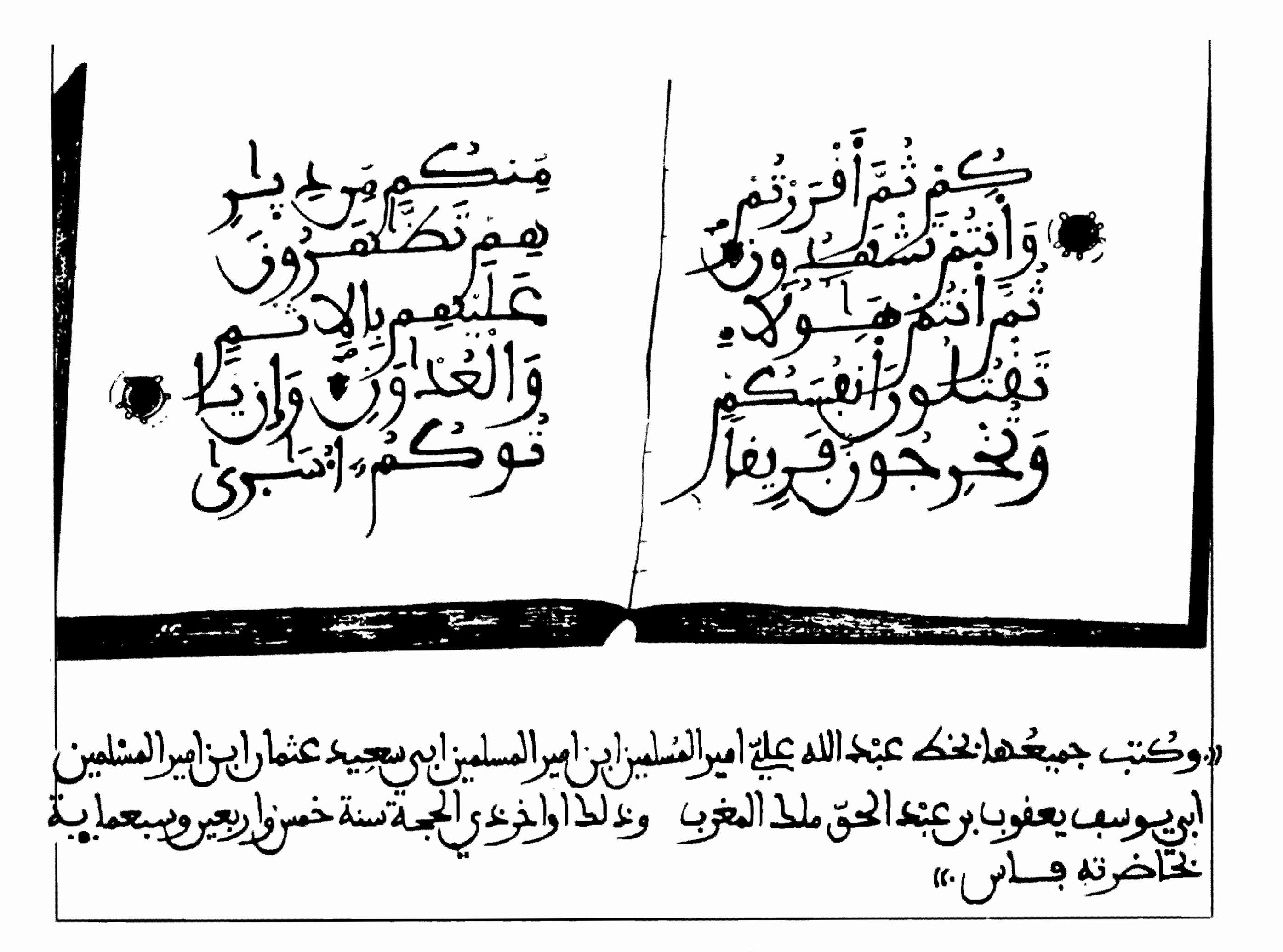
(25) هي كنيسة سان - سيبُولكر (S. SEPULCRE) الذي تعرف بـ : (كنيسة القمامة) التي تركها الخليفة عمر ابن الخطاب للمسيحيين.

(26) في القرآن الكريم : "إذ قال الله : يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهِّرك من الذين كفروا ...

(27) هو محمد بن سالم بن عبد الناصر بن سالم الكناني الغزي، شمس الدين ... حدّث وأفتى وحكم بالقدس وتوفي سنة نيف وخمسين وسبعمائة 1350 - الدرر 4، 62 - 63.



وثيقة تأسيس الرباط الذي أنشأه بالقدس السلطان قلاون عام 681 1282 عن أرشيف ماكس فان بيرشم جنيف



ورقات من المصحف الذي كتبه بخطه وأهداه إلى بيت المقدس سلطان المغرب أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان وجعل على تلاوته أوقافاً عديدة...

مثبت الغرناطي نزيل القدس(28)، ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين، ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرْز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي، صحبته ولبست منه خرقة التصوف (29).

126/1

ثم سافرت من القدس الشريف (30) برسم زيارة ثغر عسقلان (31) وهو خراب قد عاد رسوما طامسة، وأطلالاً دارسة، وقلَّ بلد جَمع من المحاسن، ما جمعته عسقلان، اتقانًا وحسن وضع وأصالة مكان، وجمعًا بين مرافق البر والبحر، وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام قبل أن ينقل إلى القاهرة (32)، وهو مسجد عظيم سامي العلو فيه جُب للماء أمر ببنائه بعض العُبيديين وكتب ذلك على بابه (33).

وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه، وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد، ومن جملتها أُسطوانه حمراء عجيبة يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم ثم فقدوها فوجدت في موضعها بعسقلان.

127/1

(28) أتساءل عن عدم ذكر ابن بطوطة لأوقاف المغاربة بالقدس المنسوبة للشيخ عمر المصمودي وترجع لتاريخ 703هـ. والمنسوبة لابن هذين وترجع لتاريخ 720 هـ. د. التازي -القدس والخليل عندالرحالة المغاربة- نشر منظمة الإيسيسكو 1997.

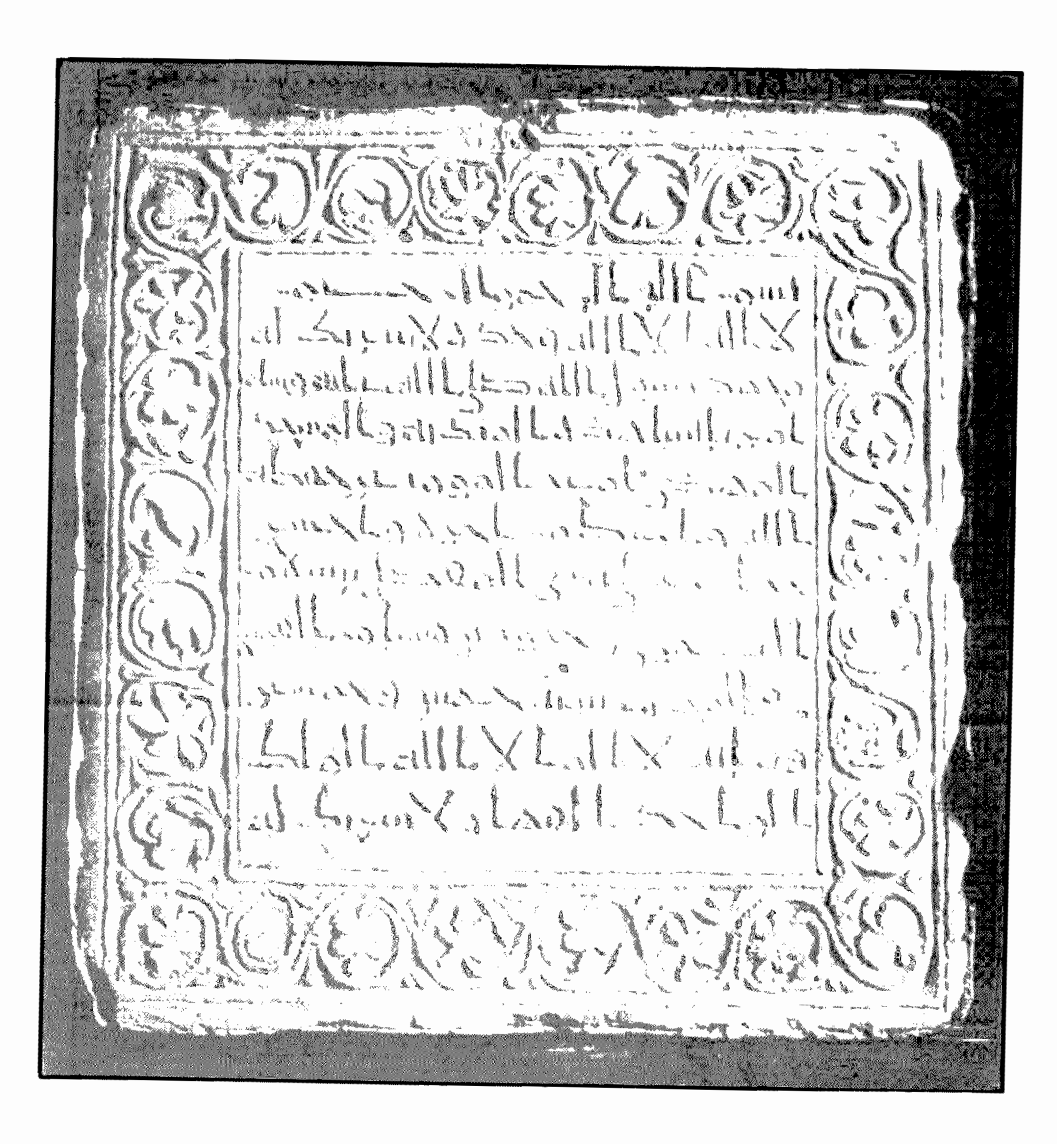
(29) الخِرقة يسلمها الشيخ إلى مريديه بعد طول عشرة وممارسة، وهي تعني انقطاع حاملها عن هذا العالم وانصرافه الكامل للعبادة، ... وبما أن الوقت لم يُمكن ابن بطوطة من طول الممارسة، فيظهر أن تسليمه "الخرقة" إنما كان تعبيرًا عن "التبرُّك" و "توسم" الخير فيه ...

(30) يلاحظ أن ابن بطوطة – وقد غادر القاهرة – كما هو معلوم حوالي 15 شعبان = 17 يوليه ووصل إلى دمشق يوم 7 رمضان = 7 غشت، لم يكن في استطاعته إلا أن يقوم بقطع المسافة مباشرة بين القدس وبين دمشق، وهكذا فإن معظم البقاع التي ذكر أنه زارها إنما تمكن من زيارتها -على مايبدو- أثناء مروره اللاحق عليها خلال عام 733 = 1332 و 749 = 1348.

(31) عسقلان (ASCALON) التي هدمها صلاح الدين خلال حربه ضد ريشارد قلب الأسد عام 587 = 1191، أجهز عليها بصفة نهائية بيبَرس عام 668 = 1270، يوجد موقعها شمال غزَّة وجنوب يافا (تل أبيب)

(32) يذكر الهَروي الموصلي سالف الذكر أن رأس الحسين نقله المسلمون إلى القاهرة من عسقلان، عند الإستيلاء علىَ عسقلان من لدن الفرنج عام 549 = 1154...

(33) القصد إلى الخليفة الفاطمي، المستنصر (427 = 1035 - 487 = 1094) سليل عُبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية بتونس، وهو الذي أسس المسجد عام 294 = 908 ... ويلاحظ استعمال ابن بطوطة لعبارة "العُبيديين" دون "الفاطميين".



نقوش من عسقلان ترجع لعام 155 هجرية عن أرشيف بيرشم، جنيف

وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر إبراهيم عليه السلام (34) ينزل اليها في درج متسعة ويدخل منها إلى بيوت، وفي كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة، وماؤها عذب وليس بالغزير، ويذكر الناس من فضائلها كثيرًا.

وبظاهر عسْقلان وادي النَّمل ويقال إنه المذكور في الكتاب العزيز (35) وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء مالا يحصر لكثرته (36) أوقفنا عليهم قيّم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر ‖ مع ما يصل إليه من صدقات الزوار. 128/1

ثم سافرت منها إلى مدينة الرَّملة (37) : وهي فلسطين، مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق وبها الجامع الأبيض (38) ويقال إن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين، عليهم السلام (39) وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسي.

ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس (40) وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار، مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتونًا، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق، وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها، وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرُّب فتصنع منه الحلواء، ويجلب ذلك الرُّب أيضا إلى مصر والشام وبها البطيخ

---

(34) يذكر الهروي أن هذا البئر هو بئر إبراهيم خليل الله، ويقال إنه حفره بيده ... ص 32 – الاشارات.

(35) "وحشر لِسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا وادي النمل قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم ... سورة النمل 27 الآية 17 - 18.
وقد ورد عند الهروي : انه بين بيت جبرين وعسقلان يوجد وادي النمل حيث تحدث سيدنا سليمان إلى النمل على ماهو معروف.

(36) هنا مقابر عدد من شهداء الحروب الصليبية وعدد من الصالحين، ويؤكد الهروي (611 = 1215) أن مقبرة عسقلان تضم جملة وافرة من الأولياء والصحابة الذين لم تعرف أسماؤهم ...

(37) الرملة : مدينة أسست عام 97 = 716 من لدن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (تـ 99 = 717 م) وينعتها المقدسي بأنها قصَبة فلسطين أي عاصمتها.

(38) ذكر المقدسي : "إنَّ الجامعَ الأبيض .. هذا أبهى وأرشق من جامع دمشق وليس في الإسلام أكبر من محرابه .. وله منارة بهية، بناه هشام بن عبد الملك ..." وقد أعيد بناؤه من لدن الملك الناصر عام 718 = 1318.

(39) يروي الهروي أنه توجد هناك مقابر لِسبعين نبيًا ماتوا جوعًا في يوم واحد، أخرجهم بنو إسرائيل من القدس فالْجاوهم إلى الرملة ثم أحاطوا بهم ... الإشارات ص 33.

(40) نابلس مدينة السَّامرة على حدّ تعبير ابن حوقل وتشتهر اليوم بمعاملها المتخصصة في صناعة الصابون...

الرملة / فلسطين

129/1 المنسوب اليها وهو طيب عجيب. ومسجدها الجامع في نهايةٍ من الاتقان والحسن، وفي وسطه بركة ماء عذب.

ثم سافرت منها إلى مدينة عَجْلُون (41) وهي بفتح العين المهملة وهي مدينة حسنة، لها أسواق كثيرة، وقلعة خطيرة، ويشقها نهر ماؤه عذب.

ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغَوْر (42) وهو وادٍ بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة رضي الله عنه (43)، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل وبتنا هنالك ليلة. ثم وصلنا إلى القُصَير (44) وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله (45) عنه، تبركت أيضا بزيارته.

ثم سافرت على الساحل فوصلت إلى مدينة عكّة (46) وهي خراب، وكانت عكة قاعدة

(41) تقع عجلون (ADJLOUN) في الشمال الغربي لجرش بالملكة الأردنية الهاشمية، وقلعتها التي تحمل إسم قلعة الرَّبض أسست سنة 580 = 1184 من لدن أحد حكام السلطان صلاح الدين : عز الدين أسامة، وقيل إنه كان في مكان القلعة دير قديم يسكنه نصراني إسمه عجلون ابن شداد (تـ 648). الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. - تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1382=1962 ص 86-87 إلخ ... وقد زرت القلعة عدة مرات. W.M. Thomson, The Land and The Book, London 1883.

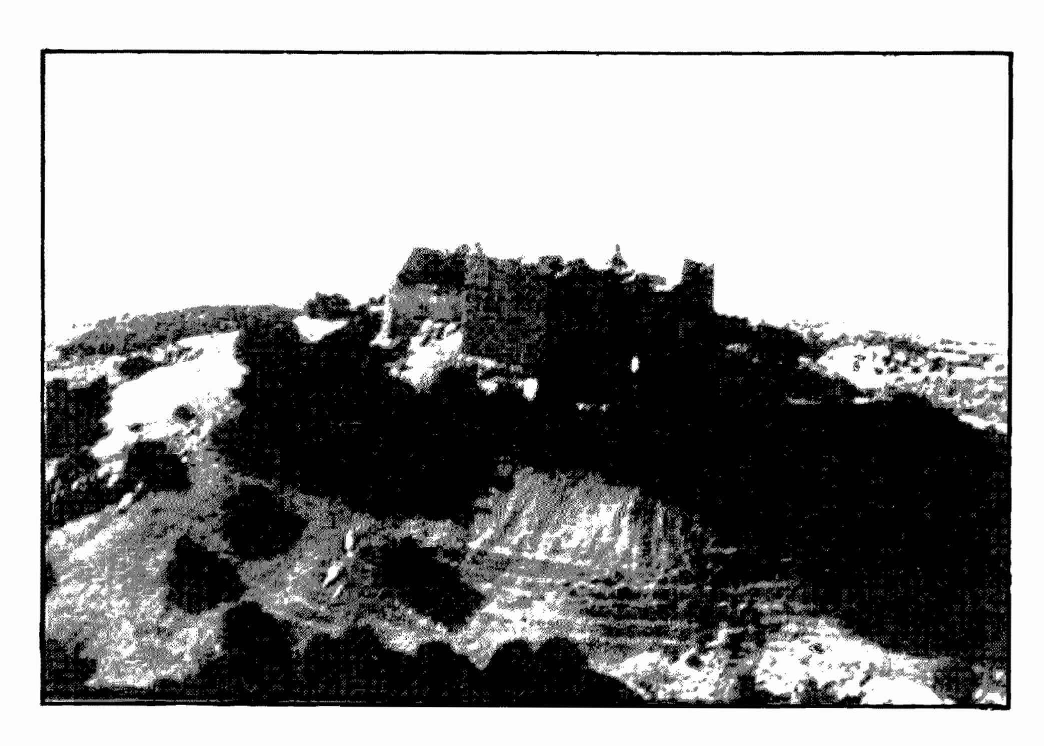
(42) الغور هنا وادي الأردن جنوب بحيرة طبرية أما عن اللاذقية فسياتي الحديث عنها مفصّلاً ...

(43) أبو عبيدة هو عامر بن عبد الله بن الجرَّاح، فتح الديار الشَّامية وبلغ الفرات شرقا وأسيا الصُّغرى شمالاً كان لقبه أمين هذه الأمة، قال ابن عساكر : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة، أدركه أجله بسبب طاعون عمواس عام 18 = 639 وقبره، حسب ياقوت، على بعد اثني عشر فرسخًا من طبرية. - ابن خلكان : الوفيات 3، 149.

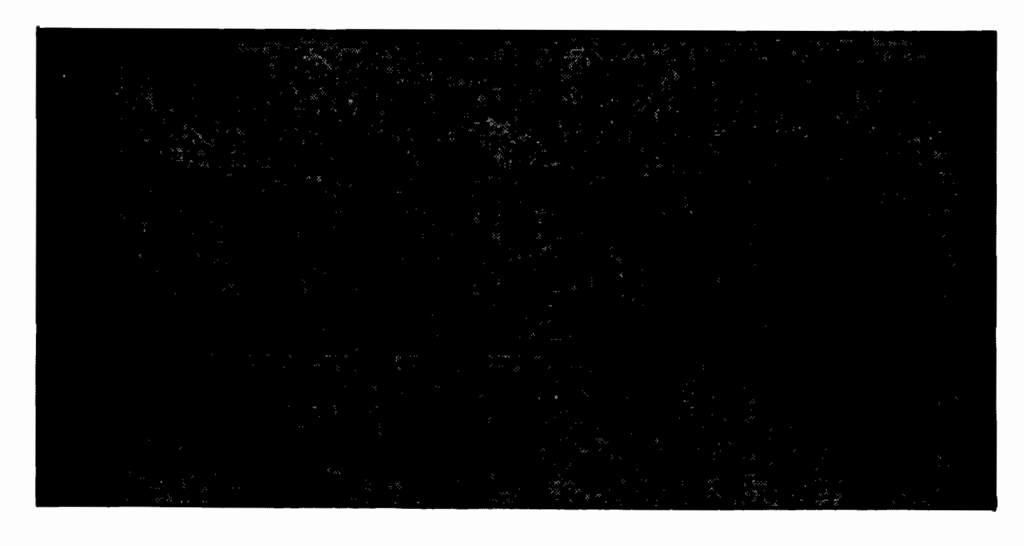
(44) القصد إلى قُصير معين الدين بالغور الذي ذكره ياقوت من أعمال الأردن، يكثر فيه قصب السكر.

(45) معاذ بن جبل الأنصاري ... بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد غزوة تبوك قاضيّاً ومرشداً لأهل اليمن وأرسل معه كتابًا إليهم يقول فيه : إني بعثت لكم خير أهلي ... وقد شارك معاذ أبا عبيدة في فتح الشام وخلفه بعد وفاته لكنه مات أيضا بالطاعون في نفس السنة 18 = 639 دفن بالقُصير سالف الذكر. ابن خلكان الوفيات 166 - 149.

(46) إسم عكا قديم جداً، كانت صلة الوصل بين مصر وسورية وورد في الأعلاق الخطيرة لابن شداد أنها "قفل بلاد الساحل، وقصبة ما فيه من الحصون والمعاقل، أنشأ بها معاوية ابن أبي سفيان سنة (49) دار صناعة للأسطول، ولما كانت سنة 247، أمر المتوكل بترتيب المراكب بعكا ... وقد آلت إلى الافرنج إلى أن قصدها صلاح الدين بعد كسرتهم في حطين وأسر ملوكهم ونازلها في ربيع الآخر 583... وبقيت في يده إلى أن قصدها الفرنج بدورهم ونازلوها يوم 13 رجب سنة 585... إلى أن دخلوها يوم الجمعة 17 جمادى الثانية 587 وقد هدمت سنة 590 = 1291 عندما استرجعت من لدن السلطان الأشرف خليل، والجدير بالذكر أنها كانت المنطلق للرحالة ماركُو پُولو إلى آسيا فمنها أبحر قاصدا الصّين على مايقال.



قلعة الربض



نقوش من عجلون : عن أرشيف ماكس فان بيرشم -جنيف

130/1 بلاد الافرنج بالشام ‖ ومرسى سفنهم، وتشبه بقسطنطينية العظمى، وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر، يقال إن الله تعالى أخرج منها البقرة لآدم عليه السلام (47)، وينزل اليها في درج، وكان عليها مسجد بقى منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام(48) .

ثم سافرتُ منها إلى مدينة صور وهي خراب (49)، وبخارجها قرية معمورة، وأكثر أهلها رافضيون (50) ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فأخذتُ عليه في فعله فقال لي إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الآساس ! ومدينة صُور
131/1 هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة لأن (51) ‖ البحر محيط بها من ثلاث جهاتها، ولها بابان أحدهما للبر والثاني للبحر، ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فُصُلان كلها في ستاير محيطة بالباب، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين.

وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغربُ شأنًا منه لأن البحر محيطٌ بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور، تدخل السفن تحت السور، وترسو هنالك، وكان فيما تقدم، بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل إلى الداخل هنالك ولا إلى الخارج إلا بعد حطها، وكان عليها الحراس والأمناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج إلا على علم منهم.

وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار.

---

(47) يذكر الهروي "أن من عين البقر في عكا خرجت البقر فحرث آدم عليها، وهي أسطورة اسرائيلية تناقلتها بعض المصادر الإسلامية ... وهذا الموقع يعرف اليوم بعين الست.

(48) صالح نبي الله المُرسَل لثمود الذي خاطبه الله تعالى بقوله في كتابه : ونبئهم أن الماء قسمة بينهم"، ويذكر الهروي (ص 22) أن قبر سيدنا صالح كان موجوداً في قبلة جامع عكا ... وقد اختفى اليوم كل من المسجد والقبر !

(49) صور (TYR) مدينة حسنة حصينة يحفها البحر من ثلاث جهات، يقول ابن شداد في كتابه الأعلاق الخطيرة : وقد هدمت (صور) في نفس السنة التي هدمت فيها عكا 690 = 1291 حتى لا يطمع فيها الافرنج ثانية. - ابن شداد الاعلاق الخطيرة ص 162 - 163 وما بعده.

(50) الرافضة نعت أطلق من لدن أهل السنَّة على الشيعة الذين رفضوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وإلى الآن فإن الجنوب الحالي للبنان يحتضن عدداً من السادة الشيعة ... هذا ومعلوم أن أهل السنة يبتدئون وضوءهم انطلاقًا من الوجه ثم اليدين ثم الرجلين ...

(51) الجُمَل الواردة عن (صور) كلها مقتبسة بالحرف من رحلة ابن جبير. هذا وكلمة الفصلان جمع فصيل : حائط صغير دون سور المدينة ...

صــور

132/1 ثم سافرتُ منها إلى مدينة صَيْدا (52) وهي على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري وهو حسن الأخلاق كريم النفس.

ثم سافرت منها إلى مدينة طَبَرية (53) وكانت، فيما مضى مدينة كبيرة ضخْمة ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها، وعظم شأنها، وبها الحمَّامَات العجيبة، لها بيتان : أحدهما للرجال والثاني للنساء وماؤها شديد الحرارة، ولها البُحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ.

وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب (54) عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام، وقبر سُليمان عليه السلام، وقبر يَهودًا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

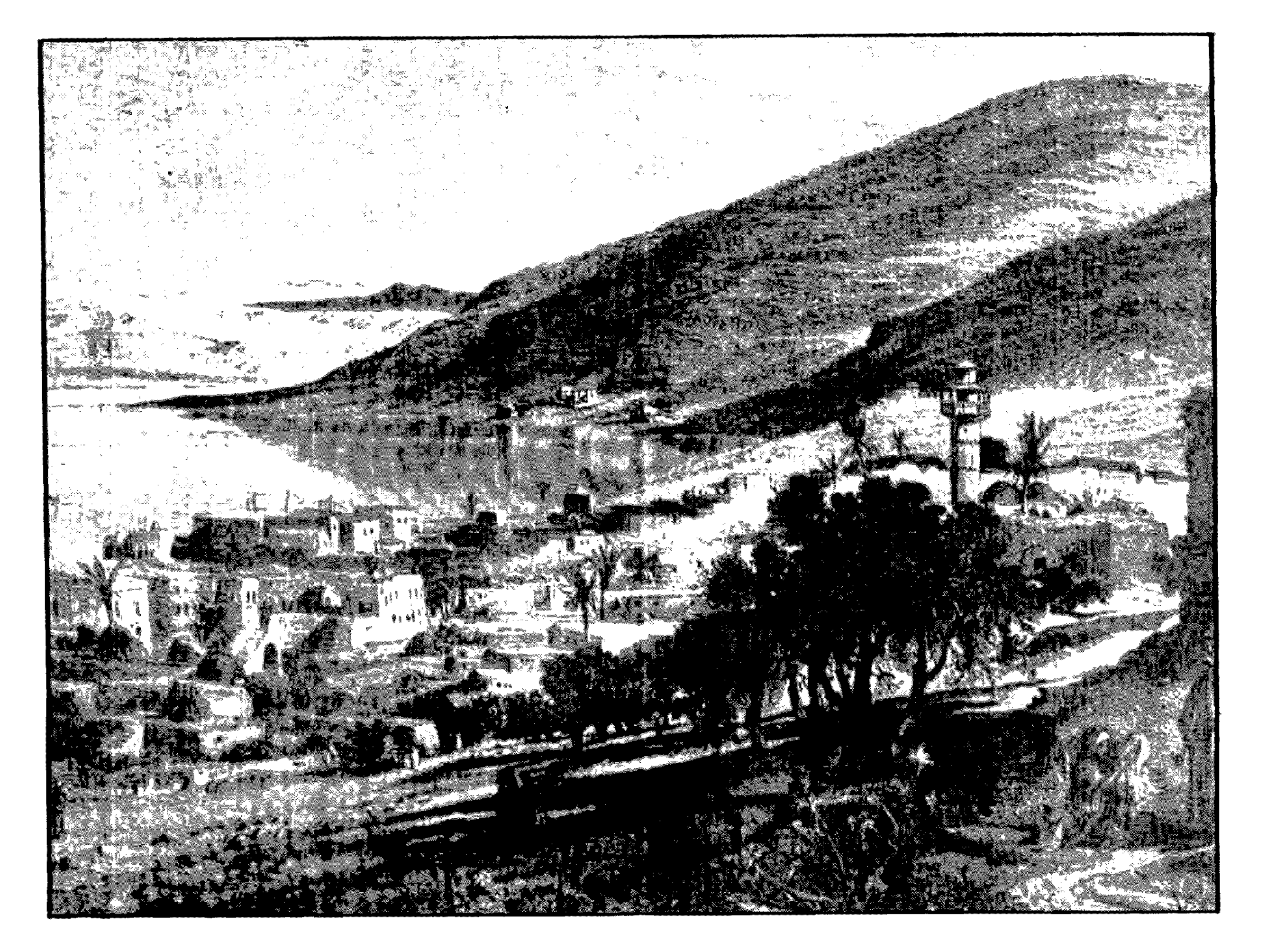
133/1 وقصدنا منها زيارة الجُبّ الذي ألقي فيه يوسف عليه السلام (55) وهو في صحن مسجدٍ صغير وعليه زاوية، والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر، وأخبرنا قيّمه أن الماء ينبع منه أيضا.

(52) تقع صيدا على ساحل البحر، كان شرب أهلها كما يقول ابن شداد من ماء يجري إليها من جبلها في قناة وبها عينها المعروفة التي يتولد بها سمك على طول الأصبع إذا كان وقت سفادها أخذت ثم جُففت فإذا احتاج اليها من يريد أن يجامع سقيت بالماء وشرب منه فلا يصيبه عجز ولا فتور ! يقول ابن شداد .. لم تزل في يد الفرنج حتى فتحها الملك صلاح الدين عام 583...

(53) طبرية (TIBERIAD) كانت بقايا آثار المدينة القديمة توجد جنوب المدينة العربية ... وقد نعتها المقدسي بأنها قصبة الأردن، وقال : إن بها ثماني حمامات بلا وقيد ومياضي عدة حارة الماء وقد ذكر ابن شداد أن حماماتها تنصبّ إليها مياه حارة في الشتاء والصيف ... الاعلاق الخطيرة 129.

(54) سيّدنا شعيب من أنبياء الله المشار إليهم في القرآن الكريم ... ويذكر أن قبره يوجد في قرية حِطين غرب طبرية وهذا المكان يوجد دائماً، والكليم كما نعلم نعت لِنبي الله موسى عليه السلام.

(55) يذكر الهروي أن كابول (قريبة من الناصرة) بها إثنان من أولاد يعقوب وهما روبين وشمعون وأنه يوجد بالقرافة قبر ابن يعقوب، ويذكر ابن حوقل أن قبر يوسف يوجد على بعد إثنى عشر ميلاً من طبرية في طريق دمشق ... ويذكر الهروي أن البئر يوجد على طريق بيت المقدس على مقربة من مكان يحمل إسم سنجيل (SINDJIL). - الاشارات ص 20 - 21.



طبريا / فلسطين

ثم سرنا إلى مدينة بيروت (56) وهي صغيرة حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن، وتجلب منها إلى ديار مصر الفواكه والحديد. وقصدنا منها زيارة قبر أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه (57) من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكَرَك نُوح (58) من بِقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر، ويقال إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف وقيل السلطان نور الدين (59)، وكان من الصالحين، ويذكر أنه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها . 134/1

حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور

يحكى أنه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضًا شديدًا وأقام مطروحًا بالأسواق، فلما برئ من مرضه خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستانًا يكون حارسًا له فاستؤجر لحراسة بستانٍ للملك نور الدين، وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان، إلى ذلك البستان، وأمر وكيلُ البستان، أبا يعقوب أن يأتي برمان، يأكل منه

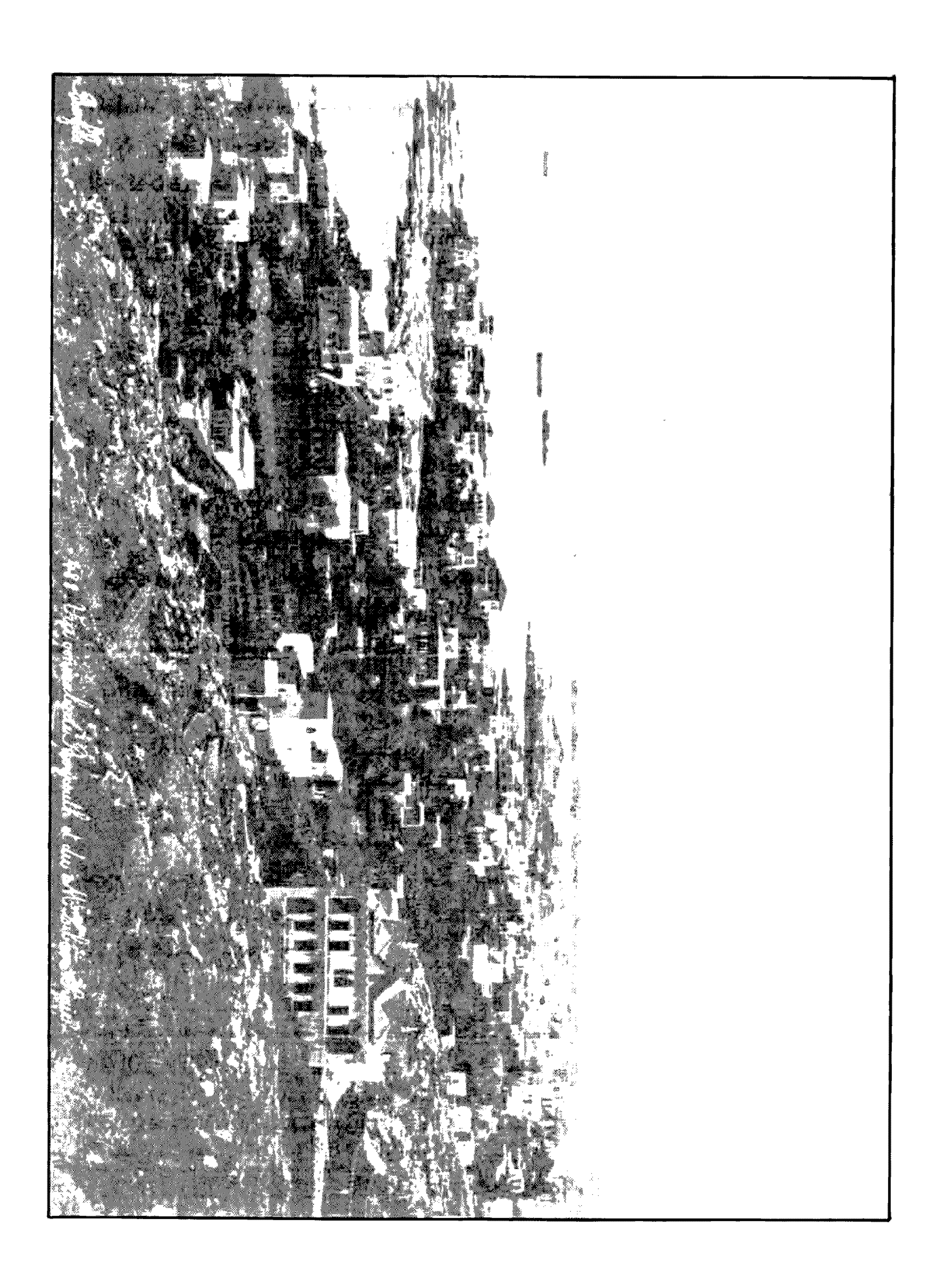
---

(56) كان لبيروت كما يقول ابن شداد في (الأعلاق) غيضة أشجار صنوبر تتصل بجنوبها إلى جبل لبنان، ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد، وشُربُ أهلها من الآبار، وكانت بيروت مرسى لدمشق ... آلت إلى الفرنج حتى ملكها الناصر صلاح الدين وأقطعها عزَّ الدين أسامة ... ويذكر الهروي في كتابه الزيارات أنها تحتضن قبر الامام الأوزاعي رحمه الله وقد زرنا المشهد المنسوب إليه على مقربة من المطار.
– د. عصام محمد شبارو : تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر 1987.

(57) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (558 - 580 = 1163 - 1184) أدركه أجله على مقربةٍ من مدينة يابُرة (البرتغال) متأثرًا بجروح مُميتة عند محاصرته لشنترين، وهو مدفون في تنملّل (جنوب المغرب)، فعبارة ابن بطوطة (يزعمون) في محلها – ونشير هنا إلى أن ابن خلكان ينسب ذلك القبر لابي يوسف يعقوب المنصور الذي نعلم أنه دفين مقبرة شالّة بمدينة الرباط بوصيةٍ منه في حياته وقد توفي بمدينة مراكش.
د. التازي : مكانة القدس لدى المغاربة، بحث قدم للندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب 1401 = 1981.

(58) (كرك نوح) على ذلك العهد هو العاصمة الادارية لسهل البقاع الذي يقع بين جبال لبنان ... والعزيز إسم لابن لصلاح الدين.

(59) القصد إلى نور الدين محمد بن زنكي الملقب بالملك العادل ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، امتدت سلطته في الممالك الإسلامية حتى خطب له بالحرمين الشريفين، كان موفقًا في حروبه ضد الصليبيين أيام زحفهم على الشام ... إلى جانب كلّ هذا كان يجلس في كل أسبوع أربعة أيام يُحضر الفقهاء عنده ويامر بإزالة الحجاب عنه حتى يصل إليه من شاء، أدركه أجله بدمشق عام 569 = 1174.
أبو شامة : عيون الروضتين في أخبار الدولتين تحقيق أحمد البيسُومي منشورات وزارة الثقافة – دمشق 1991، قسم أول ص 181 وما بعدها.



السلطان، فأتاه برمان، فوجده حامضًا، فأمره أن يأتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حاوضا، فقال له الوكيل أتكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحاوض فقال : إنما إستأجرتني على الحراسة لا على 135/1 الأكل ! فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك، فبعث اليه الملك وكان قد رأى في المنام أنه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة، فتفرَّس أنه هو فقال له أنت أبو يعقوب ؟ قال نعم، فقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جانبه ثم احتمله إلى مجلسه فأضافه بضيافةٍ من الحلال المكتسب بكدّ يمينه وأقام عنده أياما.

ثم خرج من دمشق فارًا بنفسه في أوان البرد الشديد، فأتى قريةً من قراها وكان بها رجل من الضعفاء، فعرض عليه النزول عنده، ففعل وصنع له مَرَقة وذبح دجاجة، فأتاه بها وبخبز شعير، فأكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد 136/1 منهم بنتٌ قد أن بناء زوجها عليها، ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتبايعون، فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس ؟ قال : نعم، قد إشتريت منه لتجهيز هذه البنت، قال : إئتني به فأتاه به، فقال له إستعِرْ من جيرانك ما أمكنك منه، ففعل، وأحضر ذلك بين يديه، فأوقد عليه النيران، وأخرج صرة كانت عنده فيها الإكسير، فطرح منه على النحاس، فعاد كلُّه ذهبًا وتركه في بيت مقفل. وكتب كتابًا إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبّهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الأوقاف ويبني 137/1 الزوايا بالطرق ويرضى أصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت كفايته.

وقال له في آخر الكتاب «... وإن كان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فأنا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام...»

وفرَّ من حينه، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين، فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب بعد أن أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت. وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرًا ولا يقع له على خبر فَعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف بإسمه (60) الذي ليس في المعمور مثله.

(60) المستشفى الشهير الذي بناه نور الدين عام 549 = 1154 تحدث عنه ابن جبير ص 230، وما تزال اثاره إلى الآن غرب الجامع الأموي وعلى عكس هذا فإنه لا يوجد أثر آخر يؤيد هذه الرواية. وأن الرائج حول تمويل بناء هذا المستشفى هو أن أحد الأمراء الصليبيين أدى فديةً ثقيلة لِتحريره فبنى بها نور الدين ذلك المستشفى. - الإكسير (L'élixir) كلمة غير عربية - البيمارستان : كلمة فارسية .. هذا وسيأتي (ص 173) الحديث عن ترجمة ابراهيم بن أدهم المتوفى عام 161هـ = 778 م.

ثم وصلت إلى مدينة طرابلس (61) وهي إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار، وتحفُّها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة والبر بخيراته المقيمة، ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء. 138/1

وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملَّكها الروم زمانًا، فلما استرجعها الملك الظاهر خُربت، واتخذت هذه الحديثة، وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك، وأميرها طَيْلان (62) الحاجب المعروف بملك الأمراء، ومسكنه منها بالدار المعروفة بدار السَّعادة، ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخميس، ويركب معه الأمراء والعساكر ويخرج إلى ظاهر المدينة فإذا عادَ إليها وقارب الوصول إلى منزله ترجل الأمراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله، وينصرفون (63) وتضرب الطَّبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتوقد المشاعل. وممن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين ابن غانم (64) أحد الفضلاء الحُسَباء، معروف بالسخاء والكرم، وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف، وقد ذكرناه (65)، وأخوهما علاء الدين (66) كاتب السر بدمشق. 139/1

(61) بعد أن ظلَّت طرابلس طوال مائة وثمانين سنة بيد الصليبيين استُرجعت عام 791 = 1289 من طرف العاهل المصري الملك الأشرف خليل 792 - 795 = 1290 - 1293 أخي الملك الناصر، ومن هنا نقول : إنه من الخطأ أن ينسب للملك الظاهر بيبَرس سائر الانتصارات التي تحققت أواخر القرن الثالث عشر ... هذا وبما أن بيروت عاصمة لأحد الأقاليم الستّة لسوريا فقد أعيد بناؤها بعد فتحها ...

(62) طَيْلان الأشرفي (وصوابه طَينَال) سيف الدين المدعو الحاجب كان حاكمًا لِطرابلس عام 726 = 1326 ثم نقل إلى غزة في سنة 733 = 1332، كان إذا احتاج إلى مكاتبة السلطان أرسل مطالعته مفتوحةً ليقف عليها رئيسه تنكز قبل أن تصل للسلطان ! وقد أدركه أجله في صفد، ربيع الأول 743 غشت 1342. - الدرر 2، 334.

(63) هذه تمهيدات للحفلات التي تقام من لدن الحكام في مجالسهم القضائية - الطبلخانة : تتألف من الطبول والأبواق و المزامير.

(64) هو أبو بكر بن محمد بن سليمان بن حمائل الدمشقي، بهاء الدّين، بن الشيخ شمس الدّين بن غانم، كتب الانشاء بطرابلس ثم بدمشق ثم بصفد أدركه أجله بطرابلس.- ابن حجر : الدرر : ج I ص - 491 .490

(65) يلاحظ أن حسام الدين هذا - وقد توفي في شعبان عام 729 = 1329 - لم يكن أخاً لِبهاء الدين ولم يتقدم ذكره في الفقرات الخاصة بالقدس، بل هو سليمان بن الحسن بن الشيخ غانم المقدسي شيخ البيت المقدس. - الدرر الكامنة 2 ص 340.

(66) علاء الدين هذا هو أخ للأول ولد عام 651 = 1253، وأدركه أجله عام (736 = 1336) قال الصفدي: كتب في ديوان الانشاء وعرضت عليه كتابة السر في حلب فامتنع وله نظم ونثر وأعمال جيدة في الآداب ومكاتبات ومراجعات مع فضلاء عصره، وكان رئيسًا كبيرًا. كثير القضاء لِحوائج الناس حتى كان صدر الدين ابن الوكيل يقول : ما أعرف أحدًا في الشّام إلا ولعلاء الدين ابن غانم في عنقه مِنَّة ! الدرر الكامنة 3، 178.

ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين، ابن مكين من أكابر الرجال. ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين ابن النَّقيب (67) من أعلام علماء الشام.

وبهذه المدينة حمامات حِسان : منها حمام القاضي القِرمي وحمام سَنْدَمور (68) وكان سندمور أميرَ هذه المدينة ، ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها أن امرأةً شكت إليه بأن أحد مماليك الخواص تعدّى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بيّنة، فأمر به فَوُسِّط (69)، فخرج اللبن من مصرانه ! وقد إتفق مثل هذه الحكاية للعَتْريس (70) أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب، واتفق مثلها للملك كبَك سلطان تركستان. 140/1

ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الاكراد (71) وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل، وبه زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة إلى بعض كبراء الأمراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن إسمه.

ثم سافرتُ إلى مدينة حمص (72) وهي مدينة مليحة، أرجاؤها مؤنقة، وأشجارها مورقة، وأنهارها متدفقة، وأسواقها فسيحة الشوارع، وجامعها متميّز بالحسن الجامع، وفي وسطه بركة ماء، وأهل حمص عرب لهم فضلٌ وكرم، وبخارج هذه المدينة قبر خالد ابن 141/1

---

(67) ابن النقيب هو محمد بن أبي بكر بن ابراهيم بن عبد الرحمن ... بن النقيب الشافعي ولد سنة 663 = 1263 وأدركه أجله عام 746 = 1345 .. ولى قضاء حمص ثم طرابلس ثم حلب ثم رجع إلى دمشق فولى الشامية ... كان يعرف شرح العمدة لابن دقيق العيد ... – الدرر الكامنة 4 ص 19.

(68) سندمور الكرُجِي (الجورجي) حاكم طرابلس عام 700 = 1300 وحماة في ذي الحجة 709 مايه 1310 وحلب في جمادي الثانية = نونبر نفس السنة، وقد أوقف وأعدم عام 711 = 1311.

(69) وُسِّط تعني قطِّع نصفين !

(70) أقوش العتريس ترأس حملةً على عيذاب عام 719 = 1319 ... وعلاوةً على كَبَك لوحظ أن هذه العمليةَ تكررت ممارستها في المنطقة حتى أيام السلطان مراد الثاني 824 = 1421 - 1441 ... الدرر 1، 427.

(71) حصن الأكراد سمى كذلك لان حامية كردية كانت تقيم به سنة 421 = 1030، وقد استولى عليه الصليبيون عام 431 = 1140، ولكنه لم يلبث أن استُرجع من قبل بَيْبَرس 669 = 1271، هذه القرية تعرف اليوم بقلعة الحصن شرقيّ مدينة زَغَرْتَا مدينة رئيس جمهورية لبنان الراحل رُونيه معوَّض...

(72) يصف ابن جبير مدينة حمص بأنها "لا ماء ولا شجر، ولا ظلّ ولا ثمر فهي تشتكي ظمأها وتستقى على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل ..." وهو الوصف الذي يعارض وصف ابن بطوطة الذي يشاركه في معلوماته المؤرخ المعاصر أبو الفداء ...

الوليد (73) سيف الله ورسوله، وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء، وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي (74) من أجمل الناس صورة وأحسنهم سيرة.

ثم سافرتُ منها إلى مدينة حماة (75) إحدى أمهات الشام الرفيعة، ومدائنها البديعة، ذات الحسن الرائق، والجمال الفائق تحفّها البساتين والجنات، عليها النواعير كالأفلاك الدائرات (76) يشقها النَّهر ‖ العظيم المسمى بالعاصي (77)، ولها ربض سمي بالمنصورية أعظم من المدينة، فيه الأسواق الحافلة والحمامات الحسان.

142/1

وبحماة الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش اللوزي اذا كسرتَ نواته وجدتً في داخلها لوزة حلوة (78).

قال ابن جُزي : وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها وبساتينها يقول الأديب الرَّحال نور

(73) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، هذا من أشهر القادة أيام الفتح العربي الأول ... وهو الذي أخرج البيزنطيين من سوريا التي توفى بها سنة 20 أو 21 = 641 - 642 ... ونذكر مع هذا أن الرحالة المغربي ابن جبير هو الأوّل الذي تحدث عن وجود قبر خالد بن الوليد بحمص (ص 208) والقبر إلى الآن مزارة للمهتمين بالرجال والمتطلعين للأخبار. - ابن خلكان : الوفيات 2، 476.

(74) هو محمد بن أحمد بن محمد ... بن سحمان أبو بكر جمال الدين الشريشي - 769 = 1295 - 1368 - 694 سليل جمال الدين الوارد من شريش على سوريا. - ابن حجر : الدرر الكامنة ج 3 ص 441 - 442 - مصدر سابق.

(75) كانت حماة تكوّن إمارةً مستقلّةً تحت سيادة مصر، محكومة من أحد فروع الأسرة الأيوبية التي كان ممثلها في تلك الفترة المؤرخ والجغرافي الشهير أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهناه ابن أيوب الملك المؤيد المعروف بصاحب حماه، هو صاحب "المختصر في أخبار البشر" المعروف بتاريخ أبي الفداء المترجم إلى الفرنسية، رحل إلى مصر واتصل بالملك الناصر فاقامه سلطاناً مستقلا على حماة ... - الزركلي : الأعلام I 317.

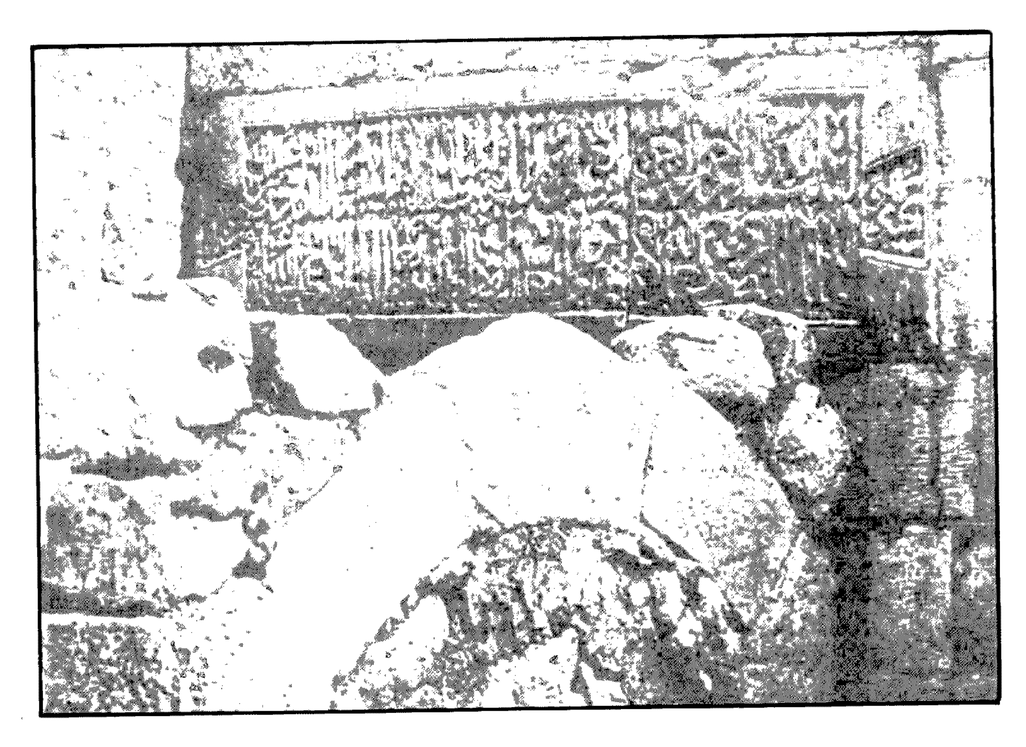
(76) عندما نذكر نواعير حماة نستحضر دائما النواعير المماثلة التي كانت تزخر بها مدينة فاس على الخصوص والتي حركت شاعرية الزوار الذين كانوا يترددون على العاصمة في مهمّات سياسية أو علمية أو سياحية من أمثال ابن الخطيب وابن عبد المنان وأبى القاسم الشريف.
د. التازي : التاريخ الديلوماسي للمغرب، المجلد الثاني، ص 152 - 153، مطبعة المحمدية 1986.

(77) نهر العاصي (ORONTE) يستمد مياهه من منبع يحمل إسماً إغريقياً (OXIOS)، وعلى العكس من باقي أنهر سوريا فإنه يتجه من الجنوب إلى الشمال، ومن هنا جاء الإسم (العاصي).

(78) اشتهرت هذه البلاد بالفواكه الوافرة وخاصةً المشمش الذي لا يوجد له نظير في أي مكان وقد تغنى به الشُعَرَاء العرب...



مدينة حماة



نقوش من حماة

الدين أبو الحسن علي بن موسى ابن سعيد (79) العنْسي العمَّاري الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضي الله عنه :

حَمَى الله من شَطَّيْ حماةَ مناظرًا
وقفتُ عليها السمعَ والفِكرَ والطَّرْفَا
تَغَنَّى حمامٌ أو تَميلُ خمائلٌ
وتُزْهَى مَبَانٍ تَمنع الوَاصِفَ الوَصْفَا
يَلُومُونَنِي أنْ أَعْصِيَ الصَّونَ والنُّهَى
بِهَا، وأُطيعَ الكَأسَ واللَّهوَ والقَصْفَا !
إذَا كانَ فيها النَّهرُ عَاصٍ، فكيفَ لاَ
أُحاكِيه عِصْيَانًا وأشرَبُهَا صِرْفَا ؟!
وَأشْدُو لدَى تلك النَّواعِر شَدْوَها
وأغلُبُهَا رَقْصًا وأُشْبِهُهَا غَرْفَا
تَئنُّ وتُذرِي دَمْعَهَا، فكأنَّهَا
تَهِيم بمَرْآهَا وتسألُهَا العَطْفَا

143/1

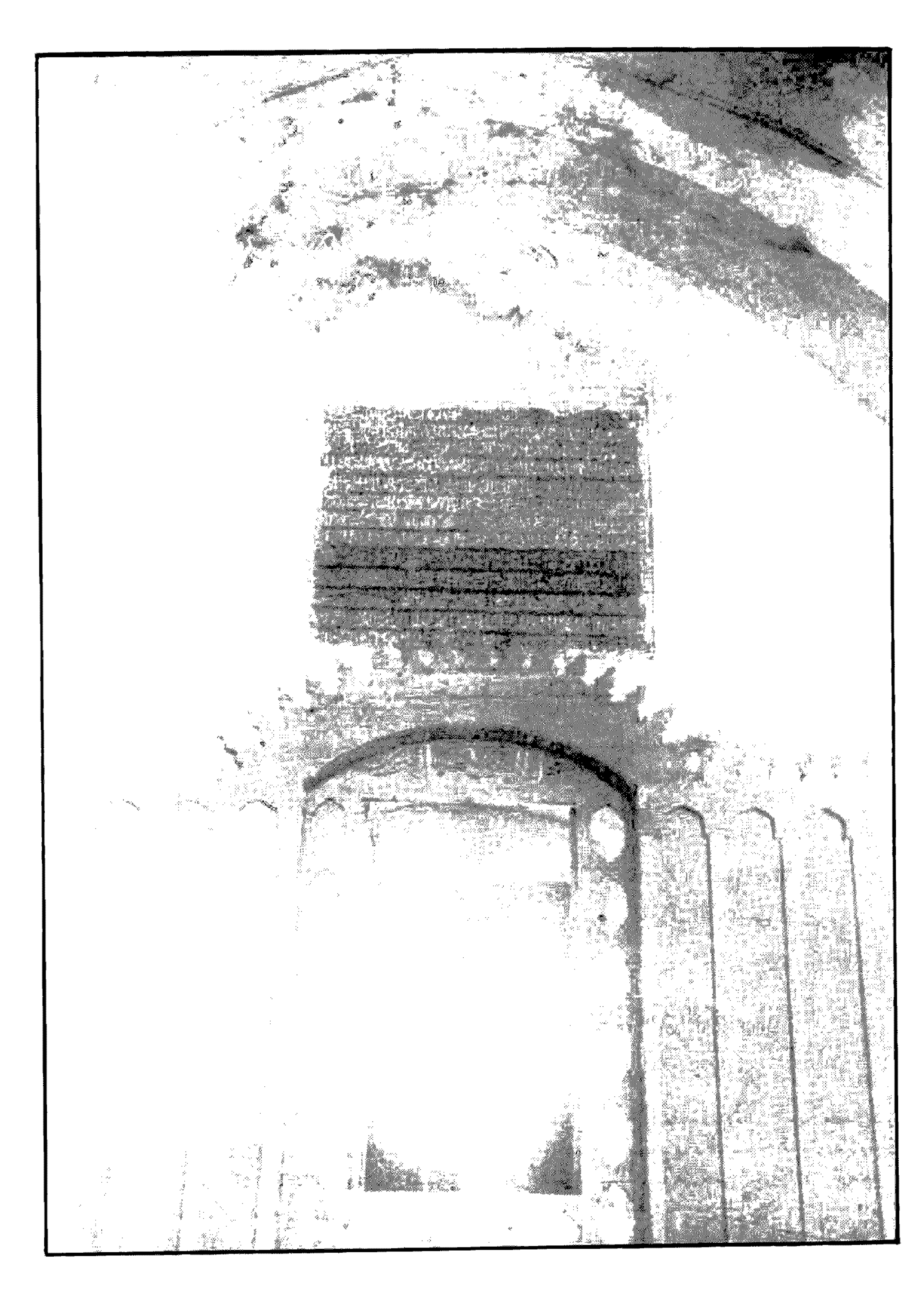
ولبعضهم في نواعيرها ذاهبا مذهب التَّوْرية

ونَاعورةٍ رقَّت لِعظْمِ خطيئتي
وقد عاينَتْ قصدي من المنزلِ القَاصي
بكت رحمةً لِي ثم باحتْ بشَجْوها
وحَسبُكَ أن الخُشْبَ تَبكَّى على العاصي

144/1

---

(79) هذا هو المعروف بابن سعيد المغربي المؤرخ الأندلسي، من الشُّعراء العلماء بالأدب ... وُلِدَ بقلعةٍ على مقربة من غرناطة، وقام برحلة طويلة زار فيها مصر والعراق والشام وقد أدركه أجله بتونس وقيل بدمشق عام 685 = 1286 من تآليفه "المشرق في حلى المشرق" و "المغرب في حلى المغرب" و "المرقصات المطربات" ... و(وصف الكون) و (بسط الأرض) في الجغرافية ...– المقري : نفح الطيب 2، 262 ...



لقطة من معرة النعمان، عن مؤسسة بيرشم- جنيف

ولبعض المتأخرين فيها أيضا من التورية :

يا ســادةً سَكَنُوا حَـمَـاةَ وحـقِّكم

مَـا حُلتُ عن تقـوَى وعن إخـلاصي

والطَّرفُ بعـدكمُ إذا ذُكِـر اللِّقَـا

يُجـرِي المَدَامِعَ طَائعًـا كـالعَـاصِي !

رجع ، ثم سافرت إلى مدينة المعرَّة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري (80)، وكثير سواه من الشعراء.

قال ابن جزي : وإنما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الأنصاري (81) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تُوفي له ولد أيام إمارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به، وكانت قبل ذلك تسمى ذات القصور (82)، وقيل إن النعمان جبل مطلٌ عليها سميت به . 145/1

والمعرة مدينة حسنة أكثر شجرها التين والفُستق، ومنها يحمل إلى مصر والشام، وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المومنين عمر بن عبد العزيز (83)، ولا زاوية عليه ولا

(80) أبو العلاء أحمد المعري مات في معرّة النعمان، 449=1057 أصيب بالجدري صغيرًا، فعمي في الرابعة من عمره .كان يُحَرِّم إيلام الحيوان ولم ياكل اللحم خمسًا وأربعين سنة ...نعت بالملحد لأشعار مارقة قالها مثل :

هفتِ الحنيفة، والنّصارى ما اهتدتْ × ويهودُ حارتْ والمجوسُ مُضلّله !

اثنـان أهـل الأرض ذو عقل بلا × ديـن وذو دينٍ لاعـقل له !!

(81) ولد النعمان بالمدينة حوالي سنة اثنتين من الهجرة = 623، شهد صفين مع معاوية فبايع النعمان لابن الزبير وتمرد أهل حمص فخرج هارباً فكان مصرعه عام 65 = 684. وخلافًا لما يرويه ابن بطوطة عن السبب في نسبة المعرة للنّعمان نجد أن ياقوت الحموي يستبعد أن تسمى مدينة لمثل ذلك السبب !! انظر معجم البلدان مادة (المعرة). ويظن ياقوت أن المعرة مسماة بالنعمان الملقب بالساطع بن عدّي غطفان بن تيم الله وهو تنُوخ بن أسد ... الزركلي : الأعلام.

(82) قد عرفت أيضاً تحت إسم ذات القصرين وقد كانت تحتوي على بساتين من التين والفستق والمشمس والرمان والتفاح وأنواع أخرى من الفاكهة .. هذا وقد نقل (كَيب) أن المعرة لها تاريخ من عهد اليونان والرّومان ...

(83) عمر بن عبد العزيز الخليفة الأمويّ، ولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك فبويع في مسجد دمشق، وسكن الناس في أيامه فمنع سبّ علي بن أبي طالب وكان مَن تَقدَّمه من الأمويين يسبُّونه على المنابر! غير أن مدته لم تطل حيث أدركه أجله عام 101=720 بدير سِمعان شرق المعرة ومدة خلافته سنتان ونصف، وأخباره في عدله وحسن سياسته متواترة وألف الناس عنه كثيرًا. الزركلي : الاعلام 5، 209.

خديم له، وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنفٍ من الرافضة (84) أرجاسٍ يبغضون العَشَرة من الصحابة رضي الله عنهم ولُعِن مُبغضهم، ويُبغضون كلَّ من إسمه عُمَر، وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم عليٍّ رضي الله عنه.

ثم سرنا منها إلى مدينة سَرْمِينَ (85)، وهي حسنة كثيرة البساتين، وأكثر شجرها الزيتون، وبها يصنع الصابون الآجوري، ويجلب إلى مصر والشام ويصنع بها أيضا 146/1 الصابون المطيّب لغسل الأيدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة، ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها. وأهلها سبَّابون يبغضون العشرة (86)، ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي سماسرتهم بالأسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا : تسعة وواحدا!!

وحضر بها بعضُ الأتراك يومًا فسمع سمسارًا ينادي تسعة وواحد، فضربه بالدَّبوس على رأسه، وقال : قل عشرة بالدبوس ! وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلها عشرة قيامًا بمذهبهم القبيح !

ثم سرنا إلى مدينة حلب المدينة الكبرى، والقاعدة العظمى. قال أبو الحسين ابن جبير في وصفها : قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من 147/1 النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسل عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الامتناع، باينة الارتفاع تنزهت حصانة أن ترام أو تستطاع، منحوتة الأرجاء، موضوعة على نسبة إعتدالٍ وإستواء، قد طاولت الأيام والأعوام، وشيعت الخواص والعوام، أين أُمراؤها الحمدانيون، وشعراؤها (87)؟ فَنِي جميعهم ولم يبق إلا بناؤها ! فيا عجبا للبلاد تبقى ويذهب أملاكها ! ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتُخطب بعدهم فلا يتعذر إملاكها، وتُرام فيتيسر بأهون شيء إدراكها.

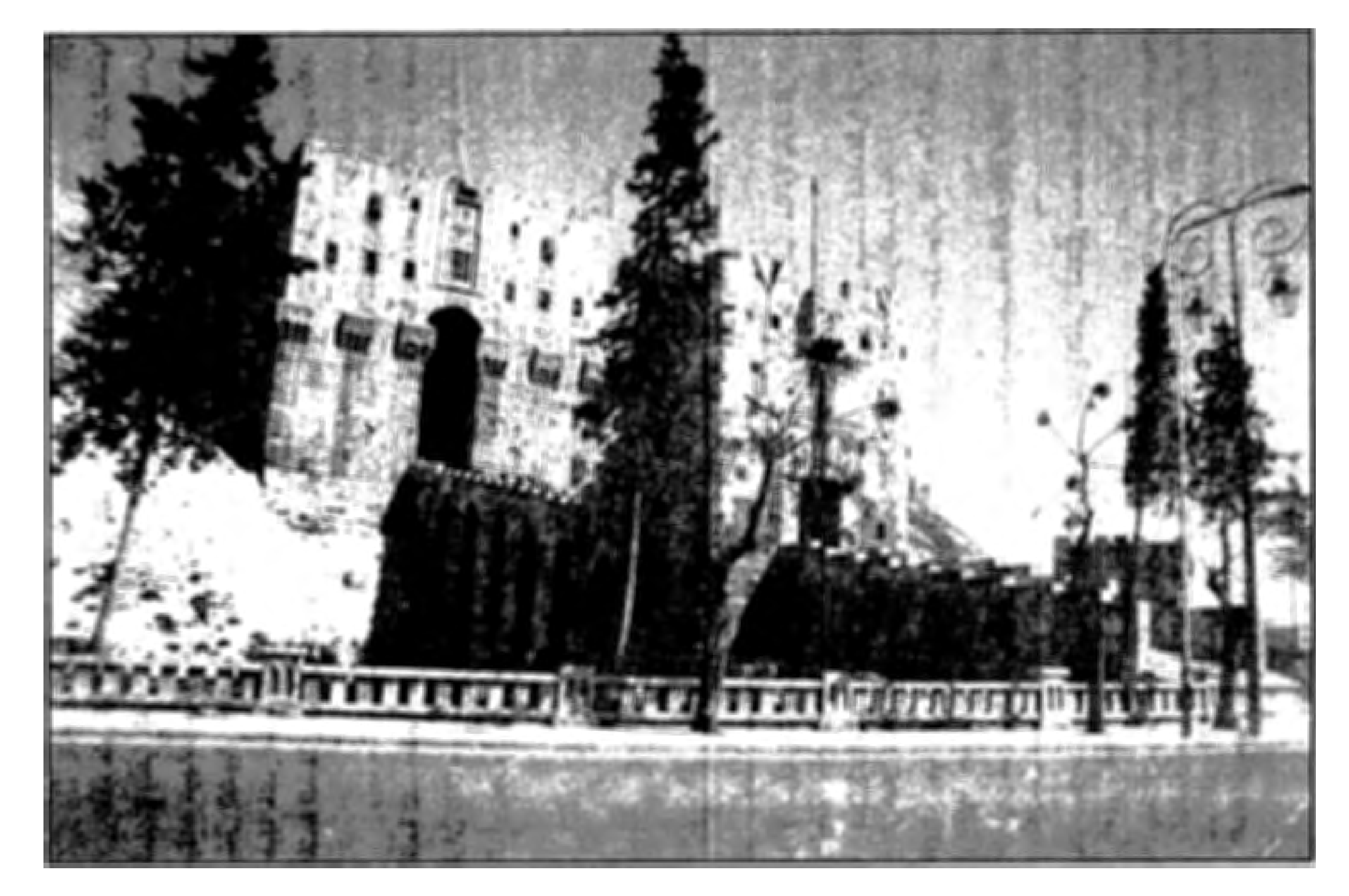
(84) يذكر أن شيعة هذه المنطقة ينتمون إلى فرقة تعرف بإسم النُّصيريه نسبة إلى محمد بن نُصير البصري... – انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة (NUCAIRI).

(85) تقع سرمين على بعد يومين غرب حلب ويذكر أبو الفداء أنها مدينة تتوفر على عددٍ من أشجار الزيتون والأشجار الأخرى.

(86) يذكر ياقوت أن أهل سرمين في عهده كانوا من الطائفة الإسماعيلية ...

(87) إلى أسرة حمدان العربية ينتمي سيف الدولة الذي احتل حلب عام 332 = 944 واشتهر أمره بالحملات المتوالية ضد البيزنطيين على ما نجده في أشعار المتنبي ... الذي يقول في شعره :

نفيتَ عنك العُلا والمجدَ والأدبا وإن خُلِقْتَ لهَا إن لم تَزرْ حَلَبَا !!



قلعة حلب

هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبر كان، ونسخت ظرف الزمان بالمكان ! أُنّث اسمها فتحلت 148/1 بحلْية الغَوان، ودانت بالعذر فيمن دان، وتجلت عروسًا بعد سيف دولتها ابن حمدان، هيهات هيهات سيهرم شبابها، ويُعدَم خطابها، ويسرع فيها بعد حين خرابها ! وقلعة حلب تسمى الشهباء (88)، ويداخلها جُبّان ينبع منهما الماء، فلا تخاف الظمأ، ويطيف بها سوران، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء، وسورها متداني الأبراج، وقد انتظمت بها العلاليّ العجيبة المفتحة الطيقان، وكلُّ برج منها مسكون، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد (89).

وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال : إن الخليل عليه السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رحْبةِ مالك بن طوق التي على الفُرات بين الشام والعراق (90)، ولما قصد قازانُ (91) طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة 149/1 أيامًا ونكص عنها خائبًا. قال ابن جزي : وفي هذه القلعة يقول الخالدي (92) شاعر سيف الدولة :

وخرقاء قد تاهت على مَن يرومها
بمرقبها العالي وجانبها الصَّعب
يجُرُّ عليها الجوُّ جيْبَ غمامةٍ
ويُلبِسُها عِقْدًا بأنجُمِه الشُّهب

(88) لا أعرف وجهًا لتسميتها بالشهباء إلا ما قيل عن بياض أحجارها وتربتها. هذا ولا يعرف أثرٌ اليوم للبئرين المتحدث عنهما، وربما كان القصد إلى قنوات كانت تتحكّم في الماء ...

(89) فُسّرتْ لنا هذه الظاهرة ونحن نقوم بزيارة الموقع عام 1993 بأن الذين صمّموا للبناء فكّروا في جعله على شكل يضمن تكْييفه وحمايته من الرطوبة، وقد سمعنا مثل هذا عن مبنى البيمارستان...

(90) تقع رحبة مالك على الفرات في سوريا وقد شيدت من لدن مالك ابن طوق حوالي 199 = 815 على عهد الخليفة العباسي المأمون.

(91) قازان خان، ملك مغولي إيلْخان العراق وفارس نظم حملتين ضد حلب عام 699 = 700 - 129 = 1300 ولكن بدون نجاح ...

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تأليف محمد راغب الطباخ الحلبي، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي بحلب.

(92) يتعلق الأمر في الواقع بأخوين شاعرين : أبي بكر محمد بن هاشم بن وعلة وأبي عثمان سعيد المعروفين بالخالديَّين نسبة إلى قرية "الخالدية" على مقربة من الموصل. توفي سعيد عام 371 = 981، وتوفي أبو بكر عام 380 = 990. كانا يشتركان في نظم الأبيات أو القصيدة فتنسب إليهما معاً. كانا من خواص سيف الدولة ابن حمدان. – ابن خلكان : الوفيات 3، 404 - 4 ، 404 - 5 - 380.

إذا مـــا ســـرَى برقٌ بدَتْ من خـــلالِه
كـمـا لا حتِ العـذرَاءُ من خَلل السُّـحْبِ
فَكَمْ من جُنُودٍ قــد أمَــاتَتْ بغُــصَّــةٍ
وذي سطَوات قــد أبانَتْ على عَــقْبِ

150/1 وفيها يقول أيضا وهو من بديع النظم

وقلعــةٍ عَــانقَ العــيــون ســافِلُهــا
وجــاز منطقــةَ الجــوزاءِ عــاليــهــا
لا تَعْـرِفُ القَطرَ إذْ كـان الغَـمـام لهـا
أرْضًــا تَوَطَّأَ قُطْرِيْهِ مَــوَاشِــيــهــا
إذا الغَـمَـامَـةُ رَاحتْ غَـاض سَاكِنُهَـا
حِـيَـاضَـهَـا قَـبْلَ أنْ تُهْـمِي عَـوَاليـهَـا
يُعَــدُّ من أَنْجُمِ الأفــلاكِ مــرْقَــبُــهَــا
لو أنَّه كَــان يَجْــرِي فِي مَــجَــاريـهَــا
رَدَّتْ مَـكَـايدَ أقْــــوَامٍ مَـكَـايِدُهَـا
وَنَصَّــرتْ لدواهيـــهم دَواهِيــــهَـــا

وفيها يقول جمال الدين علي بن أبي منصور :

كـــادَتْ لِبَـــوْنِ ســـمـــوِّهَا وعلوِّهَا
151/1 تَســـتـــوْقفُ الفَلَكَ المحِـــيطَ الدَّايرا
وَرَدتْ قــواطنُهـــا المجــرَّةَ مَنْهَـــلاً
وَرَعَتْ سَــوَابِقُـــهَـــا النُّجُــومَ زَوَاهِرَا

وَيضلُّ صــرفُ الدهر منهــا خَــائِفًــا
وَجِـلاً، فـمَـا يُمْـسِي لديْهَـا حَـاضـرا !

ويقـال في مـدينة حلب : حَلَبُ إبراهيم (93)، لأن الخليل صلوات الله على نبيّنا وعليـه وسـلامـه، كـان يسكنهـا، وكـانت له الغنم الكثيـرة فكان يسـقي الفـقراء والمسـاكين والوارد والصادر من ألبانها فكانوا يجتمعون ويسألون حلب إبراهيم فسميت بذلك. وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع وإتقان الترتيب وإتساع الأسواق وانتظام بعضها ببعض، وأسواقها مسقفة بالخشب فأهلها دائما في ظلٍّ ممدود، وقيساريتها (94) لا تُماثل حسنًا وكبرًا ‖ وهي تحيط بمسجدها، وكلُّ سماط منها محاذي لباب من أبواب المسجد، ومسجدها الجامع من أجمل المساجد (95)، في صحْنه بركة ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع، ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والأبنوس.

152/1

وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع واتقان الصنعة تنسب لأمراء حمدان ، وبالبلد سواها ثلاث مدارس، وبها مارستان (96).

(93) رواية "حلب إبراهيم" ترددت أيضا حتى فيما كتبه بعض الصليبيين، وينتقد ياقوت هذه المعلومة قائلاً : وهذا فيه نظر لأنّ إبراهيم عليه السلام وأهل الشام في أيامه لم يكونو عرباً، إنما العربية في ولد ابنه إسماعيل عليه السلام وقحطان ... فإن كان لهذه اللفظة أعني (حلب) أصل في العبرانية أو السريانية لجَاز ذلك لأنَّ كثيراً من كلامهم يشبه كلام العرب لا يفارق إلا بعجمة يسيرة مثل كَهَنَّم في جهنَّم ...

(94) قيسارية حلب، هكذا رسمت بالسين في سائر النسخ التي بين أيدينا وهي تعني المركز التجاري، وقد ترسم هكذا قيصرية بالصاد ... ويوحي اللفظ بانه من أصل روماني، وقد رأينا أن ابن الوزان (ليون الافريقي) يؤكد في كتابه "وصف إفريقيا" أن كلمة "القيصرية" آتٍ من القيصر الذي يعني (CESAR) ... ولا نعرف كيف وفي أي مرحلة من التاريخ تسرب هذا اللفظ إلى دارجتِنا. وقيسارية حلب ما تزال على سحرها ومفاتنها إلى اليوم على ما نرى ! راجع حول هذه الكلمة : "القيصرية" : ابن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، ودائرة المعرف الإسلامية، وانظر على الخصوص كتاب :

Bel : inscriptions Arabes de Fès, Paris, 1919 P 387.

(95) تعرض هذا المسجد للإحراق من لدن بعض متطرفة الأرمن عام 658 = 1260، لكنه أعيد بناؤه أولاً من قبل قرسُنْقُر ثم من قبل الملك الناصر عام 1326. وقد زرناه أكثر من مرة ...

(96) تفترض بعض التعاليق أن المدرسة شيدت مكان كاتدرائية مسيحية، تحولت في البدء إلى مسجد عام 518 = 1124 قبل أن تسمى مدرسةً أيام نور الدين زنكي عام 545 = 1150 ... نسبتها لبني حمدان خطأ ... لأن أول مدرسة أنشئت في حلب كانت بين سنة 511 = 1117 وسنة 518 = 1124 أي بعد نهاية الحمدانيين وقد زرنا صحبة المشاركين في ندوة ابن البيطار عام 1993، هذا المارستان الذي يعتبر أعجوبة في تصميمه ... راجع التعليق 89.

وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض، به المزارع العظيمة وشجرات الأعناب منتظمة به، والبساتين على شاطئ نهرها، وهو النهر الذي يمر بحماة ويسمى العاصي (97) وقيل أنه سمي بذلك لانه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو، والنفس تجد في خارج مدينة حلب إنشراحًا وسرورًا ونشاطًا لا يكون في سواها، وهي من المدن التي تصلح للخلافة. 152/I

قال ابن جُزي : أطنبت الشعرآء في وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عُبادة البحتري (98) :

يا بَرْقُ أَسْفِرْ عن قُويقَ مطالبي

حلبٌ، فأعلى القصر من بِطياس (99)

عن منبت الورد المُعَصْفَر صِبغُه

في كلِّ ضاحيةٍ ومجْنَى الآسِ !

أرض إذا استوحشتُ ثم أتيتُها

حشدتْ عليَّ فأكْثرتْ إيناسي

(97) النهر الذي يمر في حلب اسمه (القويق) وليس العاصي ! ... وهذا من الهفوات التي يمكن أن يوقع فيها طول العهد بزيارة المكان – انظر تعليق الناشريْن الأولين D.S. – صفحة 432 ج I تعليق 152.

(98) الوليد بن عيسى البحتري أبو عبادة، شاعر كبير يقال لشعره : سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم : المتنبي وأبو تمام، والبحتري، أدركه أجله عام 284 = 898. – ابن خلكان : الوفيات 6، 21 - 22 وما بعدهما.

(99) قويق : نهر حلب، وبِطْيَاس موضع من حلب على بعد خمسة كيلومترات شرقيّها حيث يوجد قصر لأحد الأمراء العرب، ويلاحظ أن القصر والقرية كانا معاً قد خربا حوالي سنة 622 = 1225. هذا ويذكر (گيب) إنه قرأ في ديوان البحتري : (طرتي) مثنى : طرَّة : ساحل النهر (Bonds) عوض (مطالبي)، وكل المخطوطات التي بين أيدينا على : مطالبي أو فمطلبي أو فمطّيتي ... ولا يوجد فيها أثر لحرف الراء ...

154/1 وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصَّنُوبري (100) :

سَقَى حلَبُ المُزن مَغْنَى حَلَب
فَكَمْ وصلتْ طرباً بالطَّرَب
وكَم مستطابٍ من العَيْشِ لَذ
بهَا إذْ بِهَا العيْشُ لم يُستَطَب
إذا نَشَرَ الزَّهْرُ أعْلامَه
بهَا ومطارفَه والعَذَب
غَذَا وحَوَاشِيه من فضَّةٍ
تَرُوقُ وَأَوساطُه مِن ذَهَب

وقال أبو العلاء المعري (101) :

حَلَبٌ للوارد جنةُ عَدن
وهي للغادرين نارٌ سعيرُ
والعظيمُ العظيم يَكْبُرُ في عيـ
نَيْهِ منهَا قدرُ الصَّغِيرِ الصَّغِير
155/1 فقُوَيْقٌ في أنفس القوم بحرٌ
وحصاةٌ منه مكان ثبير !

(100) أحمد بن محمد بن الحسن أصله من أنطاكية، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار، وكان ممن يحضر مجالس سيف الدولة، أدركه أجله عام 334 = 946. فوات الوفيات 1 - 61. الاعلام ج 1، 198.

(101) الأبيات مقتبسة من قصيدة حول زفاف أحد أمراء حلب ... سقط الزند طبعة بولاق 1869 ج 1 ص 56.

وقال فيها أبو الفتيان بن حيُّوس (102)

يا صـاحِـبَيَّ إذا أعـيَـاكُـمَـا سـقـمِي

فلقِّـيَـاني نسـيمَ الرِّيح من حَلَب

من البـلادِ التي كـان الصِّـبـا سكناً

فـيـهـا، وكـان الـهَـوَى العُـذْرِيُّ من أَرَبِي

وقال فيها أبو الفتح كشاجم (103) :

وما أمتَعَتْ جَارهَا بلدةٌ كمَا أمتَعتْ حلبٌ جارَهَا

بها قدْ تجمَّع ما تشْتهي فزُرْهَا فطوبَى لَمن زارها

وقال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي العنسي :

حـادِيَ الـعِـيسِ، كم تُنيخ المطايا

سُقْ بروحي من بعـدهـم في سـيـاق

156/1

حَلَبٌ إنـهـا مـقـرُّ غـرامـي

ومَـرَامِي وقِـبـلةُ الأشـواق !

---

(102) ابن حيّوس (وليس ابن جَبوس) كما عند الناشرين محمد بن سلطان أبو الفتيان مصطفى الدولة، ولد ونشأ بدمشق، يلقب بالأمير، وكان أبوه فعلاً من أمراء العرب ... له ديوان شعر في مجلدين صدَّره الزميل الراحل خليل مردم بمقدمة جامعة. وقد أدركه أجله بحلب عام 473 = 1081- . تاريخ حلب لابن العديم، تحقيق : سامي الدهان، دمشق، ج 2 ص 40، عام 1954.

(103) محمود بن الحسين المعروف بكشاجم، شاعر متقن أديب من أهل الرملة بفلسطين، فارسي الأصل، وكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة بن حمدان، ثم ابنه له عدة تآليف منها كتابه "الطبيخ" ومن هنا قيل : إنه كان في أوليته طباخًا لسيف الدولة، وقيل إن (كشاجم) تختصر حروف : كاتب شاعر منشىء مجادل منطقي، أدركه أجله سنة 360 = 970. - الزركلي : الاعلام 8، 43.

لاَ خَــلاَ جَــوْشَنٌ وَبَطْيَــاسُ والــ

ــعَــبْــدُ من كلِّ وابلٍ غــيْــدَاقِ (104)

كم بـهـــا مَـــرْتَـع لطرفٍ وقلبٍ

فــيــه ســقْيُ المُنَى بكأسٍ دهاق

وتـغَنّـي طيــوره لإرتيــاحٍ

وتثني غــصــونه للعناق

وعُلُوّ الشَّــهــبــاء حــيث إستــدارتْ

أنْجُمُ الأفْقِ حَــوْلَهَــا كــالنِّطاق.

رجع، وبحَلَب ملكُ الأمراء أرْغُون الدَّوَادَار أكبر أمراء الملك الناصر (105)، وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل. والقضاة بحلب أربعةٌ للمذاهب الأربعة، فمنهم القاضي كمال الدين بن|| الزّملكاني (106) شافعي المذهب عالي الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الأخلاق متفنن بالعلوم، وكان الملك الناصر قد بعث إليه ليولّيَه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يمض له ذلك، وتوفى ببِلْبِيس وهو متوجه إليها، ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ 157/1

(104) جوشن : اسم جبل يشرف على حلب، وبطياس قرية على مقربة منها... هذا ونلاحظ أن بعض المخطوطات (كايانكوس) أثبتت عوض البيت الثالث بيتاً آخر يقول :

لا حلَّ فيها محلَّ السعاد × وأذوق من كل حلو المذاق

بينما استغنت نسخة أخرى (الحبيب اللمسي) عن هذا البيت ... والمثبت في النسخ الباقية يحتاج إلى تصحيح فيكون على هذا النحو :

لا خلا جوشن وبطْياس ... والمعنى سقى الله دائما أراضي حلب ... ولم يكن التراجمة هنا – في نظري – ملتزمين بالنص ...

(105) أرْغون سمى في هذا المنصب في محرم 727 دجنبر 1326 عندما كان ابن بطوطة في الجزيرة العربية، وكانت وفاته بحلب في ربيع الأول سنة 731 يناير 1331 على ما سبق أن قلنا. – ابن حجر : الدرر الكامنة 1، 374.

(106) محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري بن عبد الكريم الدمشقي ابن الزَّمَلْكَاني كمال الدين، أبو المعالي انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره ولد وتعلم بدمشق وتصدر للتدريس والإفتاء ونظر وكالة بيت المال وديوان الإنشاء ولى القضاء في حلب وطُلب لقضاء مصر فقصدها وأدركه أجله بالقاهرة عام 727 = 1327. – الدرر 4، ص 192 - 193.

المحدث شمس الدين أبى عبد الله محمد بن نُباتة القرشي الأموي الفارقي، (107) فامتدحه بقصيدةٍ طويلة حافلة، أولها :

أسِفَتْ لفقدك جلَّق (108) الفيْحَاء
وتَبَاشَرتْ لِقُدومِك الشَّهْبَاء

158/1

وعَلاَ دمشق وقد رحَلْتَ كآبَةٌ
وَعَلاَ رُبَا حلبٍ سَنَا وَسَنَادُ

قد أشْرقَتْ دَارٌ سكنْتَ فِنَاءها
حَتَّى غدَتْ ولنورِهَا لألأءُ

يَا سائرًا يبغي المكارمِ والعُلَى
مِمَّن يُبخِّل عِنده الكُرَمَاء

هذا كمال الدين لُذْ بجنابِه
تَنْعَم؛ فثَمَّ الفضْلُ والنَّعماء

قاضي القُضاةِ أجلَّ من أيامِه
تَغْنَى بها الأيتامُ والفُقَراء

قاضٍ زكَا أصلاً وفرعًا فاعتلى
شرُفتْ به الآباء والأبْنَاء !

مَنَّ الإلاهُ عَلَى بني حَلَبٍ بِه
للَّهِ وَضْعُ الفَضْلِ حَيْثُ يَشَاءُ

159/1

(107) محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الفارقي أبو بكر، جمال الدين، ابن نباته وهو من ذرية الخطيب عبد الرحيم بن محمد بن نباته آتى الذكر ... والمتوفى سنة 376 = 984 ... أصله من ميافارقين جنوب شرقي تركيا لقبه كما قلنا جمال الدين وليس شهاب الدين، كما عند ابن بطوطة أعتبر أميراً للشعراء في عصره أدركه أجله عام 768 = 1386. - ابن خلكان : وفيات 3، 156 الدرر الكامنة 4، 339 - 340.

(108) جلّق : إسم شاعريّ لدمشق على نحو الشهباء بالنسبة لحلب والزّوراء لبغداد.

كَشَفَ المُعَمَّى فَهْمُه وبَيَانُهُ
فَكَأنَّمَا ذَاكَ الذَّكَاء ذُكَاء
يَا حَاكِمَ الحُكَّامِ قَدْرُكَ سَابِقٌ
عَنْ أن تَسُرَّكَ رُتْبَةٌ شَمَّاء
إنَّ المَنَاصِب دون هَمَّتِك التِي
فِي الفَضْلِ دون محلِّهَا الجَوْزَاء
لَكَ فِي العُلُومِ فَضَايلُ مَشْهُورةٌ
كَالصُّبْح شَقَّ له الظلامَ ضِيَاء
ومَنَاقِبٌ شهِد العدوُّ بِفَضْلِهَا
والفَضْلُ مَا شهِدتْ بِه الأعداء !

وهي أزيد من خمسين بيتًا، وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء إبتداءه بلفظ أسِفت.

160/1 قال ابن جزي : وليس كلامه في هذه القصيدة بذلك، وهو في المقطعات أجود منه في القصايد، وإليه إنتهت الرياسة في الشعر على هذا العهد في جميع بلاد المشرف وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشئ الخطب الشهيرة، ومن بديع مقطعاته في التورية قوله :

عَلِقتُها غَيْداء حالية العُلى
تَجْني على عقْلِ المحبِّ وقلْبه
بخِلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم
فغدت مطوقةً بما بخُلت به !

رجع، ومن قضاة حلب، قاضي قضاة الحَنَفية الامام المدرس ناصر الدين ابن العديم (109) حسن الصورة والسيرة، أصيل بمدينة حلب.

161/1 ‖ تراهُ إذا مــا جـــئـــتَـــه مــتـــهلّلا

كـأنك تعطيـه الذي أنت سـائله (110) !

ومنهم قاضي القضاة المالكية لا أذكره، كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير إستحقاق، ومنهم قاضي قضاة الحنابلة لا أذكر إسمه وهو من أهل صالحية دمشق. ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين ابن الزهراء (111). ومن فقهائها شرف الدين ابن العجمي (112) وأقاربه هم كبراء مدينة حلب.

ثم سافرت منها إلى مدينة تيزِين (113) وهي على طريق قنَّسرين (114)، وضبط إسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مدّ وزايٍ مكسورة وياء مد ثانية ونون، وهي حديثة اتخذها التركمان، وأسواقها حسان، ومساجدها في نهاية من الاتقان، وقاضيها بدر الدين العسقلاني، وكانت مدينة ‖ قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها. 162/1

---

(109) أبو عبد الله محمد بن كمال الدين ابن العديم، هذا توفى سنة 752 = 1351 وقد خلف والده في هذا المنصب منذ عام 721 = 1321 بينما خلفه ابنه بعد وفاته، ويظهر أن له صلةً بابن العديم صاحب زبدة الحلب من تاريخ حلب التي حققها سامي الدهان دمشق 1954. وينعته ابن بطوطة بحسنِ الصورة وهي صفة من مرجحات الإمامة بالناس على نحو جمال الثياب كما يقول الشيخ خليل (ثم بِخَلْقٍ ثم بخلُقٍ ثمّ بلباس) !

(110) هذا البيت مأخوذ من قصيدة لزهير بن أبي سلمى ...

(111) توفي بدر الدين حسن بن محمد بن علي بن زُهرة الحسني الحلبي بحلب في المحرم 732 = 1331 وكان ناظر المارستان بها قتل غيلة ... الدرر الكامنة 2، 123.

(112) بيت ابن العجمي من بيت العلم والرياسة والوجاهه أنجب جملة صالحة من العلماء والفقهاء وكان رئيسها على هذا العهد عز الدّين ابراهيم بن صالح المتوفى عام 731 = 1331، قد يكون ولدًا لشرف الدين الذي ذكره ابن بطوطة.

(113) تقع تيزين على بُعد 28 ميلاً غرب حلب، وتعتبر من القرى المحصنة التي كانت تقف، في مواجهة إمارة أنطاكية، ويلاحظ أنها ليست – كما يقول ابن بطوطة – على طريق قِنَّسرين. وقد عرّجنا عليها في زيارتنا لقلعة سمعان عام 1993... تراجع الخريطة.

(114) كانت قنَّسرين في عهد الأصطخري (تـ 346 = 975) في حالة تدهور .. وبما أنها تقع جنوب شرقي حلَب فان تيزين، كما أشرنا في التعليق السابق، لم تكن على طريقها كما يقتضيه كلام ابن بطوطة.

ثم سافرتُ إلى مدينة أنطاكية، (115) وهي مدينة عظيمة أصيلة، وكان عليها سور محكم لا نظير له في أسوار بلاد الشام، فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها، وأنطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء كثيرة الأشجار والمياه، وبخارجها نهر العاصي، وبها قبر حبيب النجار (116) رضي الله عنه، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر، شيخها الصالح المعمّر محمد بن علي، سنّه ينيف على المائة، وهو ممتع بقوته، دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبًا ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة، ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين إلا أنه محدودب الظهر لا يستطيع النهوض، ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا!! 163/1

ثم سافرت إلى حصن بُغْراس (117) وضبط إسمه ببناء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل، وهو حصن منيع لا يرام، عليه البساتين والمزارع، ومنه يدخل إلى بلاد سيس (118)، وهي بلاد كفار الارمن، وهم رعية للملك الناصر يؤدون إليه مالاً، ودراهمهم فضة خالصة، تعرف بالبغلية (119)، وبها تُصنع الثياب الدبليزية (120)، وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني، وله ولد فاضل إسمه علاء الدين وابن أخ إسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرُّصُص بضم الراء والصاد المهمل الأول(121)، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

---

(115) انطاكية كانت مقراً للإمارة الأنطاكية 491 = 1098. إلى أن فتحها بَيْبَرس عام 666 = 1268 هذا وتقع أنطاكية الحالية ضمن السيادة التركية.

(116) شخصية حبيب النجار معروفة عند المهتمين بأمر السيد المسيح عليه السلام، معروفة باستشهادها في سبيل العقيدة، وحسب رأي بعض المفسّرين فإن حبيباً هذا هو الرجل الذي تشير إليه الآية الشريفة : "وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى سورة يس) رقم 36 – القبر إلى الآن يحظى بالإحترام ...

(117) حصن بُغْرَاس (BAGRACE) الذي بني من لدن الامبراطور البيزنطي نيسفور فوكاس (NIC-EPHOR PHOCAS) عام 357 = 968 لحماية ممرٍّ بشمال أنطاكية، يُسمى من لدن الصليبيين كاستون أو كاستان، لكن الحصن لم يلبث أن فتح من لدن صلاح الدين الأيوبي 584 = 1188.

(118) مملكة سيس أو أرمينية الصغرى أسسها الأمير رُوبِّنيد (Rupenid) أمير سيليسيا (CILICIA) 472 = 1080 وقد تحالفت من وقت لآخر مع الصليبيين في انطاكية .. إلى أن سقطت هذه في يد المماليك (بَيْبَرس) حيث أصبحت سيس تؤدي الجزية للماليك عام 724 = 1723.

(119) الكلمة من أصل فارسي وهي تعني درهما ثقيل الوزن وقد ورد ذكرها عند ابن خلدون مرارًا.

(120) ترجمها الأستاذ (گيب) ج 1 ص 104 تعليق 143 على أنها الدبيلية باللّام نسبة إلى (دَبِيل) : العاصمة الأرمنية القديمة. ونقرأ في مخطوطة كاپانكوس ومولاي العباس : الدبليزية، ربما تحريف عن دبليس أي الثياب ذات النقوش الدائرية على نحو الدَّبالس أي الدمالج ... أنظر دوزى مادة (دبل)

(121) الرصص هي حالياً أرسو على الساحل جنوب الاسكندرية.

حكاية

164/1 شكى الأرمن مرة إلى الملك الناصر بالأمير حسام ‖ الدين وزوّروا عليه أمورًا لا تليق فنفَّذَ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقاً له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر، وقال ياخوند ! إن الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق، وهو من الشجعان، والأرمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم، وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله، ولم يزل به حتى أنفذ أمرًا ثانيا بسراحه والخلع عليه ورده لموضعه، ودعا الملك الناصر بريديًا يعرف بالاقوش، وكان لا يبعث إلا في مهم، وأمره بالاسراع والجد في السير فسار من مصر ‖ إلى حلب في خمس 165/1 وهي مسيرة شهر فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد إلى موضعه.

ولقيتُ هذا الأمير ومعه قاضي بُغْراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العُمق (122) متوسط بين أنطاكية وتيزين وبُغراس، ينزله التركمان بمواشيهم لخصبه وسعته.

ثم سافرت إلى حصن القُصَير (123)، تصغير قصر، وهو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردي، وقاضيه شهاب الدين الأرمنتي، من أهل الديار المصرية.

ثم سافرت إلى حصن الشُغرُ بُكاس (124)، وضبط إسمه بضم الشين المعجم وإسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهمل، وهو منيع في ‖ رأس شاهق أميره 166/1 سيف الدين الطُنطاش، فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب بن التَيْمية.

---

(122) العمق من الأعلام الجغرافية، وهو يعني بسيط انطاكية والضاية كذلك التي تحمل نفس الإسم، يوجد كلٌّ منهما شمال شرق انطاكية، بين هذه المدينة وبين الحدود السورية الحالية ...

R. Dussaud : Topographie Historique de la Série, p. 228 - 31.

(123) يقع القُصير في جبل النُّصيريه جنوب انطاكية، كان الصليبيون يطلقون عليه إسم كورزات (CURSAT)، وقد استرجعه بَيْبَرس عام 674 = 1275 . ويعرف اليوم تحت إسم قلعة الزّو .. المصدر الفرنسي السابق.

(124) الشغر – البُكاس قصران على الساحل الأيسر لِنهر العاصي عند مدخل مضيق داركوش عند الحدود الحالية التُركية السُورية بناهما الصليبيون في القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي واسترجعهما السلطان صلاح الدين عام 583 = 1188 ...

ثم سافرت إلى مدينة صَهْيون (125) وهي حسنة، بها الأنهار المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيّدة، وأميرُها يعرف بالإبراهيمي، وقاضيها محي الدين الحمصي، وبخارجها زاويةٌ في وسط بستان، فيها الطعام للوارد والصادر، وهي على قبْر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره.

وسافرت منها فمررت بحصن القَدْمُوس، وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل، ثم بحصن المَيْنَقَة، وضبط إسمه بفتح الميم وإسكان الياء وفتح النون والقاف، ثم بحصن العُلّيقة، وإسمه على لفظ واحدة العُلّيْق، ثم بحصن مِصْيَاف، وصاده مهملة، ثم بحصن الكهف (126)، وهذه الحصون لطائفةٍ يقال لهم الإسماعيلية ويقال لهم الفدَاويّة (127) ولا يدخل عليهم أحدٌ من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولهم المرتّبات، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدَهم إلى إغتيال عدوّ له أعطاه ديته، فإن سلِم بعد تأتّي ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها مَن بعثوا إلى قتله، وربما لم تصح حيلتهم فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قَرَا سُنْقور (128)، فإنه لما هرب إلى العراق بعث اليه الملك الناصر جملةً منهم فقُتِلُوا ! ولم يقدروا عليه لأخذه بالحزم. 167/1

(125) صهيون المعروفة عند الصليبيين (LA SAÔNE) كانت لها أهمية كبرى على ذلك العهد استولى عليها السلطان صلاح الدين عام 583 = 1188.

R. Fedden : Crusader Castes, London 1950.

(126) هذه حصون أربعة تقع بداخل جبل أنصارية نحو شرق بانياس وطرطوسة وهي على الترتيب التالي من الشمال للجنوب : المَيْنَقة التي يضبطها (گيب) هكذا (المنيقة) بناء على معطيات الحاضر.. ثم العُلّيقة ثم القدموس ثم الكهف أما المصياف فيقع على منحدر شرقي الجبال مباشرة بحوز غرب مدينة حماه بنيت من لدن راشد الدّين سِنان بن سليمان (588 = 1992).

Gibb T.1 p. 106 Note 149.

(127) الفداوية : طائفة شيعية متطرفة انفصلت عن الفاطميين وكان المؤسس لها في شمال الفرس حسن الصبّاح (تـ 518 = 1124) عُرف أعضاؤها تحت إسم الفدائيين أو (الفداوية) باعتبارهم يقدمون حياتهم فداء ... وكذلك تحت إسم الحشاشين نسبةً إلى الحشيش الذي يتناولونه قبل أن يقوموا بعملياتهم الحربية ... وقد يُسمّى بعض الأوربيين أصحاب الحسن المذكور بأساسان (ASSASSINS) أي الحشاشين، وللمستشرق السويسري المعروف برشيم (BERCHEM) كتاب في تاريخهم ... واسماعيلية سوريا دائمًا على صلة بإسماعيلية الفرس، وبعد استئصال الاسماعيلية مـن لـدن العاهل المغولي هولاكو عام 654 = 1256، كان على إخوانهم في سوريا أن يتحولوا إلى أنصار لسلاطين المماليك. أنظر دائرة المعارف الإسلامية.

(128) خاف قراسُنْقُور على نفسه من الناصر فتوسل بمهنّا أمير العرب الذي سهّل له العبور إلى ملك التتار فدخل ماردين في ربيع الأول سنة 712 غشت 1312 ... ولم يزل معظّماً بتلك البلاد إلى أن مات في مراغة سنة 728 = 1328، معلوم أن (العراق) كانت على هذا العهد تابعة لا يلْخان فارس الذي كان يجمع بين عراق العجم وعراق العرب. ابن حجر : الدرر ج 3، 330 - 331 - 332 جزء 5 صفحة 140.
د. التازي : الأمير مرهف المنقذي في سفارته من لدن السلطان صلاح الدين، بحث قدم للمؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، سالف الذكر.

حكاية [الملك الناصر وقاتل أخيه]

168/1 كان قراسُنْقُور من كبار الأمراء وممن حضر قتل الملك ‖ الأشرف أخي الملك الناصر وشارك فيه، ولما تمهد المُلك للملك الناصر وقرَّ به القرار واشتدت أواخيّ سلطانه (129) جعل يتتبع قتلة أخيه فيقتلهم واحدًا واحدًا إظهارًا للأخذ بثأر أخيه وخوفًا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسُنقور أميرَ الأمراء بحلب فكتب الملك النَّاصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعادًا يكون فيه إجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه، فلما فعلوا ذلك خاف قراسُنقُور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك، فركب فيهم
169/1 وخرج على العساكر صباحًا فاخترقهم وأعجزهم سبقًا ‖ وكانوا في عشرين ألفًا وقصد منزل أمير العرب مُهَنّاَ بن عيسى (130)، وهو على مسيرة يومين من حَلَب، وكان مهنا في قَنْص له، فقصد بيته ونزل عن فرسه والقى العمامة في عنق نفسه، ونادى : الجوارَ يا أمير العرب ! وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنًا وبنت عمه، فقالت له : قد أجرناك وأجرنا من معك، فقال : إنما أطلب أولادي ومالي، فقالت له : لك ما تحب، فانزل في جوارنا، ففعل ذلك وأتى مُهَنًّا فأحسن نُزْلَه وحكَّمه في ماله، فقال : إنما أحبُّ أهلي ومالي الذي تركتُه بحلب، فدعى مهنًا بإخوانه وبني عمه فشاورهم في أمره فمنهم من أجابه إلى ما أراد، ومنهم من قال له : كيف
170/1 نحارب الملك الناصر، ونحن في بلاده بالشام ؟ فقال لهم مهنا : أما ‖ أنا فأفعلُ لهذا الرجل ما يُريدُه وأذهب معه إلى سلطان العراق.

وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراسُنقور سُيِّروا على البريد إلى مصر، فقال مهنًا لقراسُنقور : أما أولادك فلا حيلة فيهم، وأما مالك فنجتهد في خلاصه، فركب فيمن أطاعه من أهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفًا، وقصدوا حلب فأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها، واستخلصوا منها مال قراسُنقور ومن بقي من أهله ولم يتعدوا إلى

(129) قتل الملك الأشرف خليل عام 692 = 1293 وخلفه الملك الناصر، ولكن الناصر لم يستطع تثبيت إمارته إلاّ المرة الثالثة من مملكته ابتداء من عام 710 = 1310 وقد ابتدأت إمارة قراسنقور من هذا التاريخ. - الدرر : المصدر السابق.

(130) مُهَنًّا بن عيسى بن مُهَنّا بن مانع أميرآل فضل من بني طيّيء ويلقب سلطان العرب أمير بادية الشام، وهذه القبيلة ساندت المماليك ضد المغول ... وقد كافأه المماليك بعدد من الاقطاعات الثرية في سوريا ... ومما يذكر هنا - والسياسة لا ترحم أنه لما ولى قرًا سُنْقُر حلب زاره مهنا وكان صديقه فأراه كتاب الناصر يامر بإمساك مُهَنًّا ! وتحالفا، فلما فر قراستقر على ما أسلفنا (تعليق 128) فقد مُهنًّا ثقته في الناصر فتجهّز إلى إيلخان العراق وفارس ... توفي في ذي القعدة سنة 735 = 1335- . الدرر الكامنة 5، 138 - 139 - 140. د. مصطفى الحياري : الامارة الطائية في بلاد الشام عمان 1977 ص 71.

سوى ذلك، وقصدوا ملك العراق، وصحبهم أمير حمص الأفرم (131) ووصلوا إلى الملك محمد خُدَا بَنْدَه (132) سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمى قَرَابَاغ (133) بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين ‖ المعجمة، وهو ما بين السلطانية وتبريز، فأكرم نزلهم وأعطى مُهَنَّا عِراق العرب وأعطى قراسُنقور مدينة مَراغة من عِراق العجم (134)، وتسمى دمشق الصغيرة، وأعطى الأفرم همَدَان، وأقاموا عنده مدةً مات فيها الأفرم، وعاد مُهَنَّا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه، وبقي قَراسُنقور على حاله.

171/1

وكان (135) الملك الناصر يبعث له الفداوية مرةً بعد مرة، فمنهم من يدخل عليه داره فيُقتل دونه، ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقُتل بسببه من الفداوية جماعة، وكان لا يفارق الدّرع أبدًا ولا ينام إلا في بيت العُود والحديد، فلما ‖ مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سنذكره من أمر الجَوبان كبير أمرائه، وفرار ولده الدُمرُطاش إلى الملك الناصر. ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسُنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدّمرطاش، فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبي سعيد، فلما وصله أمر بحمل قراسُنقور إليه، فلما

172/1

(131) هو أقش الأفرم الجركسي، كان من مماليك المنصور، في بداية أمره، يحب الفروسية ... ولما عاد الناصر إلى السلطنة بعثه إلى دمشق في جمادى I سنة 798 ... ،كان الأفرم يقول : لولا القصر الأبيض والميدان الأخضر ما تركت بَيْبَرس وسلار ينفردان بمملكة مصر، وزاد تمكن الأفرم بدمشق حتى كان يكتب التواقيع بالوظائف ويرسلها لمصر فيعلم السلطان عليها ولا يُرد منها شيء .! ثم لما كانت قصة الناصر بالكرك وعاد إلى السلطنة ... ولاه طرابلس (وليس حمصًا كما عند ابن بطوطة) ثم عمل الناصر على إمساكه، ففر إلى خربَنْدَه ملك التتار ملتحقاً بقراسُنقر فأنعم عليه بامرة هَمَدان فأقام بها وترددت إليه (الفداوية) مرات فلم يقدروا عليه إلى أن مات بها، وقد أصابه الفالج بعد سنة 720 = 1320. – الدرر الكامنة I، 424.

(132) اسمه التتري أولجايتو (OLJAITU) تملك من عام 703=1304 إلى 716/1316 تغير اسمه إلى تيمور ثم إلى خدايندە، وسيأتي الحديث عنه II-114.

(133) قراباغ لا يوجد بين السلطانية وبين تبريز ولكن في الشمال لهذه الأخيرة في أذربيجان. راجع كتاب إيران بين الأمس واليوم

(134) (عراق العجم) علَم جغرافي كان يطلق على ما يعرف باسم (الجبال) أي ما بين أصبهان إلى قزوين وهمدان والرّي الخ ... في مقابلة السهل الواقع على شاطئ دجلة والفرات الذي يسمى عراق العرب .. ويقول ياقوت : ان تسمية العجم للمنطقة الأولى بالعراق غلط ... وقد ظننتُ أن السبب فيه أن ملوك السلجوقية كان أحدهم إذا ملك العراق دخلت تلك البلاد في ملكه فكانوا يسمونه سلطان العراق وهذا أكثر مقامه بالجبال فظنّوا أن العراق المنسوب إليه ملكه هو الجبال .– مراغة تبعد عن تبريز 151 ك.م

(135) كلُّ هذه المعلومات التي قالها لنا ابن بطوطة نجدها معزَّزه في المصادر المشرقية وبخاصة في الدرر الكامنة لابن حجر. – راجع مثلا ج I ص 424 ج 5 ص 138.



مراغة . القبة الزرقاء

عرف قراسُنقور بذلك أخذ خاتمًا كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه، فعرَّف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه (136).

173/1 ثم سافرت من حصون الفِداوية إلى مدينة جَبْلَة (137) وهي ذات أنهار مطردة وأشجار، والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم بن أدهم (138) رضي الله عنه، وهو الذي نبذ الملك وانقطع إلى الله تعالى حسبما شُهِر ذلك، ولم يكن ابراهيم، من بيت ملك كما يظنه الناس، انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين.

حكاية أدهم [الزاهد]

يذكر أنه مرَّ ذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها فإذا بتفاحة يحملها ماء النَّهر، فقال : هذه لا خطر لها فاكلها، ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس، فعزم على أن يستحلّ من صاحب البستان، فقرع باب البستان فخرجت إليه 174/1 جارية، فقال لها : ادعي لي صاحب المنزل ! فقالت : إنه لامرأة، فقال : إستأذني لي عليها ففعلت، فأخبر المرأة بخبر التّفاحة، فقالت له : ان هذا البستان، نصفه لي ونصفه للسلطان، والسلطان يومئذ ببلخ، وهي مسيرة عشرة من بُخارى، وأحلته المرأة من نصفها وذهب إلى بلخ فاعترض السلطان في موكبه، فأخبره الخبر واستحله، فأمره أن يعود اليه من الغد.

وكان للسلطان بنتٌ بارعة الجمال قد خطبها أبناء الملوك فتمنَّعت وحُبِّبت إليها العبادة وحب الصالحين، وهي تحب أن تتزوج من ورعٍ زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله

(136) وصل دُمرطاش إلى القاهرة يوم 16 ربيع الأول 728 = 30 يناير 1328 متبوعا برسل السُّلطان أبي سعيد في أمد لم يتجاوز الشهر ... وقد أعدم دمُرطاش يوم 3 شوال 11 غشت بينما قراسنقر مات يوم 26 شوال 3 شتنبر ... بيد أن باقي المصادر لم تربط مباشرةً بين هذه الأحداث ولم تقل أن قراسنقر مات مسموماً ..

(137) مدينة جبلة أصبحت حاليًا ميناءً صغيرًا في منتصف الطريق بين الّلاذقية وبانياس استرجعها السلطان صلاح الدين عام 583 = 1188. حول جبلة – على ذلك العهد– وأهميتها يراجع معجم البلدان.

(138) إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحاق، زاهد مشهور كان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والنقل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الرُّوم ... أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه ولعل الراجح أنه توفى سنة 161 هجرية 778م.

175/1 أخبر بنته بخبر أدهم، وقال : ما رأيت أورع من هذا، ياتي من بخاري إلى بلخ لاجل نصف تفاحة ! فرغبت في تزوجه، فلما أتاه من الغد قال : لا احلك إلا أن تتزوج ببنتي، فانقاد لذلك بعد إستعصاء وتمنع، فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة، والبيت مزين بالفرش وسواها، فعمد إلى ناحية من البيت، وأقبل على صلاته حتى أصبح، ولم يزل كذلك سبع ليال.

وكان السلطان ما أحلَّه قبل، فبعث اليه أن يحله، فقال : لا أحلك حتى يقع إجتماعك بزوجتك، فلمَّا كان الليل واقعها، ثم اغتسل، وأقام إلى الصلاة، فصاح صيحة وسجد في

176/1 مصلاه فوجد ميتًّا رحمه الله. وحملت منه، فولدت إبراهيم، ولم يكن لجده ولد فأسند الملك إليه.

وكان من تخلّيه عن الملك ما اشتهر، وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد، وخادمها ابراهيم الجُمحى من كبار الصالحين، والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثًا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويَقدم الفقراء المتجردون من الآفاق لِحضور هذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة.

وأكثر أهل هذه السواحل هم الطايفة النُصَيرية (139) الذين يعتقدون أن علي بن أبي

177/1 طالب إلاه ! وهم لا يصلون ولا يتطهرون (140) ولا يصومون، وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدًا بعيدًا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمّرونه وربما أَوت اليه مواشيهم ودوابهم ! وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد، ويؤذنُ للصلاة، فيقولون لـه : لا تنهق ! علفك ياتيك ! وعددهم كثير.

حكاية [المهدي الكاذب]

ذكر لي أن رجلاً مجهولا وقعَ ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية (141)، وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج إليها

(139) راجع التعليق رقم 84.

(140) القصد بقوله : لا يتطهرون إلى أنهم لا يختتنون ...!

(141) يعني أنه نبي مهدي ... وقد شبت الثورة المشار إليها عام 717 = 1317، حول المهدي يراجع ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ...

178/1 ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : استظهروا بها، فإنها ‖ كالأوامر لكم، فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميره فيقول له : إن الإمام المهدي أعطاني هذا البلد، فيقول له أين الأمر ؟ فيخرج ورق الزيتون، فيُضرب ويحبس ثم أنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين، وأن يبدأوا بمدينة جبلة، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قُضبان الآس، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفًا عند القتال، فغدروا مدينة جَبْلة وأهلها في صلاة الجمعة، فدخلوا الدور وهتكوا الحريم، وثار المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاءوا، واتصل الخبر 179/1 باللاذقية فأقبل أميرها بَهادر عبد الله (142) بعسكره وطُيِّرت الحمام إلى طرابلس فأتى ‖ أمير الأمراء بعساكره وأتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا، وتحصَّن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الأمراء وإلتزموا أن يعطوه دينارًا عن كل رأس إن هو حاول إبقاءهم.

وكان الخبر قد طيِّر به الحمام إلى الملك الناصر وصدر جوابه أنْ يُحمل عليه السيف، فراجعه ملك الأمراء وألقى له انهم عمال المسلمين في حراثة الأرض وأنهم إن قتلوا ضَعُفَ المسلمون لذلك، فأمر بالابقاء عليهم.

ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية (143) وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبًا (144)، وكنت إنما قصدتها لزيارة الولي الصالح 180/1 عبد المحسن الاسكندري فلما وصلتها وجدته غائبًا بالحجاز ‖ الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوي، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان عمَّر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر، وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي، فاضل كريم تعلق بطَيلانَ ملك الأمراء فولاه قضاءها.

---

(142) بَهَادر بن عبد الله البدري، تنقل إلى أن ولى نيابة حمص سنة 719 = 1319 ثم ولى نيابة الكَرَك سنة 725 = 1325 ثم أمّر بدمشق فوقع منه في حق تنكيز إساءة أدب فسجنه تنكيز ثم أفرج عنه فنقل إلى طرابلس. واستمر بها إلى أن مات عام 740 = 1339. – الدرر الكامنة 2 - 29 رقم 1350.

(143) اللاذقية مدينة مهمة منذ فجر تاريخها، وقد هدمها السلطان صلاح الدين عندما استرجع البلاد المحتلة 583 = 1188 حتى يقطع آمال الصليبيين فيها !

(144) الإشارة إلى القصة الواردة في القرآن الكريم في سورة الكهف رقم 18، الآية 78 : "... وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبًا.

حكاية [ابن المؤيد الهجاء]

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجّاء لا يسلم أحد من لسانه، متهم في دينه مستخف، يتكلم بالقبائح من الإلحاد فعرضتْ له حاجة عند طيلان ملك الأمراء فلم يقضها 181/1 ‖ له، فقصد مصر وتقول عليه أمورًا شنيعة، وعاد إلى اللاذقية، فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين أن يتحيَّل في قتله بوجه شرعي، فدعاه القاضي إلى منزله وباحثه، واستخرج كامن إلحاده، فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل، وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب، فكتبوا عقدًا بمقاله، وثبت عند القاضي، وسجن وأعلم ملك الأمراء بقضيته، ثم أخرج من السجن وخنق على بابه.

ثم لم يلبث ملك الأمراء طَيْلان أن عزل عن طرابلس ووليها الحاج قَرْطَية (145)، من كبار الأمراء وممن تقدَّمت له فيها الولاية، وبينه وبين طيْلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام 182/1 لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين، فأمر ‖ به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا، وأمر بخنقهم، وأخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يُخنَقُ الناس، وأجلس كل واحدٍ منهم تحت مُختَنَقه ونزعت عمائمهم،

ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمرُّ الحاكم من مجلس الأمير سبقًا على فرسه إلى حيث المأمور بقتله، ثم يعود إلى الأمير فيكرر إستئذانه يفعل ذلك ثلاثًا، فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر، فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء في المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم، وقالوا : أيها الامير هذه سبة في الاسلام ! يقتل القاضي والشهودُ ! 183/1 فقبل الأمير شفاعتهم وخلى سبيلهم وبخارج اللاذقية الدّير المعروف ‖ بدير الفاروص (146) وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرُّهبان ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به

---

(145) القصد إلى شهاب الدين قرطاي الأشرفي حاكم حمص ثم طرابلس من عام 715 = 1316 ومن 1332 733 = إلى وفاته في صفر 734 = 1333. – الدرر الكامنة 3، 332.

(146) خَصص ياقوت في كتابه (معجم البلدان) حيِّزًا هامًا لذكر ألأديرة التي يتعبد فيها الرهبان قائلا إن الدير لا يكاد يكون في المصر الأعظم، انما يكون في الصحاري ورؤوس الجبال، فإن كان في مصر سمّي كنيسة وقد أتى على طائفةٍ منها لكنه لم يذكر دير الفاروص الذي يقول ابن بطوطة عنه : إنه أعظم دير بالشام ومصر.

من المسلمين فالنصارى يضيفونه، وطعامُهم الخبز والجبن والزيتون والخل، والكَبّر (147)، وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين بُرجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحطّ له السلسلة وهي من أحسن المراسي بالشام.

ثم سافرت إلى حصن المَرْقب (148) وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك ومبْناه على جبلٍ شامخ، وخارجه ربض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون، وعليه وُلد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفاضل القضاة وكرمائهم.

184/1 ثم سافرتُ إلى الجبل الأقرع (149) وهو أعلى جبل الشام، وأول ما يظهر منها من البحر وسكانه التركمان، وفيه العيون والهار.

وسافرت منه إلى جبل لبنان، وهو من أخصب جبال الدنيا، به أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال والوافرة، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين، وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه.

حكاية الصالحين اللبنانيين وحمار الوحش

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتُهم به قال : كنا بهذا الجبل مع جماعةٍ من الفقراء أيام البرد الشديد، فأوقدنا نارًا عظيمة، وأحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذا النار ما يشوى فيها. فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الأعين ولا يؤبه به : إني كنت عند صلاة 185/1

(147) الكَبّر (Le CAPRE) كلمة من أصل فارسي وربما كانت لها صلة باللُّغة الإغريقية : حب لنبات يتشبث كالعُلّيق على الأشجار والأحجار يحمل بالبربرية إسم تايْلُولْت (TAILOULT) لا تستغنى عنه مائدة رفيعة في الشرق والغرب، وهو من المقبّلات المخللة وقد خصص الطبيب المغربي أدراق أرجوزة كاملة لمنافعه الكثيرة :

أفضل شيء للتداوي يؤكل ... الكَبَر المُملَّح المخلّل
مُنَبِّهٌ لشهوة الغذاء ... بعد سقوطها بلا امتراء
والكَبَرُ الحائز كلَّ فخر ... ما كان منه نابتًا في الصخر

(148) حصن المرقب بني عام 453 = 1062 ثم استولى عليه من قبل الصليبيين وحرفوا إسمه إلى مرغط، ولكن على أن يُسترجع فيما بعد من لدن السلطان قلاوون عام 684 = 1258، يقع في جنوب بانياس، هذا ويلاحظ أن ابن بطوطة عندما يستعمل كلمة الروم يقصد بها الاغريق والبيزنطيين، وعندما يستعمل كلمة الافرنج يقصد إلى المسيحيين اللاتينيين ... وسياتي الحديث مفصّلاً في الفصل الرابع (258,I) عن حصن الكَرَك الذي يقع حاليا في المملكة الاردنية الهاشمية.

(149) جبل الاقرع يقع شمال اللاّذقية ولذلك فإنه ليس على طريق جبل لبنان !

العصر بمتعبد إبراهيم بن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمارَ وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب، وأظنّه لا يقدر على الحراك، فلو ذهبتم اليه لقدرتُم عليه، وشويتم لحمه على هذه النار.

قال : فقُمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف لنا، فقبضناه وأتينا به أصحابنا وذبحناه وشويناه في تلك النار، وطلبنا الفقير الذي نبّه عليه، فلم نجده ولا وقعنا له على أثر، فطال عجبنا منه.

ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك (150)، وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيفة، وتخترق أرضها الأنهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، وبها 186/1 من حَبِّ الملوك ما ليس في سواها، وبها يصنع الدِّبس (151) المنسوب إليها، وهو نوع من الرُّب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد، وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعةً واحدة، وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفُستق واللوز، ويسمون حلواءه بالمُلَبَّن ويسمونها أيضا بجلد الفرس (152)، وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمُجدِّ، وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدةٍ صغيرة تعرف بالزّبداني (153) كثيرة الفواكه، ويغدون منها إلى دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الإحرام (154) وغيره ويصنع بها أواني 187/1 الخشب وملاعقه

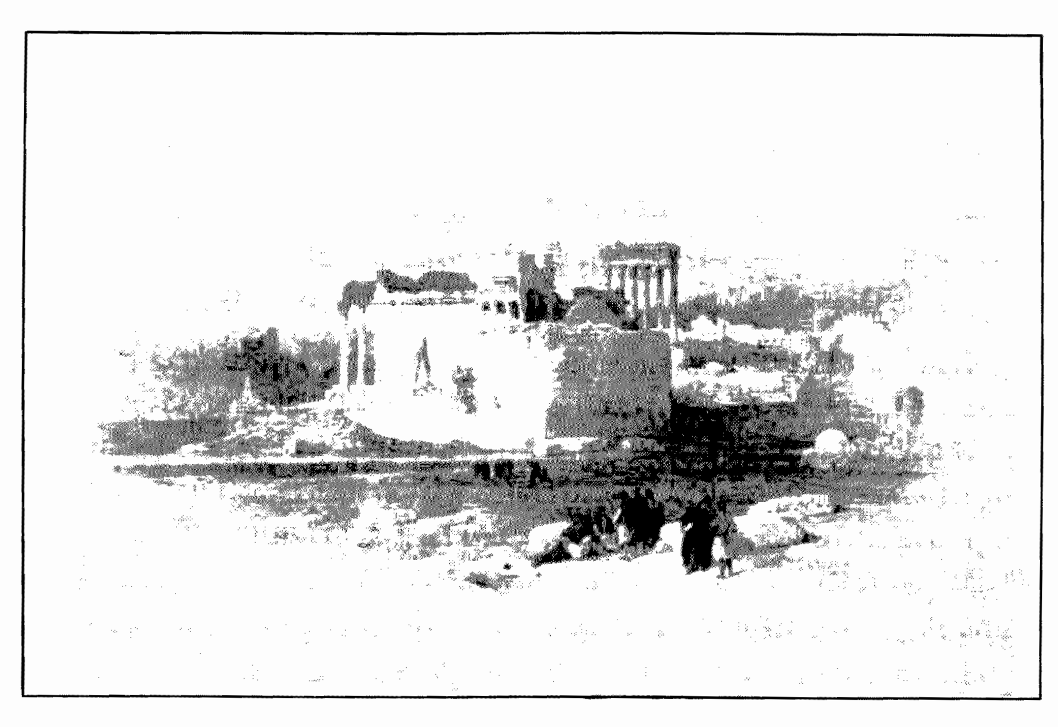
(150) بعلبك أو (HELOPOLLIS) القديمة يقول عنها القلقشندي 821 = 1418 إنها مدينة مختصرة لدمشق تحتوي على كل جمالها، واذا كان ابن بطوطة لم يتحدث عن معالم بعلبك التي تحدث عنها آخرون فإنه تحدث عن الثياب المنسوب إليها والصناعات الخشبية المتميّزة فيها...

(151) نوع مما يعرف في المغرب بالرُب (بضم الباء) : عصير خاثر من العنب ونحوه له نفس قوام العسل ... ومن أبواب مدينة مراكش باب الرُب لأن الرب كان يباع بهذا الباب ... والذي يصنع الدُّبس أو يبيعه يحمل نعت الدبَّاس.

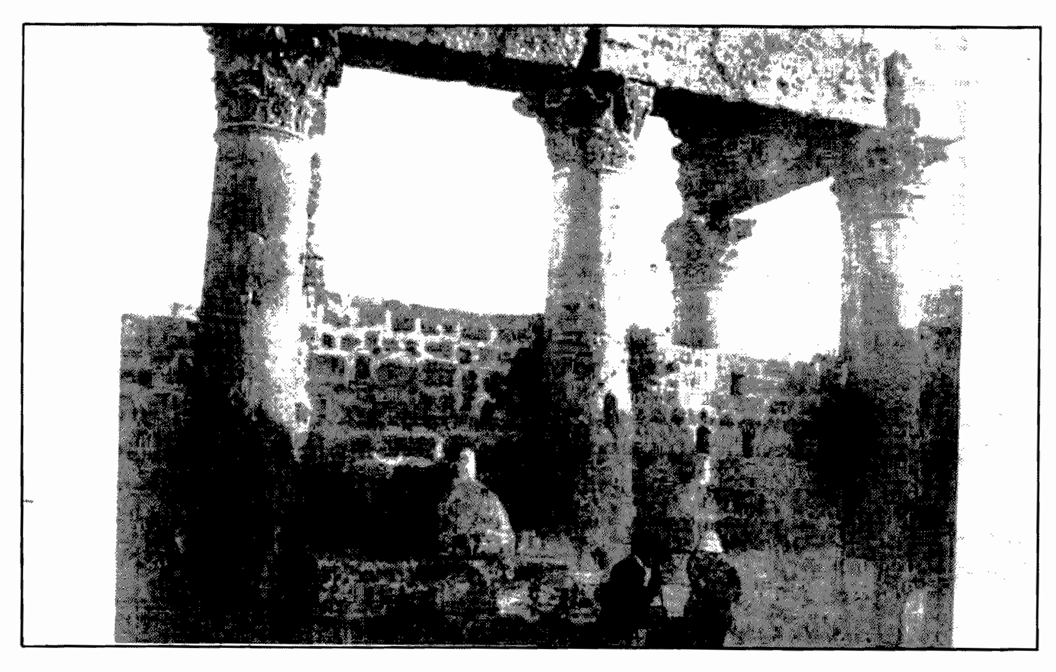
(152) الملبَّن يعني على شكل قطع اللَّبِن أي الآجرُ "يصنع على عدة أشكال لا يوجد لها نظير في الدنيا، كما يقول القلشندي، وجلد الفرس يعني أيضًا المصنوع قطعًا تشبه جلد الفرس، وقد تعودنا أن نتزود منه عندما نزور بلاد الشام وخاصة بعد أن تطوّرت صناعته الجيّدة. فالملبّن وجلد الفرس واحد كما يقول ابن بطوطة.

(153) الزَّبَداني مدينة بدون أسوار على جوانب وادي بَرَدَى لها حدائق متمادية تمتد من هناك إلى دمشق "على ما يقوله أبو الفداء (ت 732 = 1331) أقول : وقد شعرت وأنا أزور الشيخ المكي الكتاني في هذا المصطاف عام 1959 بأنني فعلاً في فراديس يأخذ بعضها برقاب البعض ...

(154) القصد بالإحرام ليس ما يعرف عند الحجاج ولكن إلى ثوب يجعل على الرأس وينزل على الأكتاف على ما أسلفناه في الفصل الأول، هذا وينتقد (كيب) سابقَيْه D.S. عندما زادا من عندهما أن الاحرام من القطن لأن هذه المناطق لاتنبت القطن !!



لقطة من اللاذقية - عن أرشيف بيرشم



لقطة من بعلبك عن المكتبة الوطنية بباريز

التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدّسوت (155)، وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة في جوف واحدة، ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعامًا مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها معلقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعًا. وكان دخولي لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط إشتياقي إلى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين (156) إلى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية (157).

188/1 ودمشق هي ‖ التي تفضل جميع البلاد حسنًا وتتقدمها جمالاً وكل وصف وإن طال، فهو قاصر عن محاسنها ولا أبدع مما قاله أبو الحسين بن جُبير (158)، رحمه الله تعالى، في ذكرها قال : وأما دمشق فهي جنّة المشرق ومطلع نورها المشرق وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها. قد تحلت بأزاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين. وحلت موضع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منتصفها أجمل تزيين، وشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام، وأمُّه منها إلى ربوةٍ ذات قرار معين، ظل ظليل، وماء سلْسبيل (159). تنساب مذانبه‖ إنسياب الأراقم بكل سبيل. ورياض يُحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديناً هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل. وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظماء ! فتكاد تناديك بها الصمّ الصلّاب : أركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب (160). وقد أَحدقت البساتين بها إِحداق الهالةِ 189/1

(155) كلمة الدست (ج دسوت) فارسية وسيأتي الحديث عنها مفصلا IV - 292

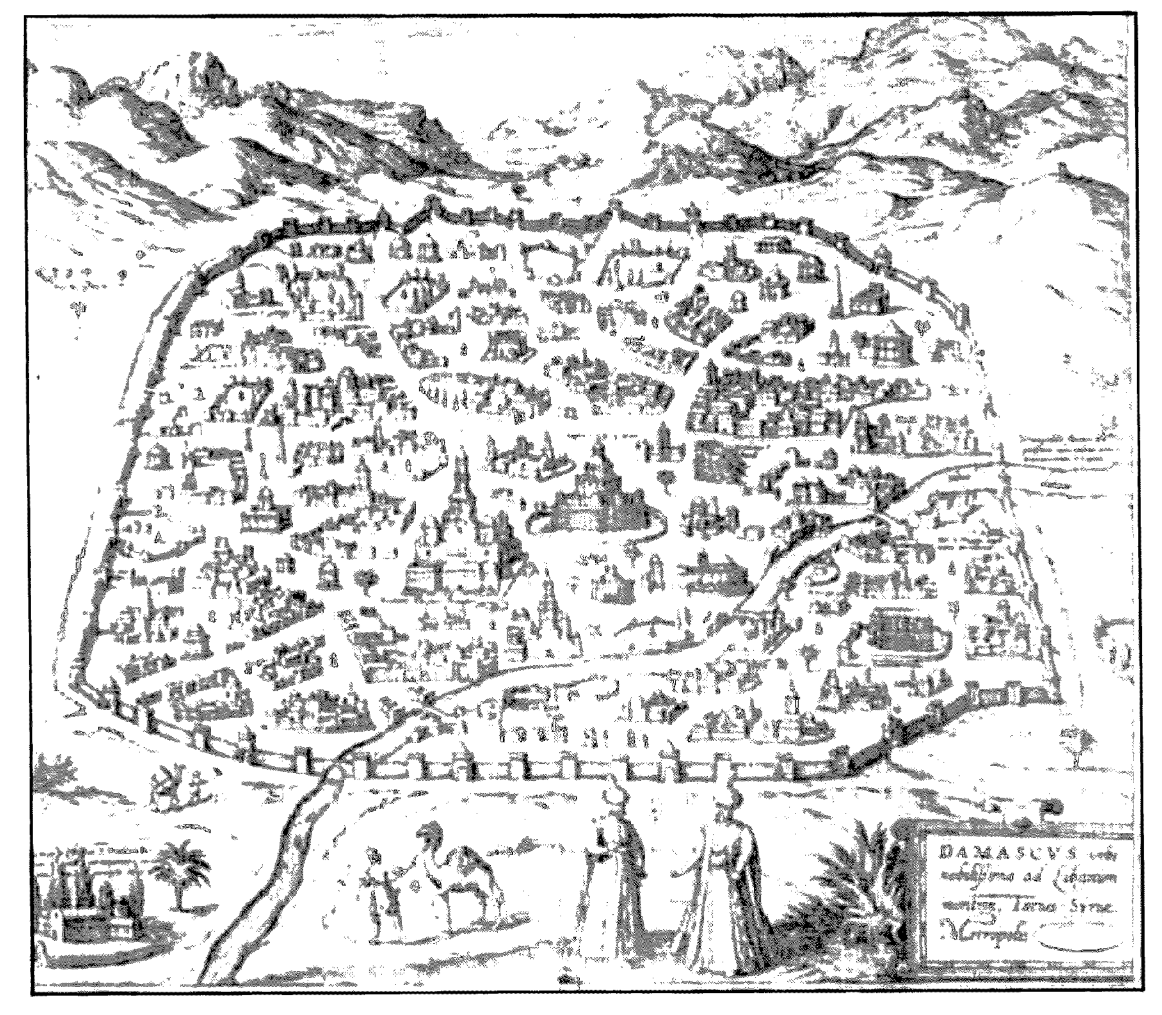
(156) هذا التاريخ يوافق تاريخ غشت 1326 ولو أن تاسع غشت كان يصادف يوم السبت. ولا مجال لتقدير المستشرق الشيكي إيفان هربيك أن كتابة (التاسع) قد تلتبس (بالسابع) فإن سائر المخطوطات التي بين أيدينا تجمع على (التاسع) .. وقد ألفنا أن المشارقة قد يسبقون المغاربة باليوم واليومين !!
د. التازي : التاريخ الديلوماسي للمغرب ج 5 ص 320 مصدر سابق.

(157) الشرابيش جمع شربوش يعني الشاشية التي تجعل على الرأس وتكون مخروطة الشكل، ومنها كلمة الطرابيش التي كان الناس يجعلونها على رؤوسهم نقلاً عن التقليد التُّركي...

(158) قسم كبير من الوصف الذي أتى به ابن بطوطة لدمشق مأخوذ من رحلة ابن جبير.

(159) في القرآن الكريم، السورة 23، الآية 50 : "وجعلنا ابن مريم وأمه آية وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين." والسلسبيل : الماء العذب السّهل المَسَاغ. ومنه كانت تسمية بعض السيدات العربيات.

(160) السورة 38، الآية 41.



دمشق من أرشيف المكتبة الوطنية بباريز

بالقمر. والاكمام بالثمر. وامتدت بشرقيّها غوطتها (161) الخضراء على امتداد البصر. وكل موضع لُحظت بجهاتها الأربع نضرتُه اليانعة قيد البصر، ولله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي تساميها وتُحاذيها. 190/1

قال ابن جزي، قد نظم بعض شعرائها في هذا المعنى فقال :

إن تكن جنة الخلود بأرضٍ فدمشقٌ، ولا تكون سواها !

أو تكن في السماء فهْي عليها قد أمدَّت هواءَها وهواها

بلدٌ طيب وربٌّ غفور (162) فاغْتنمْها عشيةً وضُحاها !

وذكر شيخنا المحدث الرحّال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي الوادي ءاشي (163) نزيل تونس، ونصّ كلامَ ابن جُبَير، ثم قال : ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد، وتوّق الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد، هذا وإن لم تكن له بها إقامة، فيعرب عنها بحقيقة علاّمة، ولا وصف ذهبيّات أصيلها، وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان فصولها المنوّعات، ولا أوقات سرورها المنبهات، وقد إختص من قال : ألفيتُها كما تصف الألسن، وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين. 191/1

---

(161) الغوطة إسم عرفت به واحة بضواحي دمشق : وقد ضمنت سقيها من الأودية المجاورة.

(162) تلميح لما ورد في القرآن الكريم، السورة 34، الآية 14...

(163) محمد بن جابر بن محمد بن قاسم .. منسوب لوادي أش (GUADIX) جنوب الأندلس، كان معاصرًا لابن بطوطة وشاعرًا رحالة، سافر إلى الشرق في حدود 720 = 1320 وكذلك عام 734 = 1333، وتوفى بالطاعون العام في تونس عام 749 = 1348 ... – ابن حجر : الدرر 4، 33 - 34.

قال ابن جزي : والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لا يحصر كثرة، وكان والدي رحمه الله كثيرًا ما ينشد في وصفها هذه الأبيات : وهي لشرف الدين بن عنين (164) رحمه الله تعالى :

دِمَشقُ بِي شوق إليها مبرّح
وإن لجَّ واشٍ أو ألحَّ عَذُول

بلاد بها الحصباءُ درٌّ وتُربُها
عَبِيرٌ وأَنفاس الشمالِ شَمُول

192/1

تسلسل فيها ماؤها وهو مُطْلَقٌ
وصح نسيمُ الرَّوضِ وهو عَلِيل

(164) تنوعت الأسماء حسب المخطوطات فمن (ابن محسن) إلى (ابن عتيق) إلى ابن عشيق، والصواب غير هذا وذاك، فقد ورد في مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط رقم 3030 إسم ابن عُنين، وهو ما يوجد في مخطوطة المكتبة الأحمدية بتونس وما يوجد في مخطوطة باريز رقم 99 / 2287، وابن عُنين هذا هو محمد بن نصر بن مكارم بن الحسن ابن عُنين، أبو المحاسن، شرف الدين الدمشقي ... وهو الذي نفاه السلطان صلاح الدين من دمشق وبعد وفاة صلاح الدين استأذن الملك العادل في العودة بقصائد رقيقة بثَّ فيها أشواقه إلى دمشق ... كان وافر الحرمة، وتولى الكتابة وقد وصل إلى إربل سنة 623 رسولا عن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، من شعره الذي استأذن به للعودة إلى دمشق :

ماذا على ضيفِ الأحبة لوسرى   وعليهمُ لو سامحوني بالكَرَى !

ووصف في أوائلها دمشق وبساتينها وأنهارها ومستنزهاتها ثم تخلص لذكر أيام المنفى !

فارقتُها لا عن رضى، وهجرتها   لا عن قلًى، ورحلتُ لا متخيرا !
أشكو إليك نوى تمادَى عُمرُها   حتى حسبتُ اليوم منها أشهرًا !!

قال ابن خلكان معلِّقًا على هذه القصيدة، إنها خير من قصيدة أبي بكر ابن عمار الأندلسي التي أولها : أدر الزجاجة فالنسيمُ قد انبَرَى . الأبيات

أدركه أجله سنة 630 = 1232– . ابن خلكان : الوفيات 5 ص 14 = الزركلي : الأعلام 7، 348

وهذا من النمط العالي من الشعر، وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي (165) :

الشـامُ شَـامـةُ وَجْنةِ الدُّنيـا (166)، كـمـا

إنسـانُ مـقلتِـهَا الغـضـيـضـةِ جِلَّقُ (167)

من آسـهـا لك جنةٌ لا تـنقـضـي

ومن الشَّـقـيق جـهنمٌ ولا تُحـرِق !

وقال أيضا فيها :

أمـا دمـشق فـجناتٌ مـعـجَّلةٌ

للطَّالِبين، بـهـا الولدان والحـورُ

مـا صـاح فـيـهـا على أوتاره قـمـرٌ

إلاَّ يُغنيـه قُـمْـريٌّ وشُـحْـرُور

193/1

يا حـبَّـذَا ! ودروعُ الماء تنسـجُـهـا

أنَـامـلُ الـريـح إلا أنـهـا زُوَرُ

---

(165) القصد إلى حسَّان بن نُمير بن عجل الكلبي، أبو الندى كان من سكان دمشق واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي فمدحه ونادمه ووعده السلطان المذكور بأن يعطيه ألف دينار إذا استولى على مصر، فلما احتلها أعطاه ألفين فمات فجاة قبل أن ينتفع بنزول الغنى في ساحته !! أدركه أجله عام = 1171 567 الزركلي : الاعلام 2، 191.

(166) تلاحظ التورية بين الشام والشامة التي تعني – كما هو معلوم – الخال والقصد إلى أن الشام شامة على خدِّ العالم !!

(167) جِلَّق : علم جغرافي شهير في القصيدة العربية ويعني مكان إقامة للأمراء الغسانيين ملوك العرب قبل الإسلام، وقد استعملت من لدن الشعراء – كما سلفت الإشارة إلى ذلك – كمعادلٍ للعلم الجغرافي : الغُوطة الواقعة بضواحي دمشق.

وله فيها أشعارٌ كثيرة سوى ذلك : وقال فيها أبو الوحش سبُع ابن خَلَف الأسدي : (168)

سقى دمشقَ اللَّهُ غيثًا مُحْسِنًا

من مُستَهلٍّ ديمَة دِهَاقها

مدينةٌ ليس يُضاهي حُسنها

في سائر الدنيا ولا آفاقِها

تود زوراء (169) العِراق أنها

منها ولا تعزَى إلى عراقها !

فأرضُها مثلُ السماء بهجةً

وزهرُهَا كالزُّهرِ في إشراقها

(168) تحرف عند بعض الناشرين إسم خلف إلى خلق، والذي يوجد في سائر النسخ هو خلف بالفاء ويتعلق الأمر بأبي الوحش، سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن زين بن زياد بن المرار بن سعيد الأسدي الفقعسي، وهو المعروف بوحيش الأسدي، مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي لما دخل دمشق سنة 570 =175 بقصيدة منها :

قد جاءك (النصر) والتوفيق فاصطحبَا

فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا !

رأيتَ جلّق ثغرًا لا نظير له

فجئتها عامرًا منها الذي خربا !!

وكان هذا بعد انتصار صلاح الدين على أسطول صقلية وهذا في طريقه إلى الاسكندرية، وكان أسطولاً عظيمًا هائلاً وصل أوله وقت الظهر ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان فيه ثلاثون ألف مقاتل، بين فارس وراجل في ستمائة قطعة ما بين شيني وطرّاد وبُسطة، وفيها آلات الحرب والحصار، حتى المجانيق الكبار بحجارتها التي ترمى بها والدبابات وغيرها

عيون الروضتين في أخبار الدولتين لأبى شامة، تحقيق أحمد البيسومي منشورات وزارة الثقافة دمشق 1992 ق 2 ص 6. د. التازي : التاريخ الدولي للأمة العربية، بحث قدم لمنظمة الاليسكو عام 1994 للنشر ضمن كتاب (المرجع لتاريخ الأمة العربية).

نسـيمُ روضـهـا مـتى مـا قـدْ سَـرَى

اِفْـتكَّ أخَـا الهـمـوم من وَثَاقِـهـا 194/1

قـد رَتَـعَ الربيـعُ فـي ربوعـهـا

وسـيـقت الدنيـا إلى أسـواقـهـا "

لا تسـأم العـيـونُ والأنـوفُ من

رؤيتـهـا يومًـا ولا إسـتنشـاقـهـا !

ومما يناسب هذا للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني فيها (170) من قصيدة، وقد نسبت أيضا لابن المُنير (171) :

يا برقُ هل لك في إحـتـمـال تحـيـةٍ

عـذُبتْ فـصـارت مـثل مـائك سلْسـلا

باكـرْ دمـشق بمشْقِ أقـلام الحَـيـا

زهْر الريـاض مـرصّـعًـا ومكلّلا

واجـررْ بَجَيْرون (172) ذُيولك واختـصِصْ

مـغْنـى تـأزَّرَ بـالعُلَى وتَسَـرْبَـلا 195/1

---

(169) الزوراء : إسم أعطى عند البعض لدجلة وعند اخر يطلق على القسم الغربي من بغداد

(170) عبد الرحيم هذا معروف بلقبه (القاضي الفاضل) من أئمة الكتاب. ولد بفلسطين وانتقل إلى القاهرة وبها أدركه أجله عام 596 = 1200 كان وزيرًا للسلطان صلاح الدين الذي كان يقول عنه "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل" - ابن خلكان الوفيات ج 3 ص 158.

(171) القصد إلى أحمد ابن منير بن أحمد بن مُفلح من أهل طرابلس الشام، وبها ولد. أبو الحسين، مهذب الدين .. شاعر مشهور من أهل طرابلس الشام مدح السلطان العادل محمود بن زنكي بأبلغ قصائده ... وكان هجاءًا مرًا، وعوقب على ذلك. من شعره في جملة قصيدة

وإذا الكريم رأى الخمـول نزيله في منزل فـالحـزم أن يتـرحـلا "

أدركه أجله في حلب جمادى الآخرة سنة 548 شتنبر 1153 - ابن خلكان الوفيات 1، 156 - 157

(172) جيرون حي يوجد في شرق المسجد الأعظم .

حـيث الحـيـا الرَّبْعِي مـحلول الحـبـا

والـوابِل الـرَّبْعـى مَـفـرِيُّ الـكـلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (173) العنسى الغرناطي المدعو نور الدين :

دمـشق منزلُنا حـيث النعـيم بدا

مكمَّـلاً، وهو في الآفـاق مُـخْـتـصـر

القُـضْبُ راقـصـةٌ والطيـرُ صـادحـة

والـزَّهـرُ مـرتـفـعٌ والماءُ مـنحـدِر

وقـد تجلَّت من اللَّذات أوجُـهُـهـا

لكِنَّهـا بظلال الدَّوْح تـسـتَـتِـر

وكُلُّ وادٍ به مُـوسى يفـجِّـره (174)

وكلُّ روضٍ على حـافـاته الخَـضِـرُ !

196/1 وقال أيضا فيها :

خـيِّمْ بِجِـلْـقَ بـين الـكـأسِ والـوتـرِ

فِي جنَّةٍ هِيَ ملءُ السَّـمْعِ والبَـصَـر

ومـتِّـعِ الطَّرفَ في مـرْأى مـحـاسِنِهـا

وروِّضِ الـفـكـرَ بـين الرَّوض والنَّـهـر

وانظر إلى ذَهبِـيـات الأصـيل بهـا

واسـمـع إلى نغـمـاتِ الطَّيْـر فـي الشَّـجَـر

(173) تقدمت ترجمة ابن سعيد المغربي في هذا الفصل، تعليق رقم 79.

(174) السورة 7، الآية 160 من القرآن الكريم : "وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا".

وقُلْ لِمَن لامَ في لذّاتِه بَشَرا
دَعْنِي فإنكَ عندي سُوقَةُ البشر !

وقل أيضا فيها :

أما دمشق فجنَّةٌ
ينسى بها الوطنَ الغَريب
لله أيام السُّبُوت
بها (175)، ومنظرها العجيب
أنظر بعينك هلْ ترى
إلا مُحبًّا أو حبيب !!
في موطنٍ غنّى الحمامُ
بِهِ على رقْصِ القضيب

197/1

وغدتْ أزاهرُ روضِه تَخْتَالُ في فَرَحٍ وطيب

(175) يقصد يوم السبت الذي كان يوم راحة للناس في دمشق على ما سنذكر، وقد كان الأمر على هذا في الغرب الإسلامي حيث نقرأ أن للسبت والأحد اعتبارًا خاصًا عند شعراء الأندلس.

نطوي سُبوتا وآحادًا وننشُرها
ونحن في الطّي بين السبت والأحد !!
فعدَّ ما شئت من سبْتٍ ومن أحدٍ
لا بد أن يدخل المطوي في العدد !

وقد قال الآخر :

ألم تر أن الدَّهر يومٌ وليلة
يكرّان من سبتٍ عليك إلى سبت !

وقد حفظنا قول أبي الحسن ابن الزقّاق :

وحبَّب يوم السبت عندي أنّي يُنادمني فيه الذي أنا أحببت
ومن أعجب الأشياء أنني مسلم حنيفٌ ولكن خير أيامي السبت !

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، إنما يخرجون إلى المنتزهات وشطوط الأنهار، ودوحات الأشجار، بين البساتين النضيرة، والمياه الجارية، يكونون بها يومهم إلى الليل، وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلْنرجع إلى كلام الشيخ أبي عبد الله.

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني أمية

وهو أعظم مساجد الدّنيا احتفالاً، وأتقنُهَا صناعة وأبدعها حسنًا وبهجة وكمالا، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه، وكان الذي تولى بناءه وإتقانه أمير المومنين الوليد بن عبد الملك بن مروان (176)، ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث اليه الصناع، فبعث اليه أثني عشر ألف صانع، وكان موضع المسجد كنيسة فلما إفتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه من إحدى جهاتها بالسيف فانتهى إلى نصف الكنيسة، ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحًا فانتهى إلى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجدًا وبقى النصف الذي صالحوا عليه كنيسة (177) ! فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض، فأبوا عليه فانتزعها من أيديهم، وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجنّ، فذكروا ذلك للوليد فقال : أنا أول من يجنّ في سبيل الله ! وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رأى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وأكذب الله زعم الروم.

1/198

1/199

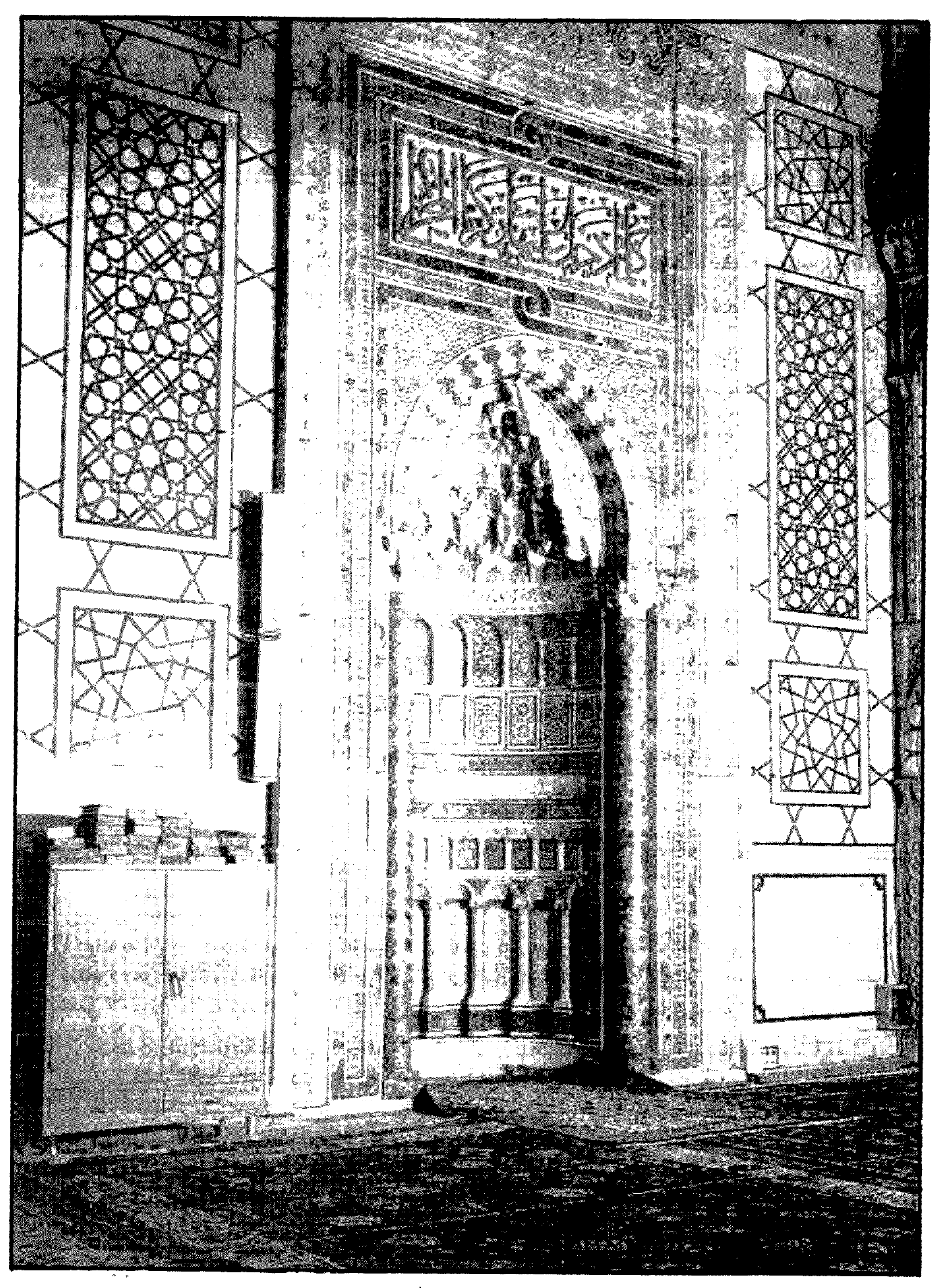
وزيِّن هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفُسيفساء (178) تخالطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن، وذَرْعُ المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة، وهي

---

(176) الوليد بن عبد الملك بن مروان ولي بعد وفاة والده، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وامتدت الدولة الإسلامية في زمنه إلى بلاد الهند وأطراف الصين، وهو الذي هدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به ثم بناه بناءً جديدًا وصلح الكعبة والميزاب والاساطين في مكة وبنى المسجد الأقصى في القدس وبنى مسجد دمشق المعروف بالمسجد الأموي، أدركه أجله عام 96 = 715 ودفن بدمشق ومن الطريف أن نعرف أنه استعان في بعض هذه الأعمال وخاصة مسجد المدينة - بخبرة البيزنطيين الذين لم يترددوا في تلبية الدعوة. - د. التازي : المسجد في المأثور الاسلامي (نشر ضمن كتاب جامع الحسن الثاني ص 324 - رقم الإيداع القانوني 1993 / 655.

(177) هذه القصة المروية عن عدد من المؤرخين تتوافق وفتح دمشق عام 14 = 635
K.A.C. CRESWELL : EARLY MUSLIM ARCHITECTURE, OXFORD 1932.

(178) كلمة الفسيفساء من أصل إغريقي (PSEFOX) ويلاحظ أن بعض الفسيفساء ما يزال صامدًا إلى الآن.



دمشق - الجامع الأموي، المحراب

ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وعدد شمسات الزجاج الملونة التي فيه أربع وسبعون، وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة، وقد قامت على أربع وخمسين سارية، وثماني أرجل جِصيّة تتخللها || وست أرجل مرخّمة مرصعة بالرخام الملوّن، قد صوّر فيها أشكال محاريب وسواها، وهي تُقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبَّة النسر (179) كأنهم شبهوا المسجد نسرًا طائرًا والقبة رأسه، وهي من أعجب مباني الدنيا، ومن أي جهة إستقبلت المدينة بدتْ لك قبة النسر ذاهبةً في الهواء منيفة على جميع مباني البلاد، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية، سعة كل بلاط منها عشر خُطا، وبها من السواري ثلاث وثلاثون، ومن الأرجل أربع عشر، وسعة الصحن مائة ذراع، وهو من أجل المناظر وأتمها حسنا، وبها يجتمع أهل المدينة بالعشايا، فمِن قارئٍ ومحدث وذاهب، ويكون إنصرافهم بعد العشاء الأخيرة، وإذا لقى أحد || كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحبًا له أسرع كل منهما نحو صاحبه وحطً رأسه.

200/1

201/1

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب : إحداها في غربيّه وهي أكبرها، وتسمى قبة عائشة أم المومنين، وهي قائمة على ثمان سواري من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال إن مال الجامع كان يختزن بها.

وذُكر لي أن فوائد مستغلات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبًا في كل سنة (180)، والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى إلا أنها أصغر منها قائمة على ثمان سواري الرخام وتسمى قبة زين العابدين (181)، والقبة الثالثة في وسط الصحن،

(179) يلاحظ أن ابن بطوطة يختصر الوصف الذي حكاه ابن جبير عمًا يعتقده الناس حول قبَّة النسر فانظره (ص 213) وأن أصل هذا التعريف ناتج عن كلمة اغريقية (AETOS) التي تعني النِّسر أكثر مما تعني الحمام ...

(180) يلاحظ أن ابن بطوطة حوَّل صرف 8000 دينار التي وردت عند ابن جبير والتي ذكر هناك أنّها تساوي خمسة عشر ألف دينار مؤمنية، حوَّلها، أي ابن بطوطة، إلى الصرف في عهده هو، عندما قال أنها تساوي خمسة وعشرين ألف دينار، وقد فعل ذلك لتَنْويم "ACTUALISER" المعلومات، هذا ويلاحظ أن عادة اختزان الأموال بالجامع لم تكن مقتصرةً على المَشرق ولكنها معروفة أيضًا بالمغرب، وقد تحدثنا عن "المستودعات" التي كانت جامع القرويين بفاس تعرفها في العهد المتقدم من حياتها. - د. التازي : جامع القرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972 ج I ص 76 - 77. رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان 1981 ص 216.

(181) القصد إلى زين العابدين ولد الحسين ابن علي ...

202/1 وهي صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الإلصاق قائمة على أربع سواري من الرخام الناصع وتحتها شباك حديدٍ في وسطه أنبوب نحاس يمجّ الماء إلى علو فيرتفع ثم ينثنى كأنه قضيب لجين، وهم يسمونه قفص الماء، ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب، وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي إلى مسجدٍ بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله (182) عنه، ويقابلة من الجهة الغربية حيث يلتقى البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال : إن عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنالك.

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى (183) التي يؤم فيها إمام الشافعية، وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المومنين عثمان بن عفان (184) رضي الله عنه إلى الشام، وتفتح تلك الخزانة كلَّ يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم، وهنالك يحلِّفُ الناس غُرَماءهم ومن ادعوا عليه شيئا، وعن يسار المقصورة محراب الصحابة، ويذكر أهلُ التاريخ أنه أول محراب وضع في الإسلام، وفيه يؤم إمام المالكية، وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم إمامهم، ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم إمامهم. 203/1

ولهذا المسجد ثلاث صوامع إحداها بشرقيه، وهي من بناء الروم (185)، وبابها داخل المسجد وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤون، والصومعة الثانية بغربيّه وهي أيضا من بناء الروم (186)، والصومعة الثالثة

(182) معنى المشهد هنا لا يقصد إلى وجود قبر عليّ رضي الله عنه، ولكن القصد إلى مزارة تصور بعضهم أن عليًا شوهد فيها ،منامًا، مصليًا ونذكر هنا أنه لا الإمام علي ولا السيدة عائشة كلٌ منهما لم يقم بزيارة لدمشق ... ابن جبير : الرحلة 216...

(183) المقصورة تعني سياجًا يشيد خصيصًا للخليفة أو الحاكم لحمايته أثناء أداء الصلاة ... ابن جبير : الرحلة ص 214 ص 336. - د. التازي : المسجد في المأثور الإسلامي/ مصدر سابق /.

(184) الخليفة عثمان رضي الله عنه هو الذي قام بعملية جمع القرآن وقام بإرسال نسخ ممًا جُمع لعواصم الأقاليم الإسلامية الأخرى. وحول مصحف عثمان بن عفان يراجع تاريخ المنّ بالإمامة تأليف ابن صاحب الصلاة، تحقيق : عبد الهادي التازي. الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي بيروت 1987 ص 350 تعليق 1.

(185) كانت في الأصل منارة للكنيسة وقد تهدمت في أعقاب زلزال ضرب المدينة عام 739 = 1339 قبل أن تبنى من جديد ...

(186) نلاحظ أن هذه الصومعة أيضا من بناء البيزنطيين الذين استعان بهم الوليد على ما أسلفنا.

204/1 بشماله وهي من بناء المسلمين (187) وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنًا، وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزَّيالعة (188) السودان، وفي وسط المسجد قبر زكرياء عليه السلام (189)، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلَّم فيه مكتوب بالأبيض : "يا زكرياء إنا نبشرك بغلام إسمه يحيى (190)، وهذا المسجد شهير الفضل، وقرأت في (فضايل دمشق) عن (191) سفيان الثوري (192) أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة، وفي الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يُعبد

205/1 الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة، ويقال إن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام وأن قبره به، وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الأحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه : هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم (193).

ومن فضايل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة إلا قليلاً من الزمان، كما سنذكره، والناس يجتمعون به بعد صلاة العصر لقراءةٍ تسمى الكَوْثَرية (194) يقرأون

---

(187) تدعى بالعروس (THE BRIDE) وتشتهر على أنها أول منارة بناها المسلمون بالمسجد ...

(188) نسبة إلى زيلع التي تقع اليوم في الصومال وسيأتي الحديث عنها ...

(189) هذه البناية التي توجد في الرواق الجنوبي تنسب عادة إلى سيدنا يحيى وحسب ابن جُبير فإن هذا قبر لرأسه – ص 221.

(190) السورة 19، الآية 7 .

(191) لعل الأمر يتعلق بتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر المتوفى عام 571 = 1176، وقد اختصره الشيخ عبد القادر بدران بحذف الاسانيد والمكررات ويسمى هذا "المختصر" تهذيب تاريخ ابن عساكر طبعت بعض أجزاء منه. أنظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر تحقيق محمد أحمد دهمان مطبوعات المجمع العربي بدمشق – مطبعة الترقّي 1383 = 1963.

(192) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أمير المومنين في الحديث راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى – توفي بالبصرة عام 161 = 778 له من الكتب (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير) ابن خلكان 2، 386 - تراجع (هدية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث) للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي

(193) الواقع الذي أطبقت عليه الروايات أن قبر نبي الله هود عليه السلام يوجد بحضر موت وقد وقفت عليه أثناء زيارتي لليمن عام 1992، ولعل الذين تحدثوا عن وجوده هنا ربما التبس عليهم بقبر نبي الله أيوب الذي يوجد على مقربة من المسجد والعين المشهورة – كما يقول المسعودي – ببلاد نوا والجولان، فيما بين دمشق وطبرية ... وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوا ويوجد الحجر الذي كان يأوي إليه في خلال بلائه هو وزوجته رُحْمَا في ذلك المسجد إلى وقت المسعودي (332هـ = 944 م)، ويذكر ياقوت في كتابه (معجم الأدباء) عند ترجمته لأسامة بن منقذ أن القبر يقع في عقبة افيق. وقد حالت ظروف الاحتلال الاسرائيلي من زيارتي لقبر سيدنا ايوب عام 1993 ...

(194) يعني السور السبع الأخيرة من القرآن الكريم، وهي من القصار.

فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن، وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجرى لهم، وهم نحو ستمائة انسان، ويدور عليهم كاتب الغيبة ‖ فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته (195)، وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه، مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون عن ذلك ويتوضأون من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها، وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئا من ذلك. 206/1

وفي هذا المسجد أربعة أبواب : باب قبلي يعرف بباب الزّيَادة، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم، ومنه يذهب إلى دار الخيل (196)، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع ‖ جدار المسجد القبلي من أحسن أسواق دمشق، وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (197) ودورُ قومه، وكانت تسمى الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم، وصار مكانُها سوقًا، وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ويسمى باب جَيْرون وله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طِوال (198)، وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم، كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه، وبإزائه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وبه ماء جار. 207/1

وقد إنتظمت أمام البلاط دَرَجٌ يُنحدر فيها إلى الدهليز، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع ‖ تحته أعمدة كالجذوع طوال، وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت 208/1

---

(195) ما قدمه ابن بطوطة عن (المجتمع الكوثري) مأخوذ من رحلة ابن جبير ص 220.

(196) دار الخيل في البداية كانت ملحقة بالقصر الأموي الذي أصبح جانب كبير منه مُحتلاً فيما بعد بالمدرسة الأمينية المؤسسة عام 514 = 1120. ابن شداد : الاعلاق الخطيرة، تحقيق : سامي الدهان، دمشق 1382 = 1962، ص 25...

(197) تلك الدار هي القصر الأخضر : أو (الخضراء) التي كان يسكنها الخليفة الأموي الأول معاوية (تـ 60 = 680) وربما كانت من تشييد بيزنطي ... كان معاوية ابن أبي سفيان معدوداً في كُتاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه وتعلمه الكتابة والحساب، بلغت فتوحاته المحيط الأطلسي، أول مسلم ركب بحر الروم للغزو وأول من نصب المحراب في المساجد ... كان عمر يقول عنه : انه كِسرى العرب ! ترجم له عدد كبير من المؤرخين ... الاعلاق الخطيرة.

(198) كانت من بقايا معبد روماني وقد هدمت سنة 1274 = 1858.

عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزّازين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكُتْبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة.

وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكبار الشهود : منها دكانان للشافعية، وسائرها لأصحاب المذاهب، يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول (199) والعاقد للأنكحة من قبل القاضي، وسائر الشهود مفترقون في المدينة، وبمقربةٍ من هذه الدكاكين سوق الورّاقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد، وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لا سقف لها تُقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج المَاء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة (200)، منظره عجيب.

(99/1)

وعن يمين الخارج من باب جَيْرون وهو باب الساعات : غُرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار، لها أبواب على عدد ساعات النهار، والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة، فإذا ذهبت ساعة من النهار إنقلب الباطن الأخضر ظاهرًا والظاهر الأصفر باطنًا، ويقال : إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات (201).

والباب الغربي يعرف بباب البريد، وعن يمين الخارج منه مدرسة للشافعية، (202)، وله دهليز فيه حوانيت للشماعين، وسِماط لبيع الفواكه، وبأعلاه بابٌ يُصعد اليه في درج له أعمدة

---

(199) الذي يقوم بوظيفة الشاهد أو الموثق نُسميه في المغرب العدل ويجمع على عدول، ومعلوم أن الإسلام يولي أهمية كبرى لاثبات الحق والتوثيق. تراجع الآية الكريمة رقم 282 سورة البقرة "اذا تداينتم بدين إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه" وهي أطول آية في القرآن...

(200) المغاربة يطلقون على الفوارة : الخصة.

(201) هذه الساعة الشهيرة أنشأها نور الدين محمود بن زنكي الذي امتد حكمه من 549 = 1154 إلى 569 = 1174، وكانت تتوفر على آلية جدّ دقيقة على نحو ما نقرأه مفصلا عند ابن جبير ص 212. وقد كثر الاهتمام بأمر هذه الساعات المائية سواء في المشرق أو المغرب... ساعات من القرن الرابع عشر في فاس للأستاذ برايس، تعريب : عبد الهادي التازي، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد 13، سنة 1966 = 1385 – التازي : جامع القرويين، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972، ج 2، ص 245، التعليق 43... – التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 7، ص 18، تعليق : 43

(202) في حديثه عن الخانقاه السُّميساطية (الشافعية) قال ابن جبير : إن الشخص الذي إشتراها وأمر ببنائها وخصص لها أوقافًا عديدة كان يحمل اسما عربيا. وكان قصده إلى علي بن محمد بن يحيى السلمي السمَيساطي نسبة إلى سميساط جنوب شرقي تركيا فهو الذي عمر الخانقاه السُّميساطية، وتعرف اليوم بالشميساتية (رحلة ابن جبير ص 236).

210/1 سامية في الهواء، وتحت ‖ الدرج سقايتان عن يمينٍ وشمال مستديرتان، والباب الجوفي يعرف بباب النَّطفانِيين (203)، وله دهليز عظيم، وعن يمين الخارج منه خانقاه تعرف بالشُّمَيعَانية (204) في وسطها صهريج ماء، ولها مطاهر يجرى فيها الماء، ويقال إنها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحوماية بيت تجري فيها المياه الكثيرة.

ذكر الأئمة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر إمامًا أولهم إمام الشافعية، وكان في عهد دخولي اليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (205)، من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب ‖ الحديد إزاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضي الله عنه، وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالدّيار المصرية بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت عليه دينًا بدمشق، وإذا سلَّم إمام الشافعية من صلاته أقام الصلاة إمامُ مشهد علي، ثم إمام مشهد الحسين ثم إمام الكلاَّسة (206) ثم إمام مشهد أبي بكر ثم إمام مشهد عمر ثم إمام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين. 211/1

ثم إمام المالكية وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد ابن الحاج التُّجيبي القرطبي الأصل الغرناطي المولد نزيل دمشق (207) وهو يتناوب مع أخيه رحمهما الله..

(203) يعني صانعي الناطف : مشروب مركب من عصير العنب وعناصر مماثلة ...

(204) أو الشومانية : اسم محلي ...

(205) محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن احمد بن أبي دُلَف العجلي القزويني أبو المعالي جلال الدين سكن الروم مع والده وأخيه وولي قضاء ناحية بالروم وله دون العشرين ثم عينه الناصر على قضاء الشام ثم قضاء القضاة بمصر ثم أعيد إلى قضاء الشام فاستمر بها إلى أن أدركه أجله بها عام 739 = 1338. له من الكتب (تلخيص المفتاح) في المعاني والبيان، الذي كنا ندرسه في جامعة فاس، الدرر الكامنة 4، 120 إلى 123.

(206) القصد إلى خانقاه صغيرة بناها نور الدين بن زنكي شمال المسجد الأموي عام 555 = 1160 وقد احترقت في نفس السنة مع منارة العروس وشيدت مرة أخرى من لدن صلاح الدين وكان فيها مثواه الأخير عام 589 = 993...

(207) هو أحمد بن محمد بن أحمد 1272 - 1346 = 670 - 746، ابن الامام السابق للجامع، أخوه هو فخر الدّين عبد الله الذي كان أصغر منه بثلاث سنوات 1276 - 1342 – راجع الدرر الكامنة ج I ص 147 ج II ص 286 ثم الجزء III ص 350...

212/1 ثم إمام الحنفية وكان إمامهم في عهد دخولي اليها الفقيه عماد الدين الحنفي المعروف ‖ بابن الرومي (208)، وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانْقاة الخاتونية، وله أيضا خانقاه بالشرف الأعلى (209).

ثم إمام الحنابلة، وكان في ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف (210) أحد شيوخ القراءة بدمشق. ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوايت (211)، فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن. وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك.

ذكر المدرسين والمعلمين به.

وبهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحًا ومساءًا ‖ وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقّن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألْواح تنْزيها لكتاب الله تعالى، وانما يقرأون القرآن تلقينًا. 213/1

ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكُتُب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلّم للخط لا يعلّم غيره، ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفِركح الشافعي (212)، ومنهم العالم الصالح نور

(208) القصد إلى عماد الدين بن شهاب الدّين الرُّومي : أحمد بن محمد بن ابراهيم الرومي الحنفي قدم دمشق... ثم ولى إمامة الحنفية بالجامع الأموي وكان الأفرم يعظمه ويكرمه إلى أن مات في ربيع الآخر 717 = 1317 تناوب مع أخيه شرف الدين على ما كان يقوم به والدهما في مهامه بالمدرسة المعينية. الدرر ج II ص 257.

(209) الشّرف الأعلى هو الاسم الذي أعطى للحي الذي يوجد على الساحل الشمالي لنهر بَرَدَى غربي المدينة.

(210) من المحتمل أن يكون القصد إلى عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد السعدي الملقب محب الدين، الدمشقي الصالحي الحنبلي ... أسمعه أبوه.

(211) طريقة طريفة لتدارك ما قد يقع من إهمال لأوقات الصلاة.

(212) هو أبو إسحاق ابراهيم بن تاج الدين عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري برهان الدين ابن الفِرْكَاح من كبار الشافعية، صعيدي قرأ على والده ثم أصبح من أهل دمشق درس بالبادرائية، وكان جده فقيهاً كبيراً، وُلي وكالة بيت المال لكنه تركها ازدراءً لها ... أدركه أجله بدمشق في جمادى الأولى عام 729 = 1329، من كتبه تعليق على مختصر ابن الحاجب والإعلام بفضائل الشام ... الدرر الكامنة I، 35.

الدين أبو اليُسر بن الصايغ (213) من المشتهرين بالفضل والصلاح، ولَمّا ولى القضاء بمصر جلال الدين القزويني، وُجّه إلى أبي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق، فامتنع من ذلك، ومنهم الامام العالم شهاب الدين بن جَهْبَل من كبار العلماء، هرب من دمشق لما إمتنع أبو اليسر من قضائها خوفًا من أن يُقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين، علاء الدين (215) القُونَوى وهو من كبار الفقهاء، ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السَّخاوي المالكي (216) رحمة الله عليهم أجمعين.

214/1

ذكر قضاة دمشق

قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعية بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين (217) ابن خطيب الفيوم، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن

215/1

(213) لعلّ القصد إلى بدر الدين محمد بن محمد الأنصاري شيخ المدرسة الدَّماغية الذي عاش من سنة 676 = 1277 إلى 738 = 1338.
النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق الأمير جعفر الحسني دمشق 1370 = 1951.
Gibb : th Travels T.1 P.134 Note 243

(214) هو أحمد بن يحيى بن اسماعيل ... بن جهبل الحلبي ثم الدمشقي الشافعي، عين شيْخًا بالبادرانية بعد وفاة برهان الدين ابن الفِركاح سالف الذكر. أدركه أجله في جماد الآخرة 733 = 1333
الدرر الكامنة 1، 350.

(215) كتب خطأ في مخطوطة الخزانة الحسنية الغزنوي ...، والصواب القُونوي نسبة إلى قونية في بلاد الروم، وهو علي بن اسماعيل بن يوسف، أبو الحسن علاء الدين ولد بقونيه، فقيه من الشافعية سأله السلطان أن يتولى قضاء الشام فاعتذر قائلا : لي أطفال يتأدون بالحركة ! فقال له السلطان وهو باسط يديه أنا احملهم على كفوفي إلى الشام ! فقبل حياءً عام 727. وأقام بها إلى أن توفي عام 729 = 1329 وهو شارح الحاوي الصغير، له ترجمة حافلة في الدرر 3، ص 93.

(216) نعت السخاوي بالمالكي حتى لا يلتبس بالسخاوي الشافعي (تـ 643 = 1245)، والسخاوي المالكي هو نور الدين (وليس بدر الدين) عليّ ابن عبد النصير بن عبد الخالق، توفى سنة 756 = 1355 ترجمته في الدرر الكامنة 3، 150 - 151 / النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس ج 2، ص 8 - 14.

(217) شرف الدين محمد بن قاضي القضاة معين الدين أبي بكر بن ظافر الهمداني، (بسكون الميم) النويري كان قاضيا بدمشق من عام 719 = 1319 إلى 737 = 1337 وقد أدركه أجله في محرم عام 748 = 1347. الدرر الكامنة 4، 24.

القفصي، (218)، ومجلس حكمه بالمدرسة الصَّمْصامية (219). وأما قاضي قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحوراني وكان شديد السطوة وإليه يتحاكم النساء وأزواجهن، وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي أنصف من نفسه قبل الوصول اليه، وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين ابن مُسلَّم (220) من خيار القضاة يتصرف على حمارٍ له، ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف.

حكاية (الفقيه ابن تيميّة)

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية (221) كبير الشأن يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئا ! وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظهم على المنبر، وتكلم مرة 216/1 بأمرٍ أنكره الفقهاء ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي (222)، وقال: إن هذا الرجل قال : كذا، وعدَّد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلا الله، فأعاد عليه فأجاب بمثل قوله، فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعوامًا، وصنف في السجن كتابًا

(218) محمد بن سليمان بن أحمد القفصي شمس الدين المالكي قدم من المغرب وسكن دمشق وناب في الحكم ... قال ابن حجر : وفي لسانه عجمة : يجعل الجيم زايا والياء سينا توفي في شوال عام 743=1343 . الدرر الكامنة 4 ص 67.

(219) خصص النُّعيمي الدمشقي فصلاً هاما للمدرسة الصمصامية انظر كتابه الدارس في تاريخ المدارس، ص 9/8.

(220) شمس الدين محمد بن مُسلَّم (بتشديد اللام) بن مالك ... بن جعفر المِزِّي الأصل ثم الدمشقي الحنبلي، لما مات القاضي تقي الدين سليمان عين للقضاء وأثنى عليه عند السلطان فتوقف فطلع اليه ابن تَيْمِيَّة يلومه فأجاب بشرطين : أن لا يركب بغلة وأن لا يحضر الموكب ! وقد عوضه في القضاء محمد بن سليمان بن قدامة عز الدين عام 727=1327 الدرر 5، 27 الدرر 4، 68.

(221) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية من أشهر الشخصيات في العالم الاسلامي، ويعتبر مرجعًا للحركة الوهابية التي ظهرت فيما بعد بالجزيرة العربية ... وقد سجن في القاهرة من أجل أفكاره من عام 706 = 1307 إلى عام 711 = 1311 ورجع إلى دمشق حيث دخل السجن مرة أخرى عام 720 = 1320 لبضعة شهور، وقد تمَّ آخر سجن له في شهر شعبان يوليه عام 726 = 1326 بسبب الفتوى التي يشجب فيها زيارة مقابر الأولياء !.. ولما كان معتقلا بالإسكندرية التمس منه صاحب سبتة أن يجيز له بعض مروياته فكتب له جملة من ذلك في عشرة أوراق بأسانيده وحفظه - وقد أدركه أجله في السجن عام 728 = 1328 - خص له ابن حجر ترجمة حافلة - الدرر 1، ص 154.

(222) جمال الدِّين وليس شرف الدِّين كما عند ابن بطوطة والقصد إلى محمد بن سليمان بن يوسف البربري الزواوي المالكي الفقيه القاضي ... قدم الاسكندرية فاشتغل في الفقه ثم أخذ عن ابن عبد السلام ... وناب في الحكم بالقاهرة وبالشرقية والغربية وعين لقضاء القاهرة بعد موت ابن شاس وولي قضاء دمشق سنة 687 فاستمر ثلاثين سنة ... كان صارمًا أراق دم جماعة تعرضوا للجناب المحمدي .. توفي في جمادى الآخرة سنة 717. الدرر الكامنة 4، 68 - الدارس في تاريخ المدارس ص 12 - 15.

في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلدًا، ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر وشكت إليه، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق (223) فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكّرهم فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضربًا كثيرًا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مُسلَّم قاضي الحنابلة فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك، فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تِنْكِيز (224) وكان من خيار الأمراء وصلحائهم، فكتب إلى الملك الناصر بذلك وكتب عقدًا شرعيا على ابن تيمية بأمور منكرة منها : أن المطلّق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة، (225) ومنها أن المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبًا لا يقصر الصلاة، وسوى ذلك مما يشبهه، وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن.

217/1

218/1

ذكر مدارس دمشق

إعلم أن للشافعية بدمشق جملةً من المدارس أعظمها العادلية (226)، وبها يحكم قاضي القضاة، وتقابلها المدرسة الظاهرية (227) وبها قبر الملك الظاهر، وبها جلوس نواب

(223) يلاحظ أن ابن بطوطة، وقد وصل إلى دمشق في تاسع رمضان 726 = 9 غشت 1326، لم يتمكن من رؤية ابن تيمية الذي استمر في السجن إلى أن توفى، هذا ونذكر هنا أن العالمين المغربيين اللذين سجل التاريخ مناظرتهما لتقي الدِّين بن تيمية هما الإمامان الأخوان الشقيقان أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ابنا الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام البرشكي.

المسند لابن مرزوق تحقيق الدكتورة بغيرا 1981 ص 265 - 266 - تاريخ بني زيان للتنسي تحقيق ذ. بو عياد 1985 ص 139 - راجع المقدمة حول موضوع ابن تيمية.

(224) سيف الدين هذا كان نائبًا لسلطان مصر على بلاد الشام على ما سلف - الدرر 2، 55 - 56.

(225) في الواقع كانت هذه النظرية تتوافق مع النظرية الأولى للإسلام بيد أن الأمر تغير أيام الخليفة الثاني عمر الذي قرر أن الطلاق الثلاث يقتضي أن المرأة تحرم على زوجها ولا تحل له إلا بعد التزوج بآخر ... وقد كان هدفُه تأديبَ الرجال حتى لا يعودوا للنطق بالثلاث...

(226) ابتدئ بناؤها من لدن نور الدين زنكي، واكملت من لدن العاهل الأيوبي العادل 1196 - 614 = 1218) (592 = شمال الجامع الأعظم وما تزال موجودة إلى الآن ...

النّعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس.

(227) هذه المدرسة بناها الملك الظاهر بَيْبَرس غربي المدرسة السابقة وما تزال إلى الآن شاخصة - الدارس في تاريخ المدارس ...

219/1 القاضي، ومن نوابه فخر الدين القِبطي، كان والده من كتاب القِبط، وأسلم ومنهم جمال الدين ابن جملة (228)، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله.

حكاية [الشيخ ظهير الدّين وقاض القضاة]

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي، وكان سيف الدين تِنْكيز ملك الأمراء يتتلمذ له ويعظمه، فحضر يومًا بدار العدل عند ملك الأمراء وحضر القضاة الأربعة، فحكى قاضي القضاة جمال الدين ابن جُملة حكاية، فقال له ظهير الدين : كذبت ! فأنف القاضي من ذلك وامتعض له، فقال للأمير : كيف يكذبني بحضرتك؟ فقال له الأمير ؟: احكم عليه وسلّمه إليه، وظنه أنه يرضى بذلك، فلا يناله بسوء فأحضره القاضي بالمدرسة 220/1 العادلية وضربه مائتي سوط، وطيف به على حمار في مدينة دمشق، ومنادي ينادي عليه، فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة ! وهكذا العادة عندهم، فبلغ ذلك ملك الامراء فأنكره أشد الإنكار وأحضر القضاة والفقهاء، فاجمعوا على خطإ القاضي وحكمه بغير مذهبه، فإن التعزيز عند الشافعي لا يبلغ به الحد (229)، وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين : قد حكمت بتفسيقه فكتب إلى الملك الناصر بذلك فعزله. وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين (230) وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية. وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس إحداها الصمصامية (231)، وبها سَكَنُ قاضي القضاة المالكية وقعوده للأحكام، والمدرسة

---

(228) هو جمال الدين أبو الثناء محمود بن ابراهيم ابن جملة المُحَجِّي (نسبة إلى محجة في حوران) خطيب الجامع الاموي، قاضي للشافعية عام 733 = 1332 وبقي في هذه الوظيفة إلى أن عزل عام 734 = 1334 وسجن بالقلعة وطال حبسه إلى أن شفع فيه عند تنكيز ثم درّس بالرواحية والشامية ... إلى أن توفى في ذي القعدة سنة 738 يونيه 1338 - الدرر 5 ص 219.

(229) يعنى ان التعزير في المذهب الشافعي لا يتجاوز الحد المنصوص عليه عندهم وهو أربعون سوطا ومعلوم أن التعزير في المدرسة المالكية غير محدود وهو خاضع لتقدير الحاكم...

(230) هي بالذات المدرسة النورية الكبرى التي تردد ذكرها مرارًا في كتاب (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي الدمشقي، وقد بناها نور الدين.

(231) كل هذه المدارس الثلاثة بنيت مكان القصر الاموي للخليفة هشام، وما تزال آثارها موجودة على مقربة من سوق الخياطين كما نجده عند النُعيمي الدمشقي في كتابه الدارس في تاريخ المدارس. وقد شيدت الصمصامية الحالية عام 718 = 1318 وتوجد على مقربة من باب الجابية ... وقد تحدث الهروي عن قبر نو الدين الذي يوجد هنا، كما تحدث عن أن هذه المدرسة ربما نسبت لصلاح الدين فحملت كذلك اسم الصالحية أما عن المدرسة الشرابشية فيذكر أن الذي بناها أحمد بن نور الدولة المتوفى عام 733 = 1333 ... الدارس، تحقيق جعفر الحسني من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1370 - 1951.

221/1 النورية عمرها السلطان نور الدين محمود ابن زنكى والمدرسة الشرابشية عمَّرها شهاب الدين الشرابشي التاجر، وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية (232).

ذكرُ أبواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب : منها باب الفراديس (233)، ومنها باب الجابية (234) ومنها باب الصغير (235)، وفيما بين هذين البابين مقبرة (236) فيها العدد الجمّ من الصحابة والشهداء فمن بعدهم.

قال محمد ابن جُزي : لقد أحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق في قوله :

دِمشق في أوصافها ... جنّةُ خلدٍ راضيهْ

222/1 أما ترى أبوابها ... قد جعلت ثمانيه (237) !

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين البابين : باب الجابية والباب الصغير، قبرُ أمّ حبيبة بنت أبي

(232) كانت المدرسة النجمية ديرًا وقد أسسها نجم الدين والد صلاح الدين يوسف – انظر الدارس في تاريخ المدارس ص 174 - 175.

(233) الفراديس (PARADIS) يعني باب البساتين أو الجنائن، يقع وسط الجدار الشمالي الذي يؤدي إلى المدينة البيزنطية.

(234) باب الجابية هو الذي يقع غرب الشارع الرئيسي المؤدي إلى جابية (الصهاريج) الاقامة القديمة للأمراء الغساسنة.

(235) الباب الصغير يقع على القسم الشرقي للجدار الجنوبي.

(236) الواقع أنه خارج هذه الأبواب توجد إلى الان أهم وأقدم مقبرة بمدينة دمشق ...

(237) تذكر لكل باب اسطورة ... وابن عساكر مؤرخ دمشق يتحدث عن سبعة أبواب مكرسة للكواكب السبع...

سفيان أم المؤمنين (238)، وقبر أخيها أمير المومنين معاوية (239)، وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، وقبر أُوَيس القَرْني (241)، وقبر كعب الأحبار (242) رضي الله عنهما.

ووجدت في كتاب المفهم، في شرح صحيح مسلم، للقرطبي (243) أن جماعة من

---

(238) رملة بنت أبي سفيان زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وهي أخت معاوية تزوّجها أولاً عبيد الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة ثم ارتد زوجها فأعرضت عنه إلى أن مات فارسل النبي صلى الله عليه وسلم يخطبها وعهد للنجاشي ملك الحبشة بعقد نكاحه عليها ووكلت هي خالد بن سعيد ابن العاص فأصدقها النجاشي من عنده أربعمائة دينار ... وكان أبوها لا يزال على دين الجاهلية، فلما بلغه صنيع النبي عجب وقال : ذلك الفحل لا يقرع أنفه !! وقد أدركها أجلها بالمدينة المنورة عام 44 = 664 كما ينقل الزركلي في الاعلام ولا نعلم مصدر ابن بطوطة في قوله هنا إنها دفنت في دمشق !

(239) ينقل بيرازيموس عن مؤلّف اسماه (الصيادي) (AL-ASAYYADI) من أهل القرن السادس عشر الميلادي أنه عند حديثه (أي الصيادي) عن الباب الصغير قال : إن معاوية دفن فيه وهو في قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هذا مكانا يقصده الزوار في القرن العاشر الهجري ... لكنه اليوم في عداد المجهول ...

Voyages d'Ibn Battuta (La Decouverte), Paris 1994 p. 229.
J. Sourdel Toumin : les monuments Ayoubides de damas - Paris 1950

(240) بلال بن رباح الحبشي أحد السابقين للإسلام ... شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى عليه وسلم ... وقد شارك في فتح سوريا حيث أدركه أجله عام 20 من الهجرة موافق 641م. ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق، المجلدة العاشرة بتحقيق محمد أحمد دهمان : مجمع دمشق = 1963 1383 ص 301 = 353.

(241) هو أويس بن جَزْء بن مالك القَرَني من بني قَرن (بفتح القاف والراء)، أحد النساك العباد المقدمين، أصله من اليمن وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يره فوفد على عمر بن الخطاب وسكن الكوفة وشهد عام 37 = 687 وقعة صفين مع سيدنا علي، ويرجح الكثيرون أنه استشهد فيها عام 37=687... لكن الهروي (تـ 611هـ) يذكر أن قبر أويس يوجد بالرقة ص 53، 63.

(242) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرًا من أخبار الأمم والتوراة ... وخرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي فيها (وليس في دمشق !) عام 32 = 652 م ... لقد اختفى القبر لكن النقوش ما تزال موجودة.

(243) هذا أحمد بن عمر بن ابراهيم أبو العباس الانصاري القرطبي الفقيه المالكي كان مدرسًا بالاسكندرية وبها توفي عام 656 = 1258 من كتبه المفهم في شرح صحيح مسلم في الحديث.
وبما أن الناشرين جميعهم اعتمدوا على المخطوطة التي اعتمد عليها المترجمان الفرنسيان : D.S. التي تحمل رقم 2289 ... فقد كتبوا جميعهم (المعلم) عوض (المفهم) التي توجد في سائر المخطوطات الصحيحة، المقري : نفح الطيب، تحقيق : د. احسان عباس، بيروت 1388 = 1968 ج 2، ص 211 - 615.

الصحابة صحبهم أويس القَرَني من المدينة إلى الشام فتوفى في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيّروا في أمره فنزلوا فوجدوا حَنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه، ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر !

223/1

قال ابن جزي ويقال : إن أوَيسا قُتل بصِفّين (244) مع علي عليه السلام، وهو الأصح إن شاء الله.

ويلي باب الجابية باب شرقي (245) عنده جبّانة فيها قبر أُبَيّ بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم (246)، وفيها قبر العابد الصالح (247) رَسْلان المعروف بالباز الأشهب.

حكاية في سبب تسميته بذلك

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بمقربة من

(244) معركة صِفين(الشاطئ الأيمن لنهر الفرات في مقابلة قلعة جعبر بالباء، معجم البلدان) وقد شبت عام 37 = 656 بين الجيش العراقي بقيادة علي وبين الجيش السوري بقيادة معاوية الذي سيصبح خليفة!

(245) يتحدث ابن جبير عن باب يوجد في الشرق مع منارة كبيرة بيضاء يقال بأن المسيح سينزل فيها من السماء ... ويسمى هذا الباب في المصادر المسيحية باب القديس بول (Saint Paul)

(246) أُبي بن كعب من كتبة الوحي على عهد الرسول عليه السلام بعد أن كان من أحْبَار اليهود، هذا ومكان القبر المتحدث عنه غير معروف الآن. وقد شهد أبي بن كعب مع عمر ابن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لاهل بيت المقدس وأمره عثمان بجمع القرآن فاشترك في جمعه، أدركه أجله بالمدينة المنورة حوالي 21 / 642.

(247) هو بالذات الشيخ رسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن التركماني الجعبري (نسبة لقرية جعبر) قبره معروف بدمشق أدركه أجله عام 699 = 1300 ويعتبر من صالحي دمشق ولهذا يتردد الناس على قبره للتبرك به ... ويقال له الشيخ رسلان تخفيفا ... أدرجه أجله عام 699 = 1300، وما في بيرازيموس يحتاج لتصحيح.

224/1 مدينة (248) واسط وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب ابن الحسين (249) وبينه مؤاخاة ومراسلة، ويقال إن كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحًا ومساءً فيرد عليه الآخر، وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته، فلما كان في إحدى السنين جذّها على عادته، وترك عذقا منها، وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعَرَفة ومع الشيخ أحمد خديمُه رسلان فتفاوضا الكلام، وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان : عن أمرك يا سيدي آتيه به، فأذن له فذهب من حينه وأتاه به ووضعه
225/1 بين أيديهما فأخبر أهلُ الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازًا أشهب قد إنقضَّ على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء.

وبغربي دمشق جبَّانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر أبي الدرداء وزوجه أم الدرداء (250)، وقبر فضالة بن عبيد (251)، وقبر واثلة ابن الأسقع (252)، وقبر سَهْل بن

---

(248) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني (أبو العباس) مؤسس الطريقة الرفاعية الذين يرتدون السواد، ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق، وهناك تفقه وتأدب وتصوف فانضم إليه خلق كثير، انتشرت طريقته في الصومال واندونيسيا ومصر وتركيا ... وسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وبها توفي عام 578 = 1182، وقبره محط الرحال لسالكي طريقته، وقد صنف كثيرون كتبًا خاصةً به وبطريقته واتباعه ... ولم يخلف أبو العباس الرفاعي عقبًا أما العقب فلأخيه. لهذا فإن حديث ابن بطوطة عن حفيده أحمد كوجك يحتاج لمراجعة.

(249) أبو مدين شعيب بن الحسين ولد في إشبيلية وبعد أن قام بسفر في الشرق رجع للمغرب فأصبح من مشاهير الصوفية وكثر اتباعه حتى خافه يعقوب المنصور، أدركه أجله بتلمسان عام 594 = 1198 ... وإلى أحد حفدته يرجع الوقف المشهور في حي المغاربة بالقدس، د. عبد الهادي التازي : أوقاف المغاربة في القدس يراجع التعليق السابق رقم 28.

(250) أبو الدّرداء عُمير بن مالك الانصاري الخزرجي صحابي من الحكماء الفرسان، وفي الحديث (عُويمر حكيم أمتي)... ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب ... أحد الذين جمعوا القرآن حفظًا ... أدركه أجله بالشام عام 32 = 652 قبره الذي تحدثوا عنه في القرن العاشر الهجري اختفى ولكن احجاره توجد الآن في متحف دمشق ... وأم الدرداء هي خيْره، توفيت بالشام عام ثلاثين ...

(251) فَضَالة بن عبيد بن نافذ الانصاري الاوسي صحابي ممن بايع تحت الشجرة شهد أُحُدًا وما بعدها وشهد فتح الشام ومصر وسكن الشام وولى الغزو والبحر بمصر ثم ولاه معاوية قضاء دمشق، وقد أدركه أجله بها عام 53 = 673...

(252) واثلة بن الأسقع بن عبد العزي الكناني، صحابي، من أهل الصفة ..وهو الذي بايع النبي صلى الله عليه وسلم "على ما أحب وكره" حسب تعبير الحديث ... شهد غزوة تبوك ... ثم شهد فتح دمشق وحضر المغازي في البلاد الشامية كان آخر الصحابة موتًا، أدركه أجله بالقدس سنة 83 = 702.

حنْظلية (253) من الذين بايعوا تحت الشجرة (254)، رضي الله عنهم أجمعين. وبقرية تعرف بالمنيحة (255) شرقي دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد بن عبادة (256)، رضي الله عنه، وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب : هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا. وبقرية قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم (257) بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام، ويقال إن إسمها زينب وكنّاها النبي صلى الله عليه وسلم أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه مسجد كريم وحوله مساكن، وله أوقاف، ويسمّيه أهل دمشق قبر الست أم كلثوم، وقبر آخر يقال إنه قبر سُكينة بنت الحسين ابن علي عليه السلام (258).

226/1

وبجامع النَّيْرب (259) من قرى دمشق في بيت بشرقيه قبر يقال : إنه قبر أم مريم عليها السلام (260)، وبقرية تعرف بداريًا(261) غربيّ البلد، وعلى أربعة أميال منها، قبر أبي

(253) سهل بن الحنظلية صحابي من المدينة، أدركه أجله في دمشق عام 47 = 667 وقبره مجهول.

(254) السورة 48، الآية 18، سورة الفتح، لقد رضي الله عن المومنين إذْيبابعونك تحت الشجرة.

(255) قرية في الغوطة شرقي دمشق.

(256) سعد بن عبادة كان سيد الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام، وكان يلقب في الجاهلية بالكامل لمعرفته الكتابة والرمي والسّباحة، شهد العقبة مع السبعين من الانصار لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تاق إلى الخلافة ... ولم يلبث أن خرج إلى الشام مهاجرًا، فمات بحوران عام 14 = 635 وقد كان قبره معروفا أواخر القرن الأخير..

(257) تحدث ابن جبير (ص (228) عن مشهد أم كلثوم هذه على أنه في قرية (راوية) جنوب مدينة دمشق على بعد فرسخ منها، وأهل هذه الجهات يعرفونه إلى اليوم بقبر الست على ما يحكيه ابن بطوطة. أصبح المشهد لؤلؤة وضاءة عندما زرته في نونبر 1993. ولاندري لماذا جعل ابن عساكر اسم بريهة عوض زينب؟

(258) لقد نجت السيدة سُكينة من الموت في وقعة كربلاء وأدركها أجلها بالمدينة عام 117 = 735 لكن الهرَوَي ص 13 - 19 يضع قبرها في المقبرة القريبة من الباب الصغير ... وهو معظم دائما، كانت نبيلة شاعرةً ذات صالون كما يقولون تجالس الأجلة من قريش وتجمع اليها الشعراء كانت أجمل الناس شَعَرًا (بفتح العين) تصفف لِمّتها تصفيفًا لم يُر أحسن منه، ولا بد أننا نقدر تعبير ابن بطوطة هنا : (يقال ...)

(259) مسجد النّيرب كان غربي دمشق، وهو من مساجد القرى غير مذكور في الدارس في تاريخ المدارس ص 355.

(260) يقول الهروي ص 11 إن مريم هذه ليست هي مريم بنت عمران، لكنها مريم أخرى لها حكايتها والله أعلم ... كان هذا المكان مقصودًا من لدن الزوار.

(261) قرية كبيرة من قرى الغوطة والنسبة إليها : داراني كما سنرى...



مسلم الخولاني (262) وقبر أبي سليمان الدَّاراني (263) رضي الله عنهما.

[مسجد الأقدام بدمشق]

ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام (264) وهو في قبلي دمشق على ميلين منها، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر، وهو مسجد عظيم كثير البركة، وله أوقاف كثيرة، ويعظمه أهل دمشق تعظيماً شديدًا والأقدام التي ينسب اليها هي أقدام مصورة في حجر هنالك يقال إنها أثر قدم موسى عليه السلام، وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه : كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النَّوم فيقول له : ها هنا قبر أخي موسى عليه السلام. وبمقربة هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الأحمر وبمقربةٍ من بيت المقدس وأريحا (265) موضع يعرف أيضا بالكثيب الأحمر تعظمه اليهود.

227/1

حكاية [الطاعون الأعظم في دمشق]

228/1 شاهدتُ أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع

---

(262) أبو مسلم الخولاني هو عبد الله بن ثُوَب (بضم الثاء وفتح الواو) تابعي فقيه زاهد نَعَته الذهبي بريحانة الشام أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم هاجر إلى الشام، وأدركه أجله بدمشق عام 62 = 682. ويعتبر المكان من المزارات ...

(263) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية زاهد مشهور من أهل دَاريًا بغوطة دمشق رحل إلى بغداد ثم عاد إلى الشام له أخبار في الزهد، من كلامه : "خير السخاء ما وافق الحاجة ..." أدركه أجله عام 236 = 850 ... والمكان مزارة.

(264) مسجد الأقدام أو(القدم) بالافراد كما عند النعيمي الدمشقي يوجد جنوب دمشق - كما يقول الهروي (ص 13) الذي يضيف إلى هذا قوله : يذكر أن هنا قبر موسى بن عمران لكن هذا غير صحيح، وفي الحقيقة انه لا يعرف قبر موسى" وهذا المسجد يوجد الآن في قرية جنوب دمشق.

(265) أريحا Géricho، يزعم النصارى أن المسيح تعمد فيها، وهي مدينة الجبارين التي رفض قوم موسى الدخول اليها (سورة المائدة / 22 ، معجم البلدان...) ومن الطريف أن نذكّر هنا بما أورده العمري في كتاب التعريف من أن اليهود كانوا يقولون إذا ما أرادوا أن يؤدوا القسم : إنني والله العظيم وحق التوراة والعشر كلمات وإلا برئت من اسرائيل ونزلت أريحا مدينة الجبارين .. الخ.
ويبدو من ابن بطوطة أن العلم الجغرافي : (الكثيب الأحمر) الذي ورد في صحيح البخاري، أن قبر موسى يوجد فيه له موقعان اثنان، وإذا كان موقع الكثيب الأحمر بدمشق قد تعذر تحديده فإن الكثيب الأحمر القريب من بيت المقدس حدد بأنه في الجنوب الغربي من أريحا حيث قام بَيْبَرْس، ببناء مسجد عام 670 - 1270 لم يلبث أن أصبح مزارة للعامة على أنه قبر النبي موسى. وقد بقي هذا التقليد حتى الآن على مايؤكده (فاكس) ورد اليوم 1995/5/24 من سعادة الزميل عبد السلام سيناصر... راجع التعليق رقم 2 من هذا الفصل.

وأربعين (266)، من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو أن ملك الأمراء نايب السلطان أرْغون (267) شاه أمر مناديًا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارًا، وأكثر الناس بها إنما ياكلون الطعام الذي يصنع بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة وساير الطبقات على إختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍ وذاكر وداعٍ، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعًا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ‖ ذكورًا وإناثًا صغارًا وكبارًا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام وأقاموا به في تضرعهم إلى قرب الزوال وعادوا إلى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم فانتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد، وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في يوم واحد.

229/1

وبالباب الشرقي منارة بيضاء يقال أنها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم (268).

ذكر أرباض دمشق

230/1

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا ‖ الشرقية أرباض فسيحة الساحات، دواخلها أملح من داخل دمشق لأجل الضيق الذي في سككها، وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية (269) وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها

(266) يلاحظ هنا واضحاً أن ابن بطوطة أقحم هنا في هذه الزيارة الأولى ما سيقع له أثناء عودته من رحلته 747=1347 ويلاحظ كذلك في المقابل أنه أهمل ذكر تزوجه في دمشق بسيدةٍ حفيدةٍ لأحد المكناسيين منذ الزيارة الأولى ولم يذكر ذلك إلا عند الزيارة الثانية !!

(267) أرْغون شاه الناصري حظي عند الملك الناصر برتبة عالية وتولى منصب الاستذارية (الحجابة) ثم نيابة صفد، ثم نيابة حلب ثم دمشق فتمكن وعظم قدره، ولم يزل كذلك حتى جاء الأمر بامساكه وذبحه في شهر ربيع الأول 750 – 1349، الدرر 1، 373 – الدارس في تاريخ المدارس، ج 2، ص 234.

(268) رواه مسلم في الفتن ورواه أبو داود في الملاحم والترمذي في الفتن وابن ماجة كذلك في الفتن.

(269) تحدث القلقشندي عن (الصالحية) التي تقع عند منحدر جبل قاسيون وتُهيمن على المدينة وبيوتها ومدارسها وأسواقها. وهي تحتضن رفات محيي الدين ابن عربي الملقب بالشيخ الأكبر (ت 639) كما تحتضن ورفات ابن مالك صاحب الألفية (ت 672) وقد ترحّم عليه ابن عثمان المكناسي...

مدرسة تعرف بمدرسة أبي عمر (270) موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتُجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس.

وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجّا (271)، وأهل الصالحية كلّهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

231/1

وقاسيون جبلٌ في شمال دمشق والصالحية في سفحه، وهو شهير البركة لانه مصْعَد الأنبياء عليهم السلام، ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه إبراهيم (272) الخليل عليه السلام، وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأي الكوكب والقمر والشمس (273) حسبما ورد في الكتاب العزيز، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج اليه.

وقد رأيت ببلاد العراق قريةً تعرف ببُرص بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل، ما بين الحِلة وبغداد (274)، يقال إن مولد إبراهيم عليه السلام بها، وهي بمقربة من بلد ذي الكِفل عليه السلام، وبها قبره (275).

---

(270) مدرسة أبي عُمر وليس ابن عَمر ... بنيت هذه المدرسة من لدن الشيخ أبي عمر الكبير والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي الذي هاجر من القدس لاستيلاء الفرنج على الأراضي المقدسة، وقد كتبها المترجمان : ابن عمر فتبعهما سائر الناشرين فيما بعد... أدركه أجله عام 607 = 1211 - النعيمي الدمشقي : الدارس في تاريخ المدارس، ج 2، ص 100.

(271) زين الدّين المنجا اسم لأول شيخ درس بها وهو زين الدين ابن المنجا الدمشقي الحنبلي ممن انتهت اليهم الرياسة في المذهب مع التبحر في العربية والبحث. الدارس : 2، 73 - 74 أدركه أجله بدمشق عام 695 = 1296.

(272) قريب من هذا عند ابن جبير صفحة 222 ويذكر أن هذا المكان مزارة إلى الآن ...

(273) السورة رقم 6 الآية 76-78.

(274) كلمة (بُرص) لم تعد لها صدى في العراق حسب علمي حيث كنت أسأل عنها زملائي باستمرار وربما كانت لها صلة مع الموقع القديم (Borsippa) الواقعة إلى الشمال.

(275) القبر الموجود قريبًا من الحلة هو قبر حزقيل ذي الكفل (EZEKIEL) المذكور في القرآن. الهروي : الإشارات ص 76.

ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدَّم (276) وفوقها بالجبل دمُ هابيل بن آدم عليه 232/1 السلام، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرًا مُحْمَرًا، وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجترَّه إلى المغارة، ويذكر أن تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين، وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج، وفيه بيوت ومرافق للسكنى، ويفتح في كل يوم إثنين وخمسين، والشمع والسرج توقد في المغارة.

ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام (277)، وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع (278). يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام، وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعاً صلى الله عليهم، وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج تَقِد به ليلا ونهارا.

233/1 ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة ويذكر أن فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون (279) مدفنَ سبعمائة نبي، وبعضهم يقول سبعين ألفًا، وخارج المدينة المقبرة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين أرضٌ منخفضة غلب عليها الماء، يقال إنها مدفن سبعين نبيًا وقد عادت قراراً للماء ونزهت من أن يدفن فيها أحد.

ذكر الربْوة والقُرَى التي تواليها

وفي آخر جبل قاسيون الرّبوة المباركة (280) المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين 234/1 ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام (281)، وهي من أجمل مناظر الدنيا ومنتزهاتها وبها القصور المشيّدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك، مغارة صغيرة في

(276) مغارة الدم يقال بأنه فيها قتل هابيل من لدن قابيل ... هكذا عند الهروي ... والمكان دائما مزارة من المزارات.

(277) ما عند الهروي يؤيد هذه المعلومات ويعرف المكان الآن بكهف النائمين السبعة ...

(278) يذكر الهروي أن مغارة الجوع مات فيها أربعون نبيا ... موقع يزار من لدن الناس ومعروف تحت اسم قبّة الريان.

(279) عوض (جامع) يوجد عند ابن جبير (جبل)...

(280) تحدث ابن جبير قائلا : "في طرف هذا الجبل وفي بداية السهل ترتفع الربوة المعاركة..."

(281) الهروي يفند (ص 11) أن يكون عيسى وصل إلى دمشق ...

وسطها كالبيت الصغير وبازائها بيت، يقال إنه مصلى الخضر عليه السلام (282) يبادر الناس إلى الصلاة فيهما وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به، وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو، وينصبّ في شاذروان (283) في الجدار يتّصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل. ويقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء.

وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها (284) وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم، وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتُورة، وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له | مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير (285)، وربما انغمس ذو الجسارة من العوّامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة، وهي مخاطرة عظيمة، وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد، ولها من الحسن وإتساع مسرح الأبصار ما ليس لسواها، وتلك الأنهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الأعين في حسن إجتماعها وإفتراقها وإندفاعها وإنصبابها، وجمالُ الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف، ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع، تقام منها وظايفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد. 235/1

(282) الخضر هو النبي الذي التقى به موسى وطلب رفقته شرط أن لا يتكلم ثم خرق الخَضِر سفينة صالحين وقتل طفلا لابوين صالحين ورمم حائطا في قرية رفض سكانها استقبالهما فلم يعد موسى يستطيع صبراً فأخبره الخضر بسبب كل شيء وافترقا ... - سورة الكهف، رقم 18، الآية 64...

(283) الشاذروان : لفظ فارسي يعنى بكل بساطة ما نسميه بالمغرب الخصّة، وهو الفسقية أو الفوارة : صحن يتجمع فيه الماء وأحيانا تكون هذه الفسقيات أو الفوارات على شكل سباع تُلقى الماء من أفواهها ... أما عن (الشاذروان) الذي يُذكر عند الحديث عن الكعبة، فإن القصد إلى القاعدة التي تحيط بالكعبة من ثلاث جهات : الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، ومن الشمال الشرقي على ما يذكره الازرقي، ونذكر في صدر معاني الشاذروان : السدّ او الخزّان الذي يتجمع فيه الماء.

(284) تعبير ابن جبير : "وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه، وينقسم فيها الماء على سبعة انهار يأخذ كلّ نهر طريقه وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثورا ... ص 224 من رحلة ابن جبير.

(285) أورد القلقشندي تفصيلاً أكثر دقة عندما ذكر أن دمشق وأجنتها تُسقى جميعا من نهري بَرَدى ... وإن الماء ينبع من شق في سفح الجبل ... ويعد أن يذكر هنا بناءً للرومان يتحدث عن أن النهر يزداد ماؤه بما ينضاف اليه من عيون ثم ينقسم النهر إلى عدة فروع الخ.

R. Tresse : L'irrigation dans la Gouta de Damas, Revue des études Islamiques 1992, 459-473 - YERMSIMOS T.1 P. 239 Note 300.

وبأسفل الربوة قرية النَّيرَب (286) وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها، وتدانت أشجارها، فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه، ولها حمّام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام، وفيه سِقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء.

وفي القبليّ من هذه القرية قرية المِزّة، وتُعرف بمزّة كلب (287) نسبة إلى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حُلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة، وكانت إقطاعًا لهم، وإليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكى الكلبي المزّى (288) وكثير سواه من العُلماء، وهي من أعظم قُرى دمشق، وبها جامع كبير عجيب وسقاية معينة.

وأكثر قُرى دمشق فيها الحمّامات والمساجد الجامعة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم ‖ وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت إلاهيّة (289) وكانت فيها كنيسة يقال : إن آزر كان ينحت فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام، وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام، وأزين إلتئام. 237/1

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها، فمنها أوقاف العاجزين عن الحج يعطي لمن يحج عن الرجل منهم كفايته، ومنها أوقاف على تجهيز البنات (290) إلى أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، ومنها أوقاف لفكاك الأساري، ومنها أوقاف ‖ لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم، ومنها أوقاف على 238/1

---

(286) النّيرب يقول ياقوت إنه يقع على بعد نصف فرسخ من دمشق في الاجنة التي لم ير مثلها وقد سلفت الاشارة إليه عند الحديث عن مسجد النّيرب.

(287) المزة الحالية على بعد خمس كيلوميترات غربي دمشق .. أما عن قبيلة بني كلب فهي من أبرز القبائل العربية في سوريا الوسطى ... واليهما ينتسب دحية سفير النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك الروم.

(288) يوسف ابن الزكى عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين الكلبي المزّى مشيخته نحو الف شيخ، سمع بالشام والحرمين ومصر وحلب والاسكندرية، محدث الديار الشامية في عصره يتوجه لالقاء دروسه في الصالحية مشيًا في العشر التسعين ولم يكن له مركوب، له عدد من التأليف... وكان أعرف الناس بالرجال ... ترجم له ابن حجر ترجمة واسعة في كتابه (الدرر الكامنة) ج 5 ص 233 - 237. أدركه أجله في دمشق يوم السبت 12 صفر 762 = 1341.

(289) بيت إلاهية يقع شمال شرق المدينة وقد اختفت معالمه اليوم وينطق به عند الأهالي بيت لِهية : وآزر والد سيدنا ابراهيم.

(290) مثل هذه الأوقاف على تجهيز الفقيرات، وعلى من تكسرت له آنية، وجدناه في أخبار مدينة فاس هذا ولا بد أن تستوقفنا عادة التحبيس على فك الأسرى من العدو - د. التازي : توظيف الوقف لخدمة السياسة الخارجية في المغرب صدر في كتاب حول الوقف للمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1995 ص 57-85.

تعديل الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكلٍّ واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الرُّكبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

حكاية [المملوك الصُّغير والصحفة]

مررت يومًا ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرًا قد سقطت من يده صحفةٌ من الفخار الصّيني وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم : اجمع شَقَفَها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بدَّ له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبرًا للقلوب، جَزَى الله خيرًا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا. 239/1

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالأموال والأهلين والأولاد (291)، وكلُّ من إنقطع بجهةٍ من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجدٍ أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون لجملة الصوفية بالخوانق تُجرى له النفقة والكسوة، فمن كان بها غريبًا على خيرٍ لم يزل مصونًا عن بذل وجهه محفوظًا عما يزري بالمرُوَّة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخرى من حراسة بستانٍ أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التَّامة على ذلك. 240/1

ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحْده ألبتة، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كلَّ ليلة في دار أحدهم أو في مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعًا. 241/1

(291) لا يمكن أن نقرأ هذا المقطع من رحلة ابن بطوطة دون أن نذكر صدى مشاركة المغاربة في الحروب التي كانت تجري في المنطقة بين المسلمين و الفرنج ، حيث تضافرت سائر المصادر على البلاء الحسن للمغاربة الامر الذي تفسره جيّدا الشهادات التي أدلى بها الرحالة ابن جبير ... ويفسره وجود أحياء خاصة بالمغاربة بالقدس وديار الشام -د. التازي : أوقاف المغاربة في القدس راجع التعليق رقم 28.

ولما وردتُ دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب منى أن أفطر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليالٍ، ثم أصابتني الحُمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعنى عذرًا فرجعت إليه وبتّ عنده، فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي : اِحسبْ داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك، وأمر بإحضار طبيب وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غداء، وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد، وحضرتُ المصلى (292) وشفاني الله تعالى مما أصابني، وقد 242/1 كان ما عندي من النفقة نفد، فعلم بذلك فاكترى لي جمالاً وأعطاني الزاد وسواه، وزادني دراهم وقال لي : تكون لما عسى أن يَعن لك من أمر مهم، جزاه الله خيرا. وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني (293) من عادته أنه متى سمع أن مغربيًا وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته، وكان يلازمه منهم جماعة، وعلى هذه الطريقة أيضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم (294) وجماعة غيره.

وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عزّ الدين القلانسي (295)، له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار، وهو ذو مال عريض، وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع 243/1 أهل دولته ومماليكه وخواصّه ثلاثة أيام فسمّاه اذْ ذاك بالصّاحب.

ومما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى أن يدفن

(292) بنيت مصلى دمشق من لدن الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين، وتوجد جنوب مقبرة باب الجابية.

(293) هذا عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عبد الله القيسراني (بالسين) المتوفى سنة 736 = 1336 ينتمي إلى أسرة القيسراني من أعيان دمشق. وكان موقّع الدَّست بمصر ثم ولي كتابة حلب ثم صرف إلى توقيع الدست بدمشق وتقدّم عند أميرها تنكيز - الدرر الكامنة 3 / 178.

(294) هو علي بن محمد بن سليمان بن حمائل الدمشقي علاء الدين بن غانم المشهور بأدبه وقضائه لحوائج الناس كتب في ديوان الإنشاء وكان رئيسًا كبيراً أدركه أجله عام 736 = 1336 الدرر الكامنة 3، 178.

(295) من أسرة موموقة بدمشق وقد أدركه أجله في سادس ذي الحجة سنة 729 أكتوبر 1329 واسمه حمزة بن أسعد ويلقب بالصاحب عز الدين، رئيس الشام في عصره وله وكالة السلطان والوزارة بالشام، ولقب الصاحب جاء من الملك الناصر، نزل عنده عندما قاد الجيش المصري إلى سوريا لمقاومة الغزو الإيلخاني عام 701-1302 وأقام بدمشق من 22 أبريل إلى 20 ماي 1303 وأقام في دمشق كذلك من يناير 1310 ومنذ 18 فبراير إلى أول مارس ومن 8 إلى 23 ماي 1313، قبل وبعد حجه هذا العام 713هـ - الدرر الكامنة 2 / 162 - 163.

Gibb I p. 152 Note 313.

بقبلة الجامع المكرَّم ويُخفى قبره وعين أوقافا عظيمةً لقراء يقرأون سُبعًا من القرآن الكريم في كلّ يومٍ إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره، فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدًا، وبقى ذلك الرسم الجميل بعده مخلدًا.

ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصُحُون المساجد ‖ كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها ويقف بهم أيمتهم كاشفي رؤوسهم، داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخَّوْن الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات، ولا يزالون في خضوعٍ ودعاءٍ وابتهالٍ وتوسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفرُ الحاج باكين على ما حُرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم اليها ولا يُخْليهم من بركة القبول فيما فعلوه. 244/1

ولهم أيضا في إتباع الجنايز رتبة عجيبة، وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة والقُرَّاء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المُبكية التي تكاد النفوس تطير لها رقةً، وهم يصلون ‖ على الجنايز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة، فإن كان الميت من أيمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراأة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد ودخلوا بالجنازة، وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بمقربة من باب البريد فيجلسون وأمامهم ربعات القرآن يقرأون فيها، ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعَزَاء من كبار البلْدة وأعيانها، ويقولون : بسم الله فلان الدّين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : إفتكروا وإعتبروا، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم، ويصفونه بصفاتٍ من الخير ثم يصلُّون عليه ويذهبون به إلى ‖ مدفنه. 245/1 246/1

ولاهل الهند رتبةٌ عجيبة في الجنايز ايضا زائدة على ذلك وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثلاث من دفنه وتُفرش الروضة بالثياب الرفيعة، ويُكسى القبر بالكسى الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنّسرين والياسمين، وذلك النوار لا ينقطع عندهم، ويأتون بأشجار الليمون والأترج ويجعلون فيها حبوبَها إن لم تكن فيها، ويُجعل صيوان يظلّل الناس نحوه، ويأتي القضاة والأمراء ومن يماثلهم فيقعدون، ويقابلهم القراء، ويوتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءً فإذا تمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائمًا ويخطب خطبة معدة لذلك، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات ‖ شعر، ويذكر أقاربه 247/1

ويعزّيهم عنه ويذكر السلطان داعيًا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤوسهم إلى سمْت الجهة التي بها السلطان، ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبًا يُبتدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس أجمعين ثم يوتى بأواني السُّكّر وهو الجُلاَّب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدأون بالقاضي ومن يليه ثم يوتى بالتنبول (296) وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به فإذا اعطى السلطان أحدًا منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع، وإذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول إلا في ذلك اليوم، فيأخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقًا منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول إن شاء الله تعالى.

248/1

ذكر سماعي بدمشق، ومن أجازني من أهلها

سمعت بجامع بني أمية عمَّره الله بذكره، جَميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد ابن اسماعيل الجُعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر، رحلة الآفاق ملحق الأصاغر بالأكابر، شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النَّعيم بن حسن بن علي بن بيان الدين مقرئ الصالحي، المعروف بابن الشِّحنة الحجَّار (297) في أربعة عشر مجلسًا، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الآثنين الثامن والعشرين منه (298) بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البِرزالي الإشبيلي (299) الأصل الدمشقي، في جماعةٍ كبيرة كتب اسماءهم محمد بن طُغْريل بن عبد الله بن الغزّال الصيرفي، بسماع الشيخ أبي العباس

249/1

(296) من المهمّ أن نجد ابن بطوطة يتحدث منذ وصُوله إلى دمشق – عن عادة كانت معروفةً بالشام على ذلك العهد : تقديم ورق التنبول (La bétel) في آخر الحفل، فهو مؤذن بالانصراف !

(297) القصد إلى ابن الشحنة أحمد بن أبي طالب ابن أبي النعم الحجّار الذي أدركه أجله عام 730 = 1330 ويلاحظ أن سائر النسخ التي بين أيدينا بما فيها مخطوطات باريز تذكر الحجار وليس الحجازي، كما اختاره الناشران الفرنسيان من تلقائهما وتبعهما من نقل عنهما ! قصده الطلاب من كل مكان وصام وعمره مائة سنة، وكان حينئذ يغتسل بالماء البارد ولا يترك غشيان الزوجة ! الدرر الكامنة 1، 152.

(298) يعني من 15 إلى 28 غشت 1326، وهنا يعلق عليه البعض بأن الثلاثاء لم تكن هي منتصف رمضان وانّما هو الجمعة ولا الإثنين كذلك هو 28 رمضان وانما هو الخميس !!

(299) القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي ثم الدمشقي من أكبر علماء وقته وقد أدركه أجله عام 739 = 1339، زار مصر والحجاز وألف كتابا في التاريخ جعله صلة لتاريخ أبي شامة ... نسبته إلى برزالة من بطون البربر ...ابن حجر : الدرر ج 3 ص 321 - 322.

الحجازي لجميع الكتاب، من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر
250/1 المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن المسلم بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي (300)، في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفّري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وبإجازته في جميع الكتاب من الشيخين : أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ، وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانسي العطار البغداديَيْن ومن باب غيرة النساء ووجْدهن إلى آخر الكتاب من أبي المنجّا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللَّتي الخُزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السنجزى الهروى
251/1 الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد، قال : أخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد ابن داوود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الداودي قراءةً عليه وأنا أسمع ببُوشنج سنة خمس وستين وأربعماية قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حَوِيَّة بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءةً عليه وأنا أسمع في صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، قال : أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربري قراءةً عليه، وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر، ومرةً ثانية بعدها سنة ثلاث وخمسين.

252/1 وممن أجازني من أهل دمشق إجازةً عامة الشيخ أبو العباس الحجار (301). المذكور بسؤالي ذلك وتلفظ لي به، ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن

(300) فقيه له علم باللغة والقراءات، زبيدي الأصل بغدادي المولد والوفاة حدث ببغداد ودمشق وحلب وغيرها له منظومات ومؤلفات عرفه ابن العماد بالحنبلي، أدركه أجله عام 631 = 1233. الزركلي : الإعلام 2 ص 276.

(301) يلاحظ تكرار الخطإ : الصواب الحجّار كما يوجد في سائر النسخ وليس الحجازي، كما صدر فيما طبعه الناشران الاولان فتبعهما معظم الناقلين !

محمد المقدسي ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستماية (302). ومنهم الشيخ الإمام الصالح عبد الرحمن ابن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن البَجَدي (303).

ومنهم إمام الأيمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزّي الكلبي حافظ الحفاظ (304). ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي (305)، والشيخ الإمام الشريف محيي الدين يحيى ابن محمد بن علي العَلَوي (306). ومنهم الشيخ الامام المحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة. 253/I

ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري (307).

ومنهم الشيخ الإمام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله بن تمام (308)، والشيْخان الأخوان شمس الدين محمد، وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن

---

(302) هو بالذات شيخ المدرسة الضيائية، ولد في التاريخ المذكور وقيل سنة 652 أدركه أجله عام 730 = 1330، الدرر الكامنة 1، 191 - 192 - الدارس في تاريخ المدارس ج 2، ص 99 / 254.

(303) البَجدي بتحريك الباء والجيم (وليس النجدي كما عند الناشريْن وتبعهما معظم النّاقلين) ولد تقريبا عام 660 هـ وتوفي ببيت المقدس تاسع ربيع الآخر 738 = 1838، الدرر 2، 339.

(304) يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي تقدمت ترجمته رقم 288، هذا والجدير بالذكر أن نصلح هنا خطأ آخر للناشرين الأولين ولمن نقل عنهما : يوسف المزي نسبة إلى مزة وليس المزني !.

(305) القصد إلى علي بن يوسف بن محمد المصري الأصل ابن المِهْتَار الدمشقي سمع من أبي اليسر والكرماني وابن أبي عمر وابن عطاء ... وكان إماما بمسجد الرأس ويشهد تحت الساعات، وله حلقه بالجامع أدركه أجله في المحرم عام 736 = 1336 - الدرر الكامنة 3، 218.

(306) لم نهتد لترجمة محيي الدّين هذا ويذْكُرُ كيب (Gibb) محيي الدين المعروف بابن طَبَا طبا ولكن هذا توفي سنة 721 = 321 قبل وصول ابن بطوطة للمنطقة ويحتمل أن يكون القصد إلى يحيى بن محمد بن علي بن ابن القاسم العدوي الدمشقي بدر الدين ابن السكاكري الذي تفوق في كتابة الشروط. وكان كثير التزويج يقال إنه أحصن مائة امرأة توفي يوم 16 ربيع الأول سنة 732 = 1331، الدرر 5، 203.

(307) أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن غانم بن شداد ضياء الدين الاسكندري ثم الدمشقي وكان يجلس مع الشهود وقد أدركه أجله في شعبان 729 = 1329. الدرر 1 ص 100.

(308) من المحتمل أن يكون القصد إلى ابن عبد الرحمن بن تمام التلّي الحنبلي الذي قرأ النحو على ابن مالك، صحب الشهاب محمودًا واختصّ به حتى كان الشهاب يقول لخزْنَداره (مهما طلب منك أعطه بغير مشورة) توفي 3 ربيع الآخر سنة 718 - 1318 - الدرر 2، 346.

أبي عمر المقدسي (309)، والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكّاري (310) والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد ابن مسلمه بن سلامة الحراني (311) والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي (312)، كلّ هؤلاء أجازني إجازةً عامة في سنة ست وعشرين بدمشق (313).

254/1

---

(309) عبد الله بن إبراهيم المقدسي الحنبلي وينعته ابن حجر شرف الدين ذكره البرزلي في معجمه وقال : هو أحد الإخوة الستة توفي في 25 شعبان 731 = 3 يونيه 1331 والثاني عز الدين محمد بن ابراهيم الذي ينعته ابن حجر بعز الدين مهر في الفقه ودرس وخطب بالجامع المظفري، أدركه أجله في رمضان 748 دجنبر 1347.

- الدرر الكامنة، ج 2، ص 344 - ج 3، ص 374.

(310) الهكاري محمد بن أبي الزهراء عاش ما بين 654 = 1256 و 737 = 1336 والنسبة إلى الهكّارية ناحية فوق الموصل يسكنها أكراد يقال لهم الهكّارية، وليس لها صلة ببلاد هكار آتية الذكر في ج 4. الدرر الكامنة 4، 62.

(311) هي عائشة بنت محمد بن المسلم الحرانية ولدت عام 647، وهي أخت المحدث محاسن وحدثت بالكثير وتفردت بأجزاء، وكانت تتكسب بالخياطة توفيت في شوال 736 = 1336 وقد التبست على زميلنا الراحل كَيب بعائشة بنت إبراهيم زوج الحافظ المزي سالف الذكر تعليق 288 وتعليق 304 - الدرر 2، 342 - كحالة : اعلام النساء ج 3، 189.

(312) عاشت زينب فيما بين عام 646=1248 وعام 739=1339، كانت الثالثة والعشرين من الزّينبات اللآتي ذكرن في كتب التاريخ، قامت بعدة أسفار في بلاد الشرق وعرفت على أنها محدثة شهيرة، الدرر الكامنة 2، 209 - كحالة : أعلام النساء ج 2 ص 46 - 47.

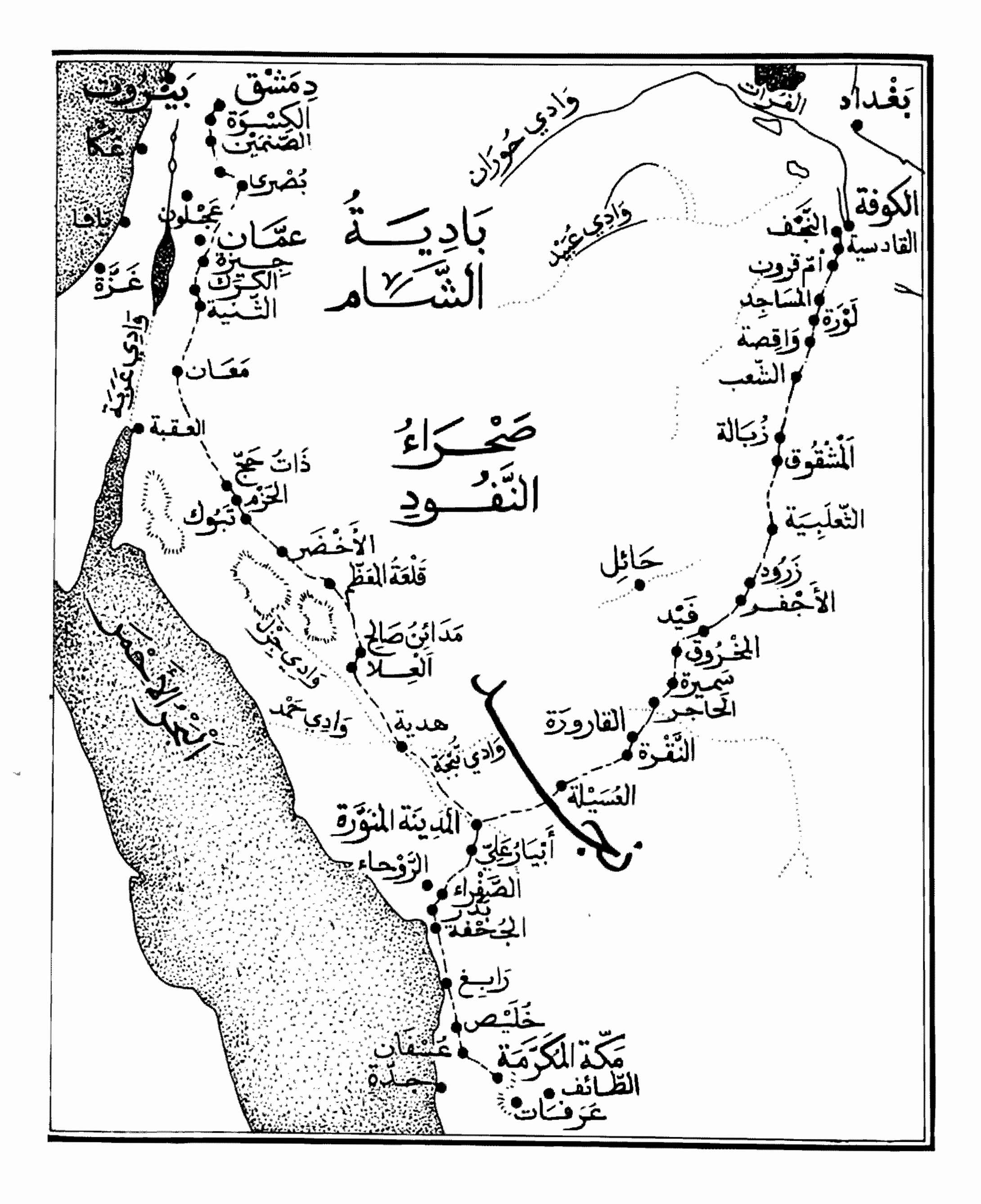
(313) هكذا نرى أن ابن بطوطة يحصل على ست عشرة إجازة في مدة ثلاثة أسابيع وفي أثناء هذه الزيارة وليس في الزيارة التالية عام 748 = 1348 لأن هؤلاء المشايخ كانوا قد توفوا ...

الفصل الرابع

الحجاز

- من دمشق إلى مدينة الرسول
- المدينة والحرم الشريف
- أعيان المدينة وضواحيها
- من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة
- مكة والحرم الشريف

خريطة مسالك الحجاز



[إلى الحجاز]

254/1 ... ولما استهل شوال من السنة المذكورة(1) خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكِسوة (2) فأخذتُ في الحركة معهم، وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الأمراء (3)، وقاضيه شرف الدين الأذرعيّ الحوراني (4)، وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري (5)، وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة (6)، أميرهم محمد بن رافع (7) كبير القدر في الأمراء، وإرتحلنا من الكِسوة إلى قرية تعرف بالصَّنَّمين (8) عظيمة، ثم ارتحلْنا منها إلى بلدة زُرعة (9)، وهي صغيرة من بلاد

(1) يوافق أول شتنبر 1326

(2) تقع الكِسوة الحالية على النَّهر الأعوج على بعد نحو خمسة عشر كيلومتراً جنوب دمشق، المرحلة الاولى للحجاج، ويذكر أنها سمّيت بذلك لأن غسان قتلت بها رسل ملك الروم لما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم واقتسمت كِسْوتَهم! ياقوت : معجم البلدان.

(3) كان الجوبان المنصوري من مماليك الأشرف وأمَّره ثم أمَّره النَّاصر بدمشق ... وبعد عودةٍ قصيرة للقاهرة أعيد إلى دمشق، وقد أدركه أجله في صفر 728 = يناير 1328. الدرر الكامنة 2، 79.

(4) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الأذرعيّ الأصل ثم الدمشقي المصري كان حسن الخَلق والخلُق، ناب في الحكم وحج غير ما مرة اسمع ابنته مريم ... أدركه أجله بالقاهرة في 25 شعبان عام 741 = يبراير 1341. الدرر ج 1 ص 255.

(5) لم نقف على ترجمة صحيحة للغُماري هذا ويفترض كيب أن يكون هو يوسف بن أحمد الاسكندري المالكي الملقب بصدر الدّين بن غنّوم الذي كتب التوقيع للقضاة بالثغر – الدرر 5، ص 223-224 .

(6) العجارمة (العكارمة) فرقة من الفضل، تقيم في الجولان أحد أقضية محافظة دمشق وتعد 50 خيمة، ويذكر كذلك أن العجارمة قسم من قبيلة الرشايدة. عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج 2 ص 755 – المطبعة الهاشمية، دمشق 1368 = 1949.

(7) هل القصد إلى ابن رافع الذي ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة فلقَّبه بتقي الدين وكناه بأبي المعالي وقال عنه : إنه كان ممن أجازت له فاطمة بنت البطائحي وفاطمة بنت سليمان وغيرهما، حج مرارًا، ولد في ذي القعدة 704 = يونيه 1305، وأدركه أجله بدمشق يوم 18 جمادى الأولى، عام 774 = نونبر 1372 الدرر 4، 59 - 60.

(8) تقع قرية الصَّنمين على بعد ثلاثين كيلومترا تقريبا جنوب الكِسوة على الطريق الحالي الذي يربط دمشق بعمان وعلى مقربتها الموقع الجغرافي الذي يحمل اسم (جاسم) الذي عناه الشاعر الأموي عدي بن الرقاع العاملي في شعره الجميل :

لولا الحياء وأن رأسي قد عفا
فيه المَشيب لزرتُ أم القاسم
فكأنها بين النساء أعارها
عينيه احْور من جئآذر جاسم !

(9) زراعة هي إزرا الحالية على حدود الجنوب في المنطقة البركانية المسماه اللَّجاة (ياقوت) وحوران هي اليوم بلاد الدروز.

حوران نزلنا بالقرب منها، ثم إرتحلْنا إلى مدينة بُصْرَى وهي صغيرة (10)، ومن عادة الركب
255/1 أن يقيم بها أربعًا ليلحق بهم مَن تخلف بدمشق لقضاء مأربه، وإلى بُصرى وصل رسول
الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة، وبها مبرك ناقته، قد بُني عليه مسجد
عظيم، ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة ويتزود الحاج منها، ثم يرحلون إلى بِرْكة زيزة (11)
ويقيمون عليها يومًا ثم يرحلون إلى اللُّجون (12) وبها الماء الجاري، ثم يرحلون إلى حصن
الكرك (13)، وهو من أعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمى بحصن الغُراب، والوادي
يطيف به من جميع جهاته، وله باب واحد قد نُحِت المدْخل اليه في الحجر الصلد، ومدخل
دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصَّن الملوك، وإليه يلجأون في النوايب، وله لجأ الملك الناصر
(14) لأنه ولي الملك وهو صغير السنّ فإستولى على التدبير مملوكه سَلار (15) النايب عنه
256/1 فأظهر الملكُ الناصر أنه يريد الحج ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج فلما وصل
عقَبة أيلة (16) لجأ إلى الحصن وأقام به أعوامًا إلى أن قصده أمراء الشام وأجتمعت عليه
المماليك.

---

(10) تقع بُصرى ESKISHAM على بعد ستين كيلومترا جنوب شرقي (زُرعة)، كانت مدينةً رومانية قديمة عاصمة لبلاد حوران، وكانت القوافل المكيَّة تنتهي عندها وقد اقترن ظهور النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث عن "بُصرى الشام" التي التقى فيها بالراهب بَحِيرا الذي توسم فيه أنه سيكون نبيًا. أنظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بَحيرًا BAHIRA

(11) زيزة ورد ذكر هذا العَلَم الجغرافي عند ياقوت في مادة زَيْزاء وقال: إنها من قرى البلقاء يزورها الحجاج ويقام لهم سوق وفيها بركة عظيمة، وأصل كلمة زيزاء في اللغة: المكان المرتفع وهي محطة الجيزة الحالية وتقع جنوب عمان على بعد ثلاثين كيلومترا، في المنطقة التي يوجد فيها مطار الملكة علياء الدولي لقد دخل ابن بطوطة منطقة عمان الحالية عاصمة المملكة الأردنية.

(12) يقع اللَّجون على بعد ثلاثين كيلو مِتْرًا شمال غربي حصن الكَرَك.

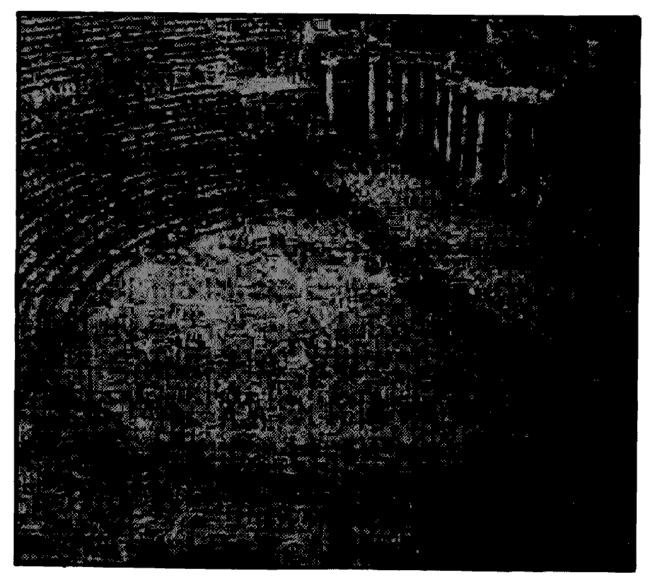
(13) بنى حصن الكرك عام 540 = 1145 من لدن الصَّليبيين، تحت إسم (Krak des moabites)، واستولى عليه الأيوبيون عام 583 = 1188، وانشئت به إمارة أصبحت فيما بعد إقليما على حِدة، وقد زرته مرارًا ويقع شمال (مؤتة) حيث شيده جامعة عظيمة هناك ...

(14) يتعلق الأمر بترك الملك الناصر للحكم للمرة الثانية في شعبان 708 = يناير 1309، كان في عمر الملك أربع وعشرون سنة، وقد عاد عودة ظافرة للحكم في شعبان 709 = يناير 1310. وكانت سلطنته الثالثة والأخيرة بتدبير حاكم حلب قرَاسُنْقر ...

الدرر 3، 331 - د. التازي: رسالة بن صلاح الدين إلى المنصور الموحدي بحث قدم للمؤتمر السادس لتاريخ بلاد الشام ونشر بمجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد 11 سنة 1994.

(15) أصبح سالار نائبًا للملك طوال مملكة الناصر الثانية، وأرغم على أن يمارس نفس الوظيفة مع الملك الذي عوّض الناصر، وقد سمى حاكما لحصن الكرك عند عودة الملك الناصر ومات في السجن.

(16) عقبة أيلة التي استمد منها ميناء أيلة اسمه الحالي هي بالضبط المرّ الذي يقع شمال المدينة من العقبة إلى مَعان. هذا ونظرا لما عُرفت به العقبة كطريق للحجاج فقد اكتشفت مؤخراً بها مجموعة من النقود الذهبية ضربت بسجلماسة تعود لأحد الحجاج المغاربة - جريدة الدستور الأردنية 1992/8/31





نقوش من العقبة



الكرك الأثرية

وكان قد ولى الملك في تلك المدة بَيْبَرْس الشَّشْنَكير (17)، وهو أمير الطعام، وتسمى بالملك المظفر، وهو الذي بنا الخانقاه البَيْبَرْسِية (18) بمقربةٍ من خانقاه سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين ابن أيوب، فقصده الملك الناصر بالعساكر ففرَّ بَيْبَرْس إلى الصحراء فتبعه العساكر وقبض عليه وأوتي به إلى الملك الناصر فـأمر بقتله فقتل وقبض على سَلاَّر وحبس في جبٍّ حتى مات جوعًا، ويقال : إنه أكل خُفَيْهِ من الجوع، نعوذ بالله من ذلك !

257/1

وأقام الركب ‖ بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنيّة (19) وتجهزوا لدخول البرية، ثم إرتحلنا إلى معان (20) وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصَّوان (21) إلى الصحراء التي يقال فيها : داخلُها مفقود وخارجها مولود، وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حجّ (22)، وهي حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادي بلْدح (23) ولا ماء به.

ثم إلى تَبوك (24) وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها عينٌ تَبِضّ بشيء من الماء، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المَعِين، ولم تزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(17) الكلمة في الأصل من الفارسية (شاشطا / نيگير Chashta-nigir) وتعني الشخص الذي يذوق الطعام الذي يقدم للعاهل (أمير الطعام)، وهو أي بَيْبَرس سلطان مملوك، نصب فيما بين المملكة الثانية والثالثة للملك الناصر، معروفٌ تحت إسم بيبرس الثاني وقد أعدم في شهر في القعدة 709 = أبريل 1310. الدرر الكامنة 2، 36 وما بعدها – صبح الأعشى ج 4 ص 41 لُغة نامة تاليف علي أكبر دهْخُدا – جامعة تهران.

(18) بنيت هذه الخانقاة في المكان الذي توجد فيه قصور الوزراء الفاطميين جنوب باب النصر، والحديث على سالار يقترن دائما باخبار الناصر – النعيمي : الدارس، ج 1، 554 هذا وقد اعتمدنا معظم النسخ ومنها النسخة المحفوظة بالخزانة الملكية التي يوجد فيها خُفَّيْه (مثنى خف) بدل جيفة ...

MAX VAN BERCHEM, Materiaux pour un corpus Arabicarum Paris - 1894.

(19) توجد (الثنية) على بعد ثلاث كيلوميترات جنوب شرقي الكَرَك، وهي الثنية الحالية، (ثنية مدران). أنظر معجم البلدان لياقوت.

(20) مَعَان : تقع جنوب الأردن على مقربة من مدينة الأنباط الشهيرة، البتراء زرناها 1996/12/13 مع الأكاديمية ويتحدث السفير ابن عثمان في رحلته عام 1201م عن عيون معان وبساتينها وعنبها ورّمانها...

(21) عقبة الصَّوان تقع على بعد ستين كيلو ميترًا جنوب معان وتسمى اليوم محطة عقبة الحجاز ...

(22) ذات حج، محطة تقع في المملكة العربية السعودية الحالية، تقع على خط 29°،50 شمالا الخط 36°،8 شرقا – والحسيان : جمع حسى : السهل من الأرض

(23) بَلْدَح : موقع شمال الحجاز ، به واد البزْواء انظر ياقوت

Musil, Alois : The Northern Hegaz, New York 1926.

(24) واحة شمال الحجاز تعتبر محطة بارزة من محطات الحجيج وخاصة للذين يردون من بلاد الشام، اشتهرت بالغزوة العظيمة التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم عام تسع من الهجرة = 631م وقد زرناها ونحن في الطريق إلى مدائن صالح – يناير 1979.

ومن عـادة حجـاج الشـام إذا وصلوا منزل تبوك أخـذوا أسلحـتهم وجـرّدوا سـيوفـهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينزل الركب العظيـم على هذه العين فيـروى منها جميـعهم ويقيمـون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال وإستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العُلا وتبوك.

ومن عـادة السقّائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحـواض مصنوعـة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملأون الرّوايا والقِرَب (25)، ولكل أمير أو كبير حوض يسقي منه جماله وجمال أصحابه ويملأ رَوَاياهم، وسواهم من النّاس يتّفق مع السقّائين على سقي جَمَله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم، ثم يرحل الركب من تبوك ويجدّون السير ‖ ليلاً ونهارًا خوفًا من هذه البـرّيّة، وفي سطها الوادي الأخَيضر (26) كأنه وادي جهنم أعادنا الله منها، وأصَاب الحجاج به في بعض السنين مَشقة بسبب ريح السَّموم التي تهبُّ فانتشفت المياه، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار، ومات مشتريها وبائعها، وكُتب ذلك في بعض صخر الوادي !

259/1

ومن هنالك ينزلون بِرْكة المعظّم (27) وهي ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب ويجتمع بهاء ماء المطر في بعض السنين، وربما جفَّ في بعضها، وفي الخامس من

---

(25) يتحدث ابن بطوطة هنا عن طريقة فريدة لإرواء المطايا فعندما تجد القافلة نفسها بجانب عيون لا تساعد الجمال والسائمة على أن تستفيد منها إما لضيق مسالكها وإما لصعوبة الأخذ منها مباشرة، فإنها، أي القافلة، تعمد إلى نصب صهاريج صناعية تخيطها من جلد الجواميس ... وتحضر الابل للشرب والإرواء ... وتتزود القِرَب والرَّوَايا (ج راوية) بالماء، وتستعمل هذه الأحواض كذلك في النزهات الكبرى خارج المدينة لإرواء الضيوف بالرُبّ والجُلاّب ونحوهما...

و قد كانت هذه العادة معروفة أيضًا في الصحراء المغربية عندنا ممّا يُعرف باسم الحوض عندما تحدث المؤرخون عن آلاف القرب التي صنعها المنصور الذهبي وهو يستعدّ للزحف على امبراطورية سنغاي ... أشاروا إلى مثل هذه الصهاريج الإصطناعية التي لا تختلف اليوم عن التي تباع اليوم لتنصب في الحدائق لسباحة الأطفال ...

(26)الأخيضر أو الأخضر : منزل قرب تبوك في وادٍ عميق ذي حمم فابن بطوطة معه الحق في تشبيهه بوادي جهنم ولهذا فان تسميته بالوادي الأخَيْضَر تسمية لا تخلو من نكتة . يقع الأخيضر على الخط 28°,08 شمالاً و 37°,08 شرقًا.

(27) سمّيت بالمعظم على إسم المعظم عيسى سلطان دمشق وابن أخي صلاح الدين = 1218 - 1227 = 614 - 624.

أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحِجر (28) حِجر ثمودَ (29)، وهي كثيرة الماء ولكن لا يردها أحد من الناس مع شدة عطشهم إقتداءً بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مر بها في ‖ غزوة تبوك فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد، ومن عَجَن به أطعمه الجمال. 260/1

وهنالك ديار ثمود في جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عَتَب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة، وعظامهم نخِرة في داخل تلك البيوت، إن في ذلك لعبرةً. ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جَبَلَين هنالك وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه، وبين الحِجر والعُلا (30) نصف يوم أو دونه، والعُلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المَعِينة يقيم بها الحجاج أربعًا، ويتزودون ويغسلون ثيابهم ويودعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر ‖ الكفاية. 261/1

وأهل هذه القرية أصحابُ أمانة. وإليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها (31) ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه، ثم يرحل الركب من العُلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعِطاس (32)، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة، هبَّت في بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم إلا اليسير، وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالِقي (33)، ومنه ينزلون هُدَيَّة (34) وهي حسيان ماء بوادٍ يحفرونَ به فيخرج الماء وهو زُعاق، وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف.

---

(28) بئر الحِجر : اسم لمرحلة كانت تنزل بها القوافل القديمة بين اليمن وسوريا وقد ورد ذكرها عند بلين (Pline) تحت اسم (HEGRA)

(29) حجر ثمود يسمى اليوم مدائن صالح التي زرناها بمناسبة مؤتمر الرياض حول جغرافية الجزيرة العربية يناير 1979 وتوجد إشارات لقبيلة ثمود في المصادر الاغريقية والآشورية وبخاصة في القرآن الكريم، السورة الحادية عشر، الآية 61 / 68 ، هذا وردًا على ما يذكر في الأساطير عن أجسام آل ثمود لاحظ ابن خلدون أن ديارهم وأبوابها صغيرة!! أنظر المقدمة حول مبالغات المؤرخين ...

(30) العُلاَ تقع على بعد أربعين كيلو مترا، جنوب مدائن صالح ...

(31) يلاحظ هنا تحديد منطقة الحرم حيث لايجوز تجاوزها بالنسبة للذين لا يعتنقون الإسلام، وما تزال هذه الحدود اليوم هي التي كانت عليها بالأمس ...

(32) العِطاس لم نهتد لتحديده، فهل له صلة بالعطاش (بالشين) ؟ أسعد سليمان عبده : معجم الأسماء الجغرافية 1404 = 1984 ص 325.

(33) القصد إلى قطْلُقْتَمُر صهر الجالق الذي ولى نيابة غَزَّه قبل الجاولي وقد توفي سنة بضع عشرة وسبعمائة = 1317.

(34) هُدية : (بضم الهاء) محطة تقع على الخط 25°,32 شمالا و 38°,47 شرقًا.

طَيْبة (35) مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرَّف وكرم

262/1 وفي عشيّ ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا إلى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام (36) مسلِّمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع (37) الذي حنَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، وأدينا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العُصاة والمذنبين، الرّسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليمًا وشرف وكرم، وحقّ السلام على ضجيعَيْه وصاحبيه : أبي بكر الصديق (38) وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما، وانصرفنا إلى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى، مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى، حامدين لله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهده العظيمة المنيفة 263/1 داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وأن يجعلنا ممن قبلت زيارته، وكتبت في سبيل الله سفرته.

ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل تُحفُّه من جهاته الاربع، بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلَّط بالحجر المنحوتة، والرَّوضة المقدسة (39) صلوات الله وسلامه على ساكنها، في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلُها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي مؤزَّرة بالرخام البديع النحت، الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان، وفي الصفحة القبلية منها 264/1 مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم، وهناك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدبرين القِبلة

---

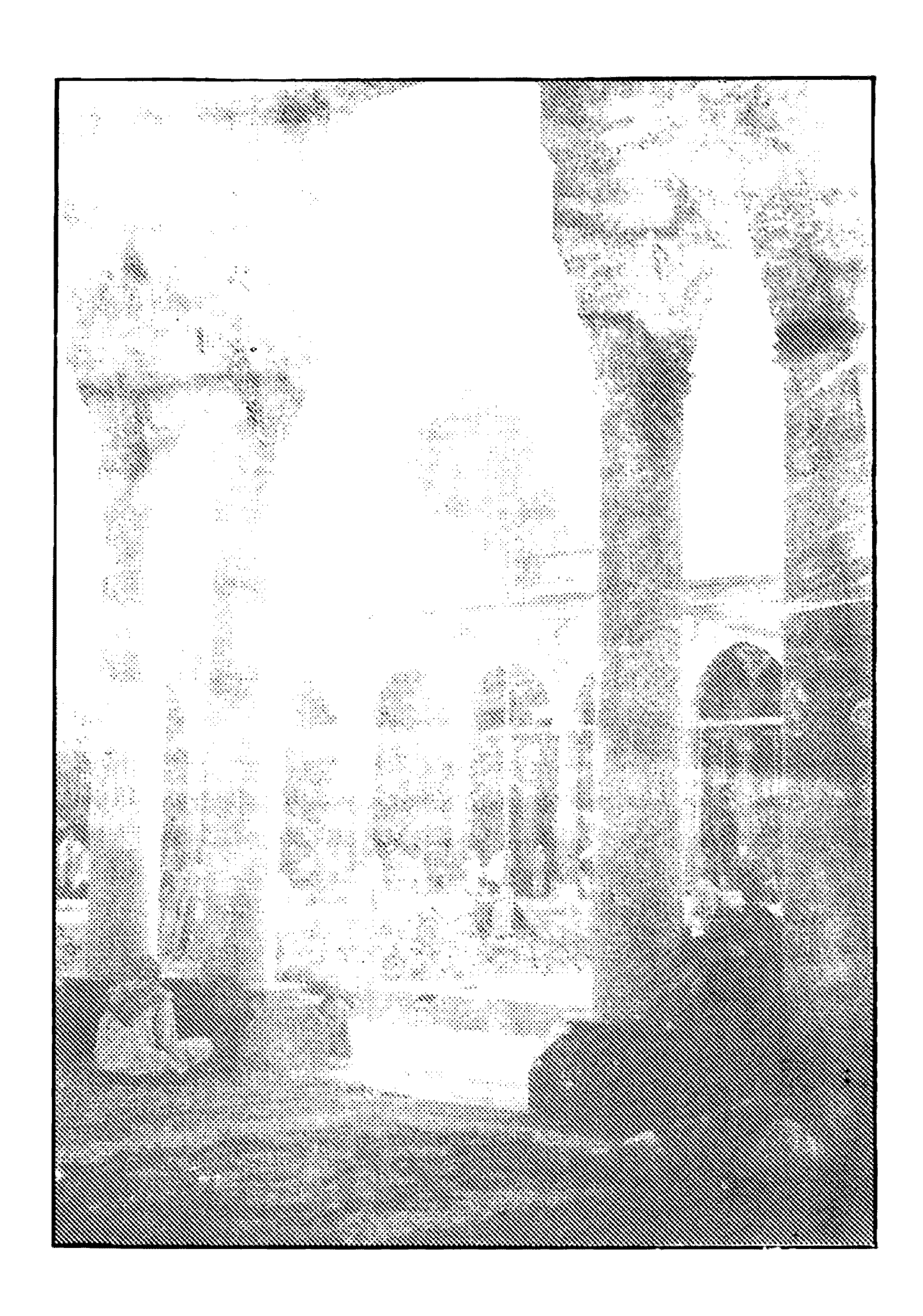
(35) طيبة : إسم أطلق بعد ظهور الإسلام على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، أما يثرب فاسم قديم.

(36) يبتدئ الحجاج زيارتهم للمسجد من باب السلام وهو مدخل يقع قريبا من الزاوية الجنوبية للجدار الغربي قبالة القبر النبوي.

(37) لم يبق أثرٌ اليوم لهذا الجذع.

(38) أبو بكر : صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته، معروف بلقب الصِّدِّيق، وقد كان عُمَر كذلك صهرًا وخليفة لأبي بكر وكان يلقب بالفاروق، وكلاهما دفن إلى جانب قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد وقفنا على ذلك داخل الروضة الشريفة التي تحتضن جدث الرسول عليه الصلوات ضمن الوفد الرسمي الذي أدَّى مناسك الحج عام 1378 هـ (1959م).

(39) هذه معلومات مقتبسة باختصار من ابن جبير إنما يلاحظ أن المسجد الأول الذي كتب عنه ابن جبير تهدم في أعقاب حريق مدمر عام 654 هـ 1256، هذا ونلاحظ أن معظم مخطوطات ابن بطوطة ومنها مخطوطة الخزانة الملكية بالمغرب كتب (مؤزّرة) عوض مدورة ...



المسجد النبوي بالمدينة

فيسلمون وينصرفون يمينا إلى وجه أبي بكر الصديق، ورأسُ أبي بكر رضي الله عنه، عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب، ورأسُ عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما.

وفي الجوفى من الروضة المقدسة زادها الله طيبًا حوض صغير مرخَّم في قبلته شكل محراب يقال إنه كان بيتَ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا ويقال أيضا هو قبرها، والله أعلم (40).

وفي وسط المسجد الكريم دفةٌ مطبقة على وجه الأرض مقفلة على سرداب له درج يفضى إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد، وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عايشة أم المومنين رضي الله عنها إلى داره، ولا شكَّ أنه هو الخوخة التي ورد ذكرها في الحديث، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بإبقائها وسدّ ما سواها، وبإزاء دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر (41) رضي الله عنهما وبشرقي المسجد الكريم دار إمام المدينة أبى عبد الله مالك بن أنس (42) رضي الله عنه وبمقربة من باب السلام سقاية ينزل إليها على درج ماؤها معين. وتعرف بالعين الزرقاء.

265/1

ذكر إبتداء بناء المسجد الكريم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلَّم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الأول (43) فنزل على بني عمرو بن عوف (44) وأقام عندهم اثنتين وعشرين ليلة، وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال، ثم توجه إلى المدينة فنزل على بني النَّجار

(40) المنقول عن العلماء أن قبر فاطمة يوجد بالبقيع ... هذا وقد توفيت فاطمة حسرةً على والدها بعد خمسة وسبعين يوما من وفاته ويعتقد البعض أن قبرها يوجد إلى جنب والدها ... وقد لقبت : «أمّ أبيها»

(41) عبد الله بن عمر بن الخطاب صحابي من أعَزّ بيوتات قريش في الجاهلية، غزا إفريقية مرتين، آخر من توفى بمكة من الصحابة أدركه أجله عام 73 = 693.

(42) مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي، أحد الائمة الأربعة عند أهل السنة، سأله المنصور العباسي أن يضع له كتابًا للناس يحملهم على العمل به فصنَّف "الموطأ" الذي يظل عمدةً يرجع اليها المالكية ... أدركه أجله بالمدينة سنة 179 = 795. وقد ورد ذكره كذلك في رحلة ابن جبير تعبيرًا من الرَّحالتين المغربيين عن اهتمامهما بالمذهب المالكي.

(43) تبتدئ الهجرة مع مغادرة النبي صلى الله عليه وسلم لمكة يوم الجمعة أول المحرم 15 يوليه 622، وقد وصل إلى المدينة بتاريخ ثامن ربيع الأول : الموافق يوم 20 شتنبر 622.

(44) تكوّن قبيلة الأوس مع قبيلة الخزرج وهما من أعظم قبائل المدينة ماأصبح معروفا في التاريخ الاسلامي باسم الأنصار.

266/1 (45) بدار أبي أيوب الأنصاري (46) رضي الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتى بنى مساكنه ومسجده.

وكان موضع المسجد مربدًا لسهل وسهيل ابنى رافع بن أبي عُمر بن عائد بن ثعلبة بن غنم ابن ملك بن النَّجار وهما يتيمان في حجر أسعد بن زُرارة رضي الله عنهم أجمعين، وقيل كانا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم تسليما، ذلك المربد، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه، وقيل إنهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما، فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطًا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين، وجعله مربّعًا طوله مائة ذراع، وعرضُه مثلُ ذلك، وقيل : إن عرضه كان دون ذلك، وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة، فلما اشتد الحر تكلم 267/1 أصحابه في تسقيفه فأقام له أساطين من جذوع النخل، وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وَكَفَ المسجد، فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمله بالطين فقال : كلاً ! عريشٌ كعريش موسى أو ظُلَّة كظلَّةِ موسى، والأمر أقرب من ذلك، قيل : وما ظُلَّة موسى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : كان إذا قام أصاب السقف رأسه، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سدَّ الجنوبي منها حين حولت القبلة (47)، وبقى المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا وحياة أبي بكر رضي الله عنه.

فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله 268/1 عليه وسلم تسليما وقال : لولا أني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا يقول : ينبغي أن نزيد في المسجد ما زدت فيه، فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللَّبِن، وجعل الأساس حجارةً إلى القامة وجعل الابواب ستة، منها في كلّ جهة ما عدا القبلة، بابان وقال في باب منها : ينبغي أن يترك هذا للنِّساء، فما رئ فيه حتى لقى الله عز وجل، وقال :

---

(45) بنو النجار فخذة من الخزرج ...

(46) أبو أيوب، خالد بن زيد، من مشاهير صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أدركه أجله أثناء حصار القسطنطينية العظمى عام 52 = 672 لما غزا يزيد عاصمة البيزنطيين في خلافة أبيه معاوية، دفن في أصل حصن القسطنطينية، وقد اكتشف قبره عندما احتلت المدينة عام 857 = 1453 من قبل آل عثمان، 269/1 ويعتبر قبره إلى اليوم مزارة مقصودة تحت اسم (أيوب) مما أوهم بعض الناس أنه قبر نبي الله أيوب الذي يوجد في سوريا على ما نعرف.

(47) من المعلوم أن القِبلة كانت أول الأمر في اتجاه بيت المقدس، ولكنها لم تلبث أن غيِّرت إلى مكة في السنة الثانية من الهجرة ويعلّق بلاشير بأن ذلك التحوّل تم لما يئس النبي صلى الله عليه وسلم من استمالة اليهود !

لو زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبّانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليمًا.

وأراد عمر أن يُدخل في المسجد موضعًا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزاب يصبُّ في المسجد، فنزعه عمر وقال : إنه يؤذي الناس، فنازعه العباس وحكّما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما فأتيا داره فلم يؤذن لهما إلا بعد ساعة، ثم دخلا إليه فقال : كانت جارتي تغسل رأسي، فذهب عُمَر ليتكلَّم فقال له أبي : دَعْ أبا الفضل يتكلّم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما، فقال العباس : خِطّة خطها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتُها معه وما وضعت الميزاب إلا ورجْلاي على عاتقَي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها في المسجد. فقال أُبَي : إن عندي من هذا علمًا، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول : أراد داوود عليه السلام أن يبْني بيت الله المقدس وكان فيه بيتٌ ليتيمَيْن فراودهما على البيع فأبيا ثم أرادهما فباعاه، ثم قاما بالغبن فردّ البيع واشتراه منهما، ثم ردّاه كذلك فاستعظم داود الثمن، فأوحى الله إليه : إنْ كنت تعطى من شيء هو لك فأنت أعلم، وإن كنت تعطيهما مِنْ رزقنا فأعطهما حتى يرضيا، وان أغنى البيوت عن مظلمة بيتٌ هو لي، وقد حرمتُ عليك بناءه، قال يا رب فأعطه سليمان، فأعطاه سليمان عليه السلام. فقال عمر مَن يشهد لي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله ؟ فخرج أُبَي إلى قومٍ من الأنصار فأثبتوا له ذلك، فقال عمر رضي الله عنه : أما إني لو لم أجد غيرك أخذتُ قولك، ولكني أحببت أن أثبت، ثم قال للعباس رضي الله عنه، والله لا تردُّ الميزاب إلا وقدماك على عاتقيَ، ففعل العباس ذلك ثم قال : أما إذ أُثْبِتتْ لي فهي صدقة لله، فهدمها عمر وأدخلها في المسجد، ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه وبناه بقوةٍ وباشره بنفسه، فكان يظل فيه نهاره وبيَّضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من جهاته إلا جهة الشرق منها وجعل له سواري حجارة مُثبتة بأعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالسّاج، وصنع له محرابًا وقيل إن مروان هو أول من بنى المحراب، وقيل : عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد.

269/1

270/1

271/1

ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك، تولّى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه وحسّنه وبالغ في إتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب (48)، وكان الوليد بعث إلى ملك الروم : إني أريد أن

(48) مروان بن الحكم، أدركه أجله سنة 65 = 684 - عبد الملك بن مروان أدركه أجله عام 86 = 705. والوليد بن عبد الملك تـ 179 = 795 وعمر بن عبد العزيز توفي 101 = 720، وكلُّ هؤلاء خلفاء أمويون. عمر بن عبد العزيز كان واليا بالمدينة وهو الذي قام بتوسعة مسجد الرسول مستعينا بالخبرة البيزنطية. على ماسنرى د. التازي : المسجد في المأثور الاسلامي ص 324 مصدر سابق.
Gibb : ARAB - Byzantin Relations Dumbarton oaks papers XII -1958

أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليمًا فاعنٍّي فيه. فبعث إليه الفعلة وثمانين ألف مثقال من الذهب (49)، وأمر الوليدُ بإدخال حُجَر أزْواج النبي صلى الله عليه وسلم تسليما، فاشترى عمر من الدور ما زاده في ثلاث جهات من المسجد، فلما صار إلى القِبلة إمتنع عبيد الله بن عبد الله ابن عمر من بيع دار حفصة ، وطال بينهما الكلام حتى إبتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها، وعلى أن يُخرجوا من باقيها طريقًا إلى المسجد وهي الخوخة التي في المسجد. 272/1

وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه : إحداهما مُطلَّة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فأطل عليه المؤذن حين الآذان فأمر بهدمها (50).

وجعل عمر للمسجد محراباً ويقال : هو أوّل من أحدث المحراب، ثم زاد فيه المهدي(51) ابن أبي جعفر المنصور، وكان أبوه هم بذلك ولم يُقض له، وكتب اليه الحسن بن زيد (52) يرغّبه في الزيادة فيه من جهة الشرق، ويقول : إنه إن زيد في شرقية توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم، فاتَّهمه أبو جعفر بأنه أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه، فكتب إليه : إني قد عرفت الذي أردت فاكفف عن دار الشيخ عثمان. وأمر أبو جعفر أن يظلّل الصَّحن أيام القَيظ بستور تُنشر على حبال ممدودة على خشب تكون في الصحن لتُكِنَّ المصلين من الحر(53). 273/1

وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذرا ع، فبلّغه المهدي إلى ثلاثمائة ذرا ع وسوّى المقصورة بالأرض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين، وكتب اسمه على مواضع من المسجد.

ثم أمر الملك المنصور قلاوون ببناء دارٍ للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر، وأقامها متسعة الفناء تستديرُ بها البيوت، وأجرى إليها

(49) يلاحظ اهتمام ابن بطوطة بالتاريخ الدولي الاسلامي منذ التاريخ المبكّر... وفي موضوع طلب خبرة البيزنطيين في بناء مسجد الرسول راجع الذهب المسبوك لتقي الدين المقريزي، تحقيق جمال الدين الشيال – القاهرة 1955، ص 30، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. د. التازي : التعليق السابق.

(50) سليمان أخ للوليد وخَلَفه وفي عهده فتحت جرجان وطبرستان، أدركه أجله عام 99 = 717.

(51) المهديّ بالله الخليفة العباسي، هو محمد بن عبد الله المنصور، أدركه أجله على دابته في الصيد، وكان يجلس للمظالم، أول من لعب بالصوالجة في الإسلام دفن بجامع الرصافة عام 169 = 785 وقد انمحى أثر تربته بعد ذلك.

(52) الحسن بن زيد بن علي، كان حاكمًا على المدينة من بضع سنوات ... ويلاحظ من خلال هذا درجة الاحتكاك بين أنصار علي وبين أنصار عثمان الذي انتخب خليفةً عوض الإمام عليٍّ كما هو معلوم، أدركه أجله عام 168 = 784.

(53) حول تكييف صُحُون المساجد يراجع تاريخي لجامع القَرويين ج 1 ص 74 .

274/1 ‖الماء، وأراد أن يبنى بمكة شرفها الله تعالى مثلَ ذلك، فلم يتمَّ له، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصَّفا والمروة، وسيذكر إن شاء الله.

وقبلةُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً قبلةُ قطع لأنه صلى الله عليه وسلم تسليما أقامها، وقيل أقامها جبريل عليه السلام، وقيل كان جبريل يشير له إلى سَمتِها وهو يُقيمُها، وروي أن جبريل، عليه السلام، أشار إلى الجبال فتواضعتْ فتنحَّت حتى بدت الكعبة، فكان صلى الله عليه وسلَّم تسليما يبني وهو ينظر إليها عيانًا، وبكل إعتبار فهي قبلة قطع، وكانت القبلةُ أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة إلى بيت المقدس، ثم 275/1 حوِّلت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهرًا، وقيل بعد سبعة عشر شهرا‖.

ذكر المنبر الكريم.

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم تسليما، كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحوَّل إليه، حنَّ الجذع حنين الناقة إلى حوارها، وروى أنه صلى الله عليه وسلَّم تسليما نزل إليه فإلتزمه فسكن، وقال : لو لم ألتزمْه لحن إلى يوم القيامة.

وإختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى أن تميم الدَّاري (54) رضي الله عنه هو الذي صنعه، وقيل : إن غلامًا للعباس رضي الله عنه صنعه، وقيل غلام لامرأة من الانصار، وورد ذلك في الحديث الصحيح، وصُنع من طرفاء الغابة، وقيل من الأثل (55)، وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا يقعد على علياهن، ويضع رجليه 276/1 الكريمتين في وسطاهن، فلما ولى أبو‖ بكر الصديق رضي الله عنه قعد على وسطاهن، وجعل رجليه على أولاهن، فلما ولى عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض، وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدرًا من خلافته ثم ترقى إلى الثالثة.

ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضجَّ المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس وبدت النجوم نهارًا وأظلمت الأرض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبيَّن مسلكه، فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ستَّ درجات من أسفله فبلغ تسع درجات (56).

(54) نسبة إلى قبيلة الدار على الحدود السورية التي التحقت بركب الاسلام عام 9 = 631 - رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج 1، ص 370.

(55) قريب من هذا ذكره الهَرَوي في كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات مصدر سابق.

(56) احترق هذا المنبر عام 654 = 1256 بين فترة زيارة ابن جبير وفترة زيارة ابن بطوطة على ما عرفنا.

ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم تسليما

277/1 وكان الامام بالمسجد الشريف في عهد دخولي إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة (57) من كبار أهل مصر، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بُغْية المشايخ عز الدين الواسطي (58)، نفع الله به، وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري (59).

حكاية [سراج الدين وحلمه]

يذكر أن سراج الدّين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة، ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا في النوم ثلاث مرات، في كلّ مرة ينهاه عن الخروج منها، وأخبره باقتراب أجله فلم ينْتهِ عن ذلك، وخرج فمات بموضع يقال له السُويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل أن يصل اليها، نعوذ بالله من سوء الخاتمة، وكان ينوب عنه الفقيه عبد الله محمد بن فرحون، رحمه الله وابناؤه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبد الله مدرّس المالكية، ونائب الحَكَم، وأبو عبد الله محمد، وأصلهم من مدينة تونس، ولهم بها حسب وأصالة (60). وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الأسيوطي (61) من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيًا بحصن الكرك. 278/1

(57) القصد إلى موسى بن عبد الرحمن بن سلامة المُدلْجي، بهاء الدين ولد سنة 665 = 1267 وتعاطى الخط الحسن، وكتب عدة ختمات، ثم ولي خطابة المدينة عام 726 = 1326 وقد أدركه أجله يوم 18 رجب 744 = 1343. الدرر الكامنة ج 5 ص 146.

(58) الحسن بن علي بن اسماعيل بن ابراهيم الواسطي عز الدين، ولد ببغداد عام 654 = 1256 وقد قدم مصر فسمع عن الدمياطي، وحج مرات وناب عن الإمام بالمسجد النبوي، ومات في شعبان = 1341 741. الدرر الكامنة ج 2، 103.

(59) عمر بن أحمد بن الخِضْر بن ظافر ... الأنصاري المصري الخطيب سراج الدين القاضي المدني ... برع في الفقه والاصول ولأه المنصور قلاون الخطابة بالمدينة المنورة نحو أربعين عامًا فقدمها عام 1283 682 = فانتزعها من أيدي الرافضة ... أدركه أجله بالسويس محرم 726 = 1326 - وصلّى عليه نجم الدّين الاصفوني الدرر الكامنة، 3، 224.

(60) هنا ثلاثة من أسرة ابن فرحون : الوالد الذي يحمل اسمَ محمد وكنية أبو محمد وهو الذي تحدث عنه ابن بطوطة قائلا رحمه الله بمعنى أنه لم يدركه ... وهناك أبناؤه : الأول عبد الله الملقب بدر الدّين والمكنّى بأبي محمد، وهذا الذي ناب في الحكم ... وحج نيفا وأربعين حجة ولم يخرج منذ سكن المدينة إلا إلى مكة وقد توفي في رجب 769 = 1367، وهناك أخوه محمد المتوفى سنة 755 = 1354. ولهما أخ ثالث هو علي المتوفى سنة 746-1345. - الدرر 2، 407.

(61) جمال الدّين الأسيوطي أو الأميوطي (أميوط : بلدة من اقليم الغربية بالديار المصرية) والده هو عز الدّين محمد بن أحمد بن ابراهيم بن يحيى الذي كان من جلة العلماء بالمشرق ولي قضاء الكرك مدة طويلة نحو ثلاثين سنة وتوفي في شعبان سنة 725 غشت 1325. قال الذهبي وهو والد شيخنا بالإجازة جمال الدّين ابراهيم نزيل مكة. الدرر 3، 396.

ذكر خُدام المسجد الشريف والمؤذنين به.

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنتُه فتيان من الأحابيش وسواهم، وهم على هيآتٍ حسان وصور نظاف، وملابس ظراف، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو في هيئة الأمراء الكبار، ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويوتي إليهم بها في كل سنة.

279/1 ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدث الفاضل جمال الدين المطري (62) من مطرية قرية بمصر، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتَّرَّاس (63)، قديم المجاورة وهو الذي جبَّ نفسه خوفًا من الفتنة !

حكاية [هذا الشيخ الذي جب نفسه]

يذكر أن أبا عبد الله الغرناطي كان خديمًا لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي، وكان الشيخ حسنَ الظن به يطمئن إليه بأهله وماله، ويتركه، متى سافر، بداره، فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلِقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودتْه عن نفسه فقال : إني أخاف 280/1 الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله ! فلم تزل تراوده وتعارضه، حتى خاف على نفسه الفتنة وجبَّ نفسه وغُشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتى برئ، وصار من خُدام المسجد الكريم ومؤذنًا به ورأس الطائفتين وهو باقٍ بقيد الحياة إلى هذا العهد.

ذكر بعض المجاورين بالمدينة الشريفة.

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق (64) كثير العبادة

---

(62) محمد بن أحمد بن عيسى بن عامر ... الأنصاري السعدي جمال الدين المطري المدني ... كان أحد رؤساء المؤذنين بالمسجد النبوي ومن أحسن الناس صوتًا وصنَّف تاريخا مقيّدًا، وكانت له مشاركة في الفنون وناب في الحكم وفي الخطابة وكانت المدينة خالية من عارف بالميقات فندب من مصر ثلاثة وكان ولده أحدهم فلما مات أبوه استقر عوضه وبقيت في يد آله. أدركه أجله بالمدينة يوم 17 ربيع الآخر 761 = 1340، الدرر ج 3/ 403 - 404.

(63) الغرناطي محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الغرناطي، قال ابن الخطيب : كان حسن الخلق عارفًا بالطب، تصدر ببلاده ثم حج وعظم صيته، وصار أمينا على الخدام بالمدينة المنورة، جرت له حادثة فجب ذكره وسقطت لحيته، مات بعد سنة 750 = 1350 ونذكر بالمناسبة أن بعض المتصوفة كسر أسنانه حتى لا ينعم بلذائذ الطعام !

ابن الخطيب : الاحاطة في أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان ج 3 ص 233 مكتبة الخانجي مصر 1975 - الكتاني : سلوة الأنفاس ج، ص 218.

(64) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني المالكي حج بعد العشرين وجاوربمكة ثم عاد إلى بلده ثم حج فسكن بالمدينة مدة ومات بمكة عام 740 = 1340، الدرر 1، 312 - المسند لابن مرزوق، تحقيق مارية خيسوس بيغيرا (الجزائر) 1401 = 1981.

والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا صابر محتسب وكان ربما جاور بمكة المعظمة، رأيتُه بها سنة ثمان وعشرين وهو أكثر الناس طوافًا وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحرِّ بالمطاف، والمطافُ مفروشٌ بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح || المحماة، ولقد رأيت السقائين يصبُّون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصبّ فيه إلا ويلْتهب من حينه !   281/1

وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب، وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين، ورأيته يومًا يطوف فأحببت أن أطوف معه فوصلت المطاف وأردت إستلام الحجر الأسود فلحقني لهب تلك الحجارة وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته إلا بعد جهد عظيم ! ورجعت فلم أطف، وكنت أجعل سجادتي (65) على الأرض وأمشي عليه حتى بلغت الرّواق.

وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد ابن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي (66)، وكان يطوف كل || يوم سبعين أسبوعا(67)، ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر، وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادةً عليه.   282/1

ومن المجاورين بالمدينة، كرَّمها الله، الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف، ومنهم الشيخ أبو مهدي عيسى بن حَرْزُوز (68) المكناسي.

(65) معظم النسخ تذكر (سجادتي) ولا أدري عن اجتهاد الناشرَيْن لجعل البجاد بدل السجادة.

(66) أبو القاسم ابن الوزير ابى عبد الله، وهو بلقبه اشهر، محمد بن محمد بن سهل الأزدي الأندلسي الغرناطي، قال ابن كثير في البداية والنهاية (14 / 149) : إنه كان بارعًا في معرفة الاصطرلاب وكان وافر الجلالة يكثر التصدق بما يأتيه من املاكه بالمغرب ... كان يولي الملوك ويعزلهم ! وقد كان له علم بالفقه والتاريخ، أدركه أجله بالقاهرة عام 730 = 1336 وهو عائد من الحج ...– الدرر 4، 296 - 297.

(67) الأسبوع من الطواف : سبعة أشواط، يقال طاف بالبيت أسبوعًا أي سبع مرات، ومعنى هذا أن الوزير أبا القاسم كان يقوم بعملية الطواف عشر مرات في اليوم، وفي كلِّ مرة ينهي سبعة أشواط فمجموع الدورات إذن سبعون !، وذلك لعَمري، دليلٌ يُعبِّر عن مدى إغراق الناس في عبادة ربّهم، ولعلّ بعض الناشرين للرحلة إستعظم أن يقوم أبو القاسم بالطواف بالبيت كلَّ هذه الدورات، ومن غير أن يرجع ذلك الناشر لقراءة ما سبق قبل سطرين من أخبار الذين كانوا يكثرون من الطواف بالرغم من شدة الحر ... أقول إستعظموا ذلك فعمدوا إلى الاقتصار على ما في مخطوطةٍ حُذفت فيها كلمة سبعين !!. وهكذا عدلوا عن عبارة (كل يوم سبعين أسبوعا) إلى عبارة كل أسبوع سبعين طوافًا) !.. بدّلوا فتبعهم من نقل عنهم ..!!

(68) القصد إلى أسرة بني حرزوز الذين أشار إليهم الشيخ ابن غازي (تـ 919 هـ = 1513 م) في كتابه "الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون"، وقد رسم الاسم هكذا حزرون في النسخة البارزية إعتمادًا على المخطوط رقم 1289، بينما سائر النسخ تطبق على حرزوز، بما فيها مخطوطة الأمير مولاي العباس الذي إستوقفتْه هذه المعلومة المتعلقة بمكناس !

– الروض الهتون : مطبوعات القصر الملكي، الرباط 1384 = 1964.

– ابن زيدان : الاتحاف ج 3، ص 597.

حكاية [شيخ تاه في الجبال]

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين فلما صعدوا الجبلَ وصلّوا بمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما، ونزلوا عنه تأخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقًا في الجبل فظنه قاصدًا فسلك عليه ووصل 283/1 الصحابة إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلّعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرًا فظنوا أنه سبقهم فمضوا إلى مكة، شرفها الله تعالى، ومرَّ عيسى على طريقه فأفضى به إلى جبل آخر وتاه عن الطريق، وأجهده العطش والحرُّ وتمزَّقت نعلُه فكان يقطع من ثيابه ويلفُّ على رجليه إلى أن ضعف عن المشي واستظلَّ بشجرة أم غيلان، فبعث الله أعرابيًا على جمل حتى وقف عليه، فاعلمه بحاله فأركبه وأوصله إلى مكة، وكان على وسطه هِمْيان (69) فيه ذهب فسلّمه إليه، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه، وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرا مثل ذلك لصاحبٍ لي اذكره ان شاء الله. 284/1

ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد السَّرَوي(70) من القرآء المحسنين، وجاور بمكة في السنة المذكورة، وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض (71) بعد صلاة الظهر وأمّ في التراويح بها، ومن المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها، وتزوَّج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزّرندى.

حكاية [المرتكب الصَّعْب]

يذكر أن أبا العباس الفاسي تكلّم يومًا مع بعض الناس فانتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمةٍ ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مرتكبًا صعبًا عفا الله عنه،

(69) معنى الهِمَيان بكسر الهاء الكيس الذي يجعل فيه الإنسان نقودَه التي يحتاجها لنفقته ويشده إلى وسطه أو ساقه وزنده ... وهي من المفردات الحضارية الجديرة بالاستعمال اليوم بالنسبة للمسافرين الذين يهمهم الحفاظ على نقودهم ! لفظ فارسي معرب يقول لسان العرب.

(70) السروي نسبة إلى بلدة سارية بطبرستان، والنسبة اليها سروى كما في معجم البلدان، نقلاً عن المقدسي واليها ينسب الشاعر السروي وقد رسم في مخطوطة مولاي العباس السروني بالنون؟

(71) عياض بن موسى بن عياض ... السبتي عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ولي قضاء سبتة ثم غرناطة وتوفي بمراكش، من تصانيفه الدائعة الصيت (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) وترتيب كتاب المدارك ... في معرفة أعلام مذهب الامام مالك، أدركه أجله عام 544 = 1149 وقد جمع المقّري سيرته وأخباره في كتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" أعيد طبعه في المغرب من لدن صندوق احياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة 1398 = 1978.

فقال : إن الحسين ابن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقّب، فبلغ كلامه إلى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جمّاز الحُسَيني (72) فأنكر كلامه، ويحقٍّ إنكاره، وأراد قتله، فكُلِّم فيه فنفاه عن المدينة، ويذكر أنه بعث من اغتاله، وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله !

285/1

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أمير المدينة كُبَيْش بن منصور ابن جُماز (73)، وكان قد قتل عمه مُقبلاً، ويقال إنه توضأ بدمه ثم إن كُبَيْشًا خرج سنة سبع وعشرين، إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه، فأدركتهم القايلة في بعض الأيام فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وأبناء مُقبل في جماعةٍ من عبيدهم ينادون : يالَثارات مُقبل ! فقتلوا كُبيش بن منصور صبرًا ولَعَقوا دمه ! وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا أنه نفى أبا العبّاس الفاسي.

286/1

ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيع الغَرْقَد، وهو بشرقي المدينة المكرمة ويُخرجُ إليه على باب يعرف بباب البقيع، فأول ما يلقى الخارجُ إليه، على يساره عند خروجه من الباب قبْر صفية بنت عبد المطلب، رضي الله عنهما، وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما، وأم الزُّبير بن العوَّام (74) رضي الله عنه، وأمامها قبرُ إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البِناء، وأمامه قبر السّلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة

---

(72) رُسمت الكلمة في معظم النسخ : الحَسَني (بفتح الحاء) وعليه اعتمد الناشران الفرنسيان والصواب الحُسيني على ما يوجد في المخطوطات المعتمدة لدينا وفيها الخزانة الملكية، وهو ما يناسبه المقام سيما وقد ورد في ترجمة طفيل بن منصور هذا أنه من ذرية الحُسين (بضم الحاء) بن علي بن أبي طالب ... وكان أميرًا على المدينة في الأيام الناصرية : مات في رمضان 752 = نونبر 1351... وتذكر هذه الحادثة فيما روى عن المقَّري الجد وهو في مجلس أبي عنان... النفح 281.V الدرر II ،324-325، ج III، ص 348 ج IV ص 180.

(73) كُبيش بن جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنَّا الحُسيني، أخو طفيل سالف الذكر، ولي الإمارة استقلالا في شهر رمضان 725=1325 ولكنه قتل في رجب 728 يونيه 1328 على ما في الدرر (جزء III ص 348) وليس عام 727 كما عند ابن بطوطة وإلى هؤلاء، الأشراف الحُسينيين ينتسب أبو غُرَّة الذي سكن أخوه قاسم في غرناطة واستُشهد بوادي كرة على ما سنرى في التعليق 15 من الفصل الآتي.

(74) الزبير بن العوام صحابي شجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة شهد غزوة بدر وأحد وغيرهما وشهد الجابية مع عمر بن الخطاب، قتل يوم وقعة الجمل عام 36 = 656. هذا ويلاحظ أن بعض هذه الفقرات مقتبس من رحلة ابن جبير (ص 154 - 155).

287/1 إبراهيم بن رسول الله (75) صلى الله عليه وسلَّم تسليمًا وعليه قبَّة بيضاء، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو المعروف بأبي شَحْمة، وبإزائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبر عبد الله بن ذي الجناحَيْن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما (76)، وبإزائهم روضة يذكر أن قبور أمهات المؤمنين بها رضي الله عنهنَّ، ويليها رَوضة فيها قبْر العباس بن عبد المطلب (77) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهي قبة ذاهبةٌ في الهواء بديعة الإحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأسُ الحسن إلى رجليْ العباس عليهما السلام، وقبْراهما مرتفعان عن الارض متسعان مُغَشَّيان بألواح بديعة الالصاق مرصَّعة بصفائح الصفر البديعة

288/1 العمل، وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصَّحابة رضي الله عنهم إلا أنها لا يعرف أكثرها، وفي آخر البقيع قبر أمير المومنين أبي عمر عثمان ابن عفَّان رضي الله عنه، وعليه قبَّة كبيرة (78)، وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعن ابنها. ومن المشاهد الكريمة قباء، وهو قبلى المدينة على نحو ميلين منها، والطريق بينهما في حدائق النخل، وبه المسجد الذي أسس على التقوى والرضوان، وهو مسجد مُربَّع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد، وفي وسطه مبْرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه، وفي الجهة القبلية من صحْنه محراب على

289/1 مصْطبة وهو أولُ موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً، وفي قبلى المسجد دار كانت لأبي أيوب الانصاريِ رضي الله عنه، ويليها دُورٌ تنسب لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة، رضي الله عنهم وبإزائه بئر أرِيس، وهي التي عاد ماؤها عذبًا لما تفل فيه النبي صلى الله

(75) إبراهيم بن الرسول صلى الله عليه وسلم من زوجته مارية القبطية، ولد حوالي سنة 7 = 628 وتوفى بعد سنة.

(76) جعفر بن أبي طالب هو الملقب بجعفر الطيار وهو أخو أمير المومنين علي بن أبي طالب ... وقد حضر وقعة مؤتة بالبلقاء ضد البيزنطيين ففقد يديه، فقيل : إن الله عوضه عن يديه بجناحين في الجنة. وقال حسان :

فلا يبعدن الله قتْلى تتابعوا
بمؤتة، منهم ذو الجناحين جعفر !

(77) العباس وهو جد الخلفاء العباسيين الحاكمين في بغداد من عام 132 - 656 هـ 750 - إلى 1258 م وفي مصر من 659 1261 م إلى 923-1517 م = والجدير بالذكر أن أبناء الحسن بن علي هم الذين صار لهم الحكم في المغرب على نحو ما سار لأشراف مكة...

(78) ابن جبير (579 = 1183) يذكر أن القبة صغيرة ومتواضعة ... لكن العبدري المغربي في رحلته (1290 = 688) يذكر بالحرف : ومن أشهرها وأتقنها قبة عثمان بن عفان : وهي عالية متسعة محكمة العمل رائقة المنظر ..."
- رحلة العبدري مصدر سابق...

عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه (79).

ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة، يقال إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما، وإلى جهة الشمال (80) منه بئر بضاعة وبإزائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أُحد وقال : قُتِل نبيكم، وعلى شفير الخندق الذي حفره النبي صلى الله عليه وسلم تسليما (81) عند تحزب الأحزاب حصنٌ خرب يعرف بحصن العُزَّاب 290/1 يقال إن عمر بناه لعُزَّاب المدينة، وأمامه إلى جهة الغرب بئر رُومَة التي اشترى أمير المومنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين ألفا (82).

ومن المشاهد الكريمة أُحُد (83) وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : إن أُحُدًا جبل يحبُّنا ونحبُّه، وهو بجوفي المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها، وبإزائه الشهداء المكرمون رضي الله عنهم، وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا ورضي الله عنه، وحوله الشهداء المستشهدون في أُحُد رضي الله عنهم، وقبورهم لقبليّ أُحُد، وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(79) هذا الخاتم هو الذي ورد عنه في كتب الشمائل أن النبي صلى الله عليه وسلم اتخذه من فضة ... ونقش فيه محمد رسول الله. وقد توارثه خلفاؤه ... وتقول هنا طرة بخط الأمير مولاي العباس إن التحقيق على أن الخاتم لم يسقط من عثمان في بئر أريس وإنما سقط من مُعيقب (تصغير معقاب كمفضال) ... راجع مختصر الشمائل المحمدية للإمام الترمذي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، 1405، ص 62 هذا ، وقد زرت هذا البئر عندَ حجتي الأولى 1378=1959.

(80) يلاحظ حذف عبارة : (ويقال إن الزيت...) من نص ابن جبير ... هذا ويقع المشهد في الطرف الغربي من المدينة حسب إفادة ابن جبير.

(81) كانت غزوة الخندق في شهر ذي القعدة السنة الخامسة = أبريل 627، حيث ساعد حفرُ خندق المدينة على وقْف تحركات أهل مكة.

هذا ويتسائل عن دور (حصن العزّاب) الذي خصصه الخليفة عمر لغير المتزوجين ... وهل له علاقة بالقولة السائرة : "العزاب إخوان الشياطين" !

(82) البئر كان ملكا لأحد اليهود يبيع الماء منه للمسلمين وبإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم قام عثمان بشراء البئر بهذا المبلغ الثقيل ...

(83) أُحُد هو المكان الذي جرت فيه المعركة الشهيرة (رمضان السنة الثالثة الهجرية = مارس 625م) عندما هاجم أهل مكة أصحاب المدينة انتقامًا لهزيمتهم في معركة بدر... وشاع لبعض الوقت أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي، وقد كشف الغيب أنه انما جرح وقد ظهر في المعركة مجاهدًا إلى أن تراجع أهل مكة.

ومسجد ينسب (84) إلى سلْمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة
291/1 الفتح على ‖ رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما.

وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام، وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم، والنّاس قد حلّقوا في صحنه حِلَقا وأوقدوا الشمع الكثير، وبينهم ربْعات القرآن الكريم يتلونه، وبعضهم يذكرون الله، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا، والحُداة بكل جانبٍ يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة، ويجُودون بالصَّدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين.

وكان في صحبتي في هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل (85)، وأضافني بها، واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخاري، وكان
292/1 في صحبتي أيضا قاضي الزيدية (86) شرف ‖ الدين قاسم بن سنان، وصحبني أيضا أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمى بعلي بن حُجرْ الأموي.

حكاية [الهاتف بالليل]

لما وصلنا إلى المدينة كرمها الله، وصلى الله على ساكنها أفضل الصلاة ذَكَر لي عليٌّ بن حُجر المذكور أنه رأى تلك الليلة في النوم قائلاً يقول له : إسمع مني واحفظ عني.

هنيئًا لكم يا زائرين ضريحَه — أمِنتُم به يوم المَعَاد من الرجس

وصلتُم إلى قبر الحبيب بطيبةٍ — فطوبى لمن يُضحي بطيبةَ أو يُمسي !

---

(84) كان سلْمان الفارسي مستشارًا لرسول الله (ص) في عدد من القضايا وهو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : سلمان منّا أهل البيت، وقد أخى بينه وبين أبي الدرداء، كما في البخاري جعل أميرًا على المدائن إلى أن أدركه أجله عام 36 = 656 ودفن في نفس (المدائن) التي توجد جنوب شرق بغداد غير بعيد عن الموقع الذي يسمى طاق كسري وقد كنا دائما نتردد على المشهد أيام سفارتنا لدى العراق...

(85) منصور بن شكل هذه الشخصية التي سكت عنها السير هاميلتون كيب والتي ظلت تشغله ووجدناه يستنجد بكل الذين يتوسّم فيهم النجدة حتى يعرفوه بما عندهم حول هذه الشخصية، وبدوري حاولت عبثا أثناء زيارتي لبلاد الشام، لسوريا ولحلب بالخصوص أن أجد شيئا عن منصور بن شكل الذي يبدو أنه ابن شكر بالراء... وربّما كانت له صلة بالسيدة زينب بنت شكر... الدرر 210,2

M.A.R. Gibb : Notes sur les voyages d'IBN Battuta en Asie Mineur et en Rusie P. 132 (Etudes d'anentalisme dédiées à ma memaire de Leve-Provençal. PARIS 1996).

(86) الزيدية نسبة إإلى زيد بن علي حفيد الحسين ابن علي الذي لقي مصرعه أثناء ثورة الكوفة عام 740 = 122، وقد نشأت هذه الفرقة في جبال اليمن، وانتسب اليها كثير من أمراء مكة والمدينة ...

وجاور هذا الرجلُ بعد حجّه بالمدينة، ثم رحل إلى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند في سنة ثلاث وأربعين (87) فنزل في جواري وذكرتُ حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند، فأمر 293/1 بإحضاره فحضر بين يديه، وحكى له ذلك فأعجبه واستحسنه وقال له كلامًا جميلاً بالفارسية، وأمر بإنزاله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب، ووزنُ التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار، وأعطاه فرسا محلًّى السرج واللّجام وخلعة، وعيَّن له مرتَّبًا في كل يوم.

وكان هناك فقيه طيِّب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربي فصحبه علي بن حُجر المذكور وواعده على أن يزوّجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جاريةً وغلامًا، وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد فاتفقا : 294/1 الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب وأخذاه وهربا، فلما أتى الدار لم يجد لهما أثراً ولا للذهب، فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفًا على ما جرى عليه، فعرضت قضيته بين يدي الملك فأمر أن يُخْلَف له ذلك فبَعث إليه من يعلمه بذلك فوجده قد مات رحمه الله تعالى.

وكان رحيلُنا من المدينة، نريد مكة شرفهما الله، فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذي أحرم (88) منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهي حَرَم المدينة، وبالقرب منه وادي العقيق، وهنالك تجردت من مخيط الثياب، واغتسلت ولبست ثوبَ إحرامي، وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مُفردًا (89) ولم أزل ملبيًا في كل سهلٍ 295/1 وجبل وصعود وحُدور إلى أن أتيت شِعْب عليّ عليه السلام (90)، وبه نزلت تلك الليلة، ثم

(87) يلاحظ على ابن بطوطة أنه يقحم هنا مذكرات لا حقة.

(88) أحرم : ارتدى لباس الإحرام : ثوبان يأتزر بأحدهما الرجل ويجعل الثاني على ظهره ... ونحن نعلم أن هذه العملية تتم عند نُقطٍ معينة خارج المنطقة المقدسة للحرم المكي تحمل إسم الميقات ... وهكذا فعلى الحُجاج الذين يردون من سوريا أن يكون الميقات هو الجُحْفة : بين مكة والمدينة، وقد هدمت وعوضت برابغ، والميقات اليوم في مهيعة : قرية صغيرة على بعد عشر كيلوميترات شرقي رابغ، وأهل المدينة - اقتداء بعمل النبي صلى الله عليه وسلم يُحرمون من ذي الحليفة ...

(89) مفردًا يعني ناويًا الإفراد أي القيام بمناسك الحج وحده، تمييزًا عن "القِرَان" الذي يعني قيام الحاج بأداء مناسك الحج ومناسك العمرة معًا، أما "التمتُّع" فهو القيام بالعمرة أولاً والتحلل منها للقيام بالحج على حدة ... ولقد بيَّنا هذا لأن بعض الذين اهتموا بالرحلة من زملائنا غير المسلمين لم يكونوا دقيقين في التفريق بين هذه المصطلحات.

(90) قد يسمي شِعْب الحاج.

رحلنا منه ونزلنا بالرَّوحاء (91) وبها بئر تعرف ببئر ذاتِ العَلَم، ويقال إن عليًا عليه السلام قاتل بها الجن (92)، ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء (93) وهو وادٍ معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشُرفاء الحَسَنيون وسواهم وفيها حصنٌ كبير، وتُواليه حصون كثيرة وقرى متصلة. ثم رحلنا منه ونزلنا ببَدْر (94) حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا وأنجز وعده الكريم واستأصل صناديد المشركين، وهي قرية فيها حدائق نخْل متصلة، وبها حصن منيع يُدخل اليه من بطن وادٍ بين جبال، وببدر عينٌ فوَّارة يجرى ماؤها، وموضعُ القليب الذي سُحب به أعداء الله المشركون هُو اليوم بستان ‖ وموضع الشهداء رضي الله عنهم خلفه، وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة (95) على يسار الداخل منه إلى الصفراء وبإزائه جبل الطبول، وهو شبه كثيب الرمل ممتد، ويزعم أهل تلك البلاد أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة، وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان به يوم بدر يناشد ربَّه جلَّ وتعالى متصل بسفح جبل الطبول، وموضع الوقيعة أمامه، وعند نخل القليب مسجد يقال له مبْرك ناقة النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وبين بدر والصَّفراء نحو بريدٍ (96) في وادٍ بين جبال تطرَّد فيه العيون وتتصل حدائق النخل.

296/1

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزْواء (97) وهي ‖ برية يضل بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل، مسيرة ثلاث، وفي منتهاها وادي رابغ يتكون فيه بالمطر غُدران يبقى

297/1

(91) اختفى هذا الإسم اليوم، وحسب رأي الجغرافي العربي الهمْداني ابن الحائك (تـ 334 = 945) فان الروحاء كانت توجد على بعد سبعة وأربعين ميلاً عربيا من المدينة. الميل العربي الواحد يساوي = 1941 ميتر في مقابلة 1.609 ميتر بالميل الإنجليزي / د. عبد الله يوسف الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك الكويت 1399-1977.

(92) هي التي تعرف اليوم ببئر على أو آبار علي، وفيها احرمنا ونحن قادمون من المدينة إلى مكة 1378=1959 - رحلة العبدري ص 167 / 201.

(93) محطة غنية بواحاتها يذكر ابن جبير أنه يوجد بالصفراء حصن مشيّد إلى جانب حصون كثيرة وخاصة الحصنين المعروفين بالتوأمين. وحصن الحسنية ... وفي رحلة العبدري : أن الصفراء واد معمور فيه عمارة جيدة ...

(94) هي "بدر حنين" الحالية، والمكان يذكَّر في غزوة بدر الكبرى التي جرت في رمضان السنة الثانية من الهجرة مارس 624 والتي تواجه فيها المكيون والمدنيون، وكانت أول إنتصار للإسلام ونذكر هنا أن المسلمين ألفوا الكثير عن شهداء بدر نثرا وشعرًا، وما تزال تقام إلى الآن احتفالات بالمناسبة يوم 17 رمضان عند المسلمين في (سراييفو) تسمى البدرية، وهي مناسبة للاشاءة بالاستشهاد في سبيل الحق!

(95) الإشارة إلى ما ورد في القرآن الكريم في السورة الثالثة، الآية 124.

(96) البريد أربعة فراسخ ...

(97) نفس التعبير الذي ورد في رحلة العبدري (ص 164) : بريّة فلاة ممتدة ملساء، مجهل من أعظم المجاهل، نكراء يضل بها لنكارتها الدليل ويذهل فيها الخليل عن الخليل. وتقع البزواء بين ساحل البحر الأحمر وبين تلال جبل صبح الموازية للساحل ... ويبلغ أعلى التلال 4500 قدم ...

بها الماء زمانًا طويلا، ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجُحْفة (98).

وسرنا من رابغ ثلاثا إلى خُلَيص (99)، ومررنا بعقبة السَّوِيق وهي على مسافة نصف يوم من خُليص كثيرةُ الرمل، والحجاج يقصدون شُرب السَّويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسقونه الناس مخلطًا بالسكر، والأمراء يملأون منه الأحواض ويسقونه الناس ويُذْكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بها ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاهم إياه ﷺ فشربوه سويقًا. 298/1

ثم نزلنا بركة خُليص (100) وهي في بسيط من الأرض كثيرة حدائق النخل لها حصْنٌ مشيد في قنّة جبل، وفي البسيط حصن خرب وبها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الأرض وسربت إلى الضياع، وصاحب خُليص شريف حسني النسب، وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقًا عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والإدام.

ثم رحلنا إلى عُسفان (101) وهي في بسيط من الارض بين جبال، وبها آبار ماء معين تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، والمُدَرَّج المنسوب إلى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خُليص، وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة دَرَج وأثر عمارة قديمة، وهنالك بئر تُنسب إلى علي عليه السلام ويقال إنه ﷺ أحدثها. 299/1

وبعُسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب وبه من شجر المُقْل (102) كثير.

(98) الجُحفة منزل عامر – كما يقول ابن حوقل – وبينه وبين البحر نحو ميلين ... وينعتها ياقوت بأنها "ذات منبر"، وسميت كذلك لأن السيْل اجتحفها في بعض السنين ... على ثلاث مراحل من مكة ... هذا ويلاحظ أنه في الوقت الحاضر نجد أن الميقات في موقع على بعد ستة أميال من رابغ ...

(99) إلى جانب ما قرأناه في رحلة ابن جبير (ص 145) نقرأ في رحلة العبدري : قلعة حصينة على شرف مرتفع ولها نخل كثير وماء جار طيب وصاحبها من الشرفاء مستبد بها ... والعربان تُقيم هناك سوقًا عظيمة ويجلبون اليها الغنم والتمر والادام فيكثر العيش بها ويرخص على ما سنقرأه بعد قليل عند ابن بطوطة وهي أي خليص على ساحل البحر الأحمر كما نرى في الخريطة.

(100) تحدث ابن جبير عن القنوات المحدثة في بركة خليص فقال : وبها عين فوارة قد احدثت لها اخاديد في الأرض مسرّبة يستقي منها على أفواه كالآبار يجدد الناس بها الماء لقلته في الطريق.

(101) تحدث ابن جبير قبل ابن بطوطة عن عُسفان هذه وقدم هذه المعلومات عنها، وهي تقع على 36 ميلا من مكة.

(102) شجر المُقْل هو بالذات الدوم : النَّخل الماسخ أو القزم كما يسميه الفرنسيون، وثمرُه هو المقل الذي يعرف عند المغاربة باسم الجُمَّاخ، مذاقه يشبه مذاق البلوط ...

ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مَرَّ ويسمى أيضا مرَّ الظهران (103)، وهو وادٍ مُخْصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك النَّاحية، ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة شرفها الله تعالى.

ثم أدلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها، مسرورة بحالها ومآلها، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حَرَم الله تعالى ومبُوّأ خليله ابراهيم، ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم، ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي مَن دخله كان آمنا. من ‖ باب بني شيْبة (104)، وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيمًا وهي كالعروس تُجلى على مِنَصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصلة إلى جنَّةِ الرِّضوان، وطفنا بها طواف (105) القدوم واستلمنا الحَجَر الكريم، وصلَّينا ركعتين بمقام ابراهيم، وتعلَّقنا بأستار الكعبة عند المُلتزم، بين الباب والحَجَر الأسود حيث يستجاب الدعاء، وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له، حسبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا، ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدارٍ بمقربة من باب إبراهيم، والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم ‖ وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتَّع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحِجْر (106) والحَجَر الكريم، وزمزم والحَطيم.

300/1

301/1

ومن عجائب صنع الله تعالى أنَّه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبَّها متمكنًا في القلوب فلا يحلُّها أحدٌ إلا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلا آسفًا لفراقها، متولّها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناويًا لتكرار الوفادة عليها، فأرضُها المباركة نصب الأعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من

(103) مرَّ يقول العبدري : وادٍ به نخل كثير وماء جار وعمارة، وإنه من عمل مكة، وهو مرَّ الظُّهران المذكور في الحديث ... وقبل هذا تحدث عنه ابن جبير في رحلته وهو يقع على بعد 30 ميلا من مكة ... الوادي اليوم يدعى وادي فاطمة ...

(104) المدخل المتعارف عليه للحجاج هو هذا الباب الذي يحمل اليوم باب السلام، واسم باب بني شيبة أعطي لرواق قريب من بئر زمزم مكان السور القديم للكعبة، هذا ويقدّر المستشرق التشيكي هربيك أن ابن بطوطة وصل إلى مكة حوالي 20 ذي القعدة 726 = 18 أكتوبر 1326.

(105) ابن بطوطة يختصر هنا ما سيقدمه بتفصيل أكثر ...

(106) الحِجْر بكسر الحاء وتسكين الجيم سقطت عند الناشرَيْن الفرنسين لأنهما اعتمدا كما هي العادة على المخطوطة الباريزية رقم 2289 بينما هي موجودة في معظم المخطوطات الأخرى. والحِجْر و الحطيم هو الفضاء من البيت الحرام الذي يقع شمال الكعبة، وهو مسوّر بسور منحدر نصف دائري يتفق مع حدود الكعبة قبل الإسلام، وكانت الجاهلية تتحالف هناك ... وهكذا يذكر ابن بطوطة ستة أشياء : الكعبة والمسجد والحِجر، والحَجَر الأسود وزمزم والحَطيم.

الله بالغة، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام، والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي
302/1 غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاقّ ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى
الموت عيَّانًا دونها، ويشاهد التَّلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورًا
مستبشرًا كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصبًا، إنه لأمر إلاهي، وصنع ربّاني،
ودلالة لا يشوبها لبْس ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمْويه، تُقوي بصيرة المستبصر وتسدد
فكرة المتفكر (107). ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء والمثول بذلك الفناء، فقد أنعم
الله عليه النعمة الكبرى، وخوَّله خير الدارين : الدنيا والأخرى، فحق عليه أن يكثر الشكر على
303/1 ما خوله ويديم الحمد على ما أولاه، جعلنا الله تعالى مِمَّن قبلت زيارته وربِحت في قصدها
تجارتُه، وكتبت في سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره بمنّه وكرمه.

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهي (108) مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن وادٍ تحُف به الجبال فلا
يراها قاصدها حتى يصل إليها وتلك الجبال المطلة عليه ليست بمفرطة الشموخ، والأخشبان
(109) من جبالها : هما جبل أبي قُبيس وهو في جهة الجنوب منها، وجبل قُعَيْقِعان وهو في
جهة الغرب (110). منها وفي الشمال منها الجبلُ الأحمر، ومن جهة أبي قُبيس أجياد الأكبر،
304/1 وأجياد الأصغر وهما شِعبان (111) والخنْدمة وهي جبل وستذكر، والمناسك كلُّها منى

(107) لقد وقع اضطراب هنا عند بعض النساخ والصواب ما أثبتناه نقلاً عن سائر المخطوطات الموثقة (تقوي بصيرة المستبصر وتسدّد فكرة المتفكر) ، لقد أحسن ابن بطوطة صنعًا وهو يعبر عما يكنه لتلك الديار من عواطف ومشاعر تتملك المغاربة الذين عرفوا بتعلقهم الزائد بهاتيك البقاع، وقد أثارت عبارة ابن بطوطة هذه انتباه السيد هاميلتون گيب الذي انتقد الترجمة الفرنسية واقترح هو ترجمتها على هذا النحو : العبارة "Which is of compelling cogency in the perception of men of understanding, and shatters the rationalism of The intellectuals" Gibb T.I. P. 189 Note 7.

(108) يلاحظ أن الوصف الذي قدمه ابن بطوطة ابتداءً من هذه الصفحة مقتبس معظمه من رحلة ابن جبير مع بعض التغييرات فقط . .

(109) الواقع أن الجبلين أو الأكمتين تقعان في الشرق والغرب من مكة. ويذكر العبدري أن الأخشبين هما أبو قبيس والأحمر، وهو رأي آخر حول الأخشبين – راجع تحقيق د. الغُنَيم حول جزيرة العرب من كتاب الممالك للبكري.

(110) هنا بياض في سائر المخطوطات التي بين أيدينا، وقد اراحنا ابن جبير عندما ذكر أن قعيقعان في الجهة الغربية.
ويلاحظ على الناشرَيْن تصرّفهما وملْئهما للفراغ بقولهما جهة الغرب منها، كما يلاحظ عليهما ذكران قبيس يقع في الجنوب ... جزء أول صفحة 303 طبعة باريز... تعليق ص 434.

(111) شِعْبا جياد أو أجياد يقعان بين أبي قبيس وبين الأكمة المجاورة نحو الجنوب المسمى جبل كُدَى.

منظر عام للحرم الشريف ومكة المكرمة (1787)م

وعَرَفة. والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاث باب المعلى بأعلاها، وباب الشُّبَيْكة من أسفلها ويعرف أيضا بباب الزاهر وبباب العمرة وهو إلى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجُدة، ومنه يتوجه إلى التنعيم، وسيذكر ذلك، وباب المَسْفل وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح.

ومكة شرفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل، بوادٍ غير ذي زرع، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تُجلب إليها، وثمرات كل شيء تُجبى لها (112).

ولقد أكلتُ بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرُّطَب مالا نظير له في الدنيا، وكذلك 305/1 البطِّيخ المجلوب اليها لا يماثله سواه طيبًا وحلاوة واللحوم بها سِمان لذيذات الطعوم، وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها إجتماعه، وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف (113) ووادي نخلة وبطن مرّ، لطفًا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق.

ذكر مسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع، حكى ذلك الأزْرَقي (114)، وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمى في وسطه، 307/1 ومنظره بديع، ومرآه جميل، لا يتعاطى اللِّسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله ، وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعًا وسقفه على أعمدةٍ طوال مصطفة ثلاثة صفوف بأتقن صناعة وأجملها، وقد إنتظمت بلاطاته الثلاثة إنتظامًا عَجيباً كأنها بلاد واحد، وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدى وتسعون سارية (115) ما عدا الجصيّة التي في دار النَّدوة

---

(112) القرآن الكريم : السورة 14، الآية 37. هذا وانظر بحثا بقلم : كاسطون ويت Gaston Wiet حول مرسوم للسلطان شعبان عن مكة Extrait des mélanges Louis massignon, Institus Damas 1957 p. 409.

(113) تقع الطائف في النجود العليا جنوب شرقي مكة وهي شهيرة بخضرها وفواكهها، ومناخها الجميل... أما عن وادي نخلة وبطن مرّ فهما واديان شمال شرقي مكة يؤديان إلى وادي فاطمة. ممالك ومسالك البكري بتحقيق د. الغنيم، الكويت.

(114) محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الوليد بن عقبة بن الأزرق أبو الوليد الأزرقي، يماني الأصل من أهل مكة، له "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار" وقد أدركه أجله على حسب بعض المؤرخين عام 865 = 250. هذا ويلاحظ أن هذه المقاييس كانت بعد التوسعة التي قام بها الخليفة العباسي المهدي ...

(115) يعدُّ ابن جبير 470 سارية يلاحظ أن رسم 90 يقارب رسم 70 هذا وحسب الرواية فإن بعض هذه السواري نقلت من إخميم صعيد مصر.

(116) المزيدة في الحرم، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال (117) ويقابلها المقام مع الركن العراقي، وفضاؤها متصل يُدخل من هذا البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قِسيّ حنايا يجلس بها المقرؤون والنساخون والخياطون، وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها، وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب دون حنايا، وعند باب إبراهيم (118) مدخل من البلاط الغربي فيه سواري ‖ جصّية وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب : أمر عبد الله محمد المهدي أمير المومنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعُمَّاره في سنة سبع وستين ومابة (119).

307/1

ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنْية مربعة إرتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون ‖ شبرًا، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الرُكن اليماني إلى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي، من داخل الحِجر ثمانية وأربعون شبرًا، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحِجر فإنهماية وعشرون شبرًا. والطواف إنما هو خارج الحِجر، وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بأبدع الإلصاق واحكمِه واشدِه فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان، وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحَجَر الاسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار، وذلك الموضع هو المسمى بالمُلتزم حيث يستجاب الدعاء، وإرتفاع الباب ‖ عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا، وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضّة، بديع الصنعة وعضادتاه

308/1

309/1

(116) دار الندوة القديمة تعرضت للخراب، وأعيد بناؤها في سنة 281 = 894 من لدن الخلفية العباسي المعتضد كملحقة للرواق الشمالي الغربي ... Gaudefray - Demombye :

Le Pèlerinage à la mekke, PARIS, 1923, P. 151-52.

(117) ورد في رحلة العبدري : "ودار الندوة قد جعلت مسجدًا شارعًا في الحرام مضافًا إليه، وهي مقابلةُ حِجْر والميزاب."

(118) تقع باب إبراهيم وسط الواجهة الجنوبية الغربية.

(119) نرى من واجبنا هنا أن ننوّه بالمجهودات العظيمة التي تقوم بها المملكة العربية السّعودية من أجل وتوفير أسباب الراحة للحجاج الذين يتزايد عددهم ويشعرون بالتحسّن مع مرور الزّمن.

وعتبته العليا مصفَّحات بالفضة وله نقَّارتان كبيرتان من فضة عليهما قُفل، ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما (120) ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسيا شبه المنبر، له درج وقوايم خشب لها أربع بكرات، يجرى الكرسي عليها ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الأعلى متصلا بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشّيبيين (121) وبيده المفتاح الكريم ومعه السَّدنة فيمسكون الستر المُسبل على باب الكعبة المسمّى بالبُرقع بخلال ما يفتح 310/1 رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبَّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسدّ الباب، وأقام قدر ما يركع ركعتين، ثم يدخل سائر الشيبيين ويسدون الباب أيضا ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصارٍ خاشعة، وقلوبٍ ضارعة، وأيدي مبسوطة إلى الله تعالى فإذا فتح كبَّروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين. وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزَّع، وحيطانه كذلك، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كلّ عمود منها وبين الآخر أربع خطيً وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة 311/1 يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين اليمني (122) والشامي.

وستُور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض (123) وهي تتلألأ، عليها نورًا وإشراقًا وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض، ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاصٌّ بأمم لا يحصيها الا الله الذي خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعون ولا تضيق عنهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائفٍ أبدا ليلاً ولا نهارًا، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف، ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطَّيران، وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كلّه فإذا حاذي الكعبة الشريفة 312/1 عرّج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعْلُها، ويقال إنه لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض، فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه، فسبحان الذي خصّها بالتشريف والتكريم، وجعل لها المهابة والتعظيم.

(120) في عصر ابن جبير كان الباب يفتح أيام الثلاثاء والجمعة، وكذا أيام رجب ابتداء من شروق الشمس...

(121) بنو شَيْبة هم حراس الكعبة وإليهم أسندت المهمة من لدن الرسول عليه الصلوات.

(122) النص يوجد فيه (العراقي) والصواب هو (اليماني).

(123) على عهد ابن جبير كانت أستار الكعبة : خضراء نقش عليها بالأحمر أو بألوانٍ أخرى صارخة.

ذكر الميزاب المبارك

والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحِجْر وهو من الذَّهب، وسعته شبرٌ واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين (124) والموضع الذي تحت الميزاب مظنة إستجابة الدعاء، وتحت الميزاب في الحِجْر هو قبر إسماعيل عليه السلام، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامةٍ خضراء مستديرة، وكلتاهما سعتُها مقدارُ شبر ونصف شبر، وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام، 313/1 وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار.

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطأ من لتقْبيله، والصغير يتطاول إليه ، وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن، وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال : إن القرمطي لعنه الله، كسره (125) وقيل : إن الذي كسره سِواه ضربه بدبّوس فكسره (126)، وتبادر الناس إلى قتله، وقتل بسببه جماعة من المغاربة (127). وجوانب الحجر مشدودة 314/1 بصفيحة فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلي منه العيون حسنًا باهرًا، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصيّةٌ مودعةٌ فيه وعنايةٌ ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصافحته وأوفد عليه كلَّ شيق اليه.

---

(124) أصبح الميزاب في فترةٍ من الفترات من خشب مغشًى بمعدنٍ مموه بالذهب
M. Gaudefroy-Demombynes. Les institutions musulmanes, P. 87, Paris 1946.

(125) حدث عام 317 = 929 أن ثارث جماعة من القرامطة وهاجموا الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود ... وذهبوا به إلى الحسا ايمانا منهم بأن فيه مغناطيساً يجذب الناس إليه ...!! أنظر التعليق الآتي ج 247،2 تعليق 146.

(126) حدث أن تعرض الحجر الأسود أيضا عام 413 = 1022 لهجوم طائفة شيعية تنتمي للفاطميين وسياتي الحديث عن نقل الحجر ...

(127) فعلاً شارك المغاربة في صد الغارة على الكعبة الأمر الذي يفسره الخطاب الذي تلقاه الأمير المغربي محمد بن خَزَر الزناتي من الخليفة الأموي بالأندلس في شأن حماية بيت الله الحرام ...

– د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 4، ص 145/144 رقم الإيداع القانوني 1986/25 مطابع فضالة – المحمدية ... مصدر سلف ذكره.

وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه المُوالي ليمين مُستلمة نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصفحة البهية، وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض إزدحامًا على تقبيله، فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة(128)، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم، ومن عند الحجر الأسود مبتدأ الطواف، وهو أول الاركان التي يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو إلى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو إلى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق.

315/1

ذكر المقام الكريم

إعلم أن بين باب الكعبة شرَّفها الله وبين الركن العراقي موضعاً (129) طوله إثنا عشر شبرًا وعَرضه نحو النصف من ذلك وإرتفاعه نحو شبرين، وهو موضع المقام في مُدَّة إبراهيم عليه السلام، ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذي هو الآن مصلّى، وبقى ذلك الموضع شبْه الحوض، وإليه ينصبّ ماء البيت الكريم إذا غُسِل (130) وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه.

316/1

وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم، وهو إلى الباب أميل وعليه قبَّة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشباك إلى الصندوق، والشباك مقفل، ومن ورائه موضع مَحُوز قد جُعل مصلًى لركعتي الطواف، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً لمَّا دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعًا ثم أَتى المقام، فقرأ : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى (131)، وركع خلْفه ركعتين، وخلفَ المقام مُصلًى إمام الشافعية في الحَطيم الذي هنالك .

317/1

(125) تحامل العبدري بشدة على من يتقاتلون على الركن الأسود : ترى الرجال يتساقطون على النساء والنساء يتساقطن على الرجال ويلتفُّ البعض بالبعض ... وقلَّ ما يتمكن أحدهم من الركن ...!

(129) تحدث ابن جبير هنا عن "حوض كبير" حيث كان إبراهيم يخلط فيه الرمل والجير لبناء جدران الكعبة...

(130) يغسل البيت الكريم بماء زمزم في العادة، وتجرى العملية ثلاث مرات في السنة.

(131) السورة رقم 2، الآية 125.

ذكر الحِجْر والمطَاف.

ودَوْرُ جدار الحِجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبرًا من داخل الدائرة، وهو بالرخام البديع المجزَّع المحكم الإلصاق، وإرتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر، وداخل الحِجْر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزَّع المنظم المعجز الصنعة، البديع الإتقان، وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط إستواء أربعون شبرًا. وللحِجر مدخلان : أحدهما : بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذي تركتْه قريش من البيت حين بنته، كما جاءت الآثار الصّحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته أيضا ستة أذرع، وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا ‖ . 318/1

وموضع الطواف مفروشٌ بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطًا إلا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فإنها إمتدت إليه حتى أحاطت به، وسائرُ الحرم مع البلاطات مفروشٌ برمل أبيض، وطواف النساء، في آخر الحجارة المفروشة.

ذكر زَمزم المباركة

وقبّة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود، وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خُطًا، وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتَنُّور البئر المباركة في وسط القبة مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة، وهو من الرُّخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص، ودوره أربعون ‖ شبرًا وإرتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، 319/1 وعمق البئر إحدى عشرة قامة. وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة (132)، وباب القبة إلى جهة الشرق، وقد إستدارت بداخل القبة سِقاية سعتُها شبر وعمقها مثل ذلك، وإرتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار تملأ ماءُ الوضوء وحولها مسطبة دائرة يقعد الناس عليها للوضوء.

ويلي قبة زمزم، قبّة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه (133)، وبابها إلى

---

(132) يقول العبدري في رحلته : "إنه قاسه في ليلة الجمعة وهم يتقاتلون عليه، وقت زيادته بزعمهم، فوجده على حاله." !!

(133) يذكر بعض المعلقين هنا أنه في بداية عهد الرسول كانت هنا قبة للشراب يتناول فيها النبيذ وان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم كان مكلفا بتوزيع هذا النبيذ، وقد دأب الناس على هذه العادة إلى عام 375 = 985 حيث منع تناول النبيذ ...

جـهة الشـمال، وهـي الآن يُجعل بها ماء زمزم في قلالٍ يسـمونـها الدَّوارق (134)، وكلّ دوْرق له مقبض واحد، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس.

320/1 وبها إختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف، وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوطةٍ متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت (135) رضي الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما، (136) وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوا في مقام إبراهيم عليه السلام، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه.

ويلي قبة العباس رضي الله عنه على إنحراف منها القبَّة المعروفة بقبة اليهودية (137)

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة.

وأبواب المسجد الحرام شرَّفه الله تعالى تسعة عشر بابًا، وأكثرها مفتحة على أبوابٍ كثيرة، فمنها باب الصَّفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديمًا يعرف بباب بني مخزوم (138)، وهو أكبر أبواب المسجد، ومنه يخرج إلى المسعى، ويستحب للوافد على مكة أن يدخل للمسجد الحرام شرَّفه الله من باب بني شيبة ويخرج بعد طوافه من باب الصَّفا جاعلاً طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المومنين المهدي رحمه الله عَلمًا على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً إلى الصفا.

(134) الدوارق ج دورق : الجرَّة ..

(135) زَيْد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الكاتب الأول لنبي الاسلام عليه الصلوات ورئيس الهيئة التي عهد اليها الخليفة عثمان بكتابة المصاحف التي جهَّزها إلى الأمصار. أدركه أجله سنة 45 = 665.

(136) يتضمن ابن جبير (ص 72) إلى جانب هذا أن المصحف "تنقصه ورقات كثيرة" وأنه يوجد بين دفتي عود مجلد بمغاليق صفر، كبير الورقات واسِعُها، عايناه و تبركنا بتقبيله يقول ابن جبير.

(137) حسب ابن جبير فإن بداخل هذه القبة صنعةً من القرنصة الجصّية الرائقة الحسن. ولم أقف على أصل لهذا النعت للقُبة باليهودية ؟

(138) يقع باب بني مخزوم في الجانب الشرقي من صف الأعمدة الشرقية، ويذكّر هذا الإسم القديم في الفترة التي كان فيها لكل قبيلة بابها الخاص الذي تدخل منه للبيت، وهذا الباب هو المخرج العادي للحجاج بعد تمام طوافهم وهو في الطريق إلى المسعي ...

322/I ومنها باب أجياد الأصغر (139) مفتح على بابين، ومنها باب الخياطين مفتح على بابين، ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب (140)، ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسليما (141) مفتح على بابين، ومنها باب بني شيبة (142)، وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرًا وهو مفتح على ثلاثة أبواب، وهو باب بني عبد شمس، ومنه كان دخول الخلفاء، ومنها باب صغير إزاء باب بني شيبة لا إسم له، وقيل يسمى باب الرّباط (143) لأنه يدخل منه لرباط السّدرة، ومنها باب الندوة، ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : إثنان منتظمان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة، ودار الندوة قد جعلت مسجدًا شارعا في الحرم مضافًا إليه وهي تقابل الميزاب، ومنها باب صغير لدار العجَلة (144)، مُحدث، ومنها باب السّدة (145) واحدٌ، ومنها باب العمرة (146) 323/I واحد، وهو من أجمل أبواب الحرم، ومنها باب إبراهيم (147) واحد، والناس مختلفون في تسميته : فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخُوزي من الأعاجم (148)، ومنها باب الحَزْورة (149) مفتح على بابين، ومنها باب أجياد الأكبر (150) مفتَّح على بابين، ومنها باب ينسب إلى أجياد أيضا مفتح على بابين

(139) أجياد علم جغرافي لشعب جهة أبي قبيس، ومنه أخذ الباب اسمه باب أجياد.

(140) باب العباس بناه الخليفة المهدي، سمي بذلك لأن الباب يقع على مقربة من دار العباس عم رسول الله عليه الصلوات.

(141) يسمى هذا الباب أيضا باب الحريرية (المتّجرين في الحرير) : الباب المعتاد لخروج النبي عليه الصلوات من بيت خديجة.

(142) يسمى هذا الباب عادةً باب السلام، وقد أُعطى اسم باب بني شيبة لرواق مجاور لزمْزَم، وعبد شمس أتي الذّكر : هو اسم العشيرة التي ينتمي اليها خلفاء بني أمية ... – المقريزي : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم – دار المعارف، تحقيق : د. حسين مؤنس القاهرة، ص 62، القاهرة 1984.

(143) ابن جبير يذكر أن الباب يدخل منه لرباط الصوفية ... وربما كان هو "باب المدرسة".

(144) لا نعرف أصل هذه التسمية، وقد بنيت هذه الدار في القرن الأول للهجرة شمال البيت.

(145 باب السدَّة هكذا توجد في المخطوطات المعتمدة (الخزانة الحسنية) أي الغلقة، وتوجد في بعض النسخ باب السدرة وقد يسمى كذلك باب العتيق ... رحلة ابن جبير ص 74.

(146) يقع باب العمرة في الركن الغربي، وهو المكان الذي يمر منه الحجاج الذين يقصدون أداء مناسك العمرة.

(147) يقع باب ابراهيم وسط الأعمدة الجنوبية الغربية.

(148) ينتسب الخوزي إلى خوزستان غربي بلاد فارس.

(149) الحَزورة، هو كذلك يقع وسط الأعمدة الجنوبية الغربية نحو شمال باب ابراهيم.

(150) هو الباب الذي يقع في الركن الجنوبي. حالياً باب العجلة أو باب عجلان الذي يفتح امام مدرسة الشريف عجلان ويسمى عادة باب الوداع

(151)، وباب ثالث ينسب إليه مفتَّح على بابين، ويتصل لباب الصفا، ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة للأجياد إلى الدقّاقين (152).

324/1 وصوامع المسجد الحرام خمس (153) إحداهنَّ على ركن أبي قُبيس عند باب الصفا، والأخرى على ركن باب بني شيْبة، والثالثة على باب دار الندوة، والرابعة على ركن باب السُدّة، والخامسة على ركن أجياد.

وبمقربةٍ من باب العمرة مدرسة عمَّرها السلطان المعظم يوسف ابن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن، وهو كان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور (154) قلاوون.

وبخارج باب إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل (155)، وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في

---

(151) يسمى هذا الباب أيضا باب المجاهدية.

(152) يجب التنبيه إلى أنَّ الرحالة المغربي نسى ذكر الباب التاسع عشر، ويتعلق الأمر بباب عليّ المفتح على ثلاثة أبواب، رحلة ابن جبير صفحة 73.

(153) هنا نجد أن ابن بطوطة يتحول عن النقل الحرفي تقريبًا فيذكر أن عدد الصوامع خمس بدل سبعة عند ابن جبير ... ص 61.

(154) الفقرات التي تتعلق بالمدرسة المظفرية التي شيدها السلطان يوسف بن رسول بمكة بمناسبة حجه عام 659 = 1261 تعتبر من الأهمية بمكان نظرا لكون المصادر اليمنية أولاً أغفلت هذه اللقطة التي تتحدث عن الحضور السياسي لليمن في مكة، أثناء القرن السابع في شخص الملك المظفر ! ثم إنّها ثانيا تحملنا على البحث عن نماذج المدارس التي كانت سائدة على ذلك العهد حيث نجد مثلا أن المدرسة المظفرية في تعز كانت تتوفر على مدرس ومعيد وعدد من الطلبة... - نذكر أن لقب رسول، أتى من أن جد الأسرة ومؤسس الدولة الرسولية كان سفيرًا للخليفة العباسي في المنطقة.
الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية / تصحيح محمد بن علي الاكوع الحوالي، الجزء الأول 124 - مركز الدراسات والبحوث اليمني - صنعاء، وأشكر بهذه المناسبة الزميلين السفير مولاي احمد الادريسي سفير المغرب لدى الجمهورية اليمنية والسيد أحمد حسن المروني .. سفير اليمن في بغداد...

(155) محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المالقي ثم المكّي المشهور بخليل قال الشيخ خالد البلوي في رحلته : من اعظم من لقيته بمكة قدرًا وأرفعهم خَطرًا واشرفهم مكانة ... قال الشيخ أبو محمد عبد الله بن فرحون في تاريخ المدينة : كان من أيمة الدِّين والمتسمين باليقين اتخذ مكةَ دار إقامته وقلَّ ما تَردُ على المدينة قافلة الا وهو معهم، كان يواسي الفقراء ويتداين لاجلهم، ادركه أجله في 20 شوال 760 شتنبر 1359 - كان ابن بطوطة وقد تحدث عن المدرسة المظفرية وهي شافعية رأى وهو مالكّي المذهب أن يردد صدى مدرسة الإمام مالك !! ... - أحمد بن أحمد أقيت عرف بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج الطبعة الحجرية المطبعة الجديدة بفاس ص 94-95 عام 1317=1900. النفح ج II ص 534 الأزهار ج V - ص 74. ابن الخطيب : نفاضة الجراب ص. 65 - ترقب التعليق رقم 189.

325/1 داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف، وبإزاء هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأقْشَهري (156)، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبته، وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت

326/1 صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد (157) تأتي على يديه، وبمقربة منه رباط الموفّق، وهو من أحسن الرِّباطات، وسكنته أيام مجاورتي بمكة العظيمة، وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي (158) المغربي، وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجوَّاني، ودخل يوما إلى بيته بعد صلاة العصر فوُجد ساجدًا مستقبل الكعبة الشريفة ميتًا من غير مرض كان به، رضي الله عنه، وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوًا من أربعين سنة، وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي (159) من كبار الصالحين، دخلت عليه يوماً فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك، فقال لي : أستر عليَّ ما رأيت.

وحول الحَرَم الشريف دورٌ كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم، وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام، ودورٌ لها أبواب تفضي إلى الحرم، منها دار زُبيدة زوج الرشيد أمير المومنين (160)، ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها.

ومن المشاهد الكريمة بمقربةٍ من المسجد الحرام قبة الوحي ودار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربةٍ من باب النبي صلى الله عليه وسلم، وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت

---

(156) الأقشهري محمد بن أحمد بن أمين بن معاذ، مؤرخ رحالة، ولد في أقْشَهر بقُونية ورحل إلى مصر ثم إلى المغرب فسمع عن أبي جعفر ابن الزبير بالأندلس، ومحمد بن عيسى بن منتصر بفاس وغيرهما. وجمع رحلته إلى المشرق والمغرب في عدة مجلدات وجاور بالمدينة، أدركه أجله بها عام 731 = 1731. – الدرر الكامنة لابن حجر ج 3، ص 389.

(157) القصد إلى السلطان بهادُور خان آخر ملك إيلْخاني مغولي لفارس والعراق تولى الحكم من 716 - 736 = 1316 - 1335 وسيحدث عنه ابن بطوطة عند زيارته للعراق.

(158) هو عبد الله بن موسى بن عمر بن يونس الزواوي الفقيه، حج وأقام بمكة والمدينة، وأخذ عن ابن دقيق العيد، وسمع من مؤنسة خاتون بنت الملك العادل وحدث عنها بالسُباعيات بمكة وكان يحفظ الموطا ومات بالمدينة الشريفة في شهر ربيع الأول سنة 734 = نونبر 1333. الدرر 2، 413.

(159) شعيب بن موسى بن عبد الرحمن بن سليمان بن عزيز المُحمدي الجنياوي ثم الصفراوي ثم الفاسي، أبو مدين، أخذ عن أبيه وعن أبي زكرياء السبتي وعز الدين بن عبد السلام وغيرهم ذكره الأقشهري في فوائد رحلته، وقد التبس على بيرَازيمُوص شعيب بن موسى بشعيب بن الحُسين دفين تلمسان. ـ 1، ص 302) تعليق 179 – الدرر 2، 291.

(160) دار زبيدة زوجة هارون الرشيد التي كانت على مقربة من باب الخياطين تهدمت عام 271 = 884، وعوضت فيما بعد برباط ... هذا ولم نتمكن من تعريف الشرَّابي. أما دار العَجَلة فلأنها تقع على مقربة من باب العجلة.

327/1 فاطمة عليها السلام (161)، وبمقربة منها دار أبي بكر ‖ الصديق رضي الله عنه، ويقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال له، إنه كان يُسلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم، ويذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما جاء يوما إلى دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضراً فنادى به النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله : إنه ليس بحاضر.

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبعة عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة، عُلْيا هنَّ كأنها مسطبة، وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن ‖ الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين 328/1 الأخضرين إلى المرْوة ثلاث ماية وخمس وعشرون خطوة، وللمروة خمسُ درجات، وهي ذات قوسٍ واحدٍ كبير، وسعة المروة سبع عشرة خطوة، والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي علي الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة، والميلان الأخضران هما ساريتان خَضروان إزاء باب عليّ، من أبواب الحرم، إحداهما في جدار الحَرَم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمَل ذاهبًا وعائدًا، وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه، والسَّاعون بين الصفا ‖ والمروة لا يكادون 329/1 يخلصون لإزدحام الناس على حوانيت الباعة، وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه إلا البزَّازون والعطارون عند باب بني شيبة.

وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون، عمَّره الملك الناصر رحمه الله، وبَنى أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين. وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكورة والأخر في سوق العطارين، وعليها

(161) يلاحظ هنا أن ابن بطوطة صلَّح بكل هدوء خطأ وقع فيه ابن جبير الذي ذكر أن الحسن والحسين ولدا بمكة ص 82، ابن بطوطة اقتصر على ذكر فاطمة الزهراء ...

ربع يسكنه خدامها، وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال (162)، وعن يمين المروة دارُ أمير مكة سيف الدين عُطيفة بن أبي نُمَي وسنذكره. 330/1

ذكر الجبَّانة المباركة

وجبَّانة مكة خارج باب المعْلى، ويعرف ذلك الموضع أيضا بالحَجُون وإياه عنى الحارث بن مضاض الجُرهمي (163) بقوله :

كأن لم يَكُن بين الحَجُون (164) إلى الصَّفَا
أنِيس ولم يســمُــر بمكة ســامــر

بلى ! نحن كنا أهلها فــأبادَنا
صُــروفُ اللَّيــالي والجُــدُود العــواثر !!

وبهذه الجبَّانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين، والعلماء والصالحين، والأولياء إلا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة عِلمها فلا يعرف منها إلا القليل، فمن المعروف منها قبر أم المومنين، ووزيرة سيد المرسلين، خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلِّهم ما عدا إبراهيم، وجدّة السّبطين الكريمين، صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وعليهم أجمعين، وبمقربة منه قبْر الخليفة أمير المومنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين، وفيها الموضع الذي صلّب فيه عبد الله بن الزُّبير (166) رضي الله عنهما، وكان به 331/1

---

(162) علي بن هلال الدولة الشيزري، ولد بشيزر (قرب حماة سوريا) ثم قدم مصر ... ثم ندَبه السلطان الناصر لعمارة المسجد الحرام سنة 727 = 1327 فأصلح ما وهن من سقوفه وجدرانه وساق عينا إلى مكة وأنشأ الميضــاة الناصرية بالمسعى، أدركه أجله بشيزر عام 739 = 1338 - الدرر الكامنة ج 3، ص 211.

(163) الحارث بن مضاض من ملوك الجاهلية، وفي أيامه نشطت حركة بني إسرائيل وزحفوا يريدون مكة من الشمال فقاتلهم الحارث فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب كانوا يحملونه وفيه ما انتحلوه على الزبور، ويقول المسعودي : إنه أول من تولى أمر البيت بمكة من بني جُرهُم، وقد نسب إليه ابن جبير والمسعودي والبكري وابن بطوطة البيتين المذكورين ...

(164) الحَجُون اسم لِشعب صغير شمال مكة.

(165) الخليفة العباسي الثاني وكان توفى أثناء أدائه مناسك الحج.

(166) كان عبد الله ابن الزبير أنشأ في مكة حركة ضد خلافة بني أمية بدمشق، فهُزم من قبل الحجاج الثقفي ممثل الأمويين عام 73 = 692.

بنيّة هدمها أهلُ الطائف غيرةً منهم لما كان يلحق حجَّاجهم البنيس (167) من اللَّعن، وعن يمين مستقبل الجبَّانة مسجد خرب يقال : إنه المسجد الذي بايعت الجنُّ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا (168) وعلى هذه الجبَّانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق .

332/1

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحَجُون وقد ذكرناه، ويقال أيضا : إن الحجون هو الجبل المطل على الجبَّانة، ومنها المحصَّب (169) وهو أيضا الأبطح وهو يلي الجبَّانة المذكورة، وفيه خَيْف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا (170)، ومنها ذو طُوًى (171) وهو وادي يهبط على قبور المهاجرين التي بالحَصْحَاص دون ثنيّة كَدَاء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزًا بين الحلّ والحرم (172)، وكان عبد الله ابن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرَّفها الله تعالى يبيت بذي طُوى ثم يغتسل منه ويغدو إلى مكة، ويُذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً فعل ذلك، ومنها ثنية كُدى بضم الكاف (173)، وهي بأعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوداع، إلى مكة، ومنها ثنية كَدَاء، بفتح الكاف، ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا عام الوداع وهي بين جبلين، وفي مَضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكلُّ من يمر به يرجمه بحجر، ويقال إنه قبر أبي لهب، وزوجه حمالة الحطب (174). وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن منى، وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بإزائه حجرٌ موضوعٌ على الطريق كأنه مسطبة، يعلوه حجرٌ آخر كان فيه نقش فدثر رسمُه يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك

333/1

(167) القصد إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، من قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف وقد كان من أشهر القواد ... وكان نائبا للملك في العراق، توفى عام 95 = 714.

(168) القرآن الكريم "قل أوحي الي، السورة 72، الآية 1، 2.

(169) المحصب امتداد في اتجاه شمال الشِّعب الأساس لمكة المكرمة.

(170) كان ذلك عند فتح النبي صلى الله عليه وسلم لمكة سنة 80 = 630.

(171 ذو طوى : الطريق الذي يتجه نحو الغرب ابتداء من باب العمرة عبر القرية المسماه اليوم جَرْوَل.

(172) يعني ميقات التنعيم.

(173) يخلط ابن بطوطة جبل كَداء (بفتح الكاف والمد) الذي يقع في الشمال وبين جبل كُدى (بضم الكاف والقصر) الذي يقع في الجنوب الشرقي – انظر معجم البلدان لياقوت الحموي.

(174) لنقرأ سورة المَسَد رقم 111.

334/1 الموضع مستريحًا عند مجيئه ‖ من عُمرته فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه. ومنها التنعيم، وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدنى الحِلّ إلى الحرم، ومنه إعتمرت أم المومنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وأمره أن يُعمرها من التنعيم، وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها، وطريق التَّنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كَنْسه في كلّ يوم رغبة في الأجْر والثواب لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافيا، وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشُّبَيْكة.

ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبي 335/1 الطريق فيه ‖ أثرُ دور وبساتين وأسواق، وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تُصفُّ عليه كيزان الشُّرب وأواني الوضوء يملأها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهي بعيدة القعر جدًا، والخديم من الفقراء المجاورين، وأهل الخير يُعينونه على ذلك لما فيه من المَرْفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء، وذو طوى يتصل بالزاهر.

ذكر الجبال المطيفة بمكة.

فمنها جبل أبي قُبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الأخشَبَيْن وأدنى الجبال من مكة شرفها الله، ويقابل ركن الحجر الأسود، وبأعلاه مسجد 336/1 (175) وأثر رباط وعمارة، وكان الملك الظاهر (176) رحمه ‖ الله أراد أن يعمِّره، وهو مطلٌّ على الحرم الشريف وعلى جميع البلد، ومنه يظهر حسن مكة شرَّفها الله، وجمال الحرم وإتساعه، والكعبة المعظمة، ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه إستودعَ الحَجَرَ زمان الطوفان، وكانت قريش تسميه الأمين، لأنه أدى الحَجَر الذي أستودع فيه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام، ويقال : إن قبر آدم عليه السلام به، وفي جبل أبي قُبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم تسليما حين إنشق له القمر (177)، ومنها قُعَيْقِعان(178) وهو أحد

---

(175) وردت مثل هذه المعلومات في رحلة ابن جبير ... والمسجد اليوم معروف باسم جامع بلال باسم مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(176) القصد إلى بَيْبَرَس ص 10 - 30 - 88.

(177) القرآن الكريم : اقتربت الساعة وانشق القمر، السورة 54.

(178) جبل قُعَيْقِعان يقع في مقابلة جبل ابي قبيس علوهما معا نحو 600 قدم، وبينهما مكة، أبو قبيس مشرف على الحرم، وجهه إلى قعيقعان أبو قبيس من شرقها وقعيقعان من غربها، الآن يسمى جبل هندي... ياقوت مادة أبو قبيس (حرف الألف).

الأخشبين ومنها الجبل الأحمر (179) وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله، ومنها الخَنْدَمة (180) وهو جب عند الشعبين المعروفين بأجياد الأكبر‖ وأجياد الأصغر. 337/1

ومنها جبال الطير، وهي أربعة عن جهتي طريق التَّنعيم، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز (181)، وعليها أعلام من حجارة.

ومنها جبل حراء وهو في الشمال (182) من مكة شرَّفها الله تعالى، على نحو فرسخ منها وهو مشرف على مِنى ذاهبٌ في الهواء عالي القنّة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا، يتعبَّد فيه كثيرًا قبل المَبْعث، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي، وهو الذي إهتزَّ تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما : أثبُتْ فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ، وروى أن العشره كانوا معه، وقد روى ‖ أيضا أن جبل ثبير إهتز تحته أيضا. 338/1

ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى، على طريق اليمن، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا حين خروجه مهاجرًا من مكة شرفها الله ومعه الصِّدّيق رضي الله عنه حسبما ورد في الكتاب العزيز (183).

وذكر الأزرقي في كتابه : أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً، وقال : إليَّ يا مُحمد إليَّ إليَّ، فقد أويت قبلك سبعين نبيًا فلما دخل رسول الله الغار وإطمأن به وصاحبه الصِّدّيق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشًا، وفرخت فيه بإذن الله تعالى فانتهى المشركون ومعهم قُصَّاص الأثر إلى الغار، فقالوا : ها هنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت ‖ قد نسجَ على فم الغار والحمام مفرِّخة، فقالوا : ما دخل أحدٌ هنا، وانصرفوا فقال الصديق : يا رسول الله لو ولجوا علينا منه؟ قال : كنا نخرج من هنا، وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب، فانفتح فيه بابٌ للحين بقُدرة الملك الوهاب. 339/1

---

(179) الجبل الأحمر : عبارة عن نتوء صخري في جبل قعيقعان. د. الغنَيم : جزيرة العرب.

(180) الخَندمة يقع وراء جبل أبي قبيس، نحو الشرق، يبلغ علوُّه سبعمّائة ميتر، حوالي ألف قدم...

(181) القرآن الكريم : السورة 2، الآية 260.

(182) ابن جُبير يذكر أنه في الشرق وهو الأقرب للصواب وهو على بعد نحو خمسة أميال في المدينة نحو الطريق المؤدية إلى عرفات.

(183) القرآن الكريم، السورة 9، الآية 40.

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك، فيرومون دخوله من الباب الذي دخله منه النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً، تبركًا بذلك، فمنهم من يتأتى له، ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه حتى يُتناول بالجذب العنيف، ومن الناس من يصلّي أمامه ولا يدخله، وأهل تلك البلاد يقولون : إنه من كان لِرَشدةٍ قدر على دخوله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله! ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح !!

340/1 قال ابن جزي : أخبرني بعض أشياخنا الحجاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول اليه هو أن بداخله مما يلي هذا الشقّ الذي يدْخل منه حجرًا كبيرًا معترضًا فمن دخل الشق منبطحًا على وجهه وصل رأسه إلى ذلك الحجر، فلم يمكنه التولج ولا يمكنه أن ينطوي إلى العُلو، ووجهه وصدره يليان الأرض، فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجَبْذ إلى خارج، ومن دخل منه مستلقيا على ظهره أمكنه لانه إذا وصل رأسه إلى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدًا فكان ظهره مستندًا إلى الحجر المُعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار، رجع . 341/1

حكاية [شيخ ضل طريقه]

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي : أحدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الافريقي التوزري والآخر أبو العباس أحمد الاندلسي الوادي اَشي أنَّهما قصدا في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعماية زيارة هذا الغار وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلاً عارفًا بطريقه، فتاها وضلاَّ طريق الغار وسلكا طريقًا سواها منقطعةً، وذلك في أوان إشتداد الحرّ وحمّى القيظ، فلما نفذ ما كان عندهما من الماء وهما لم يصلا إلى الغار، أخذا في الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقًا فاتبعاه وكان يُفضى إلى جبلٍ آخر واشتد بهما الحرُّ وأجهدهما العطش وعاينا الهلاك، وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحانٌ عن المشي جملة، وألقى بنفسه إلى الأرض، ونجا الأندلسي 342/1 بنفسه، وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد فدخل إلى مكة شرفها الله تعالى، وقصدني وأعلمني بهذه الحادثة وبما كان من أمر عبد الله التوزري وإنقطاعه بالجبل وكان ذلك في آخر النهار.

ولعبد الله المذكور ابن عمٍّ اسمه حسن، وهو من سكان وادي نخْلة (184) وكان إذ ذاك بمكة، فأعلمته بما جرى على ابن عمه، وقصدت الشيخ الصالح الامام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعةً من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه.

343/1 وكان من أمر عبد الله التوزري أنه لما فارقه رفيقه لجأ إلى حجرٍ كبيرٍ فاستظلَّ بظلِّه، وأقام على هذه الحالة من الجُهد والعطش، والغربانُ تطير فوق رأسه وتنتظر موته، فلما انصرم النهار وأتى الليل وجد في نفسه قوة، ونَعَشَه بردُ الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن وادٍ حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشيًا إلى أن بدت له دابة فقصدها فوجد خيمة للعرب، فلما رآها وقع إلى الارض ولم يستطع النهوض فَرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقتْه ما كان عندها من الماء فلم يَرْوِ وجاء زوجها فسقاه قربة ماءٍ فلم يَرْوَ وأركبه حمارًا له وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم

344/1 الثاني متغيّرًا كأنه قام من قبر !

ذكر أميري مكة

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الأجلين الأخوين : أسد الدين رُميثة وسيف الدين عُطيفة أبنَيْ الامير أبي نُمى بن أبي سعد بن علي بن قُتادة (185) الحَسنيّين ورُميثة أكبرهما سنا، ولكنه كان يُقدّم اسم عُطيفة في الدعاء له بمكة لعدله، ولرميثه من الأولاد أحمد وعجلان، وهو أمير مكة في هذا العهد وثقبَة وسِنْد، ومغامس (186) ولعطيفة من الاولاد محمدُ ومبارك ومسعود، ودار عُطيفة عن يمين المرْوة، ودار أخيه رُميثة برباط الشرابي عند باب بني شَيْبة، وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم.

(184) وادي نخلة عبارة عن واديين في اتجاه الشمالي الشرقي لمكة ينتهيان معًا إلى وادي فاطمة.

(185) بدأ حكم القتادات الحَسنيين في شخص قتادة بن ادريس الذي لم يلبث أن جعل يده في يد بني عمّه بالمدينة من بني مهنّا الحُسينيين وقد استمر حكمهم إلى أن صار إلى أبي نُمَى. ترجم ابن حجر في الدرر لقتادة (ج 4 ص 42) كما ترجم لرميثة وعطيفة ج 2 ، ص 204 جزء 3 ص 70 وانظر التعليق 72-73 والتاريخ الدبلوماسي للمغرب ج. 7 ص 204.

(186) تعرض نص ابن بطوطة هنا لعدد من التحريفات فقد وجدنا فيها من ضبط الحاء من (الحَسنيين) بالضم، ووجدنا من أسماء أولاد رميثة : تقية عوض ثُقْبة وأم القاسم عوض مغامس بينما أسقط عند بعض الناشرين (الكتاني – طلال حرب) السطر المتعلق بأولاد برميثة فتبعه من نقل عنه عند الكلام عن مكة ووجهائها. وتجتاح ذرية ابن تمي وآل جماز إلى دراسة مستوعبة، رواه المكي : تاريخ أمراء البلد الحرام – الطائف 1986.

ذكر أهل مكة وفضائلهم

345/1 ولاهل مكة الأفعال الجميلة ‖ والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والايثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمةً يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطُّف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفْران حيث يطبخ الناس أخبازهم فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيِّب النفس بذلك من غير ضجر.

ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القُفَّة مِكْتلاً فياتي الرجل من أهل ‖ مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليُهيِّأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يُذكر أن أحدًا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. 346/1

وأهل مكة لهم ظرفٌ ونظافةٌ في الملابس، وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدًا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرًا ويكتحلون ويكثّرون السواك بعيدان الأراك الأخضر، ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف، وهن ‖ يكثرن التطيب حتى إنَّ أحداهن لتبيت طاويةً وتشتري بقوتها طيبًا ! وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا، ولاهل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضلائها ومجاوريها. 347/1

ذكر قاضي مكة وخطيبها، وإمام الموسم وعلمائها وصلحائها

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين مُحمد بن الامام العالم محيي الدين الطبري (187) وهو فاضلٌ كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف

---

(187) هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله نجم الدين أبو علي ابن جمال الدين بن العلامة محب الدين المكي، ولى قضاء مكة بعد والده عام 724 واستمر إلى أن مات في جمادى الأخيرة عام 730 = 1331 وسمع من جده محب الدّين انتهت اليه رياسة الفتوى في بلده وكان من الشعراء ... والدُه كما نرى يلقب بجمال الدين وليس بمحي الدين كما عند ابن بطوطة. - الدرر 4، 280.

348/1 والمشاهدة للكعبة الشريفة، ويطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصًا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين، وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرًا وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجرى على يديه. وولدُه شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرَّفها الله.

وخطيبُ مكة الامام بمقام إبراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري (188) وهو أحد الخطباء الذين ليس في المعمور مثلهم بلاغةً وحسن بيان، وذكر لي أنه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد!

349/1 وإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير أبو عبد الله محمد بن الفقيه الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه، وأهله من بلاد الجريد من إفريقية ويعرفون بها ببني حيُّون (189) وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحدها وقطبها بإجماع الطوائف على ذلك، مستغرق العبادة في جميع أوقاته مستحيي، كريم النفس حسن الأخلاق كثير الشفقة لا يرد من سأله خائبا.

حكاية مباركة

350/1 رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشبَّاك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القُرفصاء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أبايعك على كذا وكذا وعدَّد

(188) هو ابن عم الأول ويتعلق الأمر بمحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن ابي بكر الطبري بهاء الدين بن تقي الدّين بن الحافظ محي الدّين الطبري ثم المكي الخطيب المولود بمكة سنة 678 = 1279 - الدرر 4، 85.

(189) هذا السيد الجليل هو الذي سبق الحديث عنه من قبل ابن بطوطة وترجمنا له نقلا عن أحمد بابا الذي نعته بالمالقي، تعليق رقم 155، والجدير، بالنسبة الينا، هو أن ابن بطوطة هذه المرة يذكر أنه أتى من بلاد الجريد - من افريقية (تونس)، وإن الأسرة تعرف ببني حيون ... ومعلوم أن بني حيون من أصل أندلسي غادروا الأندلس، منهم الكثير استقر بمدينة فاس حيث لا يزال إلى الآن باب من أبواب جامع القرويين يحمل اسم باب بن حيون لأنها تنفتح على درب كان يسكنه أحد علماء الأسرة : أسرة إمام الموسم !

- التازي : تاريخ القرويين ج 1 ص 97.

أشياء منها : وأنْ لا أردّ من بيتي مسكيناً خائبًا، وكان ذلك آخر كلامه، فكنت أعجب من قوله، وأقول في نفسي : كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام، وكنت أراه حين ذلك لا بسًا جبَّةً بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالفشطان، (190) كان يلبسها في بعض الأوقات، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمته برؤياي فسرَّ بها وبكى، وقال لي : تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي فأنا ألبسها تبركًا، وما رأيته بعد ذلك يرد سائلاً خائبا، وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام وياتون به إليَّ بعد صلاة العصر من كل يوم. 353/1

وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرَّة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلَّت فيهم الأمراض والعاهات.

وكان الشيخ خليل متزوجًا بنت القاضي نجم الدين الطبري فشكَّ في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين النُّويري (191) من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده أعوامًا، وسافر بها إلى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق ففارقها على ضنانته بها، وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة. 354/1

ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين ابن البرهان، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي (192) من كبار أئمة مكَّة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل، وهو أكرم فقهاء مكة، ويُدان في كل سنةٍ أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها الله عنه، وأمراء

(190) النسخ المعتمدة لدينا ترسم الكلمة هكذا (الفشطان) وعوضها توجد في نسخة أخرى القفطان الكلمة التي يستعملها المغاربة ويستغرب دوزي اولاً من ارتداء الرجال للفشطان ثانيًا من وجود لفظ تركي (فستان) بمكة على ذلك العهد، أي قبل وصول العثمانيين لتلك الجهات. ولا أرى وجْهًا لاستغرابه فإن الرجال يلبسون القفطان وان الاتراك كانوا قبل العثمانيين ! المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب تاليف رينهارت دوزي ترجمة د. أكرم فاصل، وزارة الإعلام العراقية 1971 ص 273.

(191) القصد إلى أحمد بن عبد العزيز بن القاسم ... النّويري شهاب الدين سكن بمكة وتزوج بالست كمالية بنت القاضي نجم الدّين قاضي مكة، وكان زوجها الأول هو الشيخ خليل المكي حنث فيها بالطلاق الثلاث وكان يرجوا أنها إذا تزوجت تفارق زوجها لتحل له لكنها أقامت مع شهاب الدّين وولدت له أبا الفضل وعليّا ثم سافر إلى المدينة فتحيل عليه بعض أهلها حتى وقعوا عليه طلاقها وكانوا يظنون أن الشيخ خليلا يراجعها فتورع عن ذلك لما بلغه من الصورة، فاتفق موت شهاب الدّين عام 737 = 1336 وحينئذ راجعها الشيخ خليل! - الدرر 1 ص 184 ص 209. انظر التعليق 155-189.

(192) هو أحمد بن علي يوسف بن أبي بكر السِّجْزي الحسيني إمام الحنفية بمكة، ولد سنة 673 = 1270 سمع عن عدد من المشايخ المعروفين وسمع منه جماعة من المشايخ، منهم الحافظ العراقي قرأ عليه تاريخ المدينة لابن النجار وسمع منه المقرئ ابن سكر ... جاور بمكة واستقر أمام مقام الحنفية بها ،أدركه أجله في رمضان 762 = 1361 - الدرر الكامنة ج 1، ص 236 - 237.

353/1 الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه إمامهم، ومنهم إمام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان (193) البغدادي الأصل المكي الولد، وهو نائب القاضي نجم الدين ،المُحتسب بعد قتل تقي الدين المصري والناس يهابونه لسطوته.

حكاية [قطع يد السارق]

كان تقي الدين المصري محتسبًا، وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه، فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج (194) بصبيّ من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فأمر بقطع يده، فقال له تقي الدين : إن لم نَقطعها بحضرتك والا غلب أهلُ مكة خدامَك عليه فاستنقذوه منهم وخلّصوه، فأمر بقطع يده في حضرته، فقُطعت، وحقدها لتقي الدين، ولم

354/1 يزل يتربص به الدوائر ولا قدرة له عليه لأن له حسبًا من الاميرين رُمَيثة وعطيفة، والحسب عندهم أن يعطى أحدهم هدية من عمامة أو شاشية بمحضر الناس تكون جوارًا لمن أعْطيتْه ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرّحلة والتحول عن مكة فأقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الاميرين وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصّفا فلقيه صاحبه الأقطع، وتشكّى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته، فانتهره تقي الدين وزجره فاستل خنجرًا له يعرف عندهم بالجَنَبِيَّة وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه.

357/1 ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري (195) شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان للمجاورين، ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الحنبلي، ومنهم العَدْل

---

(193) محمد بن عثمان بن موسى بن عبد الله بن محمد الآمدي الأصل وليس البغدادي ثم المكي أبو الفضل جمال الدين الحنبلي ولد بمكة سنة 659 = 1261 وسمع من أبيه وجماعة، وحدث كذلك ... كان إمام مقام الحنابلة واستقر بعد أبيه وناب في الحكم عن قاضي مكة، أدركه أجله في عشرى جمادى الأخرة سنة 731 = 1331. – الدرر 4، 162 - 163.

(194) وظيفة المحتسب تعني السهر على سلامة الأسواق والحفاظ على الأخلاق وقد اختفت هذه الوظيفة في ديار المشرق لكنها باقية في المغرب... أما عن لقب أمير الحج فإنه كما اشرنا في بداية الفصل الأول يعني أنه الذي يمثل الملك الذي يرسل الوفد، فله الصلاحية في الحكم في سائر ما يعرض للحجاج أثناء مقامهم بالأماكن المقدسة، ومعنى هذا أن أمير كل بعثة يمكنه أن يفصل فيما بين أعضاء تلك البعثة ...

(195) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطبري ثم المكي زين الدّين صالحًا فاضلاً جوادًا كثير الرياسة والسؤدد توفي عام 742 = 1341 هذا هو والد عفيف الدين عبد الله بن أحمد الطبري الذي أدركه أجله عام 787 = 1385

– الدرر الكامنة : ج 1، ص 259 – ج 2

الصالح محمد بن البرهان، زاهدٌ ورعٌ مبتلى بالوسواس، ورأيته يومًا يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة ! وكان إذا أراد الصلاة ربما صلّى الإمامُ الشافعيّ وهو يقول نويت نويت فيصلي مع غيره ! وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر . 356/1

ذكر بعض المجاورين بمكة

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار، وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدًا للكعبة الشريفة إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرًا وينام يسيرًا ثم يجدّد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح، وكان متزوجًا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن، فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته.

357/1 ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفونيّ كان قاضيا ببلاد الصّعيد فانقطع إلى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كلّ يوم من التنعيم في رمضان مرتين في اليوم إعتمادًا على ما في الخَبَر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا أنه قال : عمرة في رمضان تعدل حجةً معي.

ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة، من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله، ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف، أقام بمكة أعوامًا لا يتكلم فيها، ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف، ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان يُنصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب. 358/1

ومنهم الصالح المجوّد برهان الدين إبراهيم المصري مقرئ مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلّم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنتهم

م.

ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك دأبه إلى توفى.

ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري من أهل نظر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعوامًا وبها وفاته، كانت 359/1 بينه وبين والدي صحبةٌ قديمة، ومتى أتى بلدنا طنجة نزل عندنا، وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارًا ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيمًا شديدًا، وينذرون له النذور، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه، ومن عادتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفِرْسِك (196) وهو الخوخ، والتين وهم يسمونه الخَمْط يُخرج منه العشر لهذا الرباط، ويوصلون ذلك إليه على جمالهم، ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان، ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوايح 360/1 .

حكاية في فضله

أتى يوما غِلمان الإمير أبي نُمي صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير، وسقوها من تلك البئر، فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض وبرؤوسها وأرجلها، واتصل الخبر بالأمير أبي نُمَى فأتي باب الرباط بنفسه وإعتذار إلى المساكين به واستصحب واحدًا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها، ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير.

ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع، ووفاته بمكة شرفها الله، ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة 361/1 كان خديمًا للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخَ الرباط بعدهما، ومنهم الصالح

---

(196) الفِرْسِك : لفظة عربية، قال صاحب تاج العروس : «والفِرسِك كِزبْرج : الخوخ يمانية... قال شمر : سمعتُ حميرية فصيحة سألتُها عن بلادها، فقالت : النّخل قلّ، ولكنْ عيشنا أمقمح، أمِفرْسك، أمعِنب... وفي الصحاح : ضرب من الخوخ، قلت : ويقال له الفرْسِق بالقاف» وقد احتفظت بعض اللغات الأروبية باللّفظ مع تغيير يسير... وورد ذكره في الاتّفاقيات المغربية. الدّولية د. النعيمي : مجلة المجمع العراقي 1975 د. مكي صحيفة المعهد المصري - مدريد 1988 .

السايح السالك أبو الحسن علي بن فَرغوس التّلمساني، ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة.

حكاية [الشيخ سعيد الهندي]

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالاً عظيمًا قدم به مكة، فسجنه الأمير عُطيفة وطلبه بأداء المال، فامتنع فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسةً وعشرين ألف درهم نُقرة، وعاد إلى بلاد الهند، ورأيته بها ونزل بدار الأمير سيف الدين غَدًا بن هبة الله(197) بن عيسى بن مُهنّى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا بأخت ملكها، وسيُذكر أمره، فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال 362/1 وتوجه صحبة حاجّ يعرف بوَشْل من ناس الامير غدا، وجّهه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتُحفًا منها الخلعة التي خلع عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته، وهي من الحرير الأزرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها، وبعث معه خمسين الف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشْل واشتريا سلعًا بما عندهما من الأموال، فلما وصلا جزيرة سُقُطْرة المنسوب اليها الصَّبْر السُقطري (198) خرج عليهما لصوص الهند في مواكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً مات فيه من الفريقين 363/1 جملة وكان وَشْل راميًا فقتل منهم جماعة ثم تغلب السُّراق عليهم وطعنوا وشْلاً طعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده، فذهبوا إلى عدن ومات بها وَشْل.

وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون إحدًا إلا في حين القتال ولا يغرقونه وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء، ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم، وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند

---

(197) سيرد ذكر الأمير غدا خاصة (III 271 الخ) هذا ويستأثر ابن بطوطة - على مافي علمنا- بالمعلومات التي قدّمها عن هذا الأمير... ونحن لانعلم عن أن من أولاد مُهنّا هبةَ الله هذا وأن بعض النسخ المصححة التي نعتمد عليها ترسمه غُدًا بضم العين وتنقيط الدال د. مصطفى الحياري الإمارة الطائية، وزارة الثقافة، الأردن 1977.

(198) سُقُطرة أو سقطرى جزيرة عظيمة شهيرة في العصر الوسيط بصبرها الأحمر المعروف تحت إسم (Sang du dragon) أو دم الأخوين وهو صمغ شجر لا يوجد إلا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر ويذكر الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمْداني اليمني أنها جزيرة تقع بين عدن وبلاد الزنج ... وقد حاولت وصولها وأنا بعدن عام 1993 فحالت دون ذلك أحوال الطقس ... جزيرة لها تاريخ طويل عريض، انظر معجم ياقوت -حمزة على لقمان : تاريخ الجزر اليمنية - مطبعة الجميّل، بيروت 1972.

ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين لَلْمِش (199)، وإسمه بفتح اللام الأولى وإسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم، وولده ناصر الدين، ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه 364/1 والسلطان غياث الدين بَلْبن ، وكانت الخلع تأتي اليهم من بغداد.

فلما توفى وشْل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس (200) ابن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالأمر فكتب له كتابًا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فإستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خِلع سودًا وركب البحر إلى الهند فلما وصل كُنْبايَة (201)، وهي على مسيرة أربعين يومًا من دهلى حضرة ملك الهند، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمْرَ الخليفة وكتابه فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرمًا فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقّيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه، فتلقاه ودفع له الأمر فقبّله ووضعه على رأسه 365/1 ودفع له الصندوق الذي فيه الخِلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ٍولبس إحدى الخلع وكسى الأخرى الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر العباسي، وكان مقيمًا عنده، وسيُذكر خبره (202)، وكسى الخلعة الثالثة الأمير قبولة الملقب بالملك الكبير، وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب، وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الأميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين، والمدينة قد زينت بأنوا ع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب، كلّ قبة منها 366/1 أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنين

(199) شمس الدين لَلْمِش (Iltutmish) السلطان الثاني للمماليك في دهلي (607-633 = 1210-1236)، وقد تملك ولده ناصر الدين محمود من عام 644 - 1246 إلى عام 655 = 1266 تحت وصاية الملوك بَلْبن الذي عوضه حاملاً للقب غياث الدين 665 = 1266 - 686 = 1287. وقد اسقط المنحدرون من هذا الأخير من طرف الجنرال خَلْجي جلال الدين الذي أخذ اسم فيروز شاه واستبد بالحكم من عام 689 = 1290 إلى عام 695 = 1296 وسيعود ابن بطوطة في السفر الثاني من رحلته لهذه المعلومات وللعلاقات التي كانت تربط الخلافة في القاهرة بملوك الهند.

(200) عُرف أبو العباس هذا في القاهرة تحت إسم الحاكم بأمر الله الثاني 742=753=1341-1352 ومعلوم أن المماليك بمصر أقاموا بجانبهم من عام 659 - 1261 إلى 923 = 1517 أمراء من بني العباس لدعم حكمهم ...

– ابن إياس : بدائع الزهور 1402 = 1982 ج 1، ص 495.

(201) كنباية (Cambay) كان هو أكبر وأهم ميناء في الهند على ذلك العهد، وهو الذي ذكره ماركو بولو عام 1298 تحت إسم (Cambaet)...

(202) كان المنتصر الخليفة ما قبل الأخير من ملوك بني العباس تولى في سنة 623 = 1220 إلى سنة 640=1242.

رجالا ونساء والراقصات، وكلهم مماليك السلطان، والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب، أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حُل فيه الجُلاَّب يشربه كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد، وكل من يشرب منه يعطي بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة (203) فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته، وتقمع عنه الصفراء، وتهضم ما أكل من الطعام، ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان، وأنزل بدار تقرب من دار الملك وبَعث له أموالاً طائلة، وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدي الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القِباب وخدام الأحواض وغيرهم، وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر، وأمر الملك بكتاب الخليفة أن يقرأ على المنبر بين الخطبتين في كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهرًا ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة فوصل كُنْبايت، وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته في البحر، وكان ملك الهند قد بعث أيضا من عنده رسولا إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البُرقُعي أحد شيوخ الصوفية، وأصله من مدينة القِرَم (204) من صحراء قَبْجَق (205)، وبعث معه هدايا الخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون الف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند أو يبعث لها سواه من يظهر له، هكذا نص عليه كتابه إعتقادًا منه في الخلافة وحسن نية.

367/1

368/1

وكان للشيخ رَجَب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف، فلما وصل رجب إلى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح إسماعيل بن الملك (206) الناصر، فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر، فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة ألف درهم أربعة أحجار، وحضر بين يدي الملك الصالح، ودفع له الكتاب وأحد الأحجار، ودفع سائرها لأمرائه، واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود إلى الخليفة وأشهد على نفسه أنه قدمه نائبًا عنه ببلاد الهند وما يليها وبعث الملك الصالح

369/1

(203) القصد إلى نواة شجر الفوفل (Aréquier) وشجر النُورة (Chaux) ويلاحظ أن هذه ثاني مرة يذكر فيها ابن بطوطة (التنبول) بعد أن كانت الأولى وهو في بلاد الشام..

(204) القِرَم كما يضبطها ابن بطوطة أو قِرم (Quirim)، وهي اليوم : (Stary Krim) وفي داخل القِرَم كان مقام حاكم المغول على ذلك العهد.

(205) قبْجق هو الاسم الذي يعطيه الجغرافيون المسلمون لجنوب الروسيا باسم القبيلة التركية (قفجاق).

(206) تملك الملك الصالح اسماعيل من 742 إلى 745=1342-1345.

رسـولاً من قـبله وهو شـيخ الشـيـوخ بمصـر ركن الدين (207) العـجـمي، ومـعـه الشـيـخ رجب وجماعة من الصـوفـيـة وركبوا بحر فـارس من الأبلة إلى هرمـز، وسلطانها يومئذ قطب الدين تَمْتَهن (208) بن طوران شاه فـأكرم مثْواهم وجـهَّز لـهم مركبًا إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كُنبايت والشيخ سعيد بها، وأميرها يومئذ مقبول التِّلنْكي أحد خواص ملك الهند، فاجتمع الشيخ رَجَب بهذا الأمـير وقال له : إن الشيخ سعـيدًا إنما جـاء كم بالتزوير، والخلعُ التي ساقها إنما إشتراها بعدن فينبغي أن تثقِّفوه وتبعثوه لخوند عالم، وهو السلطان، فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان، فما يُفعل به هذا إلا بأمره، ولكني أبعثه معكم ليرى فيـه السلطان رأيه. وكتب ‖ الأمـير بذلك كلّه إلى السلطان وكتب به أيضا صـاحب الأخبار، فوقع في نفسِ السلطان تغيّر، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشـهاد، بعدما صـدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صـدر، فمُنع رجبًا من الدخول عليه، وزاد في إكرام الشيخ سعيد، ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه، وكان متى دخل اليه يقوم له، وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض الهند معظمًا مكرمًا، وبها تركته سنة ثمان وأربعين، وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون، وأمره غريب، وشأنه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خديمًا لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته ‖ .

370/1

371/1

حكاية [حسن المجنون]

كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل، وكان يرى في طوافه بالليل فقيرًا يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلةً وسأله عن حاله ، وقال له يا حسن : إن أمك تبكي عليك وهي مشتاقة إلى رؤيتك، وكانت من إماء الله الصالحات، أفتحب أن تراها ؟ قال له نعم ! ولكني لا قدرة لي على ذلك، فقال له نجتمع هاهنا في الليلة المقبلة إن شاء الله تعالى فلمَّا كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ما شاء الله ثم خرج وهو في أثره إلى باب المصلى فأمره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة: أتعرف بلدك ؟ قال نعم قال : هاهو هذا ! ففتح عينيه، فإذا به على ‖ دار أمه، فدخل عليها،

372/1

(207) القصد فيما يظهر إلى يوسف بن عبد الله بن عمر الكردي الكوراني المعروف تحت إسم العجمي المتوفى في جمادى الأولى 768 = 1369.

– الدرر الكامنة ج 5، ص 238 / 239.

(208) تَمْتَهَن صوابه : تَهَمْتَن (Tahamtan) – وكذا فإنَّ النسخ المعتمدة ترسم اسم التلنكي وليس التلتكي كما يوجد في المطبوع.

ولم يعلمـها بشيء مما جرى، وأقـام عندها نصف شـهر، وأظن أن بلده أسفي، ثم خرج إلى الجبانة فوجد الفقير صـاحبه، فقال له : كيف أنت ؟ فقال : يا سيدي إني إشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين، وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الأيام، وأحب أن تردَّني إليه، فقال له : نعم ! وواعده الجبَّانة ليلاً، فلما وافاه بها أمره أن يفعل كفعله في مكة، شرَّفها الله، من تغميض عينيه والإمساك بذيله، ففعل ذلك فإذا به في مكَّة، شرفها الله، وأوصاه أن لا يحدّث نجم الدين بشيء مما جرى، ولا يحدّث به غيره.

373/1 فلما دخل على نجم الدين، قال له : أين كنت يا حسن في غيبتك ؟ فـأبى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية، فقال : أرني الرجل ! فأتى معه ليلاً وأتى الرجل على عادته، فلما مرَّ بهما، قال له : يا سيدي، هو هذا ! فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال : أسكت أسكتك الله فخرس لسانه، وذهب عقله، وبقي بالحَرَم مولها يطوف باللّيل والنهار من غير وضوء ولا صلاة، والناس يتبركون به ويكسونه، وإذا جاع خرج إلى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتًا من الحوانيت فيأكل منه ما أحبَّ، لا يصدَّه أحد ولا يمنعه، بل يُسرّ كلُّ من أكل له شيئا، وتظهر له البركة والنَّماء في بيعه وربحه، ومتى أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم إليه كلٌّ منهم يحرص على أن يأكل من عنده لِمَا 374/1 جربوه من بركته، وكذلك فعله مع السقّائين متى أحب أن يشرب، ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين، فحج فيها الأمير سيف الدّين يَلْمَلَك فاستصحبه معه إلى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به.

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم أن يصلّى أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر (209) وصلاته خلف المقام الكريم : مقام ابراهيم الخليل عليه السلام في حَطيم له هنالك بديع، وجمهور الناس بمكة على مذهبه، والحَطيم : خشبتان موصول ما بينهما بأذرع شبه السلّم، تقابلهما خشبتان على صفتهما، وقد عقدت على أرجل 375/1 مجصَّصة، وعُرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خَطاطيف حديد، يُعَلَّق منها قناديل زجاج، فإذا صلى الإمام الشافعي صلّى بعده إمام المالكية في محرابٍ قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنْبلية معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبالة الميزاب المكرَّم تحت حَطيمٍ له هنالك ويوضع بين أيدي الأئمة في محاريبهم الشَّمع، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع.

---

(209) يلاحظ أن التنصيص على الدعاء للخلافة العباسية المذكور في رحلة ابن جبير لم يكن مما نقله ابن بطوطة عن الرحالة الذي سبقه لأن الوضع السياسي في مكة تغير عما كان عليه بالأمس !

وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط، فربّما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصيخين كلُّ أحد إلى || صوت المؤذن الذي يُسمع طائفته ليلا يدخل عليه السهو. 376/1

ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم فإذا خرج الخطيب أقبل لا بسًا ثوب سواد معتمًّا بعمامة سوداء (210)، وعليه طيلسان (211) أسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر، وعليه الوقار والسكينة، وهو يتهادى بين رايتين سوداوين، يتمسكهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القَوَمة في يده الفَرْقَعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء، فيسمع له صوت عالٍ يسمعه من بداخل الحرم وخارجه، فيكون إعلامًا || بخروج الخطيب (212). ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود، ويدعوا عنده، ثم يقصد المنبر والمؤذّن الزمزمي، وهو رئيس المؤذنين (213) بين يديه لابسًا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكًا له بيد، وتركز الرايتان عن جانبي المنبر فإذا صعد أول درج من دُرَج المنبر قلّده المؤذنُ السيفَ فيضرب بنصل السيف ضربةً في الدرج يُسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الثاني ضربةً ثم في الثالث أخرى، فإذا إستولى في عليا الدرجات ضرب ضربةً رابعة ووقف داعيًا بدعاء خفيّ مستقبل الكعبة، ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زَمْزم || في حينٍ واحدٍ فإذا فرغ الآذان خطب الخطيب خطبة يُكثر بها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول في أثنائها : اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف، ويرضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة، وعن عمَّيْ النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه، وأمهما، وخديجة 377/1 378/1

(210) العباءه السوداء والعمامة كذلك كلاهما اللباس الرسمي للدولة.

(211) الطيلسان عبارة عن ستار من صنع الموصل التي كانت معروفةً بنسيجها الحريري الرفيع، يضعه الخطيب أو المقرئ أو الامام على كتفيه على نحو شعارات بعض الاكاديميات اليوم ...

(212) يظهر أن هذه الاداة كانت معروفة على الخصوص في مكة المكرمة ...

(213) يظهر أن القصد إلى سالم بن ياقوت المكي أبي أحمد المؤذن بالمسجد الحرام ... وبمكة توفي سنة 763 = 1362 الدرر 2، 219.

جدَّتهما على جميعهم السلام، ثم يدعو للملك الناصر، ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داوود بن الملك المظفــر يوسف بن عليٍّ بن رســول (214)، ثم يدعــو للســيــدين الشريفين الحسنيَّين : أميري مكة : سيف الدين عُطيفة وهو أصغر الأخوين، ويقدم إسمه لعدله، وأسد الدّين ▒ رُمَيثة ابنى أبي نُمَى بن أبي سعد بن علي بن قتادة، وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك، فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرْقعة أمامه إشعارًا بانقضاء الصلاة، ثم يعاد المنبر إلى مكانه إزاء المقام الكريم. 379/1

ذكر عادتهم في إستهلال الشهور

وعادتهم في ذلك أن يأتى أمير مكّة في أول يومٍ من الشهر وقواده يحفُّون به وهو لابسٌ البياض، معتمٌ متقلد سيفًا وعليه السكينة والوقار فيصلِّي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبّل الحَجَر ويشرع في طواف أسبوع، ورئيس المؤذنين على أعلى قبة زمزم، فعندما يُكمل الأمير شوطًا واحدًا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء ▒ له، والتهنئة بدخول الشهر رافعًا بذلك صوته ثم يذكر شعرًا في مدحه ومدح سلفِه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة أشواط فإذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضًا ركعتين ثم انصرف، ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفرًا وإذا قدم من سفر أيضا. 380/1

ذكر عادتهم في شهر رجب

وإذا أهل هلال رجب (215) أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعارًا بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكبًا ومعه أهل مكة فرسانًا ورجالاً على ترتيب عجيب، وكلهم بالأسلحة يلعبون بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجالة يتواثبون، ويرمون بحرابهم إلى الهواء ▒ ويلقفونها والأمير رُمَيثة والأمير عُطيفة، معهما أولادهما وقوادهما، مثل محمد بن ابراهيم، وعلي وأحمد آبنى صبيح وعلي بن يوسف، وشداد بن عمر، وعامر الشَّرِق، ومنصور بن عمر وموسى المُزْرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد، وبين أيديهم الرايات والطبول والدَّبابت (216)، وعليهم السكينة والوقار، ويسيرون حتى ينتهون إلى الميقات، ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت، 381/1

(214) القصد بابن رسول هنا إلى رأس السلطنة الرسولية التي كانت باليمن، وقد تولى علي بن داود السلطنة بعد أبيه في 721-764 = 1321 - 1363. راجع التعليق الخاص بالمدرسة المظفرية رقم 154.

(215) من الشهور المقدسة ولذلك فإن أداء العمرة فيه من الشعائر الدينية المحببة.

(216) الدبادب جمع دبداب : نوع من الطبول.

والمؤذن الزمزمي وبأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته، فإذا طاف صلَّى ركعتين عند المُلتزَم، وصلى عند المقام وتمسَّح به وخرج إلى المَسْعَى فسعى راكبًا والقواد يحفون به والحرَّابة (217) بين يديه ثم يسير إلى منزله. وهذا اليوم عندهم عيدٌ من الأعياد ويلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك.

382/1

ذكر عُمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله، وهي متصلةٌ ليلاً ونهارًا، وأوقاتُ الشهر كلِّه معمورة بالعبادة، وخصوصا أولَ يومٍ منه، ويوم خمسة عشر والسابع والعشرون فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام.

شاهدتُهم في ليلة السابع والعشرين منه، وشوارع مكة قد غصَّت بالهوادج (218)، عليها كساء الحرير والكتان الرفيع، كل أحد يفعل بقدر إستطاعته، والجِمال مزينة مقلَّدة بقلائد الحرير، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض، فهي كالقباب المضروبة ويخرجون إلى ميقات التنعيم، فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج، والنِّيران مُشْعَلة بجنْبتي الطَّريق، والشمع والمشاعل أمام الهوادج، والجبال تجيب بصداها إهلال المَلبين، فترقُّ النفوس وتنهمل الدموع، فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت، خَرَجُوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضيِّ هزيع من الليل، والمَسْعَى متَّقد السرج غاصٌّ بالناس، والساعيات في هَوادجهن، والمسجد الحرام يتلألأ نورًا، وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكَمِية، لانهم يحرمون بها من أكمةٍ أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه.

383/1

والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدَّسة (219) خرج ماشيًا حافيًا معتمرًا ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع

(217) حاملوا الحِراب وقد كانوا بمثابة الحرس الخاص لأمراء مكة.

(218) الإشارة إلى مشاركة السيِّدات في هذه الاحتفالات ونحن نعلم حديث ابن جبير عن تخصيص يوم لطواف النساء ليتمكن من ولوج البيت الحرام ولمس الحجر الأسود تراجع صفحة 103 من ابن جبير.

(219) تعرضت الكعبة لتغيير قام به عبد الله ابن الزبير ثم تعرضت للضرب بالمنجنيق عندما قدم الحجاج وتحرَّم ابن الزبير بالكعبة فأمر بوضع المنجنيق على أبي قيس وقال : ارمو الزيادة التي ابتدعها هذا المتكلِّف، فرموا موضع الحطيم، فلما قتل ابن الزبير وملك الحجاج رد الحائط كما كان قديما وأخذ بقية الأحجار فسد منها الباب الغربي ورصَّف بقيتها في البيت حتى لا تضيع (معجم البلدان).

والعشـرين من رجب وانتـهى إلى الاكمة فـأحرم منهـا، وجعل طريقه على ثنِية الحـجون إلى المعَلّى من حـيث دخل المسلمـون يوم الفـتح، فـبـقـيت تلك العـمـرة سُنة عند أهل مكة إلى هذا العهد.

وكان يوم عبد الله مذكورًا أهدي فيه بُدُنًا كثيرة، وأهدى أشرافُ مكة وأهل الإستطاعة منهم وأقاموا أيامًا يطعَمون ويُطعمون شكرًا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكريم على الصفة التي كان عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه.

385/1 ثم لما قتل ابن الزبير نَقَض الحجَّاج الكعبة وردها إلى بنائها في عهد قريش (220) وكانوا قد اقتصروا في بنائها(221)، وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر، (222)، ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك، وقال : يا أمير المومنين لا تجعل البيت ملعبةً للملوك، متى أراد أحدهم يغيره فعل ! فتركه على حاله سدًا للذريعة.

وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بَجيلة وزهران وغامد (223) يبادرون لحضور عمْرة رجب ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمُّهم المرافق، ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظَفٍ من العيش، ويُذكر أنهم 386/1 متى أقاموا ببلادهم ولم ياتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم ووقع الموتان في مواشيهم، ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسلٌ عنها اجتمعت نساءهم فأخرجْنهم ! وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الأمين.

---

(220) أعيد بناؤها عام 74 = 693

(221) اقتصروا في بنائها : جعلوها قصيرة.

(222) الإشارة إلى الأثر المروي : إنه في أيام عبد الله بن الزبير حدثته السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الحِجْر أمِن البيت هو؟ قال : نعم، قلتُ : فما بالهم لم يدخلوه في البيت، قال ان قومك قصَّرت بهم النفقة، قلت : فما شأن بابه مرتفعا؟ قال : فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعو من شاءوا ولولا أن قومك حديثو عهد في الإسلام فأخاف أن تنكر قلوبهم له لنظرت أن ادخل الحِجْر في البيت وأن الزق بابه بالأرض، فادخل ابن الزبير عشرةً من مشايخ الصحابة حتى سمعوا ذلك من عائشة ثم أمر بهدم الكعبة، راجع التعليق : رقم 219 وانظر معجم البلدان.

(223) بطن عظيم من العرب ينتسب إلى أمهم بَجِيلة، وزهران من أكبر قبائل عسير، وغامد ذلك قبيلة عظيمة تُجاورها من الغرب زبيد وزهران، وهي جميعها تقع جنوب الجزيرة وتحتل أراضي الجنوب والجنوب الشرقي لمكة ... - كحالة : معجم قبائل العرب.

وبلاد السَّرْو التي يسكنها بَجيلة وزهران وغامد، وسواهم من القبائل (224) مخصبة كثيرة الأعناب وافرة الغلات، وأهلها فصحاء الألسن لهم صدق نية وحسن اعتقاد، وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها، داعين بأدعية تتصدع لرقّتها القلوب، وتدمع العيون الجامدة، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمّنين على أدعيتهم، ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك، وهم شجعان أنجاد ولباسهم الجلُود، وإذا وردوا مكّة هابت أعراب الطريق مقْدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبِهم من الزوار حمد صحبتهم، وذُكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرًا، وقال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء. وكفاهم شرفا دخولهم في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : الإيمان يماني والحكمة يمانية، وذكر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرّى وقت طوافهم ويدخل في جملتهم تبركًا بدعائهم، وشأنهم عجيب كلُّه وقد جاء في أثر : زاحموهم في الطّواف فإن الرحمة تنصبُّ عليهم صبًّا .

387/1

388/1

ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعاتٍ وأفذاذًا والاعتمار، ويجتمعون في المسجد الحرام جماعاتٍ لكل جماعة إمام، يوقدون السرج والمصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر يتلألأ الأرض والسماء نورًا، ويصلون مائة ركعة يقرأون في كل ركعة بأم القرآن، وسورة الإخلاص يكررونهما عشرًا، وبعض الناس يصلون في الحِجر منفردين، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار.

ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم

389/1

وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدّبادب عند أمير مكة، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرام نورًا ويسطع بهجةً وإشراقًا، وتتفرق الأئمة فرقًا، وهم الشافعية، والحنفية، والحنبلية، والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعةٍ من القراء : يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية

(224) القصد إلى الجهات التي تمتد من شرق مكة إلى نجران على حدود اليمن وإلى هذه السروات ينسب القوم الذين يحضرون مكة ويجلبون الميرة وهمّ قوم غُتْم "أشبه شيئ بالوحش" هكذا يقول ياقوت – انظر ابن جبير ص 98.

ولا ناحية إلا وفيها قارئٌ يصلي بجماعته فيرتج المسجد لأصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين.

ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة في الحِجْر منفردًا، والشافعية أكثر الأئمة إجتهادًا، وعادتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف إمامهم وجماعته فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفَرْقَعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة وكان ذلك إعلامًا بالعودة إلى الصلاة، ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعًا هكذا، إلى أن يُتم عشرين ركعةً أخرى ثم يصلون الشَّفْع والوتر وينصرفون. 390/1

وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئا، وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التَّسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم (225)، فيقوم داعيًا ومذكرًا ومحرضًا على السحور، والمؤذّنون في سائر الصوامع. فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبةٌ على رأسها عود معترض قد عَلِق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يَقِدان، فإذا قرب الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان، وابتدأ المؤذنون بالآذان وأجاب بعضهم بعضا. 391/1

ولديار مكة شرفها الله سطوحُ، فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين، فيتسحّر حتَّى إذا لم يبصرهُما أقلع عن الأكل، وفي كل ليلةٍ وترٍ من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبرٌ مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناسَ إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر، وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين، واحتفالُهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي، ويختم بها القرآن العظيم، خلْف المقام الكريم، وتُقام إزاء حطيم الشافعية خُشُب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يُغشي الأبصارَ، شعاعُ الأنوار، ويتقدم الإمام فيصلي فريضة العشاء الأخيرة، ثم يبتدئ قراءة سورة القَدر، وإليها يكون إنتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها، وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً لختمة المقام، ويحضرونها متبركين فيختم الإمام في تسليمتين ثم يقوم 392/1

(225) يضيف ابن جبير هنا قوله : لأنها أقرب إلى سكنى الأمير ص 109 ونلاحظ دائما أن رحلة ابن جبير لم تغادر ساحة ناسخ الرحلة البطوطية !

خطيبًا مستقبل المقام، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم وانفضَّ الجمع ثم يكون
393/1 الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصرٍ، وعن المباهاة منزَّه موقر،
فيختم ويخطب.

ذكر عادتهم في شوال

وعادتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة إستهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان، وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبى قبيس، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء، فإذا صلُّوا صلاة الصبح، أخذوا في أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا
394/1 لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، وبه يصلون صلاة العيد لأنه لا موضع أفضل منه.

ويكون أولَ من يكبر للمسجد الشَّيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ويقعد كبيرهم في عتبتها وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رفعًا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرْقعة أمامه، وهو لابس السواد فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة، ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على
395/1 بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجًا ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعَلَّى تبركًا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون.

ذكر إحرام الكعبة

وفي اليوم السَّابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمّر أستار الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيما، إلى نحو إرتفاع قامةٍ ونصف من جهاتها الأربع صونًا لها من الأيدي أن تنتهبَها ويسمون ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة.

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان في أول يوم من شهر ذي الحجة تضرب الطبول والدَّبادِب في أوقات الصلوات وبكرة وعشية 396/1 إشعارًا بالموسم المبارك، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات (226)، فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلّم الناس فيها مناسكهم ويُعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن بكّر الناس بالصعود إلى منى، وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى، وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع، ولكن الفضل في ذلك لاهل الشام دائمًا، فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من مِنى بعد صلاةِ الصبح إلى عرفة فيمرون في طريقهم بوادي مُحَسّر، ويهرولون فيه، وذلك سُنَّة.

وادي مُحسّر هو الحد بين مزدلفة ومنى (227) ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح 397/1 بين جبلين، وحولها مصانع وصهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المومنين هارون الرشيد، وبين منى وعرفة خمس أميال، وكذلك بين منى ومكة أيضًا خمسة أميال.

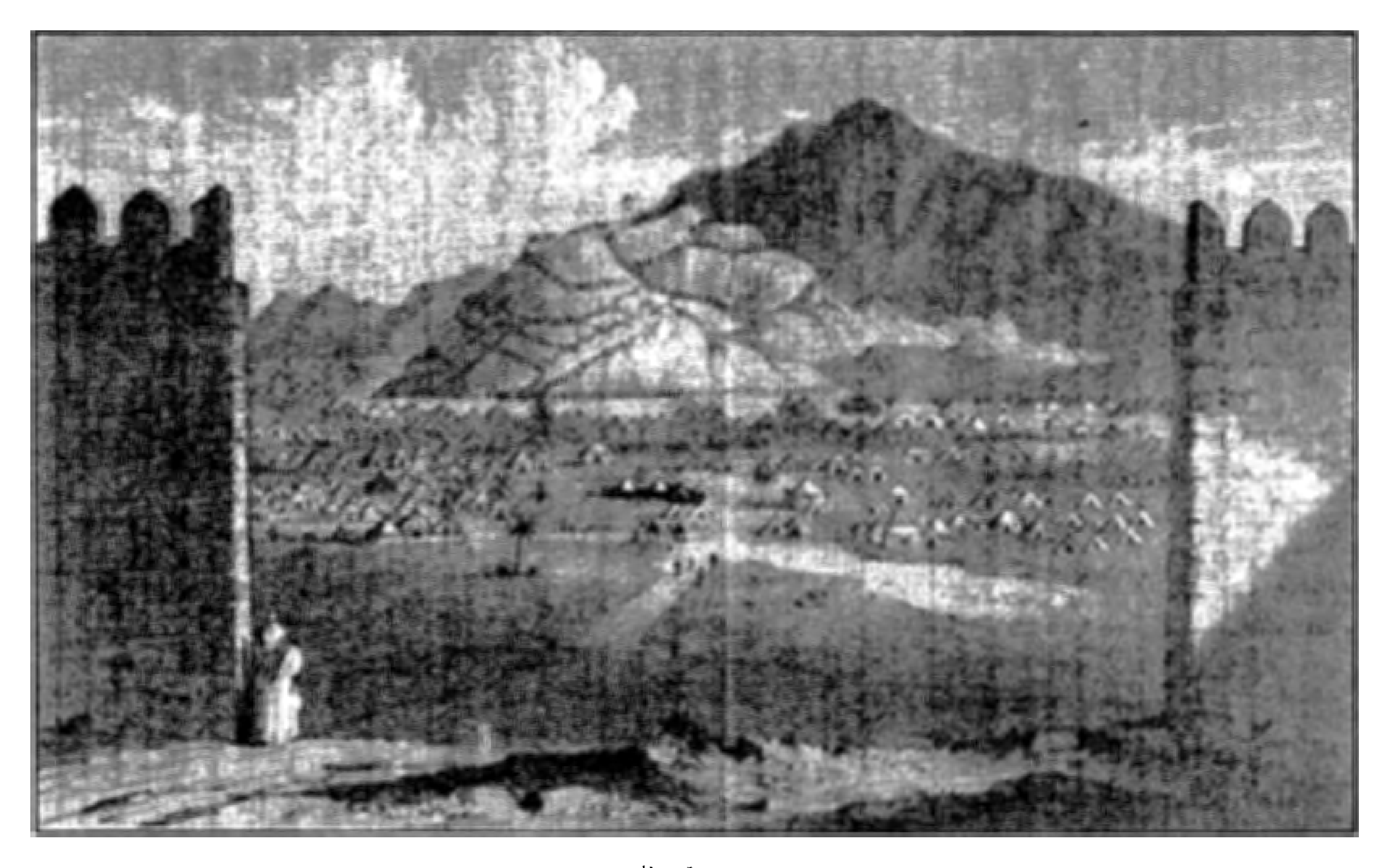
ولعرفة ثلاث أسماء، وهي عرفة، وجَمْع، والمشْعر الحرام (228)، وعرفات : بسيط من الأرض فسيح أفيح تُحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جَبَلُ الرَّحمة، وفيه الموقف، وفيما حوله، والعلمان قبله بنحو ميل، وهما الحد ما بين الحل والحرم، وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرْنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه، ويجب أيضا الإمساك عن النُّفور حتى يتمكن سقوط الشمس، فإن الجمّالين ربّما استحثوا كثيرًا من الناس وحذّروهم الزحام في النَّفر 398/1 واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم.

---

(226) يستعمل ابن بطوطة كلمة عرفات هكذا بالجمع ويستعملها فيما بعد بالأفراد : عرفة، ويظهر أنه يقصد بالأولى السهل الذي يوجد جنوب غربي عرفة الذي يحمل اسم جبل الرحمة.

(227) ورد في كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص 95 الطبعة الحجرية عن خليل المكي مفتي مكة سالف الترجمة أنه سئل عن بطن مُحسر ليحرك الناس فيه إبلهم، فأجاب إن الموضع تنوسي بالتمالؤ على ترك السنة المشروعة فيه وهي التحريك (الهرولة) ثم قال : الظاهر أنه هذا وأشار الى ما يحاذي الجامع التي على يسار المتوجّه من المشعر إلى منى من الطريق إلى منتهى المنحدر من جهة منى" تعليق 189.

(228) وقع هنا خطأ غريب نتج عن سوء فهم من ناسخ الرحلة لما ورد في رحلة ابن جبير التي تتحدث عن المزدلفة على أنها هي بالذات المشعر الحرام ولها اسم ثالث وهو جمع، وقد كانت المشاعل توقد على تل بها يحمل اسم قزح، ولقد كانت المزدلفة هي موقف قريش في الجاهلية اذ كانت لا تقف بعرفات، ومعنى هذا أن الموقع الذي له أسماء ثلاثة هو المزدلفة وليس عرفات ... ! رحلة ابن جبير ص 134 وانظر معجم البلدان، مادة المزدلفة وقزح وعرفات.



صورة عرفات

رمي الجمرات في منى



عودة لمكة ... صورة الكعبة

وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم في وسطٍ بسيط جمع، منقطع عن الجبال، وهو من حجارةٍ منقطع بعضها عن بعض، وفي أعلاه قبةٌ تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلاة فيه، وحوله سطحٌ فسيحٌ يُشرف على بسيط عرفات، وفي قبليّه (229) جدارٌ فيه محاريب منصوبة يصلي فيها النّاس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دارٌ عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام، وعن يسارها الصّخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها، وحول ذلك صهاريج وجبابٌ للماء، وبمقربةٍ منه الموضع الذي يقف فيه الإمام ويخطب ويجْمع بين الظهر والعصر، وعن يسار العلَمَين للمستقبل أيضا وادي الأراك، وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتدادًا طويلاً. 399/1

وإذا حان وقت النَّفْر أشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالنفر دفعةً ترتج لها الأرض وترجف الجبال فيا لَه موقفاً كريمًا، ومشهدًا عظيمًا، ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحماه، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه.

وكانت وقفتي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين(230)، وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار (230) نائب الملك الناصر، وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر، وهي زوجة أبى بكر بن أرغون المذكور، وحجّت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخونْدة، وهي بنت السلطان المعظم محمد أوزبك ملك السَرا وخوارزم، وأمير الركب الشامي سيف الدين الجُوبان (232). 400/1

ولما وقع النفْر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعًا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى مِنى بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام، ومزدلفة كلُّها موقف إلا وادي مُحسِّرٍ ففيه تقع الهَرْوَلَة حتى يخرج عنه.

ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار، وذلك مستحب، ومنهم من يلقطها

(229) يلاحظ أن كلمة (قبليه) سبق قلم وإنما هي غربيّ بسيط عرفات ...

(230) كانت وقفتي في حجتي الأولى يوم الاثنين 9 ذي الحجة 1378 = 15 يونيه 1959 وقد صادفت ذكرى ميلادي الثامنة والثلاثين... وقد سجلت في مذكراتي وقْتها التّنويه بدقة النظام الذي ضبط تحرك تلك الأمواج البشرية الهائلة على اختلاف شرائحها الاجتماعية... ومن لايشكر الناس لايشكر الله ! يراجع التعليق رقم 119.

(231) سلطان مغولي كان يحكم جنوب الروسيا 712-742=1312-1341. وقد تزوج الملك الناصر بابنته تولونبگ Tulunbeg عام 720=1320 لكنها طلقت بعد ثمان سنوات ..

(232) القصد إلى جوبان المنصوري المتوفى بدمشق عام 728=1328 (الدرر 2، 78، 79)

حـول مسـجد الخـيف (233)، والأمـر في ذلك واسع، ولما انـتهى الناس إلى منى بـادروا لرمي
401/1 جمـرة العقـبة، ثم نـحروا وذبحـوا، ثم حلقـوا وحلّوا من كل شيء إلا النسـاء والطيب حتـى
يطوفـوا طواف الإفـاضـة، ورَمـيُ هذه الجمـرة عند طلوع الشـمس من يوم النحـر، ولما رمـوها
توجـه أكـثـر الناس بعـد أن ذبحـوا وحلقـوا إلى طواف الإفـاضــة، ومنهم من أقـام إلى اليـوم
الثـاني، وفي اليـوم الثـاني رَمَـى الناس عند زوال الشـمس بالجَـمْرة الأولى سـبعـة حصـيات،
وبالوسطى كذلك، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين إقتداءً بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم،
ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة، شرَّفها الله بعد أن كمل لهم رمْي تسع
وأربعين حصاةً، وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة.

ذكر كسوة الكعبة

402/1 وفي يوم النَّحـر بُعـثت كـسـوة الكعـبـة الشـريفـة من الركب المصـري إلى البـيت
الكريم،فوضعت فـي سطحه، فلما كان اليوم الثـالث بعد يوم النحر أخذ الشَّيبيون في إسبالها
على الكعبة الشريفة، وهـي كسوة سوداء حـالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز
مكتوب فـيه بالبيـاض : جعل الله الكعبـة البيت الحرام قيامًا الآية، وفي سـائر جـهاتها طُرُزٌ
مكتوبة بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها.

ولما كُسيت شمّرت أذيالها صونًا عن أيدي الناس، والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة
الكعبـة الكريمة ويبـعث مرتبـات القاضـي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفـراشين والقومـة ومـا
يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كلِّ سنة.

403/1 وفي هذه الأيام تُفتح الكعبة الشريفة كلَّ يوم للعراقيين والخُراسانيين وسواهم ممن
يصل مع الركب العراقي، وهـم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين : الشامي والمصري أربعة أيام،
فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً فمن لقوه
في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضَّة والثياب، وكذلك يُعطون للمشاهدين الكعبة
الشريفة، وربما وجـدوا إنسـانًا نائمًا فـجعلوا في فيـه الذهب والفضـة حتى يفيق! ولما قدمت
معهم من العراق سنة ثمان وعشرين (234) فعلوا من ذلك كثيرًا، وأكثروا الصدقة حتى رخص
سوم الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهـم (235) نُقرة لكثرة ما تصدَّقُوا
404/1 به من الذهب.

(233) الجمرات علَم جغرافي على مواقع معروفة – يذكر الهروي أن قبر آدم بمسجد الخيف

(234) الصواب سبع وعشرون – 1337 كما سياتي.

(235) كان الصرف العادي للمثقال عشرين درهما.

وفي هذه السنة ذكر إسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبّة زمزم.

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفي الموفى عشرين لذى الحجة (236) خرجتُ عن مكة صحبة ،مير ركب العراق البهلوان (237) محمد الحويح بحاعين مهملين، وهو من أهل الموصل، وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قَلَندر، وكان شهاب الدين سخيًا فاضلاً عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبَيْه على طريقة القلندرية، ولما خرجت من مكة، شرّفها الله تعالى، في صحبة الأمير البهلوان المذكور إكترى لي شقّة محارة (238) إلى بغداد، ودفع إجارتها من ماله ، وأنزلني في جواره.

وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مَرّ في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم لا يُحصى عديدهم، تموج بهم 405/1 الأرض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم، فمن خرج عن الركب لحاجةٍ، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه، ضلّ عنه لكثرة الناس.

وفي هذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء وجمالٌ لرفع الزاد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه المرض، وإذا نزل الركب طُبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدُسوت، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه.

وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه (239).

(236) هذا التاريخ يوافق 17 نونبر 1326.

(237) كلمة (البَهْلَوان) من أصل فارسي وتعني في الأصل البطل المغوار – عن القلندرية راجع ابن بطوطة وهو يتحدث عن دمياط I، 61... وراجع دائرة المعارف الإسلامية

(238) المحارة تعني الهودج المزدوج، والشقة : الجانب أو القِسْم من المحارة وهو من التّعابير الغريبة في الرحلة يعنى خصص له نصفا من محفّة تسع نفرين وقد ترجمها كيب The Half of double litter وترجمها الاثنان D.S. : "la moitier d'une double litiere"

(239) هذه معلومة تستحق أن نقف عندها لنعرف عن إسهام القادة المسلمين في توفير الحماية الطبية للقوافل التي يتألف منها الحجاج بصرف النظر عن جنسياتهم وانتسابهم لأية جهة ! فها نحن نرى أن المطايا تحمل الزاد و الدواء وذلك على نفقة السلطان أبي سعيد بها دورخان بن محمد خُذَا بَنْدَه سلطان العراق مما يشبه اليوم مانسمّيه بالمستشفيات المتنقلة...

406/1 قال ابن جزي : كرّم الله هذه الكنية الشريفة، فما أعجب أمرها في الكرم ! وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في النداء والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار، والآخذ للإسلام بالثأر، أمير المسلمين أبي يوسف، قدس الله أرواحهم الكريمة، وأبقى الملك في عقبهم الطاهر إلى يوم الدين (240).

رجع، وفي هذا الرّكب الأسواق الحافلة، والمرافق العظيمة، وأنواع الأطعمة والفواكه، وهم يسيرون باللّيل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات، فترى الأرض تتلألأ نورًا والليلَ قد عاد نهارًا ساطعًا، ثم رحلنا من بطن مرّ إلى عسفان، ثم إلى خليص، ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادي السمك، ثم رحلنا خمسا ونزلنا في بدر، وهذه المراحل اثنتان في اليوم 407/1 : إحداهما بعد الصبح والأخرى بالعشي، ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصّفراء وأقمنا بها يومًا مستريحين، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث، ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيةً وأقمنا بالمدينة، كرمها الله تعالى، ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث، ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسْيان يحفرون عليها في الأرض فينبطون ماء عذبا مَعينا.

ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الأرض مدَّ البصر فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعُسيلة (241). ثم رحلنا عنه 408/1 ونزلنا ماءً يعرف بالنقرة (242) فيه آثارُ مصانع كالصّهاريج العظيمة، ثم رحلنا إلى ماءٍ يعرف بالقارورة (243)، وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زُبيدة ابنة جعفر، رحمها الله ونفعها، وهذا الموضع هو وسط أرض نجد، فسيح طيّب النسيم صحيح الهواء نقي التّربة معتدل في كل فصل، ثم رحلنا من القارورة، ونزلنا بالحاجر، وفيه مصانع للماء

(240) علّق فانسان مُونطي سامحه الله على ابن جُزي أنه تصيَّد الفرصة عندما جرى ذكر السلطان أبي سعيد (المشرقي) ليُكيل المدح والثناء للسلطان أبي سعيد (المغربي) تملّقًا لحفيده أبي عنان !!

(241) لم نتمكّن من تحديد مكان وادي العروس اما العُسيلة فتقع على بعد 125 كيلوميتر من المدينة المنورة..

(242) موقع لمنجم قديم وهو على بعد 26 ميلا غرب من العسيلة، و ظهر على خريطة حديثة تحت إسم نُقْرة وقد تحدث ابن جبير هنا ص 126 عن "ابار ومصانع كالصهاريج العظام ...

(243) هكذا يرسمها ابن بطوطة تقليداً لابن جبير، ويرسم اليوم هكذا القَرَوْرَى وهو على بعد 12 ميلا غربًا من المرحلة القابلة : الحاجر. أسعد سليمان عبده : فهرس كتاب صحح الأخبار.

وربما جفَّت فحفر عن الماء في الجفار (244). ثم رحلنا ونزلنا سميرة (245)، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون، وماؤها كثير في آبار إلا أنه زُعاق ويأتي عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام، ولا يبيعون بسوى ذلك، ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المَخْروق (246)، وهو في بيْداء من ‖ الأرض وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الرِّيح، ثم رحلْنا منه إلى وادي الكروش، ولا ماء به، ثم أسْرينا ليلاً وصبَّحنا حصن فَيْد (247)، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور، وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاجِّ في البيع والتجارة، وهنالك يترك الحجَّاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى، فإذا عادوا وجدوه، وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثنَيْ عشر يومًا في طريق سهلٍ به المياه في المصانع.

409/1

ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئةٍ وأهبة للحرب إرهابًا للعرب المجتمعين هنالك وقطعاً لأطعامهم عن الركب.

وهنالك لقينا أميريْ العرب وهما ‖ فياض وحيار واسمه بكسر الحاء واهمالها وياء آخر الحروف وهما أبناء الأمير مُهنَّا بن عيسى (248) ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة، فظهر منهما المحافظة على الحاج والرّحال والحَوطة لهم، وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه.

410/1

---

(244) الجفار جمع جفرة : الأرض المتسعة.

(245) هي سميراء الحالية على بعد نحو ثلاثة وعشرين ميلا غربا : أربعين كيلو مترا شمال شرقي الحاجر...

(246) يقع الجبل المخروق على بعد أربعين كيلومترا جنوب غرب حصن فَيْد الآتي مباشرة.

(247) فيد : يقع على الخط 27°08 شمالا وخط 28 .°42 شرقًا.

مفترق طرق هام قديم لقافلة الحجاج، ويقول ياقوت : "فيد في نصف طريق مكة من الكوفة، يودع فيها الحجاج أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها". وقد عوض في القرن الثالث عشر الهجري بالحائل (HA il)

(248) ذكر ابن بطوطة هنا ثلاث شخصيات هامة في تاريخ المنطقة السياسي والاجتماعي أولا فياض بن مهنا الذي ولي الامارة من قبل الملك الناصر ... وهو الذي وقعت بينه وبين عمه سيف بن مهنا بن فهد وقعة بنواحي حلب انتصر فيها فياض عام 740 . مات بالعراق عام 761 = 1360 (الدرر 3، 117) وأما حيار بن مهنا فقد كان بدوره أمير العرب ... قدم إلى مصر عام 747 في سلطنة الكامل شعبان ... كانت وفاته عام 776 = 1375 (الدرر 2، 189) وحول مهنا والدهما الذي سبقت ترجمته عند الحديث عن بلادالشام I، 169 تعليق 130 فيمكن أن تراجع ترجمته كذلك في الدرر ج 5، ص - 139 - 140 .138

ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف بالأجْفُر (249) ويشتهر باسم العاشقيْن : جميل وبُثينة (250)، ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زَرُود (251)، وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة، وبه دور صغار قد أداروها شبه الحصن، وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة، ثم رحلنا ونزلنا الثعْلبية (252)، ولها حصن خَرِب بازائه مصنع هائل يُنزل إليه في درج، وبه من ماء المطر ما يعم الركب، ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمعٌ عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن، ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل (253)، ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مرَّ به رجمه، ويذكر أن هذا المرجوم كان رافضيًا فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين أهل السُّنة من الأتراك مشاجرةٌ فسب بعضَ الصحابة فقتلوه بالحجارة، وبهذا الموضع بيوتٌ كثيرة للعرب، ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك، وبه مصنع (254) كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة، رحمة الله عليها، وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرًا، ووفّى لها أجرها... ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد.

411/1

412/1

---

(249) حاليا يعرف بالأجفُر، وقد كان المكان في تلك الفترة آهلاً بالسكان، والأجفر جمع جفر وهو البئر الواسعة، على بعد 28 ميلاً غربيا من فَيْد، وحسب ابن رسته فانه كان به مسجد جامع للصلاة.

(250) كان الشاعر جميل – وهو من قبيلة عذرة – هو الذي انشأ نوعًا من الشعر الرومانتيكي المعروف تحت إسم الشعر العذري، أغلبه كان موجها إلى حبيبته بثينة...

(251) زَرُود يوجد على بعد ثلاثين كيلو متراً من الأجفر، ويسمى أيضا الخزيمية نسبة إلى خزيمة بن خازم التميمي 203 - 819 وقد قام هذا القائد الكبير بانشاء آبار في هذه المحطة، على بعد 20 ميلا غربا من الأجفر، وهي على الخط 54°26 شمالاً وخط 16°43 شرقا حوالي 75 ميلاً انجليزيًا شمال شرقي فَيد على خط مستقيم.

(252) تقع الثعلبية على بعد ستين كيلوميترا من زَرود وبها شبه حصن، انظر ابن جبير ص 164.

(253) هنا أيضا وقعت إساءة قراءة لنص ابن جبير الذي يقول : "وبقي من هذا الموضع (يعني الثعلبية) إلى الكوفة من المناهل التي تعمّ جميع المحلة ثلاثة أحدها زبالة، والثاني واقصة، والثالث منهل من ماء الفرات على مقربة من الكوفة، وبين هذه المناهل مياه موجودة لكنها لاتعم ... محرر الرحلة اختصر هذا الكلام ليعوض كلمة "المناهل" بكلمة المراحل وهذا غير دقيق ... وبعد هذا تحدث ابن جبير عن القتال الشديد على الماء في محطة الثعلبية الذي أودى بسبعة رجال ...

(254) حول المرجوم يلاحظ أن الحكاية أخذت من رحلة ابن جبير هذا وحسب ما عند ابن رسته والهمداني فإن المحطة التي تقع بين الثعلبية وبين المشقوق هي البطانية أو البطان على بعد 28 ميلا غربا من الثعلبية.

ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالمشقوق (255) فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزوّدوا منهما، ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالتَّنانير (256) وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسْرينا منه واجتزنا ضحوة بزُمَّالة (257) وهي قرية معمورة بها قصرٌ للعَرب ومصنعان للماء وأبارٌ كثيرة، وهي من مناهل هذا الطريق، ثم رحلنا فنزلنا الهَيْثَمَيْن (258)، وفيه مصنعان للماء ثم رحلْنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان (259)، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني، وليس بهذا الطريق وعْرٌ سواها على أنها ليست بصعبة ولا طائلةٍ، ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة (260) فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب، وهو آخر مناهل هذا الطريق.

413/1

وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور إلا مشارع ماء الفرات، وبه يتلقَّى كثير من أهل الكوفة الحاجَّ ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه، ويهنئ الناس بعضهم بعضًا بالسلامة، ثم نزلنا موضعا يعرف بلُورة (261)، فيه مصنعُ كبير للماء، ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد (262) فيه ثلاث مصانع، ثم نزلنا موضعًا يعرف بمنارة القُرون (263)، وهي منارة في بيداء من الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغِزلان، ولا عمارة حولها، ثم نزلنا موضعا

---

(255) يسميه ابن جبير الشقوق، ويذكر ابن رسته والهمْداني أن الشقوق على مسافة 22 ميلا غربا من البطانية.

(256) التنانير جمع تنور الموقد ، ربّما أخذ اسمه من المواقد لارتفاع حرارته.

(257) زمالة لعلها زُبالة على بعد 19 ميلا غربا من الشقوق على خط 45-°43 شرقا و 26°19 شمالا.

(258) يعطي ابن رسته والهمداني لهذه المحطة اسم قاع في الخريطة الحالية، تقع على الخط 40-°43 شرقا وخط 46°29 شمالا – 25 ميلا عربيا من زبالة – أنظر خريطة المملكة العربية السعودية.

(259) تقع عقبة الشيطان على بعد أربعين كيلو مترًا من المرحلة السابقة على الخط 11°30 شمالا وخط 62 °43 شرقا.

(260) كانت (واقصة) مركزا هاما في القرون الأولى، وهي تقع على الخط '43°43 شرقا و خط 35°30 شمالا. وهي اليوم ضمن خريطة الجمهورية العراقية.

(261) لورة، على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا شمال شرقي واقصة غرب المنطقة الجميلة التي تحمل اسم الأهوار التي كانت آخر زيارة لي لها يوم 198/11/6. انظر II، 2، ت 21.

(262) يتحدث ابن جبير هنا عن "موضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء وفيه مصنع ماء وله ستة مخازن وهي صهاريج صغار تؤدي إلي المصانع، وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها هذا ويلاحظ دائما أن ابن بطوطة كان يسير بدقة على خُطى ابن جبير ...

(263) وصف لمنارة القرون. مأخوذ من ابن جبير الذي يحتوي على أخبار أكثر دقة عن هذه الصومعة المجللة كلها بقرون الغزلان ولولا ضعف سند تلك الأخبار لا ثبتناها يقول ابن جبير . وتقع القرون على بعد 26 ميلا انجليزيا من المساجد.

يُعرف بالعُذيب (264) وهو وادٍ مخصب عليه عمارةٌ، وحوله فلاة خَصِبة فيها مسرح للبَصَر.

ثم نزلنا القادسية (265) حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام ﷺ وأذل المجوس عَبَدة النار، فلم تقم لهم بعدها قائمة، واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكانت القادسية مدينة عظيمة إفتتحها سعد رضي الله عنه وخرِبت فلم يبق منها الآن إلا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل، وبها مشارع من ماء الفرات.

414/1



معركة القادسية كما تصورها أحدهم

---

(264) العُذَيْب مركز ماء بين القادسية والمغيثة هو حد العراق في العصر الوسيط وكان من منازل حاج الكوفة، ويذكر ياقوت أنها كانت مسلحة الفرس بينها وبين القادسية حائطان متصلان، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. فمن ذلك قول عبد الله بن الحارث شاعر بني عباد.

(265) يوم بُحزْوَى ويوم بالعَقيق ويوْ * مٌ بالعُذيب ويومٌ بالخُلَيْصاء !! كانت القادسية موقعاً للمعركة الشهيرة التي انتصرفيها الإسلام عام 15 =637 تحت قيادة سعد بن أبي وقاص وخلافاً لما قاله ابن بطوطة فإن القادسية لم تكن اطلاقا مدينة عظيمة ويظهر حسب فقرته الأخيرة أن القادسية التبست عليه بالمدائن حيث يوجد الآن طاق كسرى وقبر سلْمان الفارسي على ما أسلفناه.

الفصل الخامس

العراق وفارس

(عراق العرب وعراق العجم)

- النَّجَف الأشرف
- من النَّجَف إلى البصرة حيث سيبتدئ المجلد الثاني من السفر الأول
- من البصرة إلى إصفهان
- مدينة إصفهان والخروج إلى شيراز
- مدينة شيراز
- من شيراز إلى بغداد
- مدينة بغداد
- رحلةٌ إلى تِبريز عاصمة سلْطنة عراق العرب والعجم
- حجَّة أخرى ومجاورته ثم حجّه مرة ثالثة.

خريطة العراق وفارس

مدينة النَّجف

ثم رحلنا منها [أي القادسية] فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه (1) بالنَّجَف، وهي مدينةٌ حسنة في أرضٍ فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسًا وأتقنها بناءً، ولها أسواق حسنة نظيفة، دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقيسارية، ثم سوق العطارين ثم باب الحضْرة حيث ‖ القبر الذي يزعمون (2) أنه قبر عليّ عليه السلام، وبإزائه المدارس والزوايا والخَوَانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني (3)، وهو شبه الزّليج عندنا، لكن لونه أشرق ونقشه أحسن.

415/1

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويُدخل من باب الحضرة إلى مدرسةٍ عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ولكل واردٍ عليها ضيافةُ ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم، ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة وعلى بابها الحُجَّاب والنقباء والطواشية (4)، فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم، وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له، ويقولون : عن أمركم يا أمير المومنين ‖ هذا العبد الضّعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية، فإن أذنتم له وإلاّ رجع ! وان لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهل المكارم والسّتر ! ثم يأمرونه بتقبيل العتبة، وهي من الفضة وكذلك العضادتان، ثم يدخل القبَّة، وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة، منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مصطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفاح الذهب المنقوشة المحكمة مسمَّرة بمسامير الفضة، قد

416/1

(1) علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين وابن عم النبي وصهره، ولي الخلافة بعد مصرع عثمان سنة 35 هجرية، فنقل العاصمة من مدينة الرسول عليه الصلاة إلى مدينة الكوفة العراقية التي تقع شمالا على بعد مئات الأميال، وحدث أن قامت حركة تطالب بالقبض على قتلة عثمان وامام تباطؤه تزعمت عائشة مناهضة الامام علي فكانت وقعة الجمل عام 36 التي ضاع فيها آلاف الناس ثم وقعة صفين 37 التي شنت في أعقاب عزل معاوية من ولاية الشام..وكان ما كان من اختلاف كلمة المسلمين... إلى أن قتله بالكوفة دار خلافته عبد الرحمن بن مُلْجَم 40 = 661... و النجف تقع بظاهر الكوفة، وبها قبر أمير المؤمنين الذي كنا نتردد عليه أثناء مقامنا بالعراق.

(2) تعبير ابن بطوطة "بالزعم" لأن المصادر التاريخية ليست على كلمة سواء حول الموضوع...

(3) القاشاني نسبة إلى قاشان، مدينة في إيران بين إصفهان وقُم، شهيرة بأنها مركز لصنع الفخار الملوّن بالأزرق والأخضر. وتُوازي هذه الكلمة باللهجة المغربية كلمةَ الزلّيج التي وردتْنا عن الإسبانية (Azulejo) المأخوذة بدورها من الفارسية لأزْوَرْد : (Lapis lazuli).

(4) الطواشية : الخصيان.

النجف الأشرف حيث مشهد الإمام علي مع شكرنا للسفارة العراقية بالرباط

غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور، يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر عليّ رضي الله عنه، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك، ويدهن به وجهه تبركًا.

417/1

وللقُبة باب آخر عتبته أيضا من الفضة وعليه ستور من الحرير الملوّن يفضي إلى مسجدٍ مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب، عتبتها فضة وعليها ستور الحرير، وأهل هذه المدينة كلهم رافضيّة.

وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبرَ عليٍّ رضي الله عنه، فمنها أن في ليلة السابع والعشرين من رجب، وتسمى عندهم ليلة المحْيا (5) يؤتى الى تلك الروضة بكل مقْعَد من العراقين وخرسان وبلاد فارس والروم فيجتمع الثلاثون والأربعون ونحو ذلك، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جُعلوا فوق الضريح المقدس، والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصلٍّ وذاكر وتال ومشاهد للروضة فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحّاء من غير سوء، وهم يقولون : لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليٌّ ولي الله (6).

418/1

وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات ولم أحضر تلك الليلة، لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثةً من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من إصبهان والثالث من خراسان وهم مقْعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فأخبروني أنهم لم يدركوا (ليلة المَحْيا) وأنهم منتظرون أوانها من عامٍ آخر، وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقًا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مُغرم ولا مَكّاسٌ ولا والٍ، وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف، وأهلها تجار، يسافرون في الأقطار، وهم أهل شجاعة وكرم، ولا يضام جارهم، صحبتُهم في الأسفار، فحمدتُ صحبتهم، لكنهم غلَوا في علي رضي الله عنه.

ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرًا إذا برئ ومنهم من يمرض رأسُه فيصنع رأسًا من ذهب أو فضة ويأتي به إلى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة، وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الأعضاء، وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرته.

(5) ليلة المَحْيا توازي الليلة المعروفة عند أهل السنة تحت إسم ليلة المعراج.

(6) علي وليُّ الله ... تعبير يستأثر به أهل التشيّع ومايزال الآذان إلى الآن على ذلك.

ذكر نقيب الأشراف

420/I ونقيب الأشراف مقدَّمٌ من ملك العراق ومكانه عنده مكين، ومنزلته رفيعة وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره، وله الأعلام والأطبال، وتضرب الطَّبْلخانة عند بابه مساءً وصباحًا، واليه حكم هذه المدينة ولا والي بها سواه، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره.

وكان النقيب في عهد دخولي إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوي (7) نسبة إلى بلده آوَه (8)، من عراق العجم، أهلها رافضة، وكان قبله جماعة يلي كل واحد منهم بعد صاحبه، منهم جلال الدين بن الفقيه، ومنهم قوام الدين بن طاؤوس، ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوْهَري من عراق العجم، وهو الآن بأرض الهند من نُدَماء ملكها، ومنهم 421/I أبو غُرَّة بن سالم بن مهنًّا بن جَمَّاز بن شيحة (9) الحسيني المدني.

حكاية الشريف أبي غُرَّة

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه في أول أمره العبادة، وتعلم العلم واشتهر بذلك، وكان ساكنًا بالمدينة الشريفة كرَّمها الله، في جوار ابن عمه منصور بن جمَّاز أمير المدينة، ثم أنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحِلة، فمات النقيب قوام الدين بن طاؤوس فاتفق أهل العراق علي تولية أبي غُرة نقابة الأشراف، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد فأمضاه ونفَّذَ له اليرليغ (10)، وهو الظهير، بذلك، وبعثت له الخلعة والأعلام والطبول

(7) لم نقف على ترجمة شافية لنظام الدّين حسين بن تاج الدّين الآوي ويفترض گيب أن يكون القصد إلى محمد بن الحسن الأوقي، هذا العالم الشيعي الذي كانت له صلة باعتناق الأمير الإيلْخاني أولجايتو للمذهب الشيعي ... وأنه اعدم في شهر ذي القعدة 711 = أبريل 1312 ... قلت : ولا أعلم صلة بين هذه الشخصية الأوقية والشخصية التي كانت السبب في تشيُّع الأمير الإيلْخاني...

(8) أوه بفتحتين قرية بن زَنجان وهمَدان، اليها ينتسب أيضا الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد بن يوسف الأوقي الذي لقيه ياقوت الحموي منقطعا للعبادة في المسجد الأقصى فسأله عن نسبه فقال : أنا من أوَه وقال لي السلفي الحافظ : ينبغي أن تزيد فيه قافا للنسبة فلذلك قيل لي الأوقي.

(9) تقدم الحديث عن الأشراف القتادات الحَسنيين أمراء مكة وكذلك أبناء عمهم الأشراف الحُسنيين أمراء المدينة يراجع كتاب (تاريخ أمراء البلد الحرام عبر عصور الإسلام). جمع عبد الفتاح رواه المكي، مكتبة المعارف الطائف 1986 - نشكر بالمناسبة الباحثة السعودية هالة التواتي... هذا وقد استمر جمّاز بن شيحة أميرًا على المدينة أكثر من نصف قرن - الدرر 2، 75 - 204 (أنظر ص 285 تعليق 77 وص 344 تعليق 185).

(10) الكلمة : (اليَرْليغ) من أصل تركي (مغولي) وقد وقفنا على استعمالها حتى في الوثائق الدبلوماسية المغربية أيام الدولة العلوية... ونجد ابن بطوطة هنا يعطيها اللفظ المقابل في الاصطلاح المغربي الأصيل: وهو الظهير بمعنى المرسوم الملكي، ويرسمها أحيانا صاحب صبح الأعشى بالباء عوض الياء - د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب - مصدر سابق ج 1 - 72... عادل خلف : معجم ألفاظ ابن بطوطة غير العربية ص 120.

422/I على عادة النُّقباء ببلاد العراق. فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد ‖ وتصرف في الأموال تصرفًا قبيحا فرفع أمره إلى السلطان، فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرًا أنه يريد خُراسان قاصدا زيارة قبْر علي بن موسى الرِّضَى (11) بطوس، وكان قصده الفرار.

فلما زار قبر علي بن موسى قدم هراة وهي آخر بلاد خراسان، وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خرسان إلى السند فلما جاز وادي السند المعروف ببنج آب، ضرب طُبُوله وأنفاره، فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتو للإغارة عليهم، وأجفلوا إلى المدينة المسمَّاة بأُوجَا، وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب في عساكره واستعدَّ للحرب وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرةٍ من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن
423/I ‖ صَحِب الشريف في طريقه، معهم الأطبال والأعلام، فسألوهم عن شأنهم، فأخبروهم أن الشريف نقيبَ العراق أتى وافدًا على ملك الهند فرجع الطلايع إلى الأمير. وأخبروه بكيفية الحال، فاستضْعف عقلَ الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده !

ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الأطبال على باب داره غدوة وعشية، وكان مولعا بذلك.

ويذكر أنه كان في أيام نقابته بالعراق تُضرب الأطبال على رأسه فإذا أمسك النقار عن الضرب، يقول له : زد نُقَيْرَة يا نقار ! حتى لقب لذلك.

وكتب صاحب مدينة أوجَا إلى ملك الهند بخبر الشريف وضربه الأطبال بالطريق وعلى
424/I باب داره غدوةً وعشياً ‖ ورفعه الأعلام، وعادة أهل الهند أن لا يَرفع علمًا ولا يَضرب طبلاً إلا من أعطاه الملك ذلك، ولا يفعله إلا في السفر وأما في حال الاقامة فلا يُضرب الطبل إلا على باب الملك خاصةً بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب الأمراء، فلما بلغ خبره إلى ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه.

ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك وكان الأمير كَشْلُوخان، والخان عندهم أعظم الأمراء، وهو الساكن بمُلْتان كرسي بلاد السند، وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالعمّ لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغْلُق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسروشاه،
425/I قد قدم على حضرة ملكة الهند ‖ فخرج الملك إلى لقائه، فاتفق أن كان وصول الشريف في

(11) ضريح الإمام عليُّ الرِّضى يوجد بمدينة مشهد... وهو الامام الثامن، على ما هو معروف، وهو مشهد عظيم، زرته لثاني مرة أوائل يونيه 1996 صحبة ولدي يسر فرأيت الفرق الشاسع ازاء زيارتي عام 1970 التي وصلت فيها قبر عمر الخيام - بنج أب وأوجا من مُلْتَانْ على نهر الهند وسياتي الحديث عنهما مفصّلا...

ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطبال فلم يرعه إلا السلطان في موكبه فتقدم الشريف إلى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله، وما الذي جاء به، فأخبره ومضى السلطان حتى لقى الأمير كشلُو خان، وعاد إلى حضرته ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره.

وكان الملك عازمًا على السّفر إلى مدينة دولة أباد، وتسمى أيضًا بالكَتَكَة بفتح الكافين والتاء المعلوة التي بينهما، وتسمى أيضا بالدَّوَيْجِر (12) وهي على مسيرة أربعين يومًا من مدينة دهلى حضرة الملك، فلما شرع في السفر بعث إلى الشريف بخمسماية دينار دراهم، 426/I وصرفها من ذهب المغرب ماية وخمسة ‖ وعشرون دينارا، وقال لرسوله اليه، قل له : إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زادُه، وان أراد السفر معنا فهي نفقته بالطريق، وإن أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع، فاغتمَّ الشريف لذلك وكان قصده أن يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله، واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير أحمد بن أياس المدعو بخواجه جِهَان، وبذلك سمَّاه الملك وبه يدعوه هو، وبه يدعوه سائر الناس، فإن من عادتهم أنه متى سمى الملك أحدًا باسم مضاف إلى الملك من عمادٍ، أو ثقةٍ، أو قطب، أو باسم مضاف إلى الجِهَان من صَدْر وغيره، فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس، ومن خاطبه بسِوَى ذلك لزمته 427/I العقوبة، فتأكدت ‖ المودة بين الوزير والشريف فأحسن إليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسُن فيه رأيُه، وأمر له بقريتين من قرى دولة أباد، وأمره أن تكون إقامته بها. وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء والاحسان إليهم، وفعل الخير وإطعام وعمارة الزوايا، فأقام الشريف يستغلّ القريتين ثمانية أعوام، وحصّل من ذلك مالاً عظيماً، ثم أراد الخروج فلم يمكنه فإنه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج إلا بإذنه، وهو محب في الغرباء فقليلاً ما يأذن لاحدهم في السراح فأراد الفرار من طريق الساحل فرُدَّ منه، وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية إنصرافه، فتلطف الوزير في ذلك حتى أذِنَ له السلطان في الخروج عن بلاد الهند وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم. وصرفُها من ذهب المغرب ألفان وخمسمائة دينار فأتى بها في بَدْرَة فجعلها تحت فراشه، ونام عليها لمحبته في الدنانير وفرحِهِ بها وخوفه أن يتصل لأحدٍ من أصحابه شيء منها فانه كان بخيلاً، فأصابه وجع في جنْبه بسبب رقاده عليها، ولم يزل يتزايد به وهو آخذٌ في حركة سفره إلى أن توفى بعد عشرين يومًا من وصول البدرة اليه، وأوصى بذلك المال للشريف حسن

(12) (Deoghir) الحصن القديم المعروف في (Deccan) والذي سُمّى دولة أباد من لدن السلطان محمد بن تُغلُق...

الحرّاني (13)، فتصدق بجملته على جماعةٍ من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق.

429/1 وأهل الهند لا يورِّثون بيت المال، ولا يتعرضون لمال الغرباء، ولا يسألون عنه، ولو بلغ ما عسى أن يبلغ، وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه، إنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه(14).

وهذا الشريف أبو غُرَّة(15)، له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة، وبها تزوج بنتَ الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكِّي، ثم انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى أن استشهد بوادي كُرَّة(16) من نظر الجزيرة الخضراء، وكان بُهْمَةً من البُهم لا يصطلى بناره، خرق المعتاد في الشجاعة، وله فيها أخبار شهيرة عند الناس، وترك ولدين هما في كفالة ربيبهما الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحُسَيني الكربلائي

430/1 الشهير ببلاد المغرب بالعراقي (17)، وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما فماتت عنده وهو محسن لهما جزاه الله خيرا.

---

(13) الحرّاني بالحاء،كما يوجد في مخطوطة الخزانة الملكية، ولم نجد له ترجمةً فيما نتوفر عليه من مصادر فهل القصد إلى الحسن الحلي ؟ درر 158،2 ؟

(14) أثار ابن بطوطة هنا مسألتين فقهيتين : الأولى : بيت المال الذي يعتبره المالكية عاصبا خلاف ما عند الهند. والثانية مال الأجانب الذي نجد الفقهاء يجعلونه لأهل دينه من كورته - يراجع باب الجهاد وباب التركة من مختصر الشيخ خليل...

(15) قصة أبي غرة سمع بها ابن بطوطة في الهند وليس في النجف هذا وانَّ - الفقرات التي أتى بها ابن بطوطة حول الشريف قاسم هنا تعتبر من الأهمية بمكان نظرًا لما تقدمه من معلومات هامة تتناول بعض الأعلام الشخصية والأسماء الجغرافية التي لو وجدنا ما يسندها لملأت فراغا في تاريخ علاقات أشراف الحرمَين بالأندلس والمغرب، ولملأت فراغًا فيما يتصل بالمعركة التي استشهد فيها قاسم الحُسَيني ولملأت فراغا فيما يتصل بصهر الشهيد قاسم الخ، ومع اننا لم نجد لحدّ الآن أثرًا لتلك الإفادات إلا أننا نؤمن دائما بمصداقية الرحالة المغربي - الدرر 2، 75-204 - راجع التعليق رقم 9 والتعليق 73 من الفصل السابق.

(16) وادي كرة : الكتابة الصحيحة للكلمة : وادي كرت، ويسمى أيضا وادي كورتش Guada cortes. وفي كورتش أقام عبد الملك الجد الأعلى لمحمد بن أبي عامر الشهير بالمنصور عندما قدم صحبة طارق بن زياد، وإليه ينتسب فتح حصن قرطاجنة، وقد ذكره محمد بن حسين في بعض أمداحه للمنصور :

وإنك من عبد المليك الذي له × حلى فتح قرطاجنة وانتهابها

ويجري هذا الوادي عبر باريوس Los Barrios حيث يصب في خليج الجزيرة الخضراء... زودني بهذه المعلومات الزميل الأستاذ خواكين فالفي عضو الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد. انظر ابن عذارى البيان المعرب II تحقيق كولان وبرفنصال أما عن الغزوة المشار إليها فيُعتبر ابن بطوطة هو المصدر الأساس لها ويمكن في نظري - أن تكون هي المشار إليها في الرسالة التي حررها ابن الخطيب على لسان مليكه... النفح 6 ص 375.

(17) تذكر المصادر المغربية أن أبا عبد الله هذا كان حيا عام 760=1359، زمن السلطان أبي سالم المريني المبايع في هذا التاريخ، ونحن نرى أن ابن بطوطة يتحدث عنه بقوله (جزاه الله خيرًا) مما يعني أنه معاصر له ويعرفه ... وقد وقفت على طرة في مخطوطة ابن بطوطة بباريز التي تحمل رقم 2288 نقلا عن خط الشيخ محمد المسناوي تقول ما يلي : "هذا السيد الشهير هو من أجداد الشرفاء العراقيين بفاس وهو أول من قدمها منهم حسبما يظهر من بعض رسوم شرفهم التي وقفنا عليها". وهذا ما نقلته مخطوطة "الإشراف على بعض من حل بفاس من مشاهير الأشراف" تأليف الشيخ الطالب ابن الحاج الذي نعلم أن مرسوم تعيينه قاضيا على فاس تلي على منبر جامع القرويين يوم الأربعاء 27 ذي القعدة 1272، الكتاني : السلوة ا، 157- التازي : تاريخ القرويين ج III 712 - التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7 ص 206 التعليق 13.

فهرس موضوعات المجلد الأول

فهرس الرسوم والصور في المجلد الأول

يضم هذا الكتاب أخبار رحلات ابن بطوطة المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار. وهذه الرحلات التي تبين أن ابن بطوطة برحلاته هذه إنما يمثل المواطن الإسلامي الذي طاف أرجاء العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري بدافع المغامرة والتجارة أو حب الرحلة المجرد، سيبقى دليلاً على وحدة الشعر الإسلامي أيامها في أمصار الإسلام المتعددة، حيث قدم من خلال رحلته هذه كثيراً من المعلومات التاريخية عن مناطق معروفة، ومناطق أخرى في الشرق الأقصى وفي بعض مجاهل أفريقيا، لم تكن معرفتها واسعة الانتشار إن لم تكن معدومة أحياناً. من هذا المنطلق يسعى المحقق إلى إبراز هذه الهدف من خلال كتابه هذا.

على مولا

ISBN 978-9933-407-05-6

9789933407056